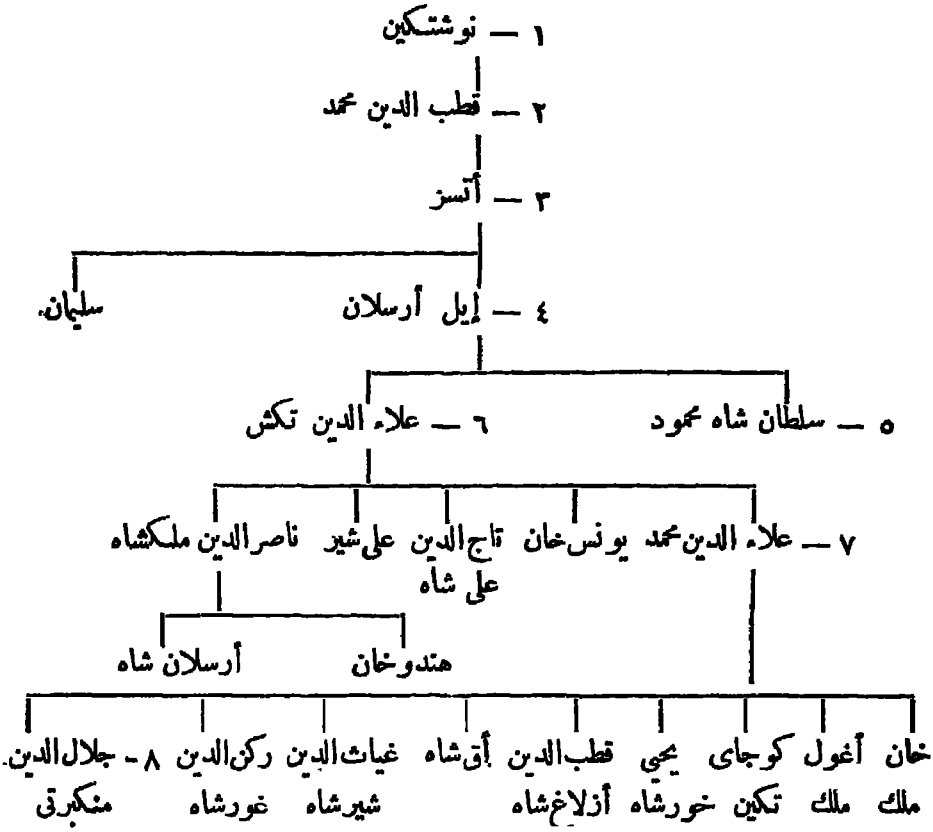
سيرة
السلطان جلال الدين منكبرتي
لمحمد بن أحمد النسوي

نشر وتحقيق
حافظ أحمد حمدي

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مقدّمة

شاهات خوارزم



قتلوا على ايدى المغول

١ — نوشتكين : ٤٧٠ — ٤٩٠هـ = ١٠٧٧ — ١٠٩٦م

٢ — قطب الدين محمد : ٤٩٠ — ٥٢١هـ = ١٠٩٦ — ١١٢٧م

٣ — أتسز : ٥٢١ — ٥٥١هـ = ١١٢٧ — ١١٥٦م

٤ — إيل أرسلان : ٥٥١ — ٥٦٨هـ = ١١٥٦ — ١١٧٢م

٥ — سلطان شاه محمود : عزل سنة ٥٦٨هـ = ١١٧٢م
وتوفى سنة ٥٨٩هـ = ١١٩٣م

٦ — علاء الدين تكش : ٥٦٨ — ٥٩٦هـ = ١١٧٢ — ١١٩٩م

٧ — علاء الدين محمد : ٥٩٦ — ٦١٧هـ = ١١٩٩ — ١٢١٩م

٨ — جلال الدين منكبرتى : ٦١٧ — ٦٢٨هـ = ١٢١٩ — ١٢٣١م

مقـــدمة

انبثق فجر القرن السابع الهجرى «الثالث عشر الميلادى» والشرق الإسلامى يستعد لاستقبال تلك الجيوش المغولية الجرارة التى اندفعت نحوه اندفاعاً من شمال آسيا الشرقى . وتلا الغزو المغولى الأول بقيادة جنكيزخان غزوات أخرى فى فترات متقاربة ومتباعدة كان لها أثرها القريب والبعيد من النواحى السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية . وكما كان الغزو المغولى الأول عنيفاً ، فقد كان سريعاً أيضاً ، وكان المغول مدفوعين بحماس المحاربين الواثقين من إحكام تنظيم جيوشهم ، كما كانوا مدفوعين بالرغبة فى الانتقام من ولاة الأمر فى البلاد الإســـلامية ، وفى الدولة الخوارزمية على وجه الخصوص . وإذا كنا نشك فى أن المغول فى أيام جنكيزخان كانوا يتطلعون إلى تكوين مجد سياسى فى البلاد الإسلامية بعد أن يتوج النصر جبينهم ، فالأمر الذى لا شك فيه مطلقا أنهم كانوا يسعون إلى كسب مادى يأتيهم من البلاد الإسلامية يعوضون به ما كانوا يعانونه من فقر فى وطنهم الأول .

ولم يكن من المؤكد أن ينتصر المغول على المسلمين لمجرد الرغبة فى الانتصار أو لمجرد تنظيم جيوشهم وإحكام تدريب رجالهم ، ولم يكن من المؤكد أيضا أن يغنم المغول ما غنموه من كسب مادى فى البلاد الإسلامية لمجرد الرغبة فى الحصول على هذا الكسب ، ولكن من المؤكد أنهم انتصروا على المسلمين وأحرزوا ما أحرزوه من نصر لما كان يقابل حماس المغول ، من ضعف ووهن وتردد بين صفوف المسلمين ، الساسة منهم والمحاربين ، ولما كان يقابل قوة الجيوش المغوليـــة التى أحكم تنظيمها وتجهيزها من ضعف ظاهر بين الجيوش الإسلامية التى كانت خليطا من قوى لا تجانس بينها . ولم يكن من

المؤكد كذلك أن ينتصر المغول على المسلمين وأن يحرزوا ما أحرزوه من نصر لولا ما كان يعانيه الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت من انحلال سياسى واضطراب اقتصادى وفوضى اجتماعية .

نشأت الدولة العباسية كما هو معروف نشأة فارسية، إذ انحرف العباسيون عن العنصر العربى إلى العنصر الفارسى ، ومن ثم أخذ هذا العنصر يتغلغل تدريجيا فى كل ناحية من نواحى الحياة فى الدولة حتى تمكن من أن يجمع بيده مقاليد الأمور فى عهد الرشيد(١) حين استبدت أسرة البرامكة بكل شىء. ولما رأى الرشيد نفسه مدى ما وصل إليه البرامكة من نفوذ وسلطان، انحرف فجأة عن هذه الأسرة فنكل بها كما هو معروف . على أن الخلفاء العباسيين بدلا من أن يعودوا إلى العنصر العربى ، سلموا مقاليد الأمور فى دولتهم إلى العنصر التركى ، فأخذ هذا العنصر بدوره يمكن لنفسه حتى تفاقم أمره فى عهد الخليفة المعتصم(٢) الذى ألقى بهؤلاء الأتراك فى ميدان السياسة ، ولما تفاقم أمرهم فى بغداد فى عهد المعتصم نفسه ، بنى لهم مدينة سامرا سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) وأسكنهم فيها(٣) .

ولما استفحل أمر الأتراك فى الدولة العباسية، استعان الخلفاء عليهم بالبويهيين الذين استولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥م) ، وكان الخلفاء فى ذلك كمن استجار من الرمضاء بالنار. ولا شك أن من يتتبع تاريخ العباسيين فى أيام البويهيين يجده عبارة عن سلسلة من المنازعات المستمرة إلا أن نتائجها كانت واحدة ، وهى الفوز للبويهيين والذلة للخلفاء . وكان البويهيون يضعون فى كرسى الخلافة من يأنسون فيه الضعف ويخلعون عن كرسى الخلافة من يحاول الخروج على طاعتهم ، ولم يكتف البويهيون بعزل الخلفاء ، بل كانوا يتعقبون المعزولين منهم بالقتل والتعذيب والتشريد .

---

(١) الرشيد ، أبو جعفر هارون بن المهدى : ١٧٠/١٩٣ هـ (٧٨٦/٨٠٩ م) .

(٢) المعتصم بالله ، أبو إسحق محمد بن الرشيد : ٢١٨/٢٢٧هـ (٨٣٣/٨٤٢ م) .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

ولم يكن حال الخلفاء العباسيين فى العصر السلجوقى [1] أحسن مما كان فى عصر البويهيين . فإذا كان البويهيون قد استبدوا بالسلطة وغلوا أيدى الخلفاء ، فإن هذه السلطة قد انتقلت برمتها إلى أيدى السلاجقة الذين فعلوا بالخلفاء مافعله الأتراك والبويهيون بهم من قبل . وليس أدل على ضعف الخلفاء فى هذا العصر من أنهم كانوا يعيشون من وراء ماتدره عليهم إقطاعاتهم المقررة [2] ، ولم يبق لهم من نفوذ سوى ذكر اسمهم فى الخطبة ونقشه على السكة . وقد أثر عن الخليفة المسترشد [3] أنه قال : فوّضنا أمورنا إلى آل سلجوق ، فبغوا علينا ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون [4] . ونلاحظ أيضا أن الخلفاء العباسيين كانوا فى عهد السلاجقة وفى عهد كل من الأتراك والبويهيين من قبلهم قد احتجبوا فى قصورهم عن الناس ، كما ركنوا إلى حياة الدعة ، وليس هناك من شك فى أن احتجاب الملوك عن رعيتهم لمن أقوى الأدلة على ضعفهم .

وليس معنى ماتقدم أن الخلفاء العباسيين فى العصر السلجوقى قد ركنوا إلى الذلة والاستكانة ، فالحقيقة أنهم أخذوا منذ أيام الخليفة المسترشد يثورون لكرامتهم منتهزين فرصة ما آل إليه السلاجقة من ضعف وحاولوا جاهدين استعادة سلطانهم . وعلى هذا النحو استمر الخلفاء العباسيون فى صراعهم مع السلاجقة حتى زال سلطانهم من العراق سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) بعد مقتل آخر سلاطينهم .

* * *

(١) دخل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) فى عهد طغرلبك بن ميكائيل ، وكان آخر سلاطين السلاجقة فى العراق هو طغرلبك بن أرسلان شاه الذى قتل سنة ٥٩٠هـ (١٠٩٣م) . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٥٠ ، وانظر أيضا ص ٤٩ حاشية ٣ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ الدولة الاتابكية — ملوك الموصل ، ص ٩١ — ٩٢ .

(٣) المسترشد بالله ، أبو منصور الفضل بن المستظهر : ٥١٢/٥٢٩ هـ (١١١٨/١١٣٥م) .

(٤) النظامى العروضى السمرقندى : چهار مقاله ، ترجمة الأستاذين عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ، ص ٣١ .

وتعتبر الفترة الواقعة بين دخول السلاجقة بغداد حتى وفاة السلطان ملكشاه[1] فترة تماسك وتساند بين أقاليم الشرق الإسلامي ، إذ استطاع السلاجقة أن يوحدوا بلاداً وأقاليم لم تكن بالأمس غير أجزاء متناثرة متعادية ، بصرف النظر عن مركز الخلافة العباسية نفسها ، كما عمد السلاجقة منذ حطوا رحالهم فى بغداد إلى أن يشبعوا نهمهم من التوسع فى الفتح ، وقد استطاع طغرلبك أن يمد نفوذه على بلاد الجزيرة وأرمينية ، واستطاع خلفه ألب أرسلان أن يزيد من هذا النفوذ فامتدت أملاك الدولة السلجوقية إلى بحر مرمرة ، وأخيراً تمكن ملكشاه من أن يخضع سوريا وجورجيا فى الغرب وبخارى وسمرقند فى الشرق . وهكذا نرى أنه إذا كان للسلاجقة أهمية فى التاريخ الإسلامى فهى أنهم تمكنوا من توحيد كلمة المسلمين فى أقاليم الشرق الإسلامى ، واستطاعوا بذلك أن يدفعوا البيزنطيين إلى الوراء ، كما أوجدوا جماعة من المحاربين المسلمين كانوا موضع خشية الصليبيين[2] .

على أن هذه القوة الإسلامية المتماسكة، سرعان ما بدأت فى الانهيار بعد وفاة ملكشاه آخر سلطان قوى من سلاطينهم لأسباب متعددة ، فإذا تركنا جانباً الكلام عن الصراع الذى نشب بين أبناء ملكشاه وأحفاده من جانب وبين الخلفاء العباسيين من جانب آخـــر ، وإذا تركنا جانباً الكلام عن الصراع بين الكتلتين الإسلامية والمسيحية ، إذا تركنا الكلام عن ذلك كله نجد أن هناك عوامل أخرى انبثقت من جوف الدولة وأخذت تعمل على إضعاف القوة السلجوقية نفسها وأهمها ذلك الصراع العنيف الذى قام بين أمراء السلاجقة ، كما نجد طائفة الاسماعيلية[3] التى كان رائدها تكوين صرح قوى على أشلاء القوى الإسلامية المتداعية، وأخيراً

---

(١) من سنة ٤٤٧/٤٨٥ هـ (١٠٥٥/١٠٩٢ م) .

(٢) Browne ; A Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 165

(٣) انظر ص ٥١ حاشية ١ .

نجد كيف أن اتساع النزعة إلى الاستقلال بين دول الأتابكة كان من أهم عوامل ذلك التفكك[1].

أورث ملكشاه أبناءه دولة موطدة الأركان، كما أورث الشرق الإسلامى أبناء تغلب على نفوسهم روح الطمع بدلا من أن تسودهم روح التساند والاتحاد، فأعمتهم المصلحة الشخصية وانشقوا على أنفسهم، وقادهم هذا كله إلى حروب وفتن داخلية صرفتهم عن النظر فى مصالح تلك الدولة التى استلزمت الكثير من الجهد فى تكوينها. فانشق أبناء ملكشاه على أنفسهم فى كل من فارس والعراق، وأخذ كل يسعى إلى جمع السلطة فى يده، كما برز تتش من بلاد الشام يسعى إلى مد نفوذه إلى ما خلفه أخوه ملكشاه من ملك، وهكذا استمر ذلك الصراع بين أبناء البيت السلجوقى وأدى هذا إلى تفكك القوى الإسلامية وانحلالها، مما ساعد على نجاح القوى الخارجية الطامعة فى اغتصاب ما تستطيع اغتصابه.

أما العامل الثانى الذى أودى بكيان الدولة السلجوقية فيرجع كما قلنا إلى طائفة الاسماعيلية. فقد أخذ الفاطميون يروجون للمذهب الشيعى فى بلاد المشرق منذ أن استتب لهم الأمر فى مصر، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إضعاف الخلافة العباسية إذا لم يتمكنوا من القضاء عليها. ثم حدث أن انقسم أنصار هذه الدعوة منذ أيام الخليفة المستنصر الفاطمى[2]، وتشيع فريق لابنه نزار، وتشيع فريق آخر لابنه المستعلى، واتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق مهدا لها بزعامة الحسن بن الصباح، أما الفرقة الثانية فقد ظل أتباعها فى مصر.

وقد استطاع الحسن بن الصباح[3] أن ينتهز فرصة ذلك الشقاق والانحلال الحادث فى جوف الشرق الإسلامى ليقوى بمذهبه، ولا يخفى

(١) انظر ص ٥٢ حاشية ٥.

(٢) المستنصر، أبو تميم معد: ٤٢٧/٤٨٧ هـ (١٠٣٥/١٠٩٤ م).

(٣) ٤٨٣/٥١٨ هـ (١٠٩٠/١١٢٤ م).

أن السياسة المرسومة لنجاح هذه الطائفة كانت تهدف إلى تقويتها على حساب الانقسام الذى حدث فى قلب الدولة سواء أكان ذلك الانقسام دينيا أم عنصريا . وكانت النتيجة أن أضاف الحسن بن الصباح إلى عوامل اضمحلال الشرق الإسلامى عاملا جديداً يفوق العوامل التى تحدثنا عنها قوة وعنفاً.

ويعتبر السلطان ألب أرسلان [1] السلجوقى مسئولا إلى حد كبير عن نجاح هذه الدعوة ، إذ أنه تسبب فى حجب أخبارهم عن الدولة بعد أن ألغى نظام البريد الذى كان سائدا فى الدولة الإسلامية ، فلم يتمكن السلاجقة من استقصاء الأخبار فى دولتهم . وكان لمدارس الدعوة الشيعية فى القاهرة أكبر الأثر فى نجاح الدعوة بفضل ما كانت ترسله من دعاة إلى بلاد فارس ، كما كان اضطهاد العباسيين لهم والتنكيل بمن يقع فى يدهم من هؤلاء سبباً فى تماسك هذه الفئة وتكاتفها ، شأنها فى ذلك شأن كل أقلية مضطهدة . وقد اتخذ الحسن بن الصباح من قلعة ألموت مركزاً لدعوته ، ومنها أخذ يرسل دعاته إلى سائر أقاليم الشرق الاسلامى ، كما عمل على الاستيلاء على كثير من القلاع فى قوهستان وخوزستان وغيرهما ، مستعملا اللين تارة والعنف تارة أخرى ، وفضلا عن ذلك فقد أكثر من بناء القلاع الحصينة فوق الجبال وأصبح يهدد البلاد الإسلامية فى غرب آسيا [2] .

والأمر الذى لا شك فيه أن الحسن بن الصباح كان يهدف إلى إسقاط الخلافة العباسية بطرق القتل والإرهاب وسفك الدماء فى كل ناحية من نواحى الشرق الإسلامى مستعينا فى ذلك بجماعة الفدائيين الذين اختارهم من الشبان المتحمسين [3] ، والذين كانوا لا يترددون فى التضحية بأرواحهم فى

---

(١) آرسلان لفظ تركى معناه أسد .

(٢) Bretschneider : Mediæval Researches, vol . i, p. 116

(٣) قسم الحسن بن الصباح أتباعه إلى سبع درجات رئيسية : داعى الدعاة ، كبار الدعاة ، الدعاة ، الرفاق ، اللاصقون ، الفدائيون ، المستجيبون . وكان لكل فئة من هؤلاء مهمتها الخاصة ، كما كان الحسن بن الصباح يعتمد فى نجاح دعوته على طبقة الفدائيين . انظر كتابنا : الشرق الاســـلامى قبيل الغزو المغولى، ص ٧٢ — ٧٤ .وانظر أيضا Sykes ; A History of Persia, p. 55

سبيل الاستجابة إلى ما يؤمرون به ، فنجحوا فى أن يوقعوا الرعب فى قلوب السكان الآمنين . وقد مهر الفدائيون فى فن التخفى واستعمال السلاح ، كما مهروا فى اللغات الأجنبية . وكانوا يقتلون المسلمين أيام الجمع فى المساجد ، كما كانوا يقتلون الأمراء المسيحيين فى الكنائس علنا [1] . ولعله من المهم أن نذكر فى هذا المقام أن شر طائفة الاسماعيلية لم يستفحل تماماً إلا بعد وفاة السلطان ملكشاه ، إذ انتهز زعماء الإسماعيلية فرصة ذلك الشقاق الذى دب فى جوف الدولة بين أفراد الأسرة السلجوقية ، ثم ذلك الصراع الذى قام بين السلاجقة وبين الخلافة العباسية وأخذوا يعملون لأنفسهم على حساب هؤلاء جميعاً ، ووصل الأمر بالسلاجقة إلى أنهم كانوا يوعزون إلى الإسماعيلية بقتل الخلفاء العباسيين [2].

أما ثالث العوامل التى أدت إلى انحلال الدولة السلجوقية وبالتالى إلى ضعف الشرق الإسلامى فكان نظام الأتابكة . فقد أكثر السلاجقة من الأتراك فى بلاطهم ، وأسندوا إليهم الوظائف الرئيسية فى قصورهم ، فإذا أظهر أحدهم كفاءة خاصة أو صفة ممتازة وصل إلى أعلى المراتب فى الجيش وفى البلاط ، أو عهد إليه بحكم إقليم من أقاليم الدولة . وكان السلاجقة كما ذكرت فى موضع آخر [3] يعهدون فى تربية أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك ، فإذا عين السلطان أحد أبنائه على مدينة من المدن ، ذهب معه هذا التركى ليكون عوناً له فى حكم الإقليم الذى أسند إليه .

---

(١) أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين ، ص ٥٢ . (طبعة R. H. O. C)
وانظر أيضا Browne : Op. cit., vol.ii, p. 209 .

(٢) لما دب الخلاف بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود ، أوعز الأخير الى الاسماعيلية بقتل الخليفة فقتلوه سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) ، ومثلوا به بأن قطعوا أنفه وأذنيه . ولما حاول الخليفة الراشد أن يثأر لمقتل أبيه قتلوه أيضا سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م). انظر الديار بكرى : تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ٣٦٢ . وانظر أيضا ابن الاثير : تاريخ الدولة الاتابكية، ص ٩٨.

(٣) انظر ص ٥٢ حاشية ٥ .

ولم يكن هناك من خوف على الدولة السلجوقية خاصة والشرق الإسلامى عامة من نظام الأتابكة، ما دام سلاطين السلاجقة من القوة بحيث يستطيعون فرض سيطرتهم ونفوذهم على من تسول له نفسه التفكير فى الاستقلال، وما دام فى الدولة جيش قوى تسيطر عليه قوة واحدة، ولكن الخوف كل الخوف أن يضعف سلاطين السلاجقة فتضعف دولتهم وينفرد كل حاكم من هؤلاء بحكم ما تحت يده. وعلى هذا الأساس فقد كان طبيعيا أن يستقل الأتابكة بالحكم بعد وفاة السلطان ملكشاه، كما كان طبيعياً أن يتسابق كل إلى توسيع رقعة البلاد التى تحت يده على حساب جاره، ولذلك قام الصراع بين هؤلاء الحكام، فى الوقت الذى قام فيه الصراع بين أفراد البيت السلجوقى، وأصبحت أقاليم الشرق الإسلامى على هذا الأساس مفككة الأوصال (١) لا تأتمر بإمرة حاكم واحد، كما كان طبيعياً أن ينتهز النهازون من أعداء الدولة فى الخارج هذه الفرصة ليعملوا على اقتطاع مايستطيعون اقتطاعه من أملاك الدولة الاسلامية.

* * *

كانت الأقاليم الشمالية الشرقية من القارة الأسيوية منذ عصور التاريخ الأولى المنبع الذى انبثقت منه الهجرات القبلية المتعددة إلى أقاليم آسيا المختلفة. وقد زخرت هذه الجهات من القارة الأسيوية بالقبائل الرحل التى كانت دائمة التنقل من مكان إلى آخر حسب ما تمليه عليها ظروفها الاقتصادية بوجه خاص. وعلى الرغم من تعدد القبائل المتنقلة فى هذه الجهات، فإن كل قبيلة من القبائل كانت تكوّن وحدة قائمة بذاتها أساسها وحدة الجنس

---

(١) الأتابكيات التى ظهرت على مسرح الشرق الإسلامى هى: دمشق، حلب، الجزيرة، الموصل، سنجار، إربل، دياربكر، أرمينية، أذربيجان، فارس، لورستان، كرمان. انظر كتابنا الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى، ص ٩١ — ١١٤.
وانظر أيضا كتابى Zambaur: Manuel de Généalogie et de Chronologie.
Lane — Poole : The Mohammadan Dynasties .

واللغة [1] . وكانت قبائل المغول التي نشأت في الهضبة المعروفة بهضبة منغوليا شمال صحراء جوبي من أهم وأبرز هذه القبائل . على أن هذه القبائل جميعها كانت في جملتها تعيش عيشة بربرية بحتة ، وتتوق إلى تعرف كنه الحضارات المجاورة لها ، ولا سيما حضارة الصين في الجنوب ، ولذلك كانت البلاد الصينية هدفا لغاراتهم بين وقت وآخر ، ولم يكن لهم من هدف واضح سوى سلب ما يمكن سلبه من خيرات تلك البلاد . ومن الثابت أن سور الصين القديم كان قد بناه أهل الجنوب دفعا لغارات القبائل الشمالية المتبربرة [2] .

وكانت القبائل المغولية في مستهل القرن السابع الهجري و الثالث عشر الميلادي ، تعيش في الأقاليم الواقعة بين بحيرة بيكال في الغرب وجبال كنجان على حدود منشوريا في الشرق ، وكان انحلالها السياسي واضطرابها الاجتماعي ينذران بضرورة ظهور زعيم قوي يستطيع أن يخضع هذه القبائل جميعها إلى سلطانه . وكان هذا الزعيم هو تموجين الذي استطاع بدهائه أن يجمع شمل القبائل المغولية المتفرقة ، وأن ينصب نفسه خاقاناً [3] عليها سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) ، ثم أبدل اسمه باسم جنكيزخان ، واختار مدينة قره قورم حاضرة للملك .

وبعد أن اعتلى جنكيزخان عرش المغول ، رسم لنفسه سياسة واضحة تهدف إلى التوسع في الأقاليم الجنوبية بقصد اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من البلاد الصينية ، والتوسع في الأقاليم الغربية بقصد تعقب بعض القبائل المغولية التي فرت من وجهه وأبت الرضوخ لسلطانه . وبينما هو يستعد لتوسيع ملكه ، أخضع شعبه لدستور اجتماعي متين البنيان ودستور حربي لا يقل

---

(١) Grenard : Gengis—Khan , p. 8

(٢) Little : The Far East, p. 184

(٣) انظر مدلول لفظ خاقان في ص ٣٨ حاشية ٤ .

عنه متانة وقوة . وقد نظم هذا كله القانون المعروف بالياساق [1] . ومع أن قانون الياساق مختصر وبسيط إلا أنه مبنى على الحزم والصرامة .

وبعد أن اطمأن جنكيزخان إلى استقرار الأمر فى داخل دولته ، سار إلى البلاد الشمالية من بلاد الصين وتمكن من إخضاعها ، كما اتجه إلى الانتقام من أعدائه الذين فروا من وجهه تجاه الغرب ، ومن ثم اصطدم بالقوى الإسلامية ولا سيما الدولة الخوارزمية التى كانت قد وصلت إلى أقصى اتساع لها فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه . وقد تمكن جنكيزخان من تخريب أقاليم هذه الدولة والتنكيل بسلطانها وجيوشها وسكانها فى مدة لا تزيد على أربع سنوات ، إذ بلغ حدودها سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) وشرع فى العودة إلى منغوليا سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) .

وكان غزو جنكيزخان للشرق الإسلامى عنيفاً كل العنف ، فقد خرب بجيوشه كل ماصادفه فى البلاد التى وطئتها أقدامه ، ونكل بالمسلمين وتفنن فى تعذيبهم بشتى الوسائل والأساليب حتى كان الغزو المغولى موضع حديث المؤرخين المسلمين ، المعاصرين منهم وغير المعاصرين ، كما تنم كتاباتهم عما كان يعانيه المسلمون فى ذلك الوقت من آلام . وقد صور ابن الأثير حال المسلمين فى ذلك الوقت أدق تصوير ، وكاد يقلع ، من جسامة الخطب ، عن الكتابة فى هذا الموضوع [2] .

---

(١) من أهم أحكام الياساق قتل الزانى ، وقتل التاجر الذى يخسر فى بضاعته بعد المرة الثالثة ، وقتل من يأوى أسرى الحرب دون إذن ، ومن يقصر فى معاونة زميله أثناء الحرب ، كما نص هذا القانون أيضا على احترام الفقراء والعلماء ورجال الدين على اختلاف أديانهم ، وساوى بين جميع أفراد الشعب ، وحرم عليهم منح الالقاب ، كما نظم الجيش والبريد ... الخ انظر المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٢) عبر ابن الأثير عن حوادث الغزو المغولى بقوله : لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لايجدى نفعا ... هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى =

ولم تخل كتابات السيوطى عن الغزو المغولى من التعليق بعبارات لاتفترق فى معانيها عن تلك التى قصدها ابن الأثير[1]. كذلك لم تخل كتابات المؤرخين والكتاب الأوربيين الذين عالجوا موضوع الغزو المغولى من التعليق على حوادث الغزو، فنرى سيكس Sykes[2] يرجع حب المغول للتخريب إلى طبيعتهم البدائية، بحيث أنهم كانوا إذا احتكوا ببلد من البلدان المتحضرة يندفعون إلى تدمير مايجدونه فيه من مظاهر الحضارة والمدنية بسبب خوفهم منها، ومن ذلك أنهم عندما احتكوا ببلاد الصين ولمسوا طرفاً من حضارتها، هاجموها وأحرقوا مدنها وقراها ونكلوا بالرجال والنساء والأطفال، بحيث لم يتركوا وراءهم بعد انتهاء فترة الغزو إلا بلدانا مخربة مكتظة بجثث القتلى، وماحدث فى بلاد الصين حدث أيضا فى المدن الإسلامية. كذلك نرى الكاتب هارولد لام Harold Lamb[3] يشبه قوة المغول البدائيـــة بالريح العاصفة والزلزال العالمى، إذ استطاعوا أن يصلوا إلى حدود آسيا الشرقية والغربية، وأن يعبروا السفوح الوعرة بعقل لايفترق عن عقل الحيوان الذى لايكترث لتعذيب البشر، الشره لكل جديد براق والذى يندفع اندفاع الأطفال الذين لايدركون معنى للمسئولية.

بهذه الروح البربرية الغاشمة، سار جنكيزخان لغزو البلاد الإسلامية

= والمصيبة الكبرى ... فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولا مايدانيها ... وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، لهذه الحادثة استطار شررها وعم ضررها، وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح. انظر ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ١٦٤ — ١٦٥.

(١) قال السيوطى عن غزو جنكيزخان للشرق الإسلامى مايلى: هو حديث يأكل الأحاديث، وخبر يطوى الأخبار، وتاريخ ينسى التواريخ، ونازلة تصغر كل نازلة، وفادحة تطبق الأرض وتملؤها مابين الطول والعرض. انظر السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٣١٠.

(٢) Sykes : Op. cit., pp. 55—56.

(٣) Harold Lamb : The Crusades, p. 337

سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ومن الخطأ أن نعتقد أنه سار إلى هذه البلاد على غير خطة رسمها لنفسه ، بل الواقع أن خططه ونظمه الحربية كانت من الأمور التي تسترعي نظر الباحثين . فقد أجهز أولا على كل بلاد ماوراء النهر ثم وزع أمر الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية المختلفة بين أبنائه وقواده . فبينما توجه جيش إلى إقليم خوارزم ، توجه جيش آخر إلى خراسان ، وتوجهت فرقة ثالثة إلى أقاليم العراق العجمي وأذربيجان وجورجيا ، وفي الوقت نفسه كان جنكيزخان يتم إذلال المدن الواقعة في أعالي نهري سيحون وجيحون ويمهد للاستيلاء على إقليم غزنة .

ركز جنكيزخان جهوده في بادىء الأمر في الاستيلاء على إقليم ماوراء النهر ورأى أن يأتي على هذا الإقليم دفعة واحدة ، فانقض عليه من جهات أربع ، وخصص لكل جهة فرقة معينة عهد بقيادتها إلى أبنائه وقواده أو اشترك فيها بنفسه [1] . وهكذا تمكن جنكيزخان من الإجهاز على إقليم ماوراء النهر برمته دفعة واحدة وهو الإقليم الذي اتخذه الخوارزميون مركزاً للدفاع عن دولتهم وركزوا فيه كل جيوشهم وجهودهم ، وبسقوطه لم يعد هناك حائل بين المغول وبين الاستيلاء على الأقاليم الباقية من الدولة الخوارزمية .

وبينما كان المغول يكتسحون إقليم ماوراء النهر كان علاء الدين محمد خوارزم شاه قد صمم على الابتعاد عن مسرح الحرب والسياسة معا بعد

---

(١) كانت أولى هذه الفرق تحت قيادة ابنيه جغتاى Tchagatai وأجتاى Ogotai وقد توجهت إلى مدينة أترار مفتاح إقليم ماوراء النهر . أما الفرقة الثانية فكانت تحت قيادة ابنه الأكبر جوجى Djoutchi وتوجهت إلى مدينة جند على نهر سيحون . أما الفرقة الثالثة فقد توجهت إلى مدينتي بنكت وخجندة وهما من أهم المنافذ الواقعة على نهر سيحون أيضا . وقد سار جنكيزخان نفسه ومعه ابنه تولوى Toulouï إلى مدينتي بخارى وسمرقند أهم وأكبر مدن ماوراء النهر .

انظر خريطة الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها ، وراجع كتاب D'ohsson : Histoire Des Mongols, t. I, pp. 217 — 219.

أن تسرب اليأس إلى نفسه وعول على الفرار من وجه المغول إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، ولم يشأ جنكيزخان أن يترك السلطان الخوارزمي الهارب وشأنه ، فأرسل في إثره فرقتين تتكون كل منهما من ألف مغولي ويقودهما اثنان من أمهر قواده[1]، أخذا يطاردان السلطان الخوارزمي وهو ينتقل من بلد إلى آخر حتى وصل آخر الأمر إلى إقليم مازندران في جنوبي بحر قزوين ، ثم التجأ إلى إحدى جزره، ولم يستطع المغول أن يلحقوا به . وأخيراً مات السلطان الخوارزمي في هذه الجزيرة بعد شهر من وصوله إليها ، أي سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ / ١٢٢١ م) . وكان المغول في هذه الفترة يستولون على كل ما يصل إلى أيديهم في أقاليم مازندران والعراق العجمي ويعملون النهب والتخريب والقتل والسبي في كل مكان يحلون فيه[2] ، كما عملوا بعد ذلك على الاستيلاء على أذربيجان وأران وجورجيا وخربوا مدنها ، وحملوا ما يستطيعون حمله من خيراتها ، وعبروا المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى بلاد القفجاق وروسيا وأوصلوا الرعب إلى قلب أوربا[3] .

وقد اتبع المغول طريقة عنيفة في الإجهاز على كل المدن الخوارزمية الأخرى سواء أكان ذلك في إقليم خوارزم نفسه الذي استولوا على حاضرته خوارزم بقيادة جوجي وجغتاي وأجتاي من أبناء جنكيزخان ، أم في خراسان الذي استولوا على أمهات مدنه وهي مرو ونيسابور وهراة وغيرها بقيادة تولوي بن جنكيزخان أيضاً ، أم في المدن الواقعة في أعالي نهر جيحون وإقليم غزنة الذي قاد فيه جنكيزخان الجيوش المغولية بنفسه[4] . ولسنا هنا في معرض سرد حوادث استيلاء المغول على هذه المدن

(١) جاشي Tchébé وسوبوتاي Souboutai

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج١٢ص١٧٠ و Bretschneider: Op. cit., vol. i, p. 288

(٣) D'ohsson : Op. cit., t. i, pp. 331 — 334

(٤) راجع كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١٣٦ — ١٦٤ .

الخوارزمية ، ولكن من المهم أن نذكر أن المغول اتبعوا سياسة واحدة نحو هذه المدن جميعاً ، وسياسة واحدة نحو سكانها أجمعين ، وترمى هذه السياسة إلى تخريب هذه المدن تماما وتركها أطلالا لا تجد من يبكيها . وأما سكانها فكان المغول لا يبقون منهم إلا على أصحاب الحرف والمهن ممن يلمسون فيهم بعض النفع ، سواء فى الاستيلاء على مدن إسلامية جديدة أم فى استخدامهم فى مآرب أخرى فى بلادهم الأصلية فى شرق آسيا .

وكانت خاتمة انتصارات جنكيزخان فى إقليم غزنة حيث عول جلال الدين منكبرتى[1] على مقاومة المغول والثأر لأبيه . وعلى الرغم مما كان يسود إقليم غزنة من فتن وقلاقل بسبب تباين سكانها المختلفى الأجناس وتنازع القواد الخوارزميين فيما بينهم وكثرة الطامعين فى حكم هذا الأقليم ، على الرغم من ذلك كله فقد استطاع جلال الدين منكبرتى أن يجمع جيشاً كبيرا سار به عام ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) لملاقاة المغول فى سهول بيروان فى الشمال الشرقى من مدينة غزنة حيث تمكن جلال الدين من أن ينتصر على المغول انتصارا مؤقتاً ، إذ سرعان ما انقسم الجيش الخوارزمى على نفسه ، ووجد جلال الدين أنه لم يعد فى استطاعته أن يواجه جنكيزخان الذى صمم على الانتقام من الخوارزميين ، لذلك رأى أن ينسحب إلى السهل الواقع غرب نهر السند وفى عزمه أن يعبر هذا النهر إلى بلاد الهند لعله يجد هناك ملجأ أميناً يدفع عنه خطر المغول . وقبل أن يتمكن جلال الدين من تنفيذ خطته ، استطاع جنكيزخان أن يوقع به هزيمة منكرة . على أنه تمكن من النجاة

---

(١) كتب بعض المستشرقين هذا الاسم خطأ «منكبرنى» ومن هؤلاء هامر پورجستال Hammer Purgstall ، وادوارد براون Edward Browne . أما لفظ «منكبرتى» فمعناه هبة السماء أو مبعوث السماء Heaven sent . انظر Vambery : History of Bokhara, p. 134, note 2 . ولعل هذا الخطأ الذى وقع فيه بعض المستشرقين يرجع ، كما يفهم مما قاله هوداس فى مقدمة الطبعة الفرنسية، إلى أن هذا الاسم كان مكتوبا « منكبرنى » فى النسخة الخطية المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس والتى رجع إليها هوداس . بل من المحتمل أن يكون هذا قد ورد فى النسخة الخطية الأصلية غير منقوط على الإطلاق .

بنفسه إلى بلاد الهند حيث تجمع حوله أربعة آلاف جندى خوارزمى ممن استطاعوا النجاة إلى بلاد الهند .

* * *

كان هدف الخوارزميين الأول بعد أن عبروا نهر السند إلى بلاد الهند أن يبحثوا لهم عن مأوى أمين يلجئون إليه بعد تلك الحرب التى عانوا ما عانوه من أهوالها ، وقد عاشوا فترة من الوقت مستعينين بما استطاعوا أن ينهبوه من البلاد التى حطوا رحالهم فيها . وكان جلال الدين منكبرتى فى هذه الفترة أيضا دائم التنقل من مدينة إلى أخرى ، وكثيراً ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل من هول ما أصاب دولته عامة ، وأصابه هو خاصة بعد موقعة السند .

أما عن المغول فى هـــذه الفترة فكانوا يعيثون فساداً فى إقليم غزنة وينعمون بثمرة انتصاراتهم ، متعمدين أن يذيقوا من بقى من الخوارزميين صنوفا مختلفة من العذاب . وأخيراً بعد أن اطمأن جنكيزخان إلى أنه قد وضع يده على أقاليم الدولة الخوارزمية جميعها ، وشرد وقتل أفراد الأسرة الخوارزمية أجمعين ، بعد ذلك كله شرع فى العودة إلى منغوليا فى ربيع عام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) .

وما أن رحل جنكيزخان إلى بلاده ، وابتعد الخطر المغولى عن أقاليم الشرق الإسلامى ، حتى عبر جلال الدين منكبرتى إلى الضفة الغربية من نهر السند سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) فى طريقه إلى بلاده ، مغذاً السير إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، مخترقا ذلك الاقليم الساحلى المجدب فى جنوب الدولة الخوارزمية ، ذلك الطريق الذى سلكه الاسكندر الأكبر من قبل ، وكان من نتيجة ذلك أن فقد عدداً كبيراً من رجاله الذين ماتوا من شدة الجوع والعطش وبسبب انتشار الأمراض بينهم[١] .

(١) D'ohsson : Op. cit., t. iii, p. 5

وقد استطاع جلال الدين بعد أن وصل إلى بلاده أن ينتزع السلطة من أخيه غياث الدين ، الذى انتهز فرصة فرار جلال الدين إلى بلاد الهند وأخذ يعمل لنفسه ، كما استطاع جلال الدين أن يبسط نفوذه على أقاليم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران وغيرها ، ثم ركز جهوده بعد ذلك فى توسيع نفوذه على حساب القوى المتعددة القائمة فى ذلك الوقت، وفى أن ينتقم من أعدائه القدامى الذين لم يناصروا أباه إبان الغزو المغولى، وكانت الخلافة العباسية فى طليعة من اتجه إليهم ، وإن كان الحظ لم يحالفه عندما حاول الاستيلاء على أملاكها سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) [١] ، ثم ساد السلام بين جلال الدين وبين الخلافة فى عهد الخليفة المستنصر العباسى [٢] ، وذلك بعد أن قبل جلال الدين ما عرضه عليه الخليفة عام ٦٢٦هـ (١٢٢٩ م) من عدم الاعتداء على الأمراء المسلمين من المقربين إليه ومنهم أميرا الموصل وإربل . وإقامة الخطبة له على منابر سائر بلاد الدولة الخوارزمية .

وثمة ناحية أخرى اتجه إليها جلال الدين بعد أن تربع على عرش أبيه ألا وهى توسيع نفوذه على حساب القوى فى شمال الدولة الخوارزمية ، ومن أهمها أذربيجان وجورجيا . وقد اتجه فعلا لتحقيق هذا الهدف سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥ م). وكانت الحالة الداخلية فى أذربيجان خير معوان للخوارزميين على السيطرة على هذا الإقليم . فإذا تركنا جانباً ما كان يعانيه هذا الإقليم من فوضى واضطراب ، نجد أن الأتابك أوزبك بن البهلوان حاكم هذا الإقليم كان رجلا مسناً ، منصرفاً إلى مجالس اللهو ، تاركا مقاليد الأمور فى دولته إلى زوجته لتصرف ما تستطيع تصريفه منها على قدر استطاعتها . وقد أدى هذا وغيره إلى سرعة سيطرة جلال الدين على إقليم أذربيجان بعد استيلائه على مدينة تبريز [٣] .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٥ .
(٢) ٦٢٣/٦٤٠ هـ (١٢٢٦/١٢٤٣ م) .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

وبعد أن أتم جلال الدين إخضاع أذربيجان توجه إلى الإجهاز على جورجيا ، وقد صمم منذ البداية على الاجهاز على هذا الاقليم والثأر من أهله الذين كان أكثرهم من المسيحيين ، وذلك عن طريق التخريب والقتل والسبي ، نظراً لما لاقاه المسلمون من التعذيب والتشريد ، منتهزين فرصة تلك المحن التي حلت بالشرق الاسلامى إبان الغزو المغولى . وقد تمكن جلال الدين فعلا من الانتصار على جيش جورجيا الذى كان أكثره من الجنود المرتزقة ، كما تمكن من الاستيلاء على مدينة تفليس حاضرة هذا الاقليم فى الثامن من ربيع الأول سنة ٦١٣ هـ (٩ مارس سنة ١٢٢٦ م) ، وقد ترك جلال الدين لجنوده العنان بعد أن استولى على هذه المدينة ، فأصبحت مرتعاً للسلب والنهب ، كما أصبح سكانها هدفاً للقتل والتشريد ، ولم يعف من هـذا وذاك إلا من اعتنق الاسلام ، وبذلك طبع الاقليم بالطابع الاسلامى إلى حين .(١) .

وهناك ناحية أخرى اتجهت إليها سياسة جلال الدين بعد أن تربع على عرش الدولة الخوارزمية ألا وهى طائفة الاسماعيلية ، فقد أثارت هـذه الطائفة كثيراً من المتاعب والصعاب فى وجه الدولة الخوارزميـة ، وكانت دون شك شوكة فى ظهر سلاطينهم . وإذا كانت هذه الطائفة قد أخـذت تعيث فى البلاد فساداً ، منتهزة فرصة تلك الفوضى التى حلت بأقاليم الشرق الاسلامى عقب الغزو المغولى ، فإنها بدأت تنكمش فى قلاعها بعـد عودة جلال الدين من الهند ، بل أخذت تتقرب إليه منـذ سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) بعد أن وجه ضربة حاسمة إلى قلاعها فى خراسان وغيرها (٢) على أنه لم يكن من المعقول أن تعمد طائفة الاسماعيلية إلى الاستكانة نهائياً

---

(١) Defremery : Fragments de Geographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits, pp. 486 — 487 . (J.A., Nov.— Déc., 1849)

(٢) ابن الأثير : الـكامل ، ج ١٢ ص ٢١٧ .

بل الواقع أنها أخذت تعمل جاهدة على أن تؤلب أعداء الخوارزميين عليهم، ومن الثابت أن المغول كانوا فى مقدمة من استحثهم قادة الاسماعيلية على إعادة غزو هذه الدولة (١) .

وكانت أول حرب مغولية منظمة وجهها المغـــول إلى أقاليم الدولة الخوارزمية فى عهد جلال الدين منكبرتى ، تلك التى حدثت فى عهد أجتاى Ogotai بن جنكيزخان (٢) سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م) حينما وجه هذا الخاقان جيشاً كبيراً إلى الدولة الخوارزمية يتكون من ثلاثين ألف مقاتل أسند قيادته إلى اثنين من أشهر قواده (٣) . ولم يهتم المغول فى هذه الفترة بشىء سوى مطاردة جلال الدين محاولين القبض عليه ، حتى إذا ماتم لهم ذلك اطمأنوا إلى إخضاع دولته فى سهولة ويسر ، ولذلك نجد تنقلات المغول فى البلاد الإسلامية مقيدة تماماً بتنقلات جلال الدين ، وأخيراً استطاع المغول أن يوقعوا الهزيمة بالسلطان الخوارزمى الهارب بالقرب من مدينة آمد فى أعالى نهر دجلة ، وقتلوا عدداً كبيراً من رجاله وأسروا عدداً آخر، أما الذين لم يقتلوا ولم يؤسروا ، فقد تفرقوا فى البلاد الإسلامية . وقد لجأ جلال الدين نفسه إلى جبال كردستان حيث قتله أحد الأكراد فى منتصف

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج١٢ ص ٢٣٠ .

(٢) اجتاى : ٦٢٦/٦٣٩هـ (١٢٢٩/١٢٤١م) .

(٣) انظر ص ٣٣٥ ، حاشية ١ . ومما هو جدير بالذكر أن هذه الحرب لم تكن أول حرب شنها المغول على أقاليم الدولة الخوارزمية منذ وفاة جنكيزخان ، بل الواقع أن المغول كانوا يوجهون من وقت لآخر جماعات منهم تخرج إلى البلاد الإسلامية فى حرب أشبه ما تكون بحرب العصابات . ففى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) وهى السنة التى توفى فيها جنكيزخان ، توغلت بعض فصائلهم فى البلاد الاسلامية حتى أصبحت على مقربة من مدينة الرى ، ولم تكن هذه الجماعة على شىء من القوة أو النظام فتمكن جلال الدين من القضاء عليها . وفى العام التالى توجهت قوة مغولية أخرى إلى البلاد الاسلامية ووصلت حتى مدينة اصفهان . وعلى الرغم من أن المغول استطاعوا فى هذه المرة أن يوقعوا الهزيمة بالسلطان الخوارزمى فإنهم عادوا مسرعين إلى بلاد ماوراء النهر . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج١٢ ص٢١٧ . وانظر أيضا D'ohsson : Op. cit., t. iii, p. 27

شوال سنة ٦٢٨هـ (١٥ أغسطس سنة ١٢٣١م). وهكذا كانت خاتمة آخر سلطان خوارزمى، وهكذا أيضاً وضع المغول أيديهم على أقاليم الدولة الخوارزمية، ولم يعد هناك من حائل يحول بينهم وبين غزو بغداد.

* * *

عالج تاريخ الغزو المغولى للبلاد الإسلامية عدد غير قليل من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين، منهم المعاصر، ومنهم من كتب عن هذه الحقبة التاريخية بعد فوات حوادث الغزو بفترات طويلة أو قصيرة، ولكل أهميته، ولكل قيمته التاريخية، وإن اختلفت وجهات نظر بعضهم عن البعض الآخر تبعاً لاختلاف أجناسهم وميولهم السياسية والدينية. كتب عن المغول والخوارزميين مؤرخون صينيون، وكتب عنهم مؤرخون من الفرس، وكتب عنهم مؤرخون من الترك، وكتب عنهم كذلك مؤرخون من العرب.

فمن الصينيين الذين تصدوا لتاريخ المغول فى الفترة التى نتحدث «يى لو شو تساى» Ye-lü Ch'u ts'ai وزير جنكيزخان ورفيقه فى حملته على غرب آسيا، فقد دوّن كتابا وصف فيه البلاد التى اخترقتها الجيوش المغولية وصفا أقل مايقال عنه إنه وصف شاهد عيان [1]. ومن الكتاب الصينيين كذلك شانج شون Ch'ang Ch'un ذلك الأسقف الذى صحب جنكيزخان فى بلاد الشرق الإسلامى، وقد دوّن أحد تلاميذه الذين كانوا فى رفقته مذكرات عن هذه الرحلة، يرجح أنه هو الذى أوعز بكتابتها [2]. والمهم أن هذه المذكرات قد احتوت وصفا للبلاد والمدن التى مر بها فى رحلته قبل الغزو المغولى وبعده.

---

(١) يعرف الكتاب الذى خلفه يى لو شوتساى باسم «سى يو لو Si Yu Lu» أى Account of a Journey to the West.

(٢) تعرف هذه المذكرات باسم «سى يو كى Si Yu Ki» أى Travels to the West of K'iu Ch'ang Ch'un. وأما تلميذه الذى كتبها فيسمى «لى شى شانج Li Chi Ch'ang».

ومن أبرز المؤرخين الذين كتبوا بالفارسية عن حوادث الغزو المغولى، علاء الدين عطا ملك الجوينى، وفضل الله رشيد الدين. أما الجوينى[1] فكان سليل أسرة فارسية عريقة، أستعان المغول بها فى حكم فارس بعد غزوات جنكيزخان. وفضلا عن ذلك فقد كان موضعا لثقة هولاكو، فولاه حكم العراق العربى، وظل فى هذا المنصب طيلة عهده وعهد ابنه أباقا خان. والجوينى الذى يؤرخ للمغول فى كتابه « جهانكشا » منذ أغاروا على البلاد الإسلامية حتى عصر منكوخان يعتبر حجة فيما كتب، ولن تكون هناك كتابة أحق بالاعتبار، والحذر فى نفس الوقت، من تلك التى يكتبها رجل يعيش فى كنف من يؤرخ لهم. أما فضل الله رشيد الدين[2] فقد عاش فى فارس وخدم أسرة إيلخانات ووزر لكل من غازان وأولجايتو. ويسد كتابه « جامع التواريخ » ما نقص من كتاب الجوينى.

وهناك مرجع آخر من المراجع التى عالجت تاريخ المغول ترجع أهميته إلى أن مؤلفه من سلالة خانات المغول أنفسهم، ألا وهو كتاب « شجرة تركى »، كتبه باللغة الجغتائية أبو الغازى بهادرخان أمير خيوة وأحد أحفاد جوجى بن جنكيزخان. ويؤرخ هذا الكتاب للأتراك والمغول منذ نشأتهم حتى القرن الحادى عشر الهجرى « السابع عشر الميلادى »[3]. ولسنا فى حاجة إلى تبيان أهمية هذا الكتاب من وجهة النظر التاريخية البحتة، وخاصة وأن مؤلفه يؤرخ لقومه وعشيرته. وعلى الرغم مما يذكره مؤلف الكتاب من أن

---

(١) توفى الجوينى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٣ م)، على أن كتابه المعروف باسم جهانكشا ينتهى عند سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٨ م). وقد أتم هذا الكتاب عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة، فتكلم عن تاريخ المغول حتى سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ م).

(٢) ولد رشيد الدين فى مدينة همذان سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) وقتل بأمر من أبى سعيد إيلخان المغول فى فارس سنة ٧١٧هـ (١٣١٨م). وقد كتب عن تاريخ المغول حتى وفاة غازان.

(٣) نقل هذا الكتاب إلى الفرنسية M. Varenne de Mondesse وسماه باسم Histoire Généalogique des Tatars

هدفه لم يكن تمجيد أسلافه ، إلا أن الباحث يجب أن يقف موقف الحذر مما كتب .

وهناك فريق رابع من المؤرخين هو فريق المؤرخين المسلمين الذين عاصروا حوادث الغزو ، وقد دون هؤلاء ما وقع تحت حسهم وبصرهم، وما أحس به المسلمون من آلام في ذلك الوقت وفي مقدمة هؤلاء جميعاً اثنان ، ابن الأثير والنسوى. أما ابن الأثير فقد عاصر حوادث الغزو المغولى الأول بقيادة جنكيزخان الذى بدأت حوادثه سنة ٦١٦هـ (١٢١٩ م) ، واستمرت حتى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ، فأرخ فى كتابه « الكامل فى التاريخ » للمسلمين فى هذه الفترة والفترة التى تلتها حتى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م)[1]. وليس هناك من شك فى أن ابن الأثير ، رغم اختلافه بعض الشىء مع ما كتبه النسوى ، يعتبر حجة فيما دون عن حوادث الغزو .

أما النسوى مؤلف كتاب « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى » الذى نقدم له ، فيتضح مما كتبه عن نفسه أنه ولد ونشأ بقلعة خرندز[2] ، وهى قلعة من قلاع خراسان المنيعة وعلى مقربة من مدينة « نسا » التى انتسب إليها محمد النسوى[3] . ويتضح مما كتبه عن نفسه أيضاً أنه التحق بخدمة جلال الدين منكبرتى بعد أن عاد إلى بلاده من منفاه فى بلاد الهند ، فعهد إليه فيما عهد بوظيفة كاتب الإنشاء فتقلدها كارهاً فى بادىء الأمر ، ثم تعلق بها بعد أن عمّ عليه نفعها وصار يقاتل ، على حد تعبيره ، من يزاحمه عليها[4] . ولعل أخطر المناصب التى تولاها كان منصب الوزارة فى مدينة « نسا » ، وقد شرط عليه السلطان عندما قلده هذه الوظيفة أن يبقى إلى جانبه وأن

(١) ينتهى كتاب ابن الأثير عند سرد حوادث سنة ٦٢٨ هـ ، أى إلى ما قبل وفاته بسنتين .

(٢) انظر ص ٧٩ ، وانظر الحاشية ١ بوجه خاص .

(٣) انظر ص ٣٣ حاشية ٣ .

(٤) انظر ص ١٩٤ — ١٩٥ . والراجح أن النسوى قد تقلد هذه الوظيفة سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) .

ينيب عنه فيها أحد ثقاته[1] . وليس هناك من شك في أن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على مبلغ ما كان يتمتع به النسوى من ثقة لدى جلال الدين . ومن الأمور الهامة التى تستحق التسجيل عند سرد حياة النسوى أنه كان رسول هذا السلطان فى كثير من سفاراته إلى حكام المسلمين ، ومن أبرزها تلك التى بُعث فيها إلى دعاة الاسماعيلية فى ألموت بوجه خاص [2] .

من هذا كله يتضح لنا كيف أن النسوى كان ملازماً لجلال الدين منكبرتى ، قضى معه الشطر الأكبر من حكمه ، واستمر ملازماً له حتى آخر أيامه ، وكان موضعاً لثقته ، يشاوره فى كل أمر ، ويعهد إليه بكل ماهو خطير من أمور دولته . ولنا بعد ذلك كله أن نحكم على أهمية ماكتبه النسوى عن حياة ذلك السلطان الذى أرّخ له ، ومن حيث تعرف مجريات الحوادث التاريخية وأخذها عن مصادرها الأولى . وإذا كان الحذر لابد أن يكون رائدنا ، كما سبق القول ، إذا ما اعتمدنا على مرجع لمؤلف معاصر عاش فى كنف من أرخ لهم ، فإن هذا الحذر لابد أن يقل إذا ماعلمنا أن النسوى قد كتب هذا الكتاب الذى أرّخ فيه لجلال الدين منكبرتى بعد وفاة هذا السلطان بعشر سنين ، مما يجعلنا نطمئن إلى أنه لم يكن تحت تأثير معين وهو يكتب عنه ، وإن كان هذا لاينفى أن كتاباته تحمل فى طياتها ، وبطريقة غير شعورية ، كل معانى الولاء لذلك السلطان الذى أظله برعايته طيلة فترة حكمه على وجه التقريب .

نستطيع أن نخرج من قراءة هذا الكتاب الذى نحن بصدده أن مؤلفه لم يكن من الكتاب البارزين فى عصره رغم أنه تولى كتابة الإنشاء فى عهد جلال الدين . ولم يكن النسوى يقصد أن يتواضع حقاً عندما كنا نجده يعترف على نفسه بأنه ليس من مؤرخى العصر البارزين أو من كتابه

(١) انظر ص ٢٥١ — ٢٥٢ .
(٢) انظر ص ٣٣٦ — ٣٣٨ ، ص ٣٣٩ — ٣٤٤ .

المبرزين[1] ، فالأمر الذى لاشك فيه أن أسلوبه فى الكتابة متواضع حقاً ، تغلب عليه الصنعة ، ويغلب عليه التصنع أيضاً ، واستبدت بالنسوى طريقة الإكثار من المحسنات البديعية والصور البيانية ، وصار يهتم برصف الألفاظ جرياً وراء سجع متكلف متعمد ، وبطريقة طمست معها معالم الحقائق التاريخية فى كثير من الأحيان . وإذا آمنا بما يسميه علماء النفس بمركب النقص ، فلابد أن نعترف أن مركب النقص هذا بالنسبة إلى النسوى واضح ظاهر ، إذ يتضح مما كتبه عن نفسه ومما يفهم من سياق كلامه أنه كان يجيد اللغتين التركية والفارسية[2] ، أما اللغة العربية فكانت قدرته فيها تلى قدرته فى هاتين اللغتين دون شك ، ومن أجل هذا كان النسوى يتكلف فى الكتابة بحثاً عن المحسنات البديعية والبيانية ، وبحثاً عن الأمثال العربية والآيات القرآنية ليقحمها فى كتاباته إقحاماً ، فيسد بذلك كله وبطريقة غير شعورية ما يحس به من نقص فى أصول اللغه العربية ، على أن ذلك لم يقده إلا إلى طبع أسلوبه بطابع الغموض ، كما أن ذلك لم يعفه من الوقوع فى أخطاء لغوية ونحوية فى كثير من الأحيان .

ونلاحظ أن النسوى لم يقتصر فى كتابه هذا الذى نحن بصدده على سرد تاريخ حياة السلطان جلال الدين منكبرتى ، بل استهل كتابه بسرد حوادث المغول فى وطنهم الأول ، وتتبعهم إلى أن حطوا رحالهم على حدود الشرق الاسلامى ، ثم تكلم عن الدولة الخوارزمية فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه[3] وعن صراعه مع القوى المغولية إلى أن انتهى الأمر بسقوطه وسقوط دولته ، ثم بدأ النسوى يفصّل الحديث فيما يتفق وهدفه الأساسى ألا وهو الكلام عن الدولة الخوارزمية فى عهد آخر سلاطينها جلال الدين منكبرتى . ولم يشأ النسوى أن يتعمق فى سرد حوادث الغزو

---

(١) انظر ص ٣٧ ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) انظر ص ٣٦٨ .

(٣) ٥٩٦/٦١٧ هـ (١١٩٩/١٢١٩ م) .

المغولى للشرق الاسلامى ، إذ اعتقد أن ذلك ما هو إلا تكرار لحوادث القتل والتخريب[1] ، ولذا فإن ماكتبه عن حوادث الغزو لايغنى عما كتبه ابن الأثير فى هذا الميدان ، بل يعتبر ماكتبه النسوى وماكتبه ابن الأثير يكمل أحدهما الآخر . وثمة ملاحظة أخرى على كتاب النسوى هو أنه لم يتبع الطريق الذى كان يتبعه المؤرخون المسلمون المعاصرون من حيث سرد الحوادث التاريخية وتدوينها حسب ترتيبها الزمنى ، بل نجده يعمد إلى معالجة الموضوعات التى اهتم بالكتابة عنها دون أن يتقيد بترتيبها ترتيباً زمنياً ، وبذلك اختلفت كتاباته اختلافاً بيناً واضحاً من حيث الطريقة التى اتبعها والنهج الذى انتهجه ، مع الطريقة التى اتبعها والنهج الذى سار عليه ابن الأثير ، الذى عاصر فترة الغزو المغولى .

* * *

نشر المستشرق هوداس O. Houdas ، وكان أستاذاً بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، كتاب « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى » سنة ١٨٩١ عن نسخة خطية محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس . وكأنما أراد هوداس أن يعم النفع من وراء هذا الكتاب بين من يجهلون اللغة العربية فترجمه إلى اللغة الفرنسية سنة ١٨٩٥ . ولقد قرأت ما نشره هذا المستشرق باللغة العربية وما نقله إلى اللغة الفرنسية ، قراءة الباحث المدقق ، بقدر ما أوتيت من قدرة متواضعة فى البحث والتدقيق . وكنت كلما قرأت النص العربى بوجه خاص ، آمنت بأن هذا الكتاب لابد أن يعاد نشره وتحقيقه ، حتى يعم النفع إذا ما قصده منتفع جديد . وماكنت أظن وأنا أقرأ كتاب النسوى ، كما نشره هوداس ، وألمس مافيه من نقص أننى سأكل إلى نفسى محاولة إتمام ما بدأه هذا المستشرق ، وأخيراً اخترت نفسى لهذا العمل ، وشجعنى على ذلك ماقرأت وماكتبت فى تاريخ الدولة الخوارزمية بوجه خاص وفى

(١) انظر ص ١١٦ .

تاريخ الشرق الاسلامى وتاريخ المغول بوجه عام ، واستعنت بما قرأت وما كتبت فى إخراج هذا الكتاب على الصورة التى نراها . ولم يكن فى استطاعتى لسوء الحظ أن أرجع إلى النسخة الخطية التى نقل عنها هوداس ، ولعلى إذا كنت قد وفقت إلى ذلك ، لخرج هذا الكتاب فى صورة أرتضيها لنفسى . على أن بعض ذوى العلم والفضل وممن سبقونى إلى النشر وكان لهم قصب السبق فى هذا الميدان ، زينوا لى طريق إعادة نشر هذا الكتاب بالرجوع إلى الطبعة الفرنسية دون انتظار لأصل خطى قد لا أوفق فى الوصول إليه .

لم يكن النسوى كما ذكرت من المتفقهين فى أصول اللغة العربية أو من كتابها البارزين ، ولم يكن المستشرق هوداس ، كما رأيت من نشره لكتاب النسوى ، من المتفقهين فى اللغة العربية كذلك أو من العارفين لأصولها ، ولنا بعد ذلك أن نتصور ما عانيته من جهد فى تفسير ما غمض فى هذا الكتاب ، نتيجة لعدم تمكن مؤلف الكتاب أو ناشره ، أو نتيجة لعدم تمكن كليهما معاً من أصول لغة الضاد .

ويلاحظ أن النسوى لم يفسر كثيراً من معانى المصطلحات التى لها أهمية تاريخية خاصة كأسماء الوظائف والدواوين ، وشاغلى هذه الوظائف والقائمين على هذه الدواوين ، وأسماء آلات الحرب وغير ذلك مما كان معروفا فى العصر الاسلامى وغير معروف إلا للخاصة فى عصرنا هذا ، ولم يهتم المستشرق هوداس وهو ينشر هذا الكتاب أن يعرّف بهذا كله تعميما للفائدة ، كما لم يهتم هذا المستشرق بالتعليق على الحوادث أو تحقيق أسماء الأعلام ، كما فاته أن يعرّف بالعصر الذى يدور حوله هذا الكتاب ، وكان علىّ أن أقوم بذلك كله .

ومن المهم أن أذكر فى هذا المقام أن هوداس قد فاته الكثير ، عن غير قصد طبعا ، وهو يعد هذا الكتاب للنشر . وأول ما يلاحظ عليه أنه لم يهتم فى كثير من الأحيان بتحقيق أسماء الأعلام ، وكثيراً ما كان ينقلها

عن النسخة الخطية فى صور مختلفة مع انها كلها لاسم واحد ، ومن الغريب أن هذا الخطأ الذى لمسناه فى الطبعة العربية قد انتقل أيضا إلى الترجمة الفرنسية ، مما يدل دلالة واضحة على أن هوداس لم يعتن بتحقيق هذه الأسماء ، كما يدل على أنه كان ينسى مايقرأ ويكتب ، وقد نوهت بذلك فى مواضع شتى (١) . ومن المشاهد كذلك أن قراءة الأسماء قراءات متعددة عن الأصل الخطى ، لم يقتصر على أسماء الأعلام ، بل تعداه إلى أسماء الوظائف ، فقد نقل بعضها فى صور مختلفة ، واختلفت الترجمة الفرنسية تبعا لذلك (٢) .

وقد لمست بينما كنت أقرأ الترجمة الفرنسية أن هوداس قد ترجم كثيراً من الأمثال العربية والأسماء التى لها معان خاصة فى التاريخ الاسلامى ، ترجمة خاطئة نتيجة لعدم فهمها أو فهم المقصود منها . ولم يكن من هدفنا أن نتعرض لنقد الترجمة الفرنسية نفسها ، ومع ذلك فقد رأيت أن أمثل لما جاء فيها من أخطاء دون أن أحصيها ، لعل فى ذلك بعض الفائدة لمن تحدثه نفسه بإعادة النظر فى أمر هذه الترجمة . (٣)

---

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر ص ١٠٩ حاشية ١ ، ص ١١٣ حاشية ٢ ، ص ١١٦ حاشية ١ ، ص ٢٣٠ حاشية ٢ ، ص ٢٥٥ حاشية ١ ، ص ٢٧٧ حاشية ٥ ، ص ٣٢١ حاشية ١ ، ص ٣٧٧ حاشية ٥ . وهناك أمثلة أخرى آثرت أن أشير إليها فى هوامش الكشاف.

(٢) انظر ص ١٨٤ حاشية ٧ ، ص ٣٦١ حاشية ٢ ، ص ٣٦٤ حاشية ٣ .

(٣) قرأ هوداس عبارة « تركت موضع رحلى مظلما » قراءة خاطئة عن النسخة الخطية نتيجة عدم فهم المعنى ، فقرأها فى أكثر من موضع « تركت موضع رجلى مظلما » وانتقل هذا الخطأ إلى الترجمة الفرنسية . انظر ص ٣٢٣ حاشية ٤ ، ص ٣٣٧ حاشية ٣ ، وراجع الترجمة الفرنسية ص ٣٣٥ ، ص ٣٥٢ . وترجم كلمة الجنويات باللفظ الفرنسى Arcs أى الأقواس وهذا يخالف معناها الحقيق وهو قطع الحديد ذات الشعب وتطرح حول المعسكرات أو أمام الخيل لعرقلتها . انظر ص ٣٠٣ حاشية ٤ ، وراجع ص ٣٠٨ من الترجمة الفرنسية . وهناك أيضا أخطاء مماثلة وقع فيها هوداس نتيجة لعدم فهم كثير من الأمثال والألفاظ يضيق هذا المقام عن سردها ، وقد تكلمنا عنها فى موضعها . انظر ص ١٧٥ حاشية ٤ ، ص ٢١٠ حاشية ٣ ، ص ٢٦٩ حاشية ٢ ..... الخ الخ .

ومن المشاهد أن هوداس قد ترجم كتاب النسوى إلى اللغة الفرنسية بعد سنوات أربع من نشره باللغة العربية ، ومن المشاهد بل من المؤكد أيضاً أنه أدرك وهو يترجم النص العربي بعض ما احتوى عليه هذا النص من أخطاء ، لذلك ذيّل الترجمة الفرنسية بجدول يشتمل على ما أراد أن يصوبه من هذه الأخطاء . وقد راجعت ذلك الجدول أيضا وخرجت بعد مراجعته بأمور ثلاثة : أولها أن هوداس قد صحح بعض الأخطاء فعلا ، وثانيها أنه حاول تصحيح ألفاظ خاطئة فلم يستطع أن يصل إلى اللفظ الصحيح وكان من نتيجة ذلك أنه استبدل ألفاظاً خاطئة بألفاظ أخرى خاطئة لاتستقيم مع المعنى [1] . أما الأمر الثالث فهو أن هوداس أبدل بعض الألفاظ التي كانت في الأصل صحيحة بألفاظ أخرى خاطئة ، ولم يدرك أن الألفاظ الأولى كان لاغبار عليها ومستقيمة مع المعنى [2] .

وقد سبق أن ذكرت أن النسوى كان يستشهد في كتاباته بكثير من الآيات القرآنية ، وبكثير من أمثال العرب وشعرهم ، ويحق لي أن أضيف هنا أن هوداس كان وهو يقرأ الأصل الخطى ، لا يهتم في كثير من الأحيان بتحقيق ما استشهد به النسوى من آيات قرآنية وأمثال وأشعار ، ولذا جاء بعضها محرفاً عن الحقيقة ، بل ومن المشاهد أن هوداس لم يميز بين الشعر وبين النثر في بعض الأحيان فنقل كلاماً منثوراً في صورة شعر ، ونقل شعراً في صورة نثر . [3]

أما بعد ، فلعلى بعد هذا التقديم لكتاب النسوى في صورته الجديدة ، وبعد التعليق على الحوادث التاريخية التي تناولها الكتاب ، ولعلى بعد شرح

(١) انظر ص ٣٧ حاشية ٣ ، ص ٤٣ حاشية ٧ ، ص ١٢٣ حاشية ٧ ، ص ١٢٥ حاشية ٧ ، ص ١٧٣ حاشية ٣ ، ص ٢٣٤ حاشية ٢ ، ص ٢٩٥ حاشية ١ ... الخ الخ .

(٢) انظر ص ١٣٠ حاشية ٨ ، ص ١٧٧ حاشية ٤ ، ص ١٩١ حاشية ٤ ، ص ٢٦٤ حاشية ٥ ، ص ٢٨٥ حاشية ٤ ، ص ٣٣٤ حاشية ٦ ... الخ الخ .

(٣) انظر ص ٣٥ حاشية ٢ ، ص ٧١ حاشية ٤ ، ص ١٨٩ حاشية ١ ، ص ٢٠٢ حاشية ٢ .

ما صادفت من ألفاظ لها أهميتها الخاصة فى التاريخ الإسلامى ، ومن تحقيق وتعريف بأسماء المدن والأعلام ، وبعدما أشرت إلى ما صادفت من نقص فى طبعة هوداس ، لعلى بعد ذلك كله أكون قد وفقت إلى إتمام ما نقص من الطبعة السابقة ، ولن أدعى بأنى وصلت إلى كل مايجب أن يصل إليه باحث مدقق ، بل أرجو أن يجد غيرى فى هذه الطبعة من أوجه النقص مايحفزه إلى إتمامه ، فما هدفنا إلا خدمة العلم وطالبيه ، والوصول إلى الحقيقة أياً كان مبعثها ، والله ولى التوفيق ؟

القاهرة : أول مارس سنة ١٩٥٣ حافظ احمد حمدى

سـيرة

السلطان جلال الدين منكُبِرتى

١

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسّر وأعِن برحمتك

الحمد لله الذى بَرَأ البَرِيّة وقَدّر لهم آماداً ، وذَرَأ الذُرِيّة وقرر لهم معاداً ، لم يشتبه عليه تكوين المكوّنات آحاداً ، ولا إيجاد الموجودات جملة وفُرادى ، تلفع ملكه بالكبرياء وماعداه عوارى ملك لايعتريه الفتور ، ولا تغيره الدهور ، ولا تنقص من عمره[1] السنين والشهور . فسبحانه من صانع أوحد عظيم ، خالق العالم وعُدّته الكافُ والنون ، إنما أمره إذا أرادشيئاً أن يقول له كن فيكون . ثم الصلاة والسلام على الهادى من الضلالة ، والمستقل بأعباء الرسالة ، محمد صلى الله عليه وعلى آله المنتخبين ، وأصحابه الغر المنتجبين ، مصابيح الدُجُنّة ، وأعلام الكتاب والسنة ، صلاة تضاهى فتيت المسك ، وتباهى فى البقاء قفا نبك .

يقول الفقير إلى رحمة ربه ، المرتوى[2] من ذنوب دينه ، المتجاذب فى نكباء النكبة ، المتقاذف بين أيدى الغربة ، محمد بن أحمد بن على بن محمد المُنشِىء النسوى[3] أصلح الله شأنه ، وصانه عما شانه : إنى لما وقفت على ماألف من تواريخ الأمم الماضية ، وسير القرون الخالية ، واتساق أخبارها من لدن انتشار ولد آدم أبى البشر ، عليه الصلاة والتحية ، إلى زماننا هذا ،

---

(١) فى الأصل : عن عمره . (٢) فى الأصل : المرتوى .

(٣) ينتسب محمد النسوى إلى مدينة « نسا » أو « نساء » ، إحدى مدن خراسان. وقد ذكر ياقوت أن سبب تسمية هذه المدينة بهذا الاسم يرجع إلى أن المسلمين عندما غزوا خراسان وتوجهوا إلى هذه المدينة ، هرب منها رجالها بحيث أنهم لما دخلوها لم يجدوا فيها سوى النساء فأبوا أن يقاتلوهن وتركوا المدينة دون قتال ، وسميت المدينة بهذا الاسم . وجاء فى كتاب الأنساب للسمعانى ص ٥٥٩ ، أن هذه المدينة سميت بهذا الاسم لأن النساء هن اللائى كن يحاربن المسلمين دون الرجال . والنسبة الصحيحة إلى هذه المدينة نَسَائى ونسوى . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ص ٢٨٢ . وينتسب إلى هذه المدينة الإمام أحمد النسائى صاحب السنن . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٩٢ .

سوى ماصادف فترة رأيت قصارى كل مؤرخ تكرير ماذكره المتقدم عليه بالزمان ، معيداً ذلك بيسير من الزيادة والنقصان ، إلى أن يسوق الحديث إلى زمانه وحوادث أوانه ، فيوردها شافية كافية ، ومن وراء الإشباع والإقناع آتية ، وشتان مابين الخُبْر والخَبَر ، وأين العيان من اقتفاء الأثر ؟

ورأيت الكامل من تأليف علي بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير ، يتضمن من أحاديث الأمم عموماً ، وغرائب أخبار العجم خصوصاً ، ما شذ عن غيره ، وأنصف لعمري فى تسميته كاملا ما ألف ، ولم أستبعد ظفره بشيء من تواريخهم المؤلفة بلغتهم ، وإلا فما الأمر مما يؤخذ بالقياس ، والذى أودعه تأليفه منها أكثر من أن تتلقف من أفواه الناس . ولما أفضت بي المطالعة إلى ماتضمنه من أخبار السلطان الأعظم علاء الدنيا والدين أبي الفتح محمد بن تُكُش بن إيل أرسلان [1] بن آتسز [2] ابن محمد بن نوشتكين [3] ، متبعها بنبذة من تصاريف الدهر وتغايير الزمان بولده السعيد الشهيد جلال الدين منكبرتى ، سقى الله ثراهما ، وجعل الجنة مثواهما ، ووجدته لم يفته من معظمات الأمور جليل ، ولم يتجاوز الصحة

---

(١) إيل لفظ تركى معناه ولاية ، وأرسلان لفظ تركى معناه أسد .

وهناك أيضا لفظ « إيلخان » ومعناه الخان التابع ، أى حاكم إحدى الولايات فى الدولة Provincial Khan ، ويتبع الخان الأعظم أو الخاقان الذى يحكم الدولة بأسرها . انظر Stanley Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 217. وقد أطلق هذا اللقب على هولاكو عند ما أسند إليه حكم فارس ، ثم ألصق بحكام المغول فى فارس من سلالة هولاكو ، وأطلق اسم دولة إيلخانات على البلاد التى حكموها . انظر المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٥٤١ حاشية ١ .

(٢) آتسز ، كلمة تركية معناها من لا اسم له . (آت : اسم ، سيز : أداة التجريد) . وقد جرت العادة عند الترك أن من يموت بنوه صغاراً يسمى واحداً منهم بهذا الاسم حتى يعيش ولا يهلك . انظر النظامى العروضى السمرقندى : چهار مقاله ، ص ١٠٩ ، ترجمة الأستاذين عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب .

(٣) كان نوشتكين ، التركى الأصل ، وهو الذى تنتسب إليه الدولة الخوارزمية ، يشغل وظيفة الساقى فى بلاط ملكشاه ، ثم درج فى سلك الوظائف فى أيامه . انظر :

Curtin : The Mongols' History, p. 98.

Howorth : History of the Mongols, part i, p. 7.

إلا قليل ، قلت : لله در مقيم بديار الشام ، دعته همته إلى ضبط ما حدث من الوقائع بأعالي بلاد الصين ، وأعماق ديار الهند .

وحيث كان الغرض الأهم من إثبات الآثار وأخلاد الأخبار ، وإفادة التجربة والاعتبار ، فتقلبات الأيام بجلال الدين من إهباط وإصعاد ، وإطفاء شعلة نار وإيقاد ، يوما نفاذ حد ، وإيراء زند ، وآخر صرع خد ، وسقوط جد ، بينا تملكه ، إذ تكاد تهلكه ، وحال تعليه ، إذ رأيته تبتليه ، لبالغ فى إفادة الغرض ، إذ فى تصاريف أحوال الزمان به عجائب لم توجد أخواتها فى أساطير الأولين ، أريد بها التطويل والتهويل ، والتعجيب والتغريب ، وحسبك منها أربع عشرة وقعة مذكورة مشهورة فى إحدى عشرة سنة ، لفظته فيها بلاد الترك إلى أقاصى الهند ، وأقاصى الهند إلى أواسط الروم ، من مليك مطاع ، وطريد مرتاع . وها أنذا ممل[1] منها ما شاهدته ، أو سمعت ممن شاهده ، معرضاً عن غيرها صفحا ، وطاويا دون ماسواه كشحا .

ولو لم تزدنى لكنة أعجمية ... تخجلنى فيما أقول وأكتب

ففى ميدان الإطالة متسع ... وفى قوس المقالة منتزع[2]

وقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فإن وجدت لسانا قائلا فقل

وقد كانت طائفة من أفاضل الشرق ممن لهم حظ فى الصناعة ، وتوجه فى طرق البلاغة ، اعتنوا بتأليف أخبارهم ، وتخليد مساعيهم وآثارهم من حيث نشأت نبعتهم ، وتفرعت دوحتهم ، إلى أن بلغ من أمر السلطان الأعظم محمد بن تكش[3] وعظم شأنه أنه جمع — إلى ما أورثه أبوه من خراسان وخوارزم — ملك العراق ومازندران ، وضم إلى هذه الواسطة كرمان

(١) فى الأصل : ها أنا ممل . (٢) نثر أورده هوداس فى صورة شعر .

(٣) حكم محمد بن تكش ، الذى يلقب بعلاء الدين ، من سنة ٥٩٦ / ٦١٧ هـ (١١٩٩ / ١٢١٩م). وقد بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساعها فى عهده ، كما أنه شهد أول صراع بين القوى الإسلامية وبين المغول .

ومكران وكيش وسجستان وبلاد الغور وغزنة وباميان[1] إلى مايليها من الهند بأغوارها وأنجادها [2] ، والسيوف مهملة فى أغمادها ، والعواتق معطلة عن نجادها . وملكها بالهيبة عفواً صفواً ، وسهواً زهواً ، وملك على الخطايية[3] وغيرهم من ملوك الترك وقروم[4] ماوراء النهر ، بعد إخافتهم[5] واستئصال شأفتهم ، وإلجاء المفلتين منهم إلى أقاصى الصين ، ما يقارب أربعمائة مدينة ، ملكا عز على غيره مناله ، وتطفلت على حاشيته حُلاه[6] ، وخطب له على منـــابر فارس وأران وأذربيجان إلى ما يلى دربند[7]

---

(١) باميان : بلدة بين بلخ وهراة وغزنة ، وبها قلعة حصينة . وقد خرج من هذه المدينة جماعة من أهل العلم ، منهم أبو بكر محمد بن على بن أحمد البامياني ، وهو من المحدثين الثقاة . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) انظر خريطة الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها .

(٣) الخطايية ، نسبة إلى قبائل الخطا الذين أسسوا دولة لهم فى إقليم التركستان فى مستهــل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) على يد « يى لوتاشى » Ye-lü Ta-shi .
وكان قيام هـذه الدولة على الحدود الشرقية للأقاليم الاسلامية ، من الأمور التى سببت كثيرا من المتاعب للمسلمين ، إذ وضع قادة هذه الدولة نصب أعينهم أن يوسعوا أملاكهم على حساب البلاد الاسلامية ، فاشتبكوا مع المسلمين فى صراع طويل . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن المغول أضافوا لفظ « قره » Kara إلى اسم الخطا فأصبحوا يسمون « قره خطا » Kara Khitai. ولفظ قره أو قرا ، لفظ مغولى أو تركى معناه أسود . أماسبب وصفهم بلون السواد فغير معروف ، ولعل ذلك يرجع الى عداوتهم وكراهيتهم لهم . انظر :
Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. I.p. 208 & seq.
وانظر أيضا ما كتبناه عن دولة الخطا وعلاقتها بالقوى الإسلامية المعاصرة فى كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٤٦ — ٦٦ .

(٤) القروم جمع قرم وهو السيد العظيم فى قومه .

(٥) فى الأصل : إضافتهم .

(٦) ليس هناك من شك فى أن هذه العبارة تتضمن الـكثير من المبالغة ، وماأحسب إلا أن النسوى قد قصد أن يكيل المديح لمن أراد أن يؤرخ لهم ، وهنا تتجلى خطورة اعتماد الباحث على مرجع معاصر يؤرخ لقوم عاش فى كنفهم .

(٧) دربند : كلمة فارسية معناها فى الأصل سنبلة من حديد ، يقفل بها باب الدكان ، ويقال لها دروند أيضا ، وتستعمل هذه الـكلمة كذلك بمعنى المضايق والطرقات ، انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٤٨ حاشية ٣ ، ودائرة المعارف الاسلامية مادة Derbend .

شروان سنة كبْسته للأتابكين سعد بن زنكي صاحب فارس[1] ، وأزبك ابن محمد صاحب أذربيجان بهمذان[2] ، وأسره سعد وإفلات الآخر منه بخديعة[3] الذقن ، بعد إسلام أكابر أصحابه مثل نصرة الدين محمد بن بيشتكين ووزيره ربيب الدين أبي القاسم بن علي المعروف بدندان ، ومنّه على سعد بالإطلاق ، وعلى أزبك بترك التعرض والإرهاق . على أن يخطبا له ببلادهما، ويحملا إلى الخزانة السلطانية كل سنة أتاوة معلومة[4] فتواصلت له فتوح الأقاليم ، اتساق الأنابيب لا مهلة بينهما ولا فرجة، ولا تلوم ولا عرجة.

غير أن الطامة الكبرى من حادثة التاتار هجمت فطمت على المؤلف وتأليفه ، في قضه وقضيضه ، ولفه ولفيفه ، حتى تعينت لما تصديت تعين فروض الكفاية على من لجأ به الموج إلى الساحل ، وقد شمل الغرق عامة رفقائه ، فابتلى بتكاليف حياته ، وتصاريف بقائه . وإلا فما كنت أتصدى لما لست من رجاله ، مع قريحة قريحة[5] وفكرة عليلة، ومزجاة من بضاعة الكتابة قليلة . وعند الخوض في ذلك لا بد من تقديم مقدمة في شرح منشأ التاتار ، ومبدأ خروجهم ، وبالله التوفيق .

---

(١) حكم سعد بن زنكي أتابك فارس من سنة ٥٩٩/٦٢٣ هـ (١٢٠٢/١٢٢٥ م) . وقد ذكر زامبور Zambaur في كتابه ص ٢٣٢ ، أن سعدا بن زنكي توفي سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) وهو في ذلك يخالف ستانلي لينبول في كتابه The M. Dynasties, p. 173 الذي ذكر أنه توفي سنة ٦٢٣ هـ . وإن السنة التي توفي فيها سعد كانت موضع اختلاف المؤرخين، فيذهب رشيد الدين والوصاف وصاحب روضة الصفا وحبيب السير إلى أن وفاته كانت سنة ٦٢٣ هـ . ويذهب صاحب تاريخ گزيده إلى أن وفاته كانت سنة ٦٢٨ هـ . على أن الحقائق التاريخية الثابتة لا تؤيد الرأي الأخير ، بل ويستدل مما كتبه ابن الأثير أن وفاة سعد بن زنكي قد حدثت قبل سنة ٦٢٨ هـ . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٢٠ .

(٢) يلقب أوزبك (أزبك) بن محمد صاحب أذربيجان بمظفر الدين ، وقد حكم من سنة ٦٠٧/٦٢٢ هـ (١٢١٠/١٢٢٥ م).

(٣) قرأ هوداس Houdas هذه الكلمة في النسخة الخطية ، « بخريعة » ، ثم صححها في الترجمة الفرنسية « بجريمة » ، والحقيقة أن المقصود لا هذا ولا ذاك ، وإنما الراجح أن الأصل المقصود هو كلمة « بخديعة » ، أي أن أوزبك بن محمد صاحب أذربيجان استطاع أن يفلت من الأسر بعد أن خدع علاء الدين محمد خوارزم شاه وغير من ملاحمه بأن أطلق لحيته .

(٤) انظر حوادث الحرب بين علاء الدين محمد خوارزم شاه وبين كل من أتابكي فارس وأذربيجان في كتاب ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٥) قريحة الأولى بمعنى الذهن ، والثانية بمعنى مقروحة .

٣

ذكر التاتار الملاعين ومبدأ أمرهم ومنشئهم (١)

حدثني غير واحد ممن يعتبر قولهم أن مُلك الصين ملك متسع ، دوره مسيرة ستة أشهر ، وقد قيل إنه يحويه سور واحد لم ينقطع إلا عند الجبال المنيعة (٢) ، والأنهار الوسيعة . وقد انقسم من قديم الزمان ستة أجزاء ، كل جزء (٣) منها مسيرة شهر يتولى أمره خان ، أى ملك بلغتهم ، نيابة عن خانهم الأعظم (٤) .

وكان خانهم الكبير الذى عاصر السلطان محمد (٥) ، ألتون خان (٦) ،

---

(١) فى الأصل : منشاهم .

(٢) يرجع السبب فى بناء سور الصين العظيم ، فى العصور الأولى من التاريخ ، إلى رغبة الصينيين فى دفع غارات القبائل المتبربرة القاطنة فى الأقاليم الشمالية الشرقية من القارة الأسيوية ، والتى كانت تغير بكثرة على هـذه البلاد طمعا فى كسب مادى يفتقرون إليه فى بلادهم الأصلية . انظر Little : The Far East, p. 184 .

(٣) فى الأصل : جزؤ .

(٤) لقب « خان » ، لقب أطلقـه المغول على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من الامبراطورية المغولية ، وهو يختلف عن لقب « خاقان » ، الذى أطلقوه على الرئيس الأعلى لدولتهم ومعناه الخان الأعظم . وقد استعمل المغول لقب « خان » أيضا بمعنى « خاقان » ، وربما كان ذلك من باب الرغبة فى الاختصار . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام ، أن الفرق بين « خان » و « خاقان » ، يشـبه الفرق بين كلمتى « سلطان » و « ملك » ، فالسلطان هو الملك الأعظم كالسلطان صلاح الدين الأيوبى ، أما ملك فهو أحد ولاة السلطان من أبناء بيته ، كالملك العادل حينما كان صاحب دمشق من قبل أخيه صـلاح الدين الأيوبى . وقد وجد هذا الفرق أيضا عند الفرس ، فإن لقب « شاهنشاه » ومعناه ملك الملوك يتميز عن لقب « شاه » فقط وهو الملك الصغير . انظر المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٣٠٧ حاشية ٤ .

(٥) حكم السلطان محمد خوارزم شاه من سنة ٥٩٦/٦١٧ هـ (١١٩٩/١٢١٩م) .

(٦) ألتون ، كلمة تركية معناها ذهب . وألتون خان ، لقب كان يطلقه المغول على حكام إمبراطورية كين الصينية التى أسستها قبائل Nü-chi ، وكانت تسكن فى الأصل بالقرب من نهر آمور وتدفع الضرائب للخطا ، ثم تمردت على الخطا فى مستهل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) واستطاع زعيمها A-gu-da أن ينادى بنفسه إمبراطورا سنة ٥٠٩ هـ =

توارثها كابراً عن كابر ، بل كافراً عن كافر . ومن عادتهم الإقامة بطمغاج[1] — وهي واسطة الصين — ونواحيها طول صيفهم ، متنقلين من مصيف إلى مصيف ، مرتحلين من ريف إلى ريف ، حتى إذا أقبل الشتاء بوجهه الكالح يعبرون ماء كنك[2] مما يلي قشمير إلى مشات[3] ساحلية طيبة الأغوار والأنجاد ، لم يخلق مثلها في البلاد ، فيعول إذ ذاك في حراسة ما خلفه الملك على الخانات الستة المقيمين بأرض الصين . وكان في زمرتهم عصر المذكور شخص يسمى دوشي خان ، وقد تزوج بعمة جنكزخان[4] اللعين ، وقبيلة اللعين هي المعروفة بالتمرجي ، سكان البراري ، ومشتاهم موضع يسمى أرغون[5] ، وهم المشهورون من طوائف الترك بالشر والغدر ، لم تر ملوك

= (١١١٥ م) وأن يؤسس لنفسه إمبراطورية أطلق عليها الاسم الصيني « كين » ومعناه أيضا ذهب . وقد حكمت أسرة كين في منشوريا ومنغوليا وشمال الصين أكثر من قرن ، ثم سقطت هذه الأسرة على يد المغول سنة ٦٣٢ ﻫ (١٢٣٤ م) .

انظر .Bretschneider : Op. cit., vol. i, p. 224, note 574 وراجع أيضا تاريخ أسرة كين في كتابي Fitzgerald : China, A Short Cultural History
Douglas : The story of Nations, China.

(١) كانت عاصمة إمبراطورية كين تسمى ين كنج Yen-King ، وليس طمغاج كما يقول النسوي . ويحتمل أن تكون كلمة طمغاج وطفغاج تحريف لكلمة من اللهجة التركية الشرقية « تبغاج » ومعناها « المعظم » أو « المشهور » . وفي هذه الحالة يكون معنى لقب طمغاج خان هو « الخان المعظم » وليس « خان طمغاج » . وإن الاعتقاد السائد في وجود إقليم باسم طمغاج ناشئ عن فهم خاطئ وقياس غير صحيح على لقب خوارزم شاه وما يماثله ، هذا اللقب الذي يقصد به شاه خوارزم . انظر النظامي العروضي السمرقندي : چهار مقاله ، ترجمة الأستاذين عبد الوهاب عزام ويحيي الخشاب ، ص ٩٧ .

(٢) المقصود هنا نهر الكنج ، أعظم أنهار الهند .

(٣) في الأصل : مشاتي .

(٤) النطق الصحيح لهذا الاسم هو ما يتفق مع الكتابة الفارسية والتركية « چنگيزخان » . ومما هو جدير بالذكر هنا أن جنكيزخان قد ولد سنة ٥٤٩ / ٥٥٠ ﻫ (١١٥٤ / ١١٥٥ م) ، وانتخب خاقانا على المغول سنة ٦٠٣ ﻫ (١٢٠٦ م) ، وتوفي سنة ٦٢٤ ﻫ (١٢٢٧ م) . انظر Zambaur : Manuel de Généalogie et de Chronologie, p. 242.

(٥) الراجح أن هذا المكان يقع بين الجبال الواقعة في جنوب بحيرة بيكال . انظر خريطة « آسيا الوسطى » في كتاب Bretschneider : Op. cit., vol. i.

الصين إرخاءعنانهم لطغيانهم. فاتفق أن دوشي خان المزوج بعمة جنكزخان السفاك توفى وألتون خان غائب، وقد حضرها جنكزخان زائراً ومعزياً، فبعثت إلى كشلوخان وجنكزخان — وهو بالزاء المعجمة — وهما المتوليان أمر مايتاخم أعمال المتوفى من الجهتين ، تنعى إليهما زوجها ، معلمة اياهما أن المتوفى لم يخلف ولدا ، وأن ابن أخيها جنكزخان،إن أقيم مقامه ، يحذو حذو المتوفى فى معاضدتهما ، واتباع إرادتهما ، فاستصوبا [1] رأيها فيما رأت ، وأشارا عليها بتقليده الأمر ، وسد الثلمة الحادثة بموت دوشي خان ، ضامنين لها تمشية الحال عند عود ألتون خان إلى دار قراره ومضرس أوليائه وأنصاره . فتولى جنكزخان ماكان يليه دوشي خان ، وانضم إليه فى أيسر مدة من أشرار عشيرته وشرار أسرته رجوم الفتن لاتخبو نارها ، ولا تبنو [2] على حال غرارها . فلما عاد ألتون خان إلى مدينته المعروفة بطمغاج ، أخذ الحجاب على عادتهم يعرضون كل يوم عدة قضايا مما حدث مدة غيبته، إلى أن قدمت تقاديم جنكزخان استشاط غضبا ، وقضى من تقديمهما إياه عجباً ،وأمر بقطع أذناب خيل التقدمة وطردها ، وخرج الحجاب له شاتمين، ولمن تقدمه من الخانين لائمين ، وبالغوا فى الوعيد حتى رأى جنكزخان وصاحباه الحتف غير بعيد ، والهلاك أقرب من حبل [3] الوريد ، فنزعوا إذ ذاك أيديهم عن الطاعة ، وخالفوا بأجمعهم كلمة الجماعة [4] .

---

(١) فى الأصل : فاستصوبوا .
(٢) كذا فى الأصل .
(٣) فى الأصل : خبل .
(٤) انظر ما كتبناه عن الصراع القبلى فى شمال شرق آسيا بوجه عام ، وعن حياة المغول الأولى أيام جنكيزخان بوجه خاص فى كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١٠٨ — ١١٤ . ويلاحظ أن جنكيزخان لم يتخذ لنفسه هذا الاسم ، ومعناه أعظم الحكام The Greatest of Rulers ، إلا بعد أن نجح فى ترعم القبائل المغولية فى شرق آسيا ، وبعد أن انتخب خاقانا عليها سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) ، أما قبل ذلك فقد كان اسمه تموچين .

٣

ذكر ما آل إليه أمر جنكزخان وصاحبيه بعد الاستيحاش

ولما فارقوا صاحبهم مستوحشين، تحالفوا على التعاضد، وتعاضدوا على التحالف، فابذروا صفحة الخلاف، وأبرزوا الشر من الغلاف. واستظهر جنكزخان بمن انضوى إليه من عشيرته، فراسلهم ألتون خان فى استردادهم إلى الطاعة مبدياً ومعيداً، يخلط فى رسالاته بالأعذار إنذاراً وبالوعد وعيداً، فلم يزده دعاؤه إلا نفاراً [١]، فكان كلما دعاهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكباراً [٢]. فحين أيس من صلاحهم، فزع إلى الاحتشاد، ومال إلى الاستحشاد والاستعداد [٣]، والتقاهم فكسروه أقبح كسرة، وقتلوا من جرجا خطاى وسائر قبائل الترك من عسكره مقتلة عظيمة، وفاتهم ألتون خان بنفسه ونفاثات السيوف من عسكره إلى ماوراء كنك وأخلى [٤] لهم البلاد، فتمكنوا منها وتملكوها، وانضوى إليهم من أوشاب الترك وأوباشها كل طامع فى مال، وطامح إلى منال. وأخذ أمر ألتون خان يتضاعف ضعفاً وتخلخلا، وتزايد وهنا وتزلزلا، إلى أن راسلهم مهادناً ومسالما، قانعاً بما تحت يده من الملك الحقير، ومجتزيا بالقليل عن الكثير، فأجابوه إلى ماسأل، واستمر الأمر بين أولئك على قاعدة المشاركة إلى أن مات جنكزخان [٥]، وتفرد الآخران بالملك يشتركان فيه شركة العنان. فلما أمنا جانب ألتون خان ساقا إلى

---

(١) أى نفورا.　(٢) اقتباسا عن سورة نوح، آية ٧.

(٣) المراد هنا حشد الجيوش والاستعداد للقتال.

(٤) فى الأصل: أخلا.

(٥) فى طبعة هوداس: ألتون خان، وبذلك غير هوداس فى النسخة الخطية التى ذكر فيها هذا الاسم، جنكيزخان. وقد ظن أنه صحح خطأ وقع فيه المؤلف أو الناسخ، والواقع أنه يستدل من سياق الكلام أن النسخة الخطية كانت صائبة.

بلاساقون[1] فلكاها وملكا من البلاد ماتاخمها وداناها ، واتفق إذ ذاك موت كشلوخان وقيام ابنه ، وقد لقب بكشلوخان مقامه ، فاستضعف جنكزخان جانبه لصغره وحداثة سنه ، وأخل بالقواعد المقررة بينه وبين أبيه من النزول على رتبة التماثل واقتسام[2] فوائد الملك على حكم التناصف والتعادل وجرت بينهما فى ذلك مراسلات ومعاتبات أفضى آخرها للاستيحاش . فلما جد مزاح الكلام ، واشتد لفح الخصام ، فارقه كشلوخان .

---

(١) تكتب هذه المدينة فى المراجع العربية ، بلاساغون . انظر ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٧ ، ج ١٢ ص ١٢١ . وهذه المدينة من أمهات مدن إقليم التركستان ، وقد اتخذها يلوتاشى Ye-lü Ta-shi ، مؤسس دولة الخطا فى إقليم التركستان ، حاضرة للملك فترة من الزمن ، وذلك قبل أن ينتقل إلى مدينة كاشغر. انظر Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 138.

(٢) فى الأصل : أقسام .

٤

ذكر ما آل إليه أمر كشلو خان بعد مفارقته جنكز خان

وامتدت الوجيف بكشلو خان ، بعد مفارقته جنكز خان ، إلى حدود قيالق[١] وألمالق[٢] ، فصالحه صاحبها ممدوخان بن أرسلان خان ، على أن تكون[٣] الأيدى واحدة ، والقلوب على وجوه المصالح متساعدة . واتفق وصوله إليها إفلات خان الخانية ، كورخان[٤] ملك الخطاية[٥]، من وقعة جرت بينه وبين السلطان[٦] ، وهى آخر الوقائع بينهما ، وانتباذ الركض به إلى حدود كاشغر ،فأخذ ممدوخان يزين لكشلو خان قصد كاشغر والاستيلاء على كورخان بها ، ويقول له: إنك إن ظفرت به وأجلسته على سرير الملك، لم يخالفك أحد من ملوك الترك . تسويلا بكواذب الظنون،وجوالب المنون، ولم يعلم أنها دولة قد تبّت[٧] أيامها ، وحان أن ينوح عليها أصداؤها وهامها.

---

(١) قيالق Kayalik ، إحدى مدن إقليم التركستان ، وكانت من المدن التى تضمها دولة الخطا ، انظر الخريطة فى كتاب .Howorth : Op. cit., part i .

(٢) ألمالق Almalik أو A-li-ma-li كما ذكرت فى المراجع الصينية ، إحدى مدن تركستان وكانت فى وقت من الأوقات من أمهات مدن دولة الخطا . وترجع أهميتها إلى أنها كانت تقع على الطريق بين منغوليا وفارس ، ولذا ورد ذكرها فى كتابات معظم الرحالة الذين عبروا القارة الأسيوية فى العصور الوسطى . انظر :
Bretschneider :Op. cit., vol. ii, pp. 33—39.

(٣) فى الأصل : يكون .

(٤) كورخان ، لقب اتخذه ملوك دولة الخطا لأنفسهم ، ومعناه خان خانان أى ملك الملوك أو سلطان السلاطين . انظر Skrine & Ross : Op. cit., p 137 وابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢١ .

(٥) يجدر بنا أن نذكر فى هذا المقام أن Ye-lü Ta-shi ، مؤسس دولة الخطا فى إقليم التركستان قد اختار الديانة البوذية لتكون دين الدولة الرسمى ، وربما يرجع ذلك إلى متاخمة هذه البلاد لبلاد الهند . ورغم ذلك فقد انتشرت الديانة المسيحية هناك إلى حد ما بفضل مجهودات المبشرين . D'ohsson : Histoire des Mongols, tom. i, p. 165

(٦) هو علاء الدين محمد خوارزم شاه .

(٧) نقلها هوداس عن النسخة الخطية « ثبت » ، ثم عدلها فى الطبعة الفرنسية إلى تمّت ، وصحتها تبّت أى انقطعت .

وكان كشلوخان يستبعد ذلك ، لما عنده من عظم محله ، ومخافة أمره ، وبعد صيته، وجلالة قدره . فلم يزل ينفث فى خيله وغازيه، إلى أن أجاب إلى مادعاه إليه ، فنهضا من قيالق وكبساه بحدود كاشغر ، واقتنصاه وأجلساه على سرير الملك . وكان كشلوخان يقف بين يديه عند الإذن العام موقف الحجاب ، فيشاوره فى دقيق الأمور وجليلها ، ولم يعمل بما يأمره إلا فى قليله .

ولما بلغ السلطان أسره كورخان واستيلاؤه على ماحوته يده من نفائس الجواهر والأعلاق ، التى جمعت على مر الدهور من الآفاق ، أرسل إليه يقول: إن خان الخانية قد تخلص من حبائلى بعد أن تركته خطفة لكل ناهب ، وخلسة لكل سالب . فهلا حدثتك نفسك بقصده، إذ كان فى عز سلطانه ، ومناعة شانه ، والآن قد أجليته عن دياره وأمصاره ، وعرضت على السيف عامة أعوانه وأنصاره . وقد كان يرغب فى المهادنة على أن يزوجنى ابنته طوغاج خاتون[1]، تزف إلىّ بما تحويه خزائنه من الجواهر الثمينة والأعلاق النفيسة ، على أن أتركه فى أخريات بلاده بما لفظته السيوف من حشاشة نفس ، أحين أصبح كسيراً ، يؤخذ أسيراً ؟ فإن أردت السلامة فى نفسك وذويك ، فشأنك أن تسيره إلىّ ببنته وخزائنه ، وأمواله وأشياعه ، وإلا فقد جئتك بما لايغنيك منه إلا حد الحسام ، وثبات المقام .

فأجابه كشلوخان عن هذه الرسالة جواب خاشع متذلل ، وبعث إليه بألطاف تعمر ذوائب الأوصاف ، من طرف تلك الأطراف، واستعفى من تسليم كورخان متشفعاً ، إذ كان كورخان يتضرع إليه مستعفياً ويقول : إن هذا السلطان وأباه كانا يحملان إلىّ الأتاوة ، ويبذلان لى الطاعة . وقد نصرتهما[2] على عدة أعداء لها[3] ، وقد علم المنجد والغاير ، والمقيم والسائر ، ماكانا عليه من الخدمة . وحين ساعدته الأيام حتى رام من مناطحتى مالايرام ، رضيت معه بالمسالمة على أن أزوجه ابنتى وهى أعز خلق الله

---

(١) خاتون : لفظ تركى معناه سيدة ، ويستعمل فى الغالب فى معانى التبجيل والاحترام .

(٢) فى الأصل : نصرتهم . (٣) فى الأصل : لهم .

عندى ، مقرونة بسائر ماذكره من الشروط ، تفاديا[١] عن الهلك ، ونزولا عن الملك ، إذ رأيت أن لانجاة[٢] ، ولا رجاء ، ولا إبقاء ، ولا بقاء . فلم يجبنى إلى ذلك ، وأبى إلا أن يطلبنى بحشاشة تملكها الرعب ، واستولى عليها الذعر ، وليس يطلبنى الآن ملحا إلا للهلاك ، ويسومنى من الإذلال ما الموت دونه .

فرق له قلب كشلوخان ، وخشى أنه لو سلمه إليه يبقى عليه سبة عند الترك لايرحض[٣] مضرها ، ولا يدفع عن وجهه قترها[٤] ، فكان يدافعه يوماً إلى يوم ، ووقتاً بعد وقت ، إلى أن حدس السلطان بالمماطلة ، وانجذابه فى طول المطاولة . وحكى لى الأمير محمد بن قرا قاسم النسوى ، وكان آخر رسول السلطان إليه فى المعنى ، وقد أمره بمخاشنة كشلوخان فى الكلام ، ففعل ، فقيده كشلوخان إلى أن منّ الله عليه بالخلاص فى وقعة كانت بين كشلوخان وسرية من سرايا السلطان . ولما حضر المذكور باب السلطان مفلتا من ربقة الإسار ، وناجيا عما منى به من مشقة الذل والصغار ، وكان قد بلغ للسلطان صدقه فى مقالته ، ونصحه فى أداء رسالته ، فوعده الخير ومناه ، وحكمه فى اقتراح ماهواه وتمناه . فاقترح عليه مرسوم رياسة عامة بلاد خراسان ، فأمر له بذلك ومنى الرؤساء منه بداهية دهياء ، وحطة نكراء . ودخلت سنة ست عشرة وستمائة ، وهى التى سمتها العامة مشؤمة ، ولم يفرغ المذكور من خيانته لاتساع رقعة خراسان ، ولما ابتدلت المحاسنة بالمخاشنة ، اختار السلطان من عسكره ستين ألف فارس لقصد كشلوخان وحصده ، وانتزاع خان الخانية من يده ، بعد أن وجه إليه عدة سرايا التقوه فى عدة دفعات بكاشغر وغيرها كان أكثرها عليه[٥] .

---

(١) فى الأصل : اتفادياً . (٢) فى الأصل : نجا .

(٣) فى الأصل : لايرخص . ويرحض أى يغسل ويمحى . ويحتمل أن تكون «لايدحض» أى لايدفع . (٤) القتر : جمع قترة وهى الغبار .

(٥) انظر ما جاء عن كشلوخان ونشاطه فى إقليم التركستان إلى أن اعتلى عرش دولة الخطا فى كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٦٣ — ٦٥ . وراجع أيضا ما كتب عن هذا الموضوع فى كتاب Bretschneider : Op. cit , vol. i, pp. 230—231.

٥

ذكر هلاك كشلوخان على يد دوشى خان بن جنكزخان[1]
وذلك فى سنة اثنتى عشرة وستمائة
وقد أورده ابن الأثير فى سنة ست عشرة وذلك خطأ

ولما بلغ جنكزخان استيلاء كشلوخان على ملك كاشغر وبلاساقون وحصول كورخان بيده ، جرد إليه ابنه دوشى خان فى زهاء عشرين ألفا أو أكثر لتدارك أمره ، وحصد مانجم من شره . وكان السلطان إذ ذاك قصده من جهته فى ستين ألفا ، فلما أتى السلطان ماء أرغز وجد النهر جامداً فلم يمكنه العبور ، فأقام بالفرضة ، مرتقبا لميقات الفرصة فى عبوره إلى أن أمكنه ذلك ، فعبر وأخذ فى السير حاثاً ، وعن آثار كشلوخان باحثاً . فبينا هو يسير فى بعض الأيام ، إذ أتته طليعة من طلائعه ، مخبرة بخيل قد أقبلت ، فإذا بدوشى خان وقد ظفر بكشلوخان وقلعه عن أساسه ، وعاد براسه ، وقد أوقع به وبمن معه من الخطابية ، فتركهم جزراً للسيوف القواطع وطعماً للنسور الخوامع ، ومعه من الغنائم ماترك الغُبر دُهما[2] بسوادها ، فتطارد الشجعان وتجالد الفرسان سحابة يومهم ذلك[3] ، وبعث دوشى خان

---

(١) يقصد النسوى بدوشى خان ، جوجى بن جنكيزخان ، ولا مناس من القول بأن هذا خطأ واضح ، إذ الثابت أن الذى قاد الحملة المغولية ضد كشلوخان كان شبى نوين Chépé Noyen وليس جوجى بن جنكيزخان . والمعروف أن أولاد جنكيزخان الذين شاركوا أبيهم فى حروب المسلمين كانوا جوجى وأجتاى وجغتاى وتولوى .

ولفظ نوين No-yen كما ورد فى المرجع الصينى المعروف باسم Yüan shi لقب معناه أمير أوسيد أو قائد . انظر تفسير هذا اللفظ فى Bretschneider :Op. cit., vol. i, p.233, note 592. Howorth : Op. .cit., part iii, p.88 و القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٥ .

(٢) فى الأصل : ادهما .

(٣) كان جنكيزخان قد أمر قائده شبى Chépé بالبحث عن كشلوخان وإحضاره إليه حيا أو ميتا . وقد استطاع هذا القائد أن يثير الشعور الدينى لسكان التركستان ضد كشلوخان ، وذلك بأن أعلن الحرية الدينية فى كل مكان ، وكان الأهالى وبخاصة المسلمين منهم قد حرموا =

إلى السلطان من قال له ، إنه يقبل الأرض ، وينهى أنه لم يتعد إلى هذه الجهة متعديا طورة ، بل خدمة للسلطان ، وقلعا لمن نبذته كواذب الآمال، ودواعي المحال ، إلى أطراف مملكته . وقد كفى السلطان مؤنة النهضة ، وكلفة التجشم لأجله ، فأوقع به وبمن معه من أعداء السلطان ، فقرضهم عن آخرهم ، وسبى[١] ذراريهم وأهلهم، وساق غنائمهم ، وهاهى ذى بأسرها[٢] بين يدى السلطان يحكم فيها كيف شاء ، فإن رأى أن ينعم على من باشر القتال، وإلا فيوجه إلىّ من يتسلمها ويسوقها إلى مخيمه[٣] . وقد ذكر فى جملة ماذكر أن أباه أوصاه بسلوك مسلك الأدب إن صادف عسكراً من العساكر السلطانية فى وجهته تلك ، وحذره أن يبدو منه مايرفع ستر الاحتشام ، وينافى مذهب الإعظام . فلم تغن ملاطفته، ولم تنقص من قوى لجاج السلطان سحيلا[٤] إذ كان معه ضعفا[٥] ما كان مع دوشى خان من الرجال وأرباب الزحف والصيال.

واعتقد أنه لو قذفه ببعض رجومه ، لغادره رمادا تذروه الرياح العواصف وتقتسمه الجوانب[٦] والشمال . فأجابه السلطان بأن جنكزخان

= هذه الحربة فى عهد كشلوخان ، فثار الأهالى واستقبلوا المغول استقبالا حسنا. انظر Skrine & Ross . Op. cit , p. 157. ، ويذكر ڤامبرى Vambery أن كشلوخان كان يعتنق الديانة البوذية وأنه أخذ يعمل على نشرها فى دولته ، كما يذكر أن كشلوخان كان متزوجا من سيدة مسيحية وكانت أيضا تعمل على نشر دينها فى هذه البلاد . ويذكر برتشنيدر Bretschneider أن كشلوخان هو الذى كان يعتنق الديانة المسيحية شأنه فى ذلك شأن غالب أفراد قبائل نيمان Naimans وهم أهله وعشيرته ، وأن زوجته ، ابنة كورخان الخطا ، هى التى كانت بوذية الدين وأنها كانت تعمل على نشر الديانة البوذية . ومع أننا نميل إلى الأخذ بالرأى الأخير ، فإننا نخلص من هذا إلى أن المسلمين هم الذين كانوا موضع اضطهاد البوذيين والمسيحيين على السواء . انظر
Vambery . History of Bokhara, p. 121, note, 1.
Bretschneider : Op. cit., vol. i, p. 231.

(١) فى الأصل : سبا . (٢) فى الأصل : هاهى بأسرها .

(٣) يبدو أن هذا قول مبالغ فيه إلى حد كبير ، ويرجع هذا إلى أن النسوى ، وهو الذى عاش فى كنف الخوارزميين وفى ظلهم ، يريد أن يسبغ عليهم طابعا خاصا قوامه إظهارهم بمظهر القوة والبأس . ولذا يجب أن يقف الباحث موقف الحذر من المؤرخ ذى الطابع السياسى المعين أو المذهب الدينى الخاص .

(٤) أى فتيلا .

(٥) فى الأصل : ضعفاً . (٦) أى الجنائب .

إن كان أمرك أن لاتقاتلنى فالله تعالى قد أمرنى أن أقاتلك ، ووعد لى على قتالك الحسنى ، فلافرق عندى بينك وبين كورخان وكشلوخان لاشتراككم فى الشرك ، فأذن بحرب تتقصد فيها الرماح ، وتتحطم فيها الصفاح .

فعلم دوشى خان حينئذ أنه إن لم يصدق القتال كذب أمله وحان أجله ، فلجأ إلى المصاع [1] ، وفزع إلى القراع . فلما تقابل [2] الفريقان ، وتقابل الصفان ، حمل بنفسه على ميسرة السلطان فزقها تمزيقا ، وفرقها فى وجوه مهربها تفريقاً ، وكادت الهزيمة تستمر بالسلطان لولا عطفة من ميمنته على ميسرة اللعين ، انتصفت منها فشفت منها عليلا ، واستوفت قليلا ، وبردت غليلا ، فلم يدر منها الغالب والمغلوب ، والسالب والمسلوب ، وتفرق الفريقان يومهم ذلك على ميعاد استئناف الحرب من بكرة غد ، فأشعل [3] الكفرة جنح الليل نيراناً ، مظهرين بأنهم ثابتون ، وعلى نية الحرب بائتون ، وحثوا ظهور الخيل ، تحت ذيول الليل ، فقطعوا مسافة يومين فى تلك الليلة ، وتمكن فى قلب السلطان من الرعب والاعتقاد ببسالتهم ماإذا ذكروا فى مجلسه يقول : لم ير كرجالهم إقداماً وثباتاً على مضض الحرب ، وخبرة بقوانين الطعن والضرب .

ولما عاد السلطان إلى سمرقند ، خلع على أمراء الأصحاب ، وزاد فى إقطاعاتهم ودرجاتهم ، ولقب بوجى بهلوان منهم بقتلغ خان ، وأغل حاجب بأينانج خان ، وجازى كل واحد منهم الخير على إقدامه ، وثبات أقدامه .

وحيث أوردنا نبذاً من أحوال السلطان محمد فى شرح مبدأ التاتار ، نسوق باقى أخباره إلى أن نفذ فيه محتوم القضاء [4] وأذنت أيامه بالانقضاء ، ثم نقضى الحديث إلى الغرض المقصود من الأخبار الجلالية إن شاء الله تعالى .

---

(١) المصاع : القتال بالسيوف .

(٢) كذا فى الأصل ، وصحتها التقى .

(٣) فى الأصل : فأشعلوا .

(٤) فى الأصل : القضا .

٦

ذكر قصد السلطان بلاد العراق
سنة أربع عشرة وستمائة

لما عظم شأن السلطان ، وفخم أمره ، وتجلت له الدنيا فى أرفع ملابسها ، وأشرقت شمس دولته من أكرم مطالعها ، واستملئت جريدة ديوان(١) الجيش على ما يقارب أربعمائة ألف فارس ، سمت همته إلى طلب ما كان لبنى(٢) سلجوق(٣) من الحكم والملك ببغداد ، وترددت الرسل فى ذلك مراراً ، فلم يجب إلى المراد لعلمهم بما بين يديه من الشواغل بما وراء النهر وبلاد الترك ، إذ كان مهما قلع منهم طائفة طلعت أخرى لم يسمع بها ، وهو يتربص أثناء ذلك حصول المرام ، إيناء بالوقت إلى مرتقب الرجاء ومقتطف الأمل (٤) .

---

(١) الديوان ، كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر ، ثم تطور استعمال هذا اللفظ فأطلق من باب المجاز على المكان الذى تحفظ فيه السجلات الخاصة بأمور الدولة المختلفة . وقد اقتبس عمر بن الخطاب نظام الدواوين فى الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت الفتوحات فى عهده ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى ضبط أمور الدولة ، فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند ، وديوان الخراج لتدوين ما يرد إلى بيت المال من أموال . ثم اتسعت هذه الدواوين وتعددت فى عصر الدولتين الأموية والعباسية . انظر كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن بك ، ص ٢١٥ — ٢٢٣ .

(٢) فى الأصل : ببنى .

(٣) يكتب هذا الاسم بطرق مختلفة، فنراه فى غالبية المراجع العربية « سلجوق » ، ونراه فى بعض المراجع العربية الأخرى « سلجق » ومن هذه المراجع كتاب تاريخ دولة آل سلجوق لعماد الدين الأصفهانى والذى اختصره الفتح بن على البندارى ، إذ على الرغم من ذكر حرف « الواو » فى عنوان الكتاب فقد حذف هذا الحرف من صفحاته . ويكتب هذا الاسم أيضا « سلجك » كما جاء فى كتاب ديوان لغات الترك لمؤلفه محمود الكاشغرى . ويكتب أيضا « سلچوق » كما وجدته فى كثير من المراجع والكتب التركية، وأذكر على سبيل المثال منها كتاب أورته آسيا لبارتولد Barthold ، وكتاب گلشن معارف لمحمد سعيد ، وكتاب عثمانلى تاريخى لاحمد راسم.

(٤) استعان الخليفة الناصر لدين الله العباسى بعلاء الدين تكش خوارزم شاه على عدوه السلجوقى طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة فى العراق . وقد اشتبك تكش فعلا مع طغرلبك فى موقعة حربية سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، قضى فيها الخوارزميون على آخر سلاجقة فى العراق . وفى الوقت الذى ظن فيه العباسيون أنهم تخلصوا من النير السلجوقى ، نجد الخوارزميين =

وحكى القاضي مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي — وكان عند السلطان من ذوى الحظوة والاختصاص ، وقد أرسله إلى بغداد مراراً ، قال : كان آخر رسالاتي إليها مطالبة الديوان بما ذكرناه ، فأبوا ذلك وأنكروا كل الإنكار ، وقالوا : إن اختلاف الدول وتقلب الدهر وتغلب الخارجي على بغداد ، وتسحب الإمام القائم بأمر الله[1] ، رضوان الله عليه ، منها إلى حديثة عانة ، وانتصاره بطغرل بك[2] بن مكائيل ، والقصة مشهورة ، اقتضت تحكم بني سلجوق في بغداد ، وإلا فليس بحتم أن يكون مع الزمان على أكتاف الخلافة متحكم يأمر فيها وينهى كيف شاء ، بما سر وساء . ومهما احتجنا إليك في مثل ذلك ، ولا كان ذلك ، أجبناك إلى ما أجبنا أولئك . أوليس فيما أنعم عليه به من الممالك الواسعة الأقاليم ، المتباعدة المتشاسعة ، غنية عن الطمع في دار ملك أمير المؤمنين ، ومشاهد آبائه الراشدين !

قال : وأصحب[3] في عوده بالشيخ شهاب الدين السُّهروردي[4] ،

= يتوقون إلى أن يرثوا ما كان للسلاجقة في العراق من نفوذ وسلطان ، ومن ثم قاموا يتطلعون إلى الاستيلاء على بغداد نفسها ، وحاول علاء الدين محمد خوارزم شاه فعلا تحقيق هذا الهدف . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٥٠ ، وابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ص ٩٤ ، والمقريزي : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٤٠ .

(١) حكم الخليفة العباسي القائم بأمر الله من سنة ٤٢٢ / ٤٦٧ هـ (١٠٣١/١٠٧٥م) .

(٢) يكتب هذا الاسم أحيانا « طغرول » ، انظر كتاب گلشن معارف لمحمد سعيد ج ١ ص ٣٦١ . وقد ذكر لي الأستاذ المستشرق ڤلاديمير مينورسكي V. Minorsky ، الذي كان من حسن حظي أن اجتمعت به مراراً أثناء زيارته لمصر وأفدت من علمه الكثير ، أنه من الجائز أن ندون الأسماء التركية دون كتابة مافيها من حروف متحركة ، وضرب لي مثلا بأسماء القبائل الآتية التي يجوز كتابتها بأحد الوضعين الآتيين :

تَسلغُر أو شالغور : بايُندُر أو بايوندور . أيْغُر أو أويغور .

(٣) أصحب الرجل : صار ذا صاحب .

(٤) ينتسب شهاب الدين السُّهروردي إلى قرية سُهرورد بإقليم زنجان . وقد أقام هذا الرجل معظم أيام حياته في بغداد وتمتع بثقة الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، كما أنه كان من كبار رجال الصوفية في عصره ، وألف في التصوف كتابا سمى باسم « عوارف المعارف » ، وقد توفي سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) . انظر كتاب تاريخ الأدب الفارسي للدكتور رضا زاده شفق ، ص ١٩٧

رحمه الله، رسولا مدافعاً، وواعظاً وازعاً، عما كان يلتمسه السلطان، وتراجعت المراسلات فى المعنى وتكررت، فكانت غير مجدية. وانضاف إلى ذلك استهانتهم بالسبيل الذى كان للسلطان فى طريق مكة، حرسها الله تعالى، حتى بلغه تقديمهم سبيل صاحب الإسماعيلية[1] جلال الدين الحسن[2] على سبيله، فكان نكأً للقرح، وملحا فوق الجرح. وسمعت القاضى المذكور يقول: إن الشيخ شهاب الدين لما دخل على السلطان[3]، وعنده من حسن الاعتقاد برفيع منزلته، وعالى قدره وتقدمه فضلا على مشايخ عصره، ما أوجب تخصيصه بمزيد الإكرام، ومزية الاحترام، تمييزاً له عن سائر الرسل الواردة عليه من الديوان، فوقف قائماً فى صحن الدار، ثم أذن له بالدخول. فلما استقر المجلس بالشيخ قال رحمه الله: إن من سنة الداعى للدولة القاهرة أن يقدم على أداء الرسالة حديثاً من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم تيمنا وتبركا، فأذن له السلطان فى ذلك، وجلس على ركبتيه تأدبا عند سماع الحديث، فذكر الشيخ حديثا معناه التحذير من أذية آل عباس، رضى الله عنهم. فلما فرغ الشيخ من رواية الحديث، قال السلطان: أنا وإن كنت تركيا قليل المعرفة باللغة العربية، لكننى فهمت معنى ما ذكرته من

---

(١) سميت هذه الطائفة بالاسماعيلية لأن أتباعها يدينون بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق، واشتهروا أيضا بالباطنية لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، وسموا بالملاحدة لأن مذهبهم يقوم على الإلحاد. انظر القلقشندى: صبح الأعشى، ج ١٣ ص ٢٤٥. وقد عرفوا أيضا بالحشيشية. انظر ابن ميسر: أخبار مصر، ج ٢ ص ٦٨. وأبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين، ص ٥٢، ١٩٨ (طبعة R. H. C. O. tom. v). وقد سموا بالحشيشية لما عرف عنهم أو ألصق بهم من استخدامهم مادة الحشيش المخدرة فى التضليل بعقول من يدخل فى دعوتهم: انظر ما كتبناه عن طائفة الاسماعلية واستفحال شأنها فى أقاليم بلاد المشرق فى كتابنا: الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى، ص ٦٨ — ٨٨. وانظر أيضا كتاب: دولة النزارية أجداد أغا خان، للدكتور طه أحمد شرف.

(٢) ٦٠٧ / ٦١٨ هـ (١٢١٠ / ١٢٢١ م).

(٣) قابل السهروردى علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) بالقرب من مدينة همذان، وهو فى طريقه إلى غزو بغداد.

الحديث ، غير أنى ما آذيت أحداً من ولد عباس ولا قصدتهم بسوء ، وقد بلغنى أن فى محبس أمير المؤمنين منهم خلقا مخلدين[1] ، يتناسلون بها ويتوالدون ، فلو أعاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع ، وأجدى وأنجع . فقال الشيخ : إن الخليفة إذا بويع فى مبدأ خلافته ، بويع على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد أمير المؤمنين ، فإن اقتضى اجتهاده حبس شرذمة لإصلاح أمة لايقدح[2] ذلك فى طريقته المثلى . وطال الكلام فى المعنى ، ولست بمعيد ذلك ، إذ السكوت[3] عن أمثاله أقوم قيلا ، وأهدى سبيلا[4] .

وعاد شهاب الدين والوحشة قائمة على ساقها ، واتفق عقيب ذلك قتل الإسماعيلية أغلمش الأتابكى[5] ، وقد كان ناب عن السلطان بالعراق وركب يلتقى الحجاج منصرفهم من حج بيت الله الحرام ، فقفزوا عليه فى زى الحاج ، وانقطعت حينئذ خطبة السلطان بالعراق ، فحركته إليها إعادتها إلى حالها ، على ما نذكره إن شاء الله .

---

(١) فى الأصل : خلق مخلدون . (٢) فى الأصل : لاتقدح .

(٣) فى الأصل : إذا السكوت . (٤) راجع ما ذكره أبو المحاسن فى كتابه : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ص ٢١٩ — ٢٢٠ عن تفصيل المقابلة بين علاء الدين محمد خوارزم شاه وشهاب الدين السهروردى على لسان الأخير .

(٥) كان نظام الأتابكة من أهم مميزات العصر السلجوقى . ولفظ أتابك معناه « الأمير الوالد » أو أبو الأمير . ويرجع الأصل فى ذلك إلى أن سلاطين السلاجقة كانوا يعهدون فى تربية أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك ، الذين ترعرعوا فى كنفهم ، فإذا ما عين سلطان ما ، ابنا من أبنائه على مدينة من المدن ذهب معه هذا التركى (الوالد) ليعاون هذا الأمير فى حكم هذه المدينة ، ويسدى إليه ما يراه من النصائح . على أن السلاجقة توسعوا بعد ذلك فى معنى هذا الاسم ، بحيث أصبح يمنح كلقب من ألقاب الشرف لكبار رجال الدولة وقواد الجيوش . وسواء أكان هؤلاء الأتابكة من المربين لأمراء السلاجقة أم من قواد جيوش الدولة السلجوقية ، فإنهم كانوا فى الواقع أصحاب النفوذ الفعلى فى البلاد التى يعهد إليهم بالحكم فيها ، وخاصة بعد أن بدأت الدولة السلجوقية فى الانحلال .

ويلاحظ أن لفظ أتابك مكون من مقطعين ، « بك » ومعناه أمير ، و « أتا » ومعناه أب . انظر السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٩ . وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٢٤١ . وانظر أيضا ما كتبناه عن قيام دول الأتابكة فى بلاد المشرق فى كتابنا : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ٩١ — ١١٤ .

٧

ذكر مسير السلطان إلى العراق وما جرى له بها

لما قتل أغلمش وكان مقيما رسمى الخطبة والطاعة للسلطان بالعراق ، طمع الأتابكان أزبك بن محمد صاحب أران وأذربيجان ، وسعد بن زنكى صاحب فارس فيها. فنهضا إليها من جهتيهما اغتناما لنهزة خلوها عمن يحميها، ويقيم كلمة الدعوة فيها ، ولعلمهما ببعد السلطان وغوصه فى أعماق بلاد الترك وإشرافه أعاليها ، واشتغاله بذوبان الكفرة وسعاليها ، فرحل أزبك بعد انتثال كنانته فى الاستخدام والاتفاق إلى العراق ، فدخل أصفهان على مواطأة من أهلها ، وجاء سعد إلى الرى فملكها وملك معها قزوين وخوار[1] وسمنان[2] وما تاخمها وداناها . وتطايرت الأخبار بها إلى السلطان وهو بسمرقند فحركته همته التى كانت تستسهل[3] الوعر ، وتستقرب البعد ، لقصدهما وحصدهما ، فاختار من نجباء الرجال ، وسرعان الأبطال ، زهاء مائة ألف فارس وركز[4] معظم عسكره مع أكابر أمرائه ، وذوى الصيت من كبرائه ، ببلاد ماوراء النهر وثغور الترك . فلما وصل إلى قومس[5] ، اختار من المستصحبين اختيارا ثانيا ، ونهض فى اثنى عشر ألف فارس[6] خفافا ركضا ، بادر أفواج الرياح ، واقتصر أوقات الإظلام

---

(١) خوار : مدينة قريبة من الرى . ياقوت : معجم البلدان، ج ٣ ص ٤٧٣ .

(٢) سمنان : مدينة بين الرى ودامغان . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ١٢٩ .

(٣) فى الأصل : تسهل . (٤) فى الأصل : زكر .

(٥) قومس : أحد الأقاليم الواسعة ويقع فى سفوح جبال طبرستان . ويشتمل هذا الاقليم على مدن وقرى ومزارع كثيرة ، وحاضرته دامغان . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ص ١٨٥ .

(٦) فى الأصل : فارسا

والإصباح ، حتى سبق خبره إلى جبل برزك ، وهى كورة من كور الرى محدثة ، وسعد بظاهرها ، فلم يدر أسار إليه أم طار . فلما رأى سعد أوائل الخيل مشرفة عليه ، ظن أنهم من الأزبكية[1] المتنازعين فى ملك العراق ، فركب بنفسه وعسكره ، وصدق[2] القتال ، وحقق المصاع[3] والصيال ، وتوالت عليهم الحملات منه والأطوار متواصلة ، فحين شاهد السلطان جده ، وعاين وكده[4] ، أمر بنشر الجتر[5] — وكان ملفوفاً — فنشر . فحين تحقق أصحاب الأتابك أنه السلطان ، ولّوا على أدبارهم نفوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً . ونزل سعد فقبل الأرض ، فأخذه بعض من وصل إليه فكتفه وأحضره بين يدى السلطان ، فأمر بالاحتياط عليه إلى أن يرى فيه رأيه ، وبقى مكبولا ، وعلى بغل الحمل محمولا ، إلى أن وصل السلطان إلى همذان ، وقضى بها وطراً من أمر أزبك على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، فكانوا يحضرون الأتابك سعداً والملك نصرة الدين محمد بن بيشتكين والصدر ربيب الدين أبا القاسم بن على وزير أزبك ، وقد أسر عند انفلات أزبك على ما يجىء شرحه ، كل يوم إلى الميدان بهمذان والسلطان يلعب بالأكرة ، فيقامون هناك إذلالاً بهم ، إلى أن أمر بحل وثاقهم ، ومن عليهم بإطلاقهم ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) نسبة إلى أوزبك بن البهلوان أتابك أذربيجان .

(٢) فى الأصل : صدف .

(٣) المصاع : القتال بالسيوف .

(٤) الوكد : القصد .

(٥) الچيتْر ، بجيم مكسورة قد تبدل شيناً معجمة : المظلة . وقد كانت فى أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك فى مصر من شعار السلطنة ، وهى عبارة عن قبة من الحرير الأصفر المزركش بالذهب فى أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان فى العيدين . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٧ — ٨ .

٨

ذكر حال الأتابك أزبك وخروجه من أصفهان وإفلاته من حبالة القبض بعد أن قارنها

حدثني الوزير ربيب الدين المذكور، وكان من أكابر الزمان، وممن أشاب نواصي الأيام، في تقلد أشغال الديوان، وحين ملك جلال الدين[1] أذربيجان وأران على صاحبه، اختار العزلة، وجعل داره مدرسة، فسكنها منعكفاً على الطاعة مواظباً على العبادة، ختما بالسعادة، وتكميلا لأسباب السيادة، فلما سمع أزبك وهو بأصفهان[2] ماحل بسعد من الأسر، أخذه بها المقيم المقعد، وملكه المزعج المكمد، ورأى الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت، ولم تبق له همة سوى العود إلى دار ملكه، والخلاص عما أشرف عليه من هلكه، ركب مغِذّاً السير[3] إلى أن قارب همذان، معتقداً أن السلطان مقيم بالرى أو صامد صمد أصفهان. فأخبر وهو على مسيرة يوم من همذان أن السلطان بها يرتقب أخبارك، وقد أذكى العيون عليك فى كل مرصد، وبث طلائعه على كل جهة ومقصد. فعندها سُقِط فى يده[4]، وفتّ فى عضده، لانعكاس تدبيره، وانكشاف العواقب عن ضد ما أحاله من قداح تقديره. فتحير لا يدرى الرأى فى وجه إقباله، أو فى ظهر إدباره. فاستشار إذ ذاك بصحابه فيما دهاه، واستقدح آراءهم فيما عراه، فأشار بعضهم بالعود إلى أصفهان، ورأى بعضهم البدار إلى أذربيجان فى خفة من العدد وتخليف الأثقال

(١) المقصود هنا جلال الدين منكبرتى آخر سلاطين الدولة الخوارزمية.

(٢) تكتب هذه المدينة أيضا أصبهان. انظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ٢١٩، وياقوت: معجم البلدان، ج ١ ص ٢٦٩.

(٣) أى مسرعا. وقد نقلها هوداس عن النسخة الخطية، معدا السير.

(٤) سَقَطَ فى يده: ندم. وسُقِطَ فى يده: زل وأخطأ وتحير.

عرضة للنهب وطعمة للمكتسب . قال : وأنا قد أشرت عليه دون الجماعة بالتحصن بقلعة قزوين ، وكانت قريبة ، وهى من أمهات قلاع الأرض ومشاهير حصونها التى قال الشاعر فيها :

يطير عُقاب الجو فى جنباتها(١) وللنسر فى حافاتهن مقيـــل

فلم يشبهها من رواسى الجبال ، ومبانى القلال ، إلا قليل ؛ وهى إذ ذاك له فقال أزبك فى جوابه : ماذا يضر السلطان لو تحصنت بالقلعة أن يأمر بعض أمراء العراق بمحاصرتى فلم يزل حاطاً عليها محيطاً بها حتى يبلغ المراد؟

وبالجملة فكانت زبدة محضهم أنه وجه أثقاله وخزانته ومعظم جيشه مع الملك نصرة الدين محمد بن بيشتكين صوب تبريز(٢) ، طالباً بها خلاصه ؛ وشاغلا بها من نوى اقتناصه . واستصحب من خواص أتراكه زهاء(٣) عن مائتى فارس . فأخذ بهم نحو أذربيجان فى المسالك الوعرة ، والجبال الصعبة ، إخفاء للخبر ، وطمساً على الأثر . ووجه الوزير المذكور إلى السلطان برسالة يعتذر عن جنايته ، فيرحض(٤) عنه دنس العصيان ، وتخيل ما صدر منه على وساوس الشيطان . فوقع الأمير دكجك السلاح دار(٥) مقطع كبوذجامة وهى من نواحى مازندران ، على أثقاله ، وعامة رجاله ، ليلا ببعض

---

(١) فى الأصل: جانباتها . والعُقاب : طائر من الجوارح .

(٢) تبريز : حاضرة أذربيجان . ومما يذكر أن هولاكو مؤسس دولة إيلخانات المغول فى فارس اتخذ من هذه المدينة حاضرة للملك فترة من الزمن . وتمتاز هذه المدينة بمبانيها المزينة بالقاشانى والجص والكلس . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٥٧

(٣) الزهاء بضم الزاى : المقدار .

(٤) يرحض : يغسل .

(٥) كان ديوان الجيش من أهم دواوين الدولة الخوارزمية ، ففيه يدبر كل ما يلزم الجيش من أسلحة وذخائر وعتاد وأموال ، ويتبع هذا الديوان « بيت السلاح » الذى تحفظ فيه الأسلحة المختلفة، ويشرف عليه رجل عرف بالسلاح دار، كما يقوم بالعمل فيه عدد كبير من الصناع يشتغلون فى إصلاح الأسلحة . انظر القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج ٤ ص ١١ — ١٢ .

تلك المراصد ، فمزقها بدداً ، وفرقها طرائق قِدداً[1] ، وتتبع الجفلة إلى نيناخ ، وهي كورة من كور أذربيجان على حافة النهر الأبيض ، وأسر الملك نصرة الدين محمد بن بيشتكين ، وانضمت حبالة الأسر على معظم من صحبه ، فجمعت أكابر وأصاغر[2] وتركت العزيز منهم صاغراً . وأما الخزائن والأثقال والأعلام والطبلخاناة[3] فقد شملها النهب ، وتقاسمها الكسب . وصودف ربيب الدين الوزير في الطريق حين رخصت الأغراض ، وأبيحت الأموال والأعراض ، فسيق في الأسرى إلى المخيم ، ولم يصدق في رسالته ، واعتقد أنه زورها عند اضطراب الحال حيلة للخلاص ، لات حين مناص . فلينظر المتأمل إلى هذه الهمة السلطانية ، أنها سمت من أعالي ما وراء النهر إلى كبس ملكين بالعراق ، فنال منهما ما أراد ، واستوفى عليهما الثأر وزاد ، فأما الملك نصرة الدين محمد فقد بقي مأسوراً ، يحضر كل يوم الميدان مهاناً ، مقروناً بالأتابك سعد والوزير ربيب الدين ، إلى أن رجع نصير الدين دولتيار وكان متوليا[4] منصب الطغراء للسلطان وهو من المناصب الجليلة عندهم[5] ، غير أنه دون كتابة الإنشاء[6] في بيت الخوارزمشاهية ، وفوقها عند

(١) طرائق قِدَد : أي جماعات متفرقة ، والمفرد قِدّة .

(٢) في الأصل : أكابراً وأصاغراً .

(٣) الطبلخاناة : بيت الطبل ، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٣ .

(٤) في الأصل : متولى .

(٥) الطغراء : كلمة تختلف في اشتقاقها ، فيقول البعض إنها أخذت عن التركية ، ويقول البعض الآخر إنها أخذت عن الفارسية ، ويقول فريق ثالث إنها دخلت في التركية نقلا عن صيغة التأنيث العربية ، طغراء على وزن فعلاء . والطغراء هي الطابع أو التوقيع ، والطغرائي هو الموظف الموكل بالتوقيع . انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة Tughra.

(٦) كان ديوان الانشاء أول ديوان وضع في الاسلام ، إذ كان النبي في حاجة إلى أن يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه ، كما كان في حاجة إلى الكتابة إلى الملوك العديدين بغية دعوتهم إلى الاسلام . وكان يقوم بالكتابة في عهد النبي أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب . على أن الكتابة فوضت إلى كاتب مختص في عهد الأمويين ، ومن أشهرهم عبد الحميد الكاتب ، فلما =

السلاجقة ، وكان السلطان قد بعثه رسولا إلى الأتابك أزبك بعد إفلاته من شباكه ، يأمره بإقامة رسمى الخطبة والسكة باسمه ، فى عامة بلاد ممالكه ، وأن يحمل كل سنة إلى الخزانة (١) السلطانية أتاوة معينـة . فأما الخطبة والسكة فقد لبى (٢) دعوة السلطان فيهما سريعاً ، وأجاب إليهما جميعاً . وخُطب للسلطان على منابر أران وأذربيجان إلى ما يلى دربند شروان ، وأظهرت الأفراح ، وعملت البشارات ، ونصير الدين حاضر ، وسير إلى السلطان من الهدايا والألطاف ماصار دون بلاده حجاباً ، وسد بينها وبين من يعارضها أبواباً . وسلم قلعة قزوين للسلطان خدمة ، واعتذر فى أمر الأتاوة بأن الكرج (٣) استضعفوا جانبه واستولوا على أطراف بلاده ، وهذه حاله والبلاد بما تثمر من الأموال له ، فكيف إذا انقسمت وحمل منها أتاوة ، وزيدت على حملها علاوة . فصدقه السلطان فى ذلك وأعفاه (٤) منها ووجه إلى الكرج رسولا يحذرهم قصد بلاده ، ويقول (٥) إنها صارت كإحدى ممالكه الخاصة . وبحت (٦) منابرها بذكر اسمه ، وحليت نقودها بزينة وسمه ،

= جاءت الدولة العباسية كان ديوان الانشاء يضاف تارة إلى الوزارة وتارة يعهد إلى كاتب يختص به ، وفى الحالة الأولى أضيف لقب الكتابة إلى الوزارة ، أما فى الحالة الثانية فقد عرف هذا بديوان الرسائل ، وكان من يتولاه يسمى صاحب ديوان الرسائل أو متولى ديوان الرسائل ، وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات أو متولى ديوان المكاتبات ؛ وقد عرف هذا الديوان فى أحيان أخرى بديوان الانشاء ، وفى هذه الحالة لقب من يتولاه بصاحب ديوان الإنشاء ، ومن أشهر كتاب العباسيين ووزرائهم ، يحيى بن خالد البرمكى ، وابن المقفع مترجم كتاب كليلة ودمنة. انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ص ٩١ — ١٠٤ ، ج ٣ ص ٤٩٠ — ٤٩٢ ، ج ٥ ص ٤٦٤ — ٤٦٥ . وانظر أيضا المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٤٥ حاشية ٢ .

(١) أفرد الخوارزميون لأموال الدولة ديوانا خاصا يشرف عليـه رجل عرف بالخازن أو الخازندار ، يساعده موظفون مختصون بتسجيل الوارد والمنصرف من الأموال . انظر كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٨٣ — ٨٤ .

(٢) فى الأصل : لبّا .

(٣) أى أهالى جورجيا .

(٤) فى الأصل : عفاه .

(٥) فى الأصل : يقول .

(٦) فى الأصل : بوّحت ، وربما قصد النسوى بهذا التحريف السير وراء ما يتعمده من سجع متكلف .

ولولا عود السلطان من العراق عاجلا لأسباب نذكرها [1] لبلغ أزبك من الكرج ما أراد بالخطبة السلطانية ، إذ كان السلطان قد نص على خمسين ألف فارس من نخب عسكره يغزون الكرج . نعم وعاد رسول السلطان من الكرج ومعه رسولهم مصحوباً بالتقاديم ، من طرف ذلك الإقليم ، ولم يدرك السلطان إلا بعد عبوره جيحون [2] .

---

(١) اضطر علاء الدين محمد خوارزمشاه إلى العودة بجيوشه إلى خراسان كيما يستعد لمواجهة الخطر المغولى ، إذ أن جنكيزخان كان ينتظر الفرصة الملائمة للانقضاض على الدولة الخوارزمية وإبادتها ، فإن الحوادث التاريخية فى هذه الأثناء كانت قد قادت المغول إلى متاخمة البلاد الاسلامية وإيجاد علاقة صداقة بين الطرفين تطورت بعد ذلك إلى علاقة عداء ، وانتهى هذا كله باكتساح المغول أقاليم الدولة الخوارزمية .

(٢) أى عبور علاء الدين محمد خورزم شاه إلى الضفة الشرقيــة لنهر جيحون لمقاومة الغزو المغولى فى إقليم ماوراء النهر . فقد ركز جنكيزخان جهوده للاستيلاء على هذا الإقليم دفعة واحدة ، وبذلك باغت الخوارزميين فى كل جزء من أجزاء هذا الاقليم ، الذى يعتبر مفتاح الدولة الخوارزمية كلها .

ومما هو جدير بالذكر أن علاء الدين محمد خوارزم شاه قد ا صرف عن مشا كله فى أقاليم الدولة المختلفة إلى رسم الخطط لمواجهة الغزو المغولى ، فاهتم منذ حل بإقليم ماوراء النهر بتوزيع قواته على المدن المختلفة فى هذا الاقليم ، فتفرق الجيش الخوارزمى مما سهل على المغول الاستيلاء على المدينة تلو الأخرى ، وانتهى الأمر بفرار علاء الدين محمد إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية . انظر كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص١١٧ — ١٣١ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٨ .

٩

ذكر ما آل إليه أمر نصرة الدين محمد بن بيشتكين بعد الأسر

كان نصرة الدين محمد المذكور يحضر كل يوم الميدان ، فيوقف والسلطان يلعب بالأكرة[١] ، فنظر إليه ذات يوم فإذا بأذنيه حلقتان كبيرتان مجوفتان فى غلظ سوارين ، فسأله عن ذلك فقال : إن السلطان ألب أرسلان ابن داود[٢] ، لما غزا الكرج ونصره الله تعالى عليهم[٣] ، سيق أمراؤهم بجرائم القسر ، إلى موقف الأسر ، فأنعم عليهم بالإطلاق ، وأمر أن يشنفوا لكل واحد منها بحلقتين يكتب عليهما اسم السلطان ، ففعل . فلما تطاولت المدة ، وذهبت قواعد الدولة ، جعلوا أولئك ربقة للطاعة ما خلا جدى ، فإنه أسلم وسلمت بلاده وأعقابه ببركتى الإسلام والوفاء . فرق له قلب السلطان ، ورغب أن يدخر لنفسه مثل تلك الأحدوثة ، ويجمع إلى مفاخره حمال تلك الحلة الموروثة ، فخلع عليه للوقت خلعة رسمية ، وأحضره الميدان ، فلعب معه بالأكرة . ولما عزم على العود من العراق خلع عليه أخرى ملوكية أسنى ما يكون من الخلع وأبهاها ، وأمر بأن يكتب له توقيع بما كان تحت يده من البلاد التى ورثها أباً عن جد ، مثل مدينتى أهر[٤]

(١) لعبة الأكرة هى اللعبة المعروفة حاليا باسم البولو Polo . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ س ٤٤٤ حاشية ١ .

(٢) هو ثانى سلاطين السلاجقة العظام ، وقد حكم من سنة ٤٥٥ / ٤٦٥ هـ (١٠٦٣ / ١٠٧٢ م) . انظر Lane-Poole : Op. cit., p. 153. وانظر لسب هذا السلطان أيضا فى كتابنا : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١٥٨ .

(٣) حدثت الحرب بين ألب أرسلان وبين الكرج سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) . راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٥ — ١٧ .

(٤) أهر : إحدى مدن أذربيجان وتقع بين أردبيل وتبريز . وقد عرفت هذه المدينة بكثرة خيراتها . ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٧٩ .

ووراوى[1] بقلاعهما وأعمالهما ، وسأله عن أقرب المدن إلى بلاده مما تملكه أزبك فقال : مدينة سراه[2] . فأمر بإضافتها إلى ما تحويه يده قديما مذكورة فى التوقيع ، وغُيِّرت الحلقتان فكتب عليهما اسم السلطان .

وعاد نصرة الدين بالبشر واليسار ، متخلصاً من ذل الإسار ، وحيث كان التوقيع ذكر فيه مدينة سراه بأعمالها ، وهى من بلاد أزبك ، لم ير إظهاره ، فاذخره فى خزانته مكتوماً ، وأودعه فيها مختوماً ، إلى أن ملك جلال الدين تبريز ، منتزعها من يد أزبك ، حضر بابه بالتوقيع من غير مراسلة ، ولا تقديم استحلاف ، فلما وقف جلال الدين على التوقيع العلائى[3] ، أمر بإحياء رسمه ، وإمضاء ما كتب باسمه ، فخص المذكور من سائر أكفائه بالتقريب والترحيب ، والبر الرائع والبشر الخصيب . وجاء الخير بأسره ، ببركات أَسره ، وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً .

(١) وراوى : إحدى المدن الواقعة فى جبال أذربيجان بين أردبيل وتبريز ، وبينها وبين أهر مسافة قصيرة . ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٤١٣ .

(٢) لعلها سراو ، وهى إحدى مدن أذربيجان وتقع على مسيرة ثلاثة أيام من مدينة أردبيل فى اتجاه تبريز ، وقد استولى عليها المغول سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ، وأتوا على جميع سكانها . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ٥٨ — ٥٩ .

(٣) نسبة إلى علاء الدين محمد خوارزم شاه .

١٠

ذكر عاقبة الأتابك سعد بن زنكى صاحب فارس

ولما أسر الأتابك سعد ، انتصب مكانه ابنه نصرة الدين أبو بكر[١] منصبه ، واستمال قلوب الأمراء بالبذل والإحسان ، وطلاقة اليد وذلاقة اللسان فأذعنوا له بالطاعة ، واتفقت على متابعته كلمة الجماعة . وحيث علم السلطان أنه لا يفرغ لاستصفاء مملكة فارس ، إذ كان جل همه قصد بغداد ، منّ عليه بالإطلاق وتسلم منه قلعتى إصطخر وأسكناباد ، وهما مبنيتان على شواهق الجبال ، تدل على حصانتهما شوارد الأمثال . فسلمهما إلى المويد الحاجب[٢] وزوّج الأتابك سعد بامرأة من أهل بيت والدته تركان خاتون[٣] ، وشرط عليه أن يحمل كل سنة إلى الخزانة السلطانية من بلاده ثلث الخراج ، وعاد الأتابك بالخلع والتشريفات . فلما وصل إلى كرسى ملكه وهو مدينة شيراز ، امتنع عليه ابنه أبو بكر ، وأبى أن يسلم

(١) حكم من سنة ٦٢٣/٦٥٨ هـ (١٢٢٥/١٢٥٩ م) . انظر نسب هذا الأتابك فى كتابنا : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١٦٨ .

(٢) كانت الحجابة من أهم مميزات السلطنة عند الخوارزميين وخاصة فى أواخر أيامهم . إذ كان للخوارزميين حجاب مهمتهم حجب السلطان عن العامة وغلق بابه دونهم أو فتحه لهم فى الأوقات المناسبة ، وليس هناك من شك فى أن تمسك الحكام بالحجابة ، كما يرى ابن خلدون ، لمن أقوى الأدلة على ضعفهم. انظر كتابنا: الدولة الخوارزمية والمغول ، ص٧٩.

(٣) تنتسب تركان خاتون ، زوجة علاء الدين تكش خوارزم شاه ، إلى قبيلة كانكالى Cancalis ، التى كانت تسكن فى شمالى إقليم خوارزم ، وقد أنجبت له علاء الدين محمد . وكان لهذه المصاهرة أثر كبير فى سياسة الدولة الخوارزمية الداخلية بوجه خاص فى عهد علاء الدين محمد ، إذ نزح عدد كبير من كبار رجال هذه القبيلة إلى أراضى الدولة الخوارزمية ، وتكونت منهم عصبية كبيرة فى جوف الدولة أخذت تتحكم بالتدريج فى وظائف الدولة ومواردها وتناهض قوة السلطان نفسه .

الملك إليه، وسولت له نفسه مغالبة أبيه، فزيّن فى عينه تمنعه وتأبّيه، إلى أن فتح الباب على غفلة منه حسام الدين تكش باش، أكبر مماليك الأتابك والمقدم فى دولته، فلم يردع[1] أبا بكر إلا دخول أبيه عليه، وكان بيده سيف مجرد، فضرب وجه ابنه ضربة أثرت فيه، وحجز بينهما اختلاط الفريقين، فأمر الأتابك بالقبض عليه، فقبض وأودع السجن مدة إلى أن انقضت، ورضى عنه وعفا. وعظم حال حسام الدين عنده، ورقاه إلى درجة الملوكية[2]، إلى أن توفى سعد وقام ابنه أبو بكر مقامه، فشام حسام الدين برق العطب والويل، فامتطى صهوات الخيل، وهرب تحت ذيول الليل، وخلف من الأموال والتحمل ما لا تحمله الظهور، وقد نضدته السنون والشهور، ناجيا إلى جلال الدين بحشاشة نفسه[3] كالمحشور من رمسه. فملّكه جلال الدين خلخال[4] بقلاعها وأعمالها حين ملكها على مليان الأتابكى، على ما نذكره، فأقام بها إلى أن قتل بعد خروج التاتار فى سنة ثمانى عشرة[5] وستمائة.

---

(١) فى الأصل: يرع.

(٢) أى منحه لقب ملك.

(٣) فى الأصل: نفس.

(٤) خلخال: إحدى مدن أذربيجان، وتقع على مسيرة سبعة أيام من قزوين، ويومين من أردبيل.

(٥) فى الأصل: ثمانى عشر.

١١

ذكر قصد السلطان محمد بغداد وعوده عنها

لما قضى السلطان وطره من استصفاء مملكة العراق وإخلائها (١) ممن نازعه فيها ، عزم على قصد بغداد ، وسيّر أمامه من العساكر ما غصت به البيداء ، وضاقت برحبها عن ضمها الفلا ، وسار وراءهم إلى أن علا عقبة سد أباد ، وكان قد قسّم (٢) نواحى بغداد وهو بهمذان أقطاعاً وعملا ، وكتب بها توقيعات ، فنزل عليه بالعقبة ثلج طمت الأباطح والأعلام ، وغطت الخراكى والخيام ، ودام ثلاثة أيام بلياليها . فكان الحال كما وصفه الشاشى القفال :

نثر السحاب من السماء دراهما وكسا الجبال من الحواصل ملبسا
والريح باردة الهبوب كأنها أنفاس من عشق الحسان وأفلسا

فعظم إذ ذاك البلاء ، وأعضل الداء ، وصارت الأرض كأنها ببياضها سوداء ، وشمل الهلاك خلقاً كثيراً من الرجال ، ولم ينج شيء (٣) من الجمال ، وتلفت أيدى رجال وأرجل آخرين ، ورجع السلطان عن وجهه ، ذلك على خيبة مما هم به ، ويأس مطلبه ، وورد شهاب الدين الشهروردى رسولا مستشفعاً ، بالله منذراً ، وعن البغى محذراً . وندم السلطان على ما ارتكبه من إزالة الحشمة ، وإضاعة الحق والحرمة الواجبة مراعاتهما على كل ذى دين قويم ، وعقل سليم ، ومعتقد بأن ربه أثبت جنة وجحيما ، وعلم أن ذلك البيت (٤) هو الذى يؤيده الله بملائكة سمائه ، وله سر فى إدامته وإبقائه ، فمن عاند خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين (٥) .

---

(١) فى الأصل : اجلائها . (٢) فى الأصل : اقسم .
(٣) فى الأصل : شياً (٤) المقصود هنا بيت بنى العباس .
(٥) يقال إن بعض خواص علاء الدين محمد خوارزم شاه قالوا له فى هذه المناسبة ، أى بعد أن حلت به الهزيمة : « إن ذلك غضب من الله حيث قصدت بيت الخلافة » . انظر السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٨ .

١٢

ذكر ماقدّم السلطان من أمور يقتضيها الحزم والناموس قبل قصده العراق

منها ضرب نوبة ذى القرنين[١] ، وقدكان فى الأزمنة المتقادمة تضرب له النوب الخمس ، فى أوقات الصلوات الخمس ، أسوة بسائر[٢] السلاطين ، إلى أن أعلى الله شأنه[٣] ، وعظم سلطانه ، فوّض عند قصده العراق النوب الخمس إلى أولاده السلاطين يضربونها فى الأقاليم التى سماها لهم على أبواب دور السلطنة بها ، وسيجىء تفاصيل تفويضها ماعيّن باسم كل واحد منهم فى موضعه ، واختار لنفسه نوبة ذى القرنين ، وأنها تضرب فى وقت طلوع الشمس وغروبها ، فاستعمل لها سبعة وعشرين دبدبة من الذهب ، قد رصعت مضاربها بأنواع الجواهر . وهكذا كل ما تحتاج النوبة إليه[٤] من آلاتها ، ونص أول يوم اختير لضربها على سبعة وعشرين ملكا[٥] من أكابر الملوك وأولاد السلاطين ، يضربونها للسمعة ، منهم ابن طغرل بن أرسلان السلجوقى ، وأولاد غياث الدين صاحب الغور وغزنة والهند ، والملك علاء الدين صاحب باميان ، والملك تاج الدين صاحب بلخ ، وولده الملك

---

(١) لفظ النوبة له معان اصطلاحية مختلفة ، أحدها فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس نوبات ويكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح . والنوبة عند المغنين اسم لآلات الطرب إذا أخذت معا ، وربما أطلقت على المطربين بها إذا اجتمعوا ، ويقال لهم النوبتجية عند الأتراك . هذا ويقال ضربت النوبة بمعنى صدر الأمر للعسكر بالتقهقر . والنوبة أيضا الوقعة الحربية . وخيل النوبة هى التى تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب ، وتسمى أيضا فرس النوبة . المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٤٦١ ، حاشية ٢ .

(٢) فى الأصل : أسوة سائر . (٣) فى الأصل : علاالله شانه .

(٤) فى الأصل : إليها . (٥) فى الأصل : ملك .

الأعظم صاحب ترمذ ، والملك سنجر صاحب بخارا وأشباه أولئك . وبالجملة أعوزه لتمام سبعة وعشرين ملكا فكملهم بابن أخيه أربزخان ، ووزير الدولة نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح . فهؤلاء هم الذين ضربوا الدبادب في اليوم الذى اختير اضربها .

ومنها أنه لما عزم على المسير إلى العراق أراد تنظيف ما وراء النهر ممن له إنكار فى الاعتقاد ، ونار تحت الرماد . فسير الملك تاج الدين بلكاخان صاحب أترار[1] إلى مدينة نساء ليقيم بها . وبلكاخان هو أول من مال من الخطابية إليه ، وكان ذا جمال يسلخ الليل البهيم نهاراً ، وينسخ الصريم[2] تلألاً وإسفاراً . ولما ملك السلطان ما وراء النهر على الخطابية ، بادر إلى خدمته طائعاً راغباً ، إذ كان يمت إليه بوسيلة لا يرى إخفارها فى دين المروءة ، وشرط الحفاظ والفتوة . وذلك أن شهاب الدين الغورى لما قصد خوارزم بعد وفاة السلطان تكش[3] فى عدده الدثر[4] ، وعسكره المجر[5] ، قبل استقامة أمر السلطان ، وما دعته[6] الحيلة فى دفعه ، فأقام تاج الدين بنفسه وابن عمه سلطان السلاطين[7] عثمان صاحب سمرقند بعسكريهما ،

(١) تعتبر مدينة أترار مفتاح إقليم ما وراء النهر ، وتقع على نهر سيحون . وتشتهر هذه المدينة بحادثتين هامتين فى التاريخ ، فقد كان استيلاء المغول عليها سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) بداية سقوط أقاليم آسيا الغربية فى أيدى المغول . وفى مدينة أترار أيضا توفى تيمورلنك سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، بينما كان يتأهب لقيادة حرب ضد إمبراطور الصين . وقد ذكرها الملك هيثون Haithon ملك أرمينية الصغرى فى مذكراته واعتبرها أعظم مدن التركستان . وذكرها أيضا يى لوشوتساى Ye-lu Ch'u Ts'ai وزير جنكيزخان وسماها باسم O-ta-la . راجع Bretschneider : Op. Cit., vol.ii, pp. 56—58 .

(٢) الصريم : الليل .

(٣) توفى تكش سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) ، إثر مرض ألم به ، ودفن فى مقبرة خاصة فى إحدى المدارس بخوارزم . ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٧٣ .

(٤) فى الأصل : الدثور . والدثر بمعنى الكثير .

(٥) المجر بفتح الميم وسكون الجيم بمعنى الجيش العظيم .

(٦) فى الأصل : داعته .

(٧) يسمى أيضا خان خانان .

وجماعة من الخطايية ، فكبسا شهاب الدين الغورى باندخوذ[1] على ما شرحه ابن الأثير فى كتابه المعروف بالكامل ، وأكثر القتل فيمن معه من غزاة أصحابه ، ومطوعة أجناده[2] . فكان تاج الدين يعتقد أن الذى سبق له من الحق يورثه عند ظهور السلطان دوام إقبال ، ومزيد عزة وجلال . فلما وصل إلى السلطان أكرمه وعظمه، وذكر له من الحق ما كان قدمه، إلى أن سنح له المسير إلى العراق ، ورأى تخلية ما وراء النهر عنه ، فسيره إلى نساء ليقيم بها ، وقد قصد بتسييره إلى نساء دون سائر البلاد كونها وبيّة جداً ، شديدة الحرارة كثيرة الأمراض ، لم تزل الأنفس بها شاكية ، والثواكل باكية[3]. ولم يعش الترك بها إلا أدنى مدة فى أنكد عيشة . وأقام المذكور بها سنة وأكثر ، صابراً للدهر على تصاريفه ، ومدارياً للزمان على شدة تكاليفه ، يزداد على الأيام كرم طباعه ، وتتضاعف فى الجود سعة باعه، فلم يدخل أحد عليه بسلام إلا حظى منه بالإنعام. وقد وافقه هواؤها وماؤها خرقا للعادة، حتى ازداد حسناً بها وبهاء . وقد شغف قلوب خاصتها وعامتها حباً ، وملأ كلا منهم[4] من مودته قلباً . وبلغ السلطان ذلك فعلم أنه ما يبلغ غرضه منه عاجلا إلا برفض حجاب الوفاء، وأدّراع لأمة الجفاء، فسيّر إليه من جزّ علاوة أجذعيه[5] وأبكى[6] العيون دماً عليه .

وحكى لى من حضر الفجعة الفاضحة ، قال: كنا جلوساً عند ظهير الدين مسعود بن المنوّر الشاشى وزير السلطان بنساء ، إذ أتاه آتٍ وأخبر أن

---

(١) اندخوذ : إحدى مدن خراسان بين بلخ ومرو . ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٤٥ .

(٢) راجع الحرب بين علاء الدين محمد خوارزم شاه وبين شهاب الدين الغورى فى كتاب ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٧٦ — ٧٨ وص ٨٠ — ٨٢ . وانظر أيضا كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢٥ — ٢٧ .

(٣) فى الأصل : بالية .

(٤) فى الأصل : كل منهم .

(٥) أجذعيه : تثنية جذع ، وأعلاه الرأس ، والمقصود بهذه العبارة جز الرأس .

(٦) فى الأصل : أبكا .

جهان بهلوان ، وهو إياز الطشت دار [1] ، وقد ارتفع من حضيض [2] الطشت دارية إلى يفاع [3] الملكية ، وتقدم على عشرة [4] آلاف فارس . وكان متعيناً لجزء الرءوس ، وإزهاق [5] النفوس ، قد وصل فى نفر يسير ، فدهش الوزير المذكور ، وهاله ما سمع من وصوله ، وظن أن الحادثة عليه ، ولم يبق معه من آثار الحياة [6] إلا نفَس ضعيف كاد أن ينقطع . فأخبر أن الواصل نزل بدار السلطنة ، وقال : أحضروا الظهير والأعيان ، فركب إليه الظهير ، وكان لضعف بنانه لا يقدر على أخذ عنانه ، إلى أن حضر فناوله جهان بهلوان توقيعا ، فلما فرغ من قراءته ، نَشِيَ [7] وروِّى ، واستحضروا الملك تاج الدين بلكاخان لمهم ورد من الأبواب السلطانية احتيج فيه إلى حضوره ، فحضر فى طائفة من خواصه ، فأدخل إلى بعض المخازن ، فإذا ببعض الزنود قد خرج ورأسه بيده فوضعه جهان بهلوان فى مخلاة ورجع للوقت . فأفّـا للدنيا الخداعة ، وتفّـا لا يرثى لمقتول ولا يبقى على قاتل ، تفانى [8] الرجال على حبها ولا يحصلون على طائل . وحمل إلى الخزانة السلطانية من خزائنه جواهر [9] ما لم يسمع بمثلها [10] نفاسة وكثرة .

ومنها أنه سير إلى خوارزم برهان الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز البخارى المعروف بصدرجهان رئيس الحنفية ببخارا وخطيبها ، وإذا سمع

---

(١) الطشت دار ، هو أحد الموظفين الذين يعملون فى « الطشتخاناه » أى المكان الذى يحوى الطشت الذى تغسل فيه الأيدى ، والطشت الذى تغسل فيه الأقمشة . وكان الطشت خاناه يحوى ملابس السلطان وكذا المقاعد والمخاد والسجاد الذى يصلى عليه السلطان . ويعرف بعض الصبيان الذين يعملون فى هذا المكان بالطشت دارية ، ويعرف بعضهم الآخر بالرختوانية . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٠ — ١١ .

(٢) فى الاصل : خصيص .

(٣) فى الاصل : نفاع .

(٤) فى الأصل : عشر .

(٥) فى الاصل : وارهاق .

(٦) فى الاصل : الحيوة .

(٧) فى الاصل : نشا .

(٨) فى الأصل : تفانا .

(٩) فى الاصل : جوهره .

(١٠) فى الأصل : بمثله .

السامع بأنه خطيب بخارا يعتقد أنه كان مثل سائر الخطباء فى ارتفاع قدر الارتفاع ، واتساع رقعة الأملاك والضياع ، وامتطاء صهوة المجد والتحكم فى أزمّة الكرم العيد . وليس الأمر كذلك ، بل المذكور لا يقاس إلا برتوت[1] السادات وقروم[2] الملوك ، إذ كان فى جملة من يعيش تحت كنفه[3] ، وإدارة سلفه ، ما يقارب ستة آلاف فقيه . وكان كريما عالى الهمة ، ذا مروّة ، يرى الدنيا هباءة[4] منثورة بين أخواتها الثائرة ، بل نقطة موهومة من نقط الدائرة . وكانت سدته ميقاتاً للفضل وأهليه ، وموسماً للعلم ومنتحليه ، يجلب إليها بضاعات الفضائل فتبتاع[5] بأكمل الأثمان . وله بخوارزم بعد عثار الزمان به مواهب يضيق عن مثلها رحب الصدور ، عند استقامة الأمور . فأقام بخوارزم مسلوب المراد ، ممنوعا عن الإصدار والإيراد ، إلى أن تقاضاه الزمان بدينه فجرعه كأس منيته[6] ، فقتل عند إجفال تركان خاتون عنها ، وأقام السلطان عند نقله إلى خوارزم مقامه فى رئاسة الحنفيـــة والخطابة ببخارا ، مجد الدين مسعود بن صالح الفراوى ، أخا نظام الملك وزيره ، ولقّبه بصدرجهان . وحدثنى القاضى مجير الدين عمر بن سعد قال : وصــل السلطان إلى بخارا بعد أن رتّب مجد الدين المذكور فى الصدرجهانية ، وتعين أن يخطب بنفسه عند حضور السلطان ، وكان نظام الملك محمـد يبغض أخاه مجد الدين مسعودا بغضاً شديداً ولا يختار أن يستقيم له حال ، أو يقوم له جاه . فحضرت صحبة نظام الملك الجامع ، عند أخيه الخطيب فى حجرته بالجامع ، على يمين المنبر ، فقال لى نظام الملك : له شوّشت عليه اليوم خطبتـه حتى يحـصَر ، فلك عندى

---

(١) رتوت ، جمع رت ومعناه الرئيس المقدم .

(٢) قروم ، جمع قرم وهو السيد العظيم فى قومه .

(٣) فى الأصل : كتفه .

(٤) فى الأصل : هباة .

(٥) فى الأصل : فيبتاع .

(٦) فى الأصل : منيه .

ما تريد . فقلت له : لاشك أن الذى تشير به إلىّ خطر ، فإن عملته لم أرض إلا بالبغلة التى بالباب بسرجها ولجامها وسلعشارها[1] ، فوعد لى بذلك . فرفعت يدى إليه مرات مشيراً فـحصـر وأطرق طويلا، إلى أن ثابت[2] نفسه إليه وتعجب الناس من حصره الذى لم تجر له به عادة وأخذت البغلة بما عليها وتمت الحيلة . ولما عاتبنى مجد الدين على ما فعلته قلت له : كنت قد أشرت إليك أن ترفع صوتك عند دعاء السلطان فلم تفهم ، فقبـل العذر . وبقى المذكور فى ذلك المنصب الجليل إلى أن استولى التاتار على بخارا فقتل بها[3] .

ومنه أنه سيّـر إلى شيوخ الإسلام بسمرقند ، جلال الدين ، وابنه شمس الدين ، وأخاه أوحد الدين إلى نساء ، تحرّزاً من قيامهم ، وإطفاء لضرامهم ، وكانوا سادات الأرض ، آداباً بارعة ، وأقداما لأعلام العلوم فارعة . وكان أوحد الدين آية فى علم الجدل ، يناضل العميدى[4] فيخرق

---

(١) أى عدتها .
(٢) فى الاصل : تابت

(٣) استولى جنكيزخان على مدينة بخارى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) . وقد انهـارت قوتها التى كانت تبلغ عشرين ألف رجل أمام استعداد المغول وقوة روحهم المعنوية وما يقـابل ذلك من ضعف فى الروح المعنوية عند المسلمين . وقد أهان المغول المسلمين فى دينهم بأن دخلوا مسجد المدينة بخيولهم وأخذوا يشربون فيـه الخمر ويطربون ، كما أعمل المغول القتل والنهب فى المدينة ثم أشعلوا النيران فيها ، وقد وصف ابن الأثير يوم سقوط المدينة بقوله :

« وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدى سبأ ، وتمزقوا كل ممزق . واقتسموا النساء أيضا ، وأصبحت بخارا خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس . وألقوا النار فى البلد والمدارس والمساجد ، وعذبوا الناس بأنواع العذاب من طلب المال » . انظر ابن الأثير : الـكامل ، ج ١٢ ص ١٦٨ — ١٦٩ .

وقد استمرت بخارى فترة من الزمن عبارة عن أطلال لا تجد من يبكيها حتى شرع جنكيزخان نفسه فى إصلاحها وإعادة بنائها ، وذلك قبل موته بزمن قصير .

انظر Abulgasi: Histoire Généalogique des Tatars, p. 266 .

(٤) هو ركن الدين العميدى ، أحد المبرزين فى المذهب الشافعى ، وقد توفى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

عليه قرطاس الأدلة ، ويساجل النيسابورى [1] فيقطع عليه الدلى [2] .

فأما أوحد الدين فقد مات بنساء غريباً ، ولم يجد من مساعدة الزمان نصيبا .

وانتقل جلال الدين وهو الكبير إلى دهستان بعـــد وفاة أوحد الدين فاستُدْعِىَ [3] من أمين الدين الدهستانى ، وكان وزيراً بها ، وبمازندران من قبل السلطان ، فأقام عنده مكرماً إلى أن قضى الدهر بالبوار ، على أهالى الأمصار ، عند خروج التاتار ، وانتشارهم فى سائر الديار . فلم أدر ما كان عاقبة أمره .

أضاقت به حالٌ ، أطالت له يدٌ   أأخره نقصٌ أقدَّمه فضل ؟ [4]

ومنها أنه قسم الملك بين أولاده . فعين لكل واحد منهم بلاداً ، ففوض خوارزم وخراســان ومازندران إلى ولى عهده قطب الدين أزلاغ شاه ، واختار لتواقيعه طرة من غير تلقيب وهى «السلطان أبو المظفر أزلاغ شاه ابن السلطان سنجر ناصر أمير المؤمنين » . وكانت [5] عادتهم ان لا يكتبوا المولى عندهم لقباً فى الطرة إلى أن يقوم مقام والده بعده فيلقب بلقبه . وسبب تخصيصه بولاية العهد دون أخويه الكبيرين جلال الدين منكبرتى وركن الدين غورشايجى ، اتباع السلطان رأى والدته تُركان خاتون ، وتحريه مرضاتها ، إذ كانت أم قطب الدين دون ســائر أمهات الأولاد وربات الأفلاذ من قبيـــلة بياووت عشيرة تركان خاتون ، وهى فرع من فروع يمك [6] . وفوّض ملك غزنة وباميان والغور وبُست [7] وتكياباذ

---

(1) هو قطب الدين النيسابورى أحد أئمة الشافعية وتوفى سنة ٥٠٦ هـ (١١١٢ م) .

(2) الدلى جمع دلو . والمساجلة معناها المساقاة بالسَّجل وهو الدلو إذا كان فيه ماء قل أو كثر . وقد توسعوا فى استعمال هذه الكلمة حتى استعملت فى المحاجة .

(3) فى الأصل : فاستدعا.

(4) أورد هوداس Houdas هذا البيت منثوراً .

(5) فى الأصل : وكان .

(6) عاد علاء الدين محمد خوارزم شاه فعدل عن وصيته وهو على فراش الموت سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) وأوصى بولاية العهد لابنه جلال الدين منكبرتى من بعده ، لثقته فى شجاعته من جهة ، ولأن أمة تركان خاتون قد وقعت أسيرة فى أيدى المغول من جهة أخرى .

(7) بست : مدينة بين سجستان وغزنة وهراة . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١٧٠ .

وزمين داور[1] وما يليها من الهند إلى ولده الكبير جلال الدين منكبرتى، واستوزر له الصدر شمس الملك شهاب الدين ألب الهروى ، وحيث كان لم ير انفصال جلال الدين عن خدمته لمحبته له واعتقاده ببسالته استناب عنه بها كربر ملك ، فنهض إليها وضبطها فحسنت فى السياسة سيرته ، ودعت[2] له من الملوك جيرته ، وأقام بهـا إلى أن سار جلال الدين إليها بعد خروج التاتار على ما يأتى شرحه. ونص ملك كرمان وكيش ومكران على ولده غياث الدين پيرشاه ، واستوزر له الصدر تاج الدين بن كريم الشرف النيسابورى ، فسار بعد ظهور التاتار إليها فملكها إلى أن خلت العراق ممن يقوم بضبطها بعد وفاة السلطان وتسحب جلال الدين إلى الهند فسار إلى العراق واستناب الحاجب براقا بكرمان ، فسلم إليه مفاتيح ملكه ، تمكيناً له فى هلكه[3] ، وسنذكر باقى أحواله فى موضعها . وسلم ملك العراق إلى ولده ركن الدين غورشايجى ، وكان أحسن أولاده خَلقا وخُلقا ، وجوّد الخط، وكتب فى حداثته ختمةً بخط يده . وكان كريما عادلا خير الطبع ، واستوزر له عماد الملك محمد بن الشديد الساوى ، وقد ناب المذكور بخوارزم عن نظام الملك[4] فى الوزارة عدة سنين ، ونال فيها رتبة لم ينلها قبل من تولاها ، إذ كان كافيا ذا دهاء وذكاء ، وتمكن عند السلطان لما كان يعتقد فيه من النصح ، فقام

---

(١) بين سجستان والنور . (٢) فى الأصل : وادعيت .

(٣) كان براق الحاجب قائدا من قواد دولة الخطا الذين دخلوا فى خدمة علاء الدين محمد خوارزمشاه ، وقد اتخذ هذا الرجل من الفوضى التى أعقبت غزو جنكيزخان فرصة لتأسيس دولة له فى كرمان سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١ م). على أن براق الحاجب لم يستطع أن يستقل كثيرا بهذا الاقليم ، إذ لم يلبث أن أظهر خضوعه للخوارزميين بعد أن عاد جلال الدين منكبرتى من بلاد الهند ، وكان قد فر إليهـا فى أثناء الغزو المغولى ، واستطاع إلى حين أن يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية . انظر كتابنا : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١١١ .

(٤) كان نظام الملك من الوزراء المقربين إلى تركان خاتون أم عـلاء الدين محمد خوارزم شاه .

سوق جاهه عنده إلى أن فوضت إليه وزارة ركن الدين بالعراق واستولى على أعماله وأشغاله . وكان ركن الدين يكره تحكمه واستبداده ، ويخالف فى ذلك هواه ومراده ، مداراة له لعلمه بحسن اعتقاد السلطان فيه . واختير لتواقيع ركن الدين من الطرة ، السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبو الحارث غورشايجى بن السلطان الأعظم محمد قسيم أمير المؤمنين . وكان سبب تسميته غورشايجى أنه ولد يوم وردت البشارة على السلطان بتملك الغور . وزوجه السلطان ابنة هزارسف ملك الجبال[1] ، لصفاء نيته ، إذ كان من جملة مجاوريه ، وسيجىء باقى أحواله بعد .

---

(١) أى العراق العجمى

١٣

ذكر الحوادث بعد عود السلطان من العراق

لما وصل السلطان إلى نيسابور منصرفه من العراق ، ورد الخبر بموت مؤيد الملك قوام الدين والى كرمان ونائبه بها ، فملّك السلطان ولده غياث الدين پيرشاه كرمان وكيش ومكران . فسار غياث الدين إليها ، واستقام أمره بها ، إلى أن خلت له مملكة العراق فملكها من غير مدافع ولا منازع(١)، وخُطب له على سائر منابر مازندران وخراسان ، إلى أن طلع جلال الدين من الهند فكبسه بالرى وانتزعها منه على ما يأتى شرحه(٢). وكان مؤيد الملك من جملة الرعاع ، رفعه السلطان وساعده الزمان حتى بلغ من رتبة الملوكية ما عز مناله . ومبـــدأ أمره أنه كان ابن داية نصرة الدين محمد بن لز صاحب زوزن (٣) ، واختاره رسولا إلى الأبواب السلطانية فى مهماته ، واستقضاء حاجاته ، فنصحه فى الرسالة عـــدة مرار إلى أن سولت له النفس تقبيح حال مرسله طمعا فيما كان يتولاه ، فرمى إلى السلطان أن صاحبه فاسد العقيدة له باطن مع الباطنية (٤) ، ثم رجع إليه وقال : إن السلطان يعتقد أنك باطنى ، وإنى أخشى عليك مغبّة(٥) هذه التهمة، وعاقبة

---

(١) أى بعد أن غزا المغول هذه الأقاليم ورحلوا عنها .

(٢) انظر كتاب D'ohsson : Op. Cit., t. iii, p.8 & seq. .

(٣) زوزن : إحدى مدن خراسان وتقع بين نيسابور وهراة . انظر خريطة الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها .

(٤) عرفت طائفة الإسماعيلية أحيانا بالباطنية لمـا اشتهروا به من أنهم يبطنون خلاف ما يظهرون . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ س ٢٤٥ .

(٥) فى الأصل : مغبة .

هذه الظنة . فاستولى عليه الهول والوهل [1] ، فأزعجه عن مكانه الوجل ، فانقطع إلى الاسماعيلية ببعض قلاعها المتاخمة لزوزن . وكتب قوام الدين بصورة الحال إلى السلطان ، ففوّض إليه وزارة زوزن على أن يجبي أموالها للخزانة السلطانية ففعل ، واستمر الأمر على ذلك . ثم رأى أنه لم يهن له ما يتبلغه ونصرة الدين بالقرب منه ، فكاتبه خادعا له ، يؤمله إصلاح أمره مع السلطان حتى انخدع ورجع إلى زوزن ، فكحله ووكل به من سمله ، غير راع حق الإنعام ، ولا ناظر فى سوء الأحدوثة على تناسخ الأيام . فلما استقام أمره بزوزن ، طمع فى مغالبة صاحب كرمان وانتزاع الملك من يده ، وكان من بقية أولاد الملك دينار . فكاتب السلطان يطمعه فى تملكها إن أنجده بمن يجاور زوزن من عساكر خراسان ، فأنجد بعز الدين جلدك وطائفة أخرى . فاستولى على كرمان فى أقرب مدة ، وحمل إلى السلطان ماوجد لهم بها من صامت وناطق ، وصاهل وناعق [2] فاستحسن السلطان أثره ، ورفعه من زى الاتضاع ، إلى ثريا الارتفاع . وخاطبه بالملك ، ولقبه بمؤيد الملك ، واستنابه بكرمان وأجراها فى إقطاعه ، فأوسعها عدلا وإنصافاً حتى ازدادت عمارتها أضعافاً ، وكثر ماخصه [3] من ذوات النتاج على اختلاف أجناسها ، حتى تضاءل [4] خراج كرمان فى جنبها .

ولما رجع السلطان من العراق وقد تفانت جماله ، قُدّم له بنيسابور أربعة آلاف من البخاتى التركيات ، وحُمل إلى خزانة السلطان بعد وفاته من جملة موجوده من الذهب سبعون حملا ، ماخلا سائر الأصناف ، واتفق وصولها رحيل السلطان من حافة جيحون مجفلا من التاتار ، فرميت بختومها فى جيحون بما هو أعظم منها قدراً من الخزانة المستصحبة .

---

(١) الوهل : الفزع .

(٢) أى أخذ ماوجده من خيل وأغنام .

(٣) فى الأصل : لخاصه .   (٤) فى الأصل : تضأل .

ولما ألقى السلطان عصا القرار بنيسابور بعد انكفائه من العراق[1]، عزل نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح عن الوزارة . وسبب ذلك أنه كان ينقم عليه أحداثاً . ويحقد عليه عادات ، منها شرهه بالبراطيل ، وتعريضه[2] المهام بها للتعطيل ، والمصالح للتبطيل . وبالجملة كان الرجل قليل الحظ من أدوات الوزارة ، لم يوجد فيه منها سوى المنظر والكرم المفرطين .

وكان السلطان ما استوزره باجتهاد من رأيه ، بل كان المذكور غلام والدة السلطان وابن غلامها ، فحين عزل السلطان وزيره نظام الملك محمد بن نظام الملك بهاء الدين مسعود الهروى عن الوزارة ، شاورها فيمن يصلح ، فأشارت عليه بأن يستوزر المذكور . وكان السلطان لا يخالف أمرها فى دقيق الأمر وجليله ، وكثيره وقليله ، لأمرين : أحدهما ما ندب إليه من بر الوالدين ، والثانى أكثر أمراء الدولة كانوا من عشيرتها[3] ، وبهم نازع الخطائية فانتزع الملك من أيديهم . فأجابها إلى ذلك ، على كره باطن ، وإنكار

---

(١) أى بعد عودته من حملته فى الأقاليم العراقية سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ، والتى كان يبغى من ورائها الاستيلاء على بغداد وتوطيد نفوذه فيها ، موطداً العزم على أن يحتل نفس المكانة التى كانت للبويهيين والسلاجقة من قبل . انظر كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٣٠ — ٤٦ .

(٢) فى الأصل : تقريضه .

(٣) كانت سياسة الدولة الخوارزمية نحو العناصر التركية خيرمشجع لهذه العناصر على النزوح إلى أراضيها والاستيطان فيها ، فقد نزح إلى أراضى هذه الدولة عدد كبير من رجال هذه القبائل التركيــة المرابطة على حدودها فى الشمال ، ومنها قبائل كانكالى Kankalis ، وخاصة بعد أن تزوج علاء الدين تكش خوارزم شاه من تركان خاتون التى تنسب إلى أحد فروع هــذه القبائل ، فكان من أثر هذه الرابطة أن نزح عدد كبير من رجالها إلى قلب الدولة ، وتكونت منهم جالية قوية أخــذت تتحكم بالتدريج فى وظائف الدولة المختلفة ، كما أخذت تسيطر على أقاليمها المتعددة ، وانتهى الأمر بهؤلاء الحكام إلى أن نافسوا سلاطين الخوارزميين أنفسهم ، بل نراهم فى كثير من الأحيان يعمدون إلى إرهاب الأهالى المغلوبين على أمرهم ؛ ويعملون السلب والنهب فى أموال المسالمين منهم حتى اضطرب الأمن فى البلاد ، وعجزت الدولة كما عجز الأهالى عن رد عادية المعتدين منهم .

فى الصدر كامن[1] . وفوض أمر الوزارة إلى المذكور ، وكانت تبلغه عنه بلاغات لا يرتضيها مما يزيده على توبيخ وملام يسمعه على لسان بعض الخواص ، إلى أن أقام بنيسابور منصرفاً من العراق ، والقاضى بها حينئذ ركن الدين المغيثى ، وقاضى العسكر صدر الدين الجندى .

وكان صدر الدين يمت إلى السلطان بخدمة سلفه ، وقد خدم[2] السلطان تُكُش أيام كان صاحب جند[3] ، وقد أقطعها له والده إيل أرسلان ، وهو مع توسله بهذه السابقة كان ذا قضاء حاجة وفضيلة ، وديباجة للوجه جميلة . فولاه السلطان قضاء نيسابور وتوابعها تنويها لقدره[4] ، وإنافة بذكره ، وتمييزاً له عن أكفائه بمزيد الرعاية وجديد الولاية . وخلع عليه خلعة سنية بالساخت والسرفسارات[5] والطوق[6] ، وعلى عشرين نفسا من إخوته ونوابه ووكلائه . وأوعز إليه على لسان بعض الحجاب أن لا يقدم لنظام الملك تقدمة ، ولا يحمل إليه خدمة ، وقال : أنا الذى أهلتك لما وليتك برأيي ، فليس لأحد فى ذلك عليك حق يقتضى أن تجازيه ، ولا سعى ينبغى أن تكافيه . فأتاه آت من نظام الملك سراً وحذره عاقبة الإهمال ،

---

(١) يتضح من هذه العبارة كيف كان السلطان الخوارزمى مغلوبا على أمره أمام العناصر التركية ، صاحبة النفوذ الفعلى فى الدولة . (٢) فى الأصل: خدموا .

(٣) جند : إحدى المدن الواقعة على نهر سيحون . انظر ما كتب عن أهم الحوادث فى تاريخ هذه المدينة فى كتاب Bretschneider : Op. Cit., vol. ii,pp. 95-96 .

(٤) كان النظام القضائى فى الدولة الخوارزمية من الأمور التى أولاها سلاطينهم عناية كبيرة، فعينوا لكل مدينة قاضيا يحكم فى الناس حسب الشريعة الاسلامية . وفى المدن الكبرى التى يبدو فيها الاختلاف المذهبى بين السكان واضحا ، كان الخوارزميون يعينون فيها أكثر من قاض لينظر كل فيما يعرض عليه من قضايا ويقضى فيها وفق مذهبه . وكان القضاة إلى جوار النظر فى القضايا يقومون بتدريس العلوم الدينية فى المدارس والمساجد .

(٥) فى الأصل : السرفرسارات .

(٦) يبدو أن الساخت كان عبارة عن درع يجهز به الحصان إذا ما أعد للحرب . أما السرفسار فهو بلاشك نوع من العمائم ، وأما الطوق فعبارة عن ذيل الحصان . ويستعمل كمقبض للحربة .

وخوفه سوء مغبة[1] الإغفال ، وقال : إياك أن تتكل على عناية السلطان وتهمل جانب الديوان . ففزع القاضى وحمل إلى نظام الملك كيسا مختوما فيه أربعة آلاف دينار[2] . فنبه السلطانَ على ما ارتكبه القاضى من مخالفة أمره بعضُ عيونه الموكلة بنظام الملك ، فطلب أن يحمل إليه ما حمله القاضى سراً ، فأحضرت بختمها ، فلما حصل القاضى المجلس العام سأله السلطان عما حمل لنظام الملك . فأنكر كل الإنكار ، وأصر غاية الإصرار ، وحلف برأس السلطان أنه ما حمل للوزير ديناراً ولا درهما . فعند ذلك أمر السلطان بإحضار الكيس فحضر ووضع بين يدى القاضى فلم يزد على الإطراق ، وشم الأرض بالإحداق . ثم أمر للقاضى بالخلعة فانتزعت منه ، وحملت بعينها إلى القاضى المعزول ، وأعيد إلى منصبه ، فكان بين تولية صدر الدين وعزله يوم أو يومان .

وتقدم السلطان إلى جهان بهلوان بقطع أطناب سرادق نظام الملك ورميها عليه ففعل ، وقال : ارجع إلى باب أستاذك - يعنى والدة السلطان - فرحل للوقت على وجل غامر قلبه ، ورعب سلب لبه . ولم يبق بالوصول إلى خوارزم سالماً خوفاً مما يحدث من نتائج سخط السلطان عليه .

---

(1) فى الأصل : مغية .

(2) كان الدرهم يساوى أربعة قروش تقريبا ، وكان الدينار يساوى اثنى عشر درهما . وعلى هذا الأساس فإن هذا المبلغ يوازى حوالى ١٩٢,٠٠٠ من الجنيهات المصرية تقريبا .

١٤

ذكر حال نظام الملك بعد العزل

توجه من نيسابور إلى خوارزم يطوى المراحل كطى السجل للكتاب ، راضياً من الغنيمة بالإياب . فلما وصل إلى مرج سائغ — وهو من المروج المشهورة بقرب قلعة خرندز[١] ، مسقط رأسى ومنشأ أساسى — نزلت إلى خدمته نيابة عن والدى بالتقادم والعلوفات على جارى العادة ، وشيعته إلى مرحلة جرمانى — وهى ضيعة من أملاكنا فيها عين ماء تقارب نبع رأس عين الخابور — فضربت له بها على العين ثلاثة[٢] سرادقات منها شقة أطلس وقد ضربت لجماعة من مماليكه فى ذلك النهار النوب الثلاثة ، هذا وهو مطرود ، وحيث حل من البلاد قصده ذوو الحاجات وأرباب الظلامات فيبت الأحكام فى القضايا[٣] الجليلات والأمور المعظمة ، ولم يجسر أحد يقول إنه معزول ، ونُصب عشية نهـــاره ذلك تخت على باب سرادقه فجلس عليه .

وكان من حيث فارق السلطان رتب على الطريق خيالة يعلمونه بمن يرد من الأبواب السلطانية وراءه ، فأتاه[٤] بعضهم فى ذلك الوقت مخبراً بأن الحاجب أربز بن سعد الدين سهم الحشم واصل ، فأمتقع[٥] لونه ، وانقطع قلبه وأطرق مفكراً ، ولم يدر أطالع ضيافة أم طارق آفة . إلى أن وصل وقبل

(١) فى النسخة الخطية خرندر ، وقد كتبها دوسون Kharender ، ووصفها بأنها كانت من قلاع خراسان الحصينة ، كما ذكر أن هذه القلعة كانت ملجأ للفارين من وجه العدالة . انظر D'ohsson : Op. Cit., t. i,p. 227. وقد فضل هوداس Houdas فى الترجمة الفرنسية أن يكتبها خرندز Khorendez مهتديا فى ذلك برأى المستشرق شيفير M. Schefer.

(٢) فى الأصل : ثلاث .

(٣) فى الأصل : العصايا .

(٤) فى الأصل: فأتاهم .

(٥) فى الأصل: فامتعض .

الأرض مستوفياً آداب الخدمة على العادة ، فثابت نفسه إليه ، وذهب سوء الظن عنه ، وسأله عن سبب وروده فقال : السلطان يطلب دفاتر ديوان الوزارة وجرائده[1] ومخزنه[2] وكتابه ومتصرفيه ، فارتاح لذلك وأصحبه الدفاتر بكتابها ، ورحل صوب خوارزم سائراً ، بل طائراً . إذ كان لا يثق بخلاصه من أشداق الفناء ، وكان يوم وصوله إليها يوماً مشهوداً ، لتقدم تركان خاتون إلى أهلها وضيعهم وشريفهم ، وكبيرهم وصغيرهم بالتقاء المواكب الناصرية[3] .

وحدثني من حضر قال : تأخر برهان الدين رئيس أصحاب أبي حنيفة بخوارزم وصدورها ، فجاء في أخريات الناس واعتذر في تأخره بالضعف . فقال الوزير : نعم لضعف النية لا لضعف البنية . ثم أطلق الأتراك عليه بعد أيام بمائة ألف دينار[4] ، لما نقم عليه من تأخره .

وكان كريم الدين الطيفوري عاملا بنواحي خوارزم من قبل السلطان ، والعامل هو الوالي عندهم ، فقبض عليه ناصر الدين وصادره على مال جليل . فلما تخلص منه قصد خدمة السلطان بماوراء النهر وشكا إليه سوء ما عامله به ناصر الدين ، فوجه السلطان عز الدين طغرل ، وكان من خواصه ، إلى خوارزم وأمره بحمل رأس ناصر الدين إليه ، فلما قارب خوارزم ، وقد علمت تركان خاتون قبل وصوله القضية وما وُجِّهَ لأجله ، أحضرته بغير اختياره إلى بابها ، وتقدمت إليه بأن يحضر دار الديوان وقت جلوس ناصر الدين في دست الوزارة ، وكانت قد فوضت إليه وزارة قطب الدين أزلاغ شاه ، ولي عهد السلطان ، صاحب خوارزم

(١) الجريده : الفرقة من العسكر الخيالة لارجالة فيها . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٠٦ حاشية ٨ .

(٢) أي الخزانة .

(٣) نسبة إلى الوزير نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح .

(٤) أي ٤٨,٠٠٠ من الجنيهات المصرية تقريبا .

ويبلغه على رءوس[1] الأشهاد سلام السلطان ، ويقول له : إن السلطان يقول مالى وزير غيرك ، فكن على رأس عملك . فليس لأحد فى سائر أقاليم الملك أن يخالف أمرك ، وينكر قدرك . ففعل المذكور ذلك وما كاد ، وخالف المرسوم والمراد . واستمرت أوامر ناصر الدين بخوارزم وخراسان ومازندران[2] دون سائر الأقاليم نافذاً ، وأحكامه مطاعة[3] .

وكان السلطان لما استوزره ، أمر بأن يحمل معه أربع حراب مغشية النصب بالذهب ، أسوة بمن[4] تقدمه من كتاب الوزراء ، فجعلت بخوارزم ثمانى[5] حراب ، وهى على هذا القياس زيد فى جميع مراتبه ، كل ذلك يبلغ السلطان وهو بما وراء النهر ، فيزيده غيظاً على غيظ ، وسخطاً على سخط .

وكان من عاداتهم القديمة التى اقتدوا فيها بالسلاجقة أن تكتب فى كل توقيع السلطان قبل التاريخ ، « كتب بالأمر الأعلى أعلاه الله ، والمثال العالى ، الصاحبى ، المعظمى ، الصدرى ، الأعظمى ، العالى ، العادلى ، المؤيدى ، المظفرى ، المنصورى ، المجاهدى ، المرابطى ، القوامى ، النظامى ، العمدتى ، العدتى ، الكهفى ، الخالصى ، القطبى ذى المناقب ، والمناصبى قطب الميامن ،

---

(١) فى الأصل : رؤس .

(٢) أى الأقاليم التى اختص قطب الدين أزلاغ شاه بحكمها نيابة عن أبيه علاء الدين محمد خوارزم شاه .

(٣) يجدر بنا أن نذكر هنا أن الخوارزميين قد عهدوا بحكم أقاليم دولتهم إلى رجال أطلقوا على الكثيرين منهم لقب وزير . فكان لكل مدينة أو مقاطعة حاكم يلقب فى غالب الأحيان بهذا اللقب . وكان الوزراء يعيشون فى الأقاليم التى تسند إليهم الوزارة فيها من إقطاعات مقررة يمنحهم السلطان إياها ، فيستولون على دخلها وتكون لهم بمثابة ضيعات خاصة ، هذا إلى جانب مرتباتهم بحكم الوظيفة . أما ما يدفعه الوزير لخزانة الدولة سنويا فكان فى العادة عشر خراج الإقليم الذى يحكمه .

وكان منصب الوزارة أكبر عون للخوارزميين طالما كان السلطان الخوارزمى مهيمنا على شئون الدولة ، ولكن لما تفاقم نفوذ الأتراك ، صار هذا المنصب من أكبر العوامل فى إضعاف الدولة ، إذ خرج الوزراء على طاعة السلطان واستبدوا بموارد الدولة وثرواتها .

(٤) فى الأصل : أسوة من .

(٥) فى الأصل : ثمانية .

والسعاداتى قدوة صدور العرب ، والعجمى ملك وزراء الشرق ، والمغربى دستور إيران وبوارى أيتانج قتلغ ألغ ملكا ، أعظم خواجه جهان[١] ، لازال عاليا . ورسالة فلان » . فهكذا كانوا يذكرون ناصر الدين إلى أن عزل عن نيسابور . ولما استوزر بخوارزم لم يغير[٢] منها إلا لفظة واحدة ، وهى أنهم جعلوا مكان خواجه جهان[٣] ، خواجه بزرك[٤] .

وعجز ذلك السلطان القاهر بعظمته وتسخيره الجبابرة وإذلاله الأكاسرة عن شفا غيظه فى بعض غلمانه ، ليعلم أن الدنيا لم يصف مشاربها عن قذى ، ومواهبها عن أذى . ونص السلطان بعد عزله لقضاء أشغاله تتعلق بالوزير على ستة من الوكيلدرية ، وشرط عليهم أن لا يبتوا أمراً إلا باتفاق ، وهم نظام الدين كاتب الإنشاء[٥] ، ومجير الملك تاج الدين أبو القاسم ، والأمير ضياء الدين البيابانكى ، وشمس الدين الكلاباذى[٦] ، وتاج الدين بن كريم الشرق النيسابورى ، والشريف مجد الدين محمد النسوى ، فنى الناس ببلية تخيروا معها أيام ناصر الدين ، إذ كان إرضاء واحد على العلات أسهل من إرضاء ستة ، واستمر الأمر على ذلك إلى أن انقرضت الدولة العلائية[٧] .

---

(١) فى الأصل : جهانى .
(٢) فى الأصل : يغو .
(٣) خواجه جهان ، عبارة فارسية معناها سيد العالم .
(٤) فى الأصل : بزركى . وخواجه بزرك عبارة فارسية معناها السيد الكبير .
(٥) راجع صفحة ٥٧ حاشية ٦ .
(٦) الكلاباذى ، نسبة إلى محلة كلاباذ ، وهناك محلتان بهذا الاسم إحداها ببخارى والأخرى بنيسابور . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ص ٢٦٩ .
(٧) نسبة إلى علاء الدين محمد خوارزم شاه ، والمقصود هنا زوال الدولة الخوارزمية على أيدى المغول .

١٥

ذكر الحوادث بمـــا وراء النهر بعد عود السلطان عنها

لما ألقى السلطان عصا القرار بما وراء النهر ، بعد منصرَفه عن العراق ، لاقته رسل جنكزخان وهم محمود الخوارزمى ، وعلى خواجه البخارى ، ويوسف كنكا الأترارى [١] ، مصحوبين بمجلوبات الترك من نقر [٢] المعادن ونصب الختو ونوافج المسك وأحجار اليشب والثياب التى [٣] تسمى «طرقوا» ، وأنها تؤخذ من صوف الجمل الأبيض يباع الثوب منها بخمسين ديناراً [٤] أو أكثر . وكانت الرسالة تشتمل على طلب المسالمة والموادعة وسلوك مسلك المجاملة ، وقالوا : إن الخان الكبير [٥] يسلم عليك ويقول : ليس يخفى علىّ عظيم شأنك ، وما بلغت من سلطانك ، ولقد علمت بسطة ملكك ، وإنفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض ، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات ، وأنت عندى مثل أعز أولادى ، وغير خاف عليك أيضاً أننى ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك ، وقد أذعنت لى قبائلهم . وأنت أخبر الناس بأن بلادى مثارات العساكر ، ومعادن الفضة ، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها . فإن رأيت أن تفتح للتجار فى الجهتين سبيل التردد ، عمت

---

(١) ينتسب هؤلاء الرسل إلى مدن خوارزم وبخارى وأترار على التوالى .

(٢) النُّقر جمع نُقرة وهى القطعة المضروبة من الذهب أو الفضة .

(٣) فى الأصل : الذى .

(٤) فى الأصل : دينار .

(٥) أى الخاقان ، والمقصود هنا جنكيزخان .

المنافع وشملت الفوائد (١) .

فأحضر السلطان محمود الخوارزمى بعد سماعه الرسالة ليلا دون سائر الرسـل وقال : إنك رجل خوارزمى ولابد لك من موالاة فينا وميل ، ووعده بالإحسان إن صدقه (٢) فيما يسأله . وأعطاه من معضدته جوهرة نفيسة علامة للوفاء بما وعده ، وشرط عليه أن يكون عينا له على جنكزخان . فأجابه إلى ماسأل ، رغبة (٣) ورهبة ، ثم قال : اصدقنى فيما يقول جنكزخان إنه ملك الصين ، واستولى على مدينة طمغاج . أصادق فيما يقول ، أم كاذب؟ فقال : بل صادق . ومثل هذا الأمر المعظم ليس يخفى حاله ، وعن قريب

---

(١) تحمل هذه الرسالة فى طياتها معانى التهديد والوعيد فى أكثر من موضع ، فقول جنكيزخان إن علاء الدين محمد خوارزمشاه فى منزلة الابن معناه التبعية له ، إذ أن العلاقة بين الابن وأبيه ، وبين الأخ الصغير والأخ الكبير ، وبين العم وابن الأخ ، كل هذه العلاقات تدل على أنواع مختلفة من التبعية التى كانت تكتب فى المعاهدات بين أمراء آسيا ، الذين كانوا لايعرفون معنى للعلاقات السياسية التى تقوم على مبـدأ المساواة بين الطرفين المتحالفين . وإذا علمنا فوق ذلك أن جنكيزخان تعمد أن يخبر علاء الدين أنه أخضع العناصر التركية ، فإن هذا القول أيضا يحمل معانى التهديد إذ كان علاء الدين تركى الأصل .

انظر D'ohsson : Op. cit., t.I, pp. 292—203 .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن الطرق البرية عبر القارة الأسيوية كانت محدودة الفائدة من الناحيه التجارية ، وذلك قبل غزو جنكيزخان للبلاد الاسلاميـة إذ لم يستعملها التجار الأوربيون ، بل كانت البلاد الشامية هى أقصى ما وصل إليه نشاطهم ، ويرجع السبب فى ذلك إلى انعدام الوحدة السياسية فى السهول الاسيوية ، مما أدى إلى اختلال الأمن وانتشار الفوضى على طول هذه الطرق ، هذا إلى أن حكام آسيا فى الشرق والغرب لم يهتموا بالطرق التجارية عبر هذه القارة ، ويقال إن سوء العلاقة بين المسلمين والمسيحيين أدى إلى كساد تجارة المسيحيين ، فلم يهتموا باستخدام الطرق البرية . ويرى الدكتور سليمان حزين بك أن العامل الأخير وهو سوء العلاقة بين المسلمين والمسيحيين لاعبرة به ، إذ حرص المسلمون على أن يرثوا مجد أهل جنوة والبندقية حتى تكون لهم السيطرة على تجارة البحر الأبيض ؛ ثم إن الاسلام حتى العصر الذى نتحدث عنه لم يكن قد انتشر تماما فى سهول آسيا الوسطى ، إذ لم ينتشر فى هذه الجهات إلا بعد أن فتحها الغزو المغولى للمسلمين . انظر كتابى

Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, t.ii, p 71.
Huzayyin : Arabia and The Far East, pp.169-171.

(٢) فى الأصل : اصدقه . (٣) فى الأصل : رغبة .

يتحقق السلطان ذلك . فقال : أنت تعرف ممالكى وبسطتها ، وعساكرى وكثرتها ، فمن هذا اللعين حتى يخاطبنى بالولد ؟ مامقدار ما معه من العساكر ؟ فلما شاهد محمود الخوارزمى آثار الغيظ ، وتبدل لطف الكلام بالخصام ، أعرض عن النصح ومال إلى الاسترحام ، استخلاصا من أنياب الحمام ، وقال : ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلا كفارس فى خيل ، أودخان فى جنح ليل . ثم أجاب السلطان إلى ما التمس جنكزخان من أمر المهادنة ، فسر جنكزخان بذلك [1] ، واستمر الحال على المسالمة ، إلى أن وصل من بلاده تجار إلى أترار ، وهم عمر خواجه الأتراري، والحمال المراغى ، وفخر الدين الدنزكى البخارى ، وأمين الدين الهروى [2] وكان ينال خان ابن خال السلطان [3] فى عشرين ألف فارس ينوب عن السلطان بها . فشرهت نفسه الدنية إلى أموال أولئك ، وكاتب السلطان مكاتبة خائن

---

(١) عمل جنكيزخان بعد إبرام هذا الاتفاق على تأمين التجارة بين شرق آسيا وغربها وتوسيع نطاقها ، فحرص على تأمين الطرق والضرب على أيدى المعتدين من قطاع الطرق، وزود الطرق الرئيسية بحراس من قبله يسمون قراقچية أى مستحفظين ، وكلفهم بأن يرافقوا كل أجنبي يحمل تجارة ماإلى معسكرات المغول . انظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٠ ، D'ohsson : Op. cit., t.i, p. 204. وانظر ما كتب عن التجارة الاسيوية فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فى كتابى Hirth & Rockhill : Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries. & Huzayyin : Op. cit.

(٢) نسبة إلى مدن أترار ومراغة وبخارى وهراة على التوالى . ويجدر بنا أن نذكر فى هذا المقام أن الجوينى مؤلف كتاب جهان گشاى قدر عدد التجار الذين وفدوا على أترار بأربعمائة وخمسين رجلا كلهم من المسلمين، وذكر ابن العبرى أن عددهم بلغ مائة وخمسين فقط ، ولكنهم كانوا من جميع الأديان دون تفريق . وإنا لنميل إلى الأخذ برواية النسوى وإن كان الراجح أن هؤلاء التجار كانوا فى صحبة عدد كبير من رسل جنكيزخان . انظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٠ و D'ohsson: Op. cit., t.i,p. 204.

(٣) ذكر السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء ، ص ٣١١ والدياربكرى فى كتابه تاريخ الخميس ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ، أن ينال خان كان خال السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه وليس ابن خاله كما ذكر النسوى .

مائن يقول : إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار فى زى التجار ، وليسوا بتجار بل أصحاب أخبار ، يكشفون منها ما ليس من وظائفهم ، إذا خلوا بواحد من العوام يهددونه ويقولون : إنكم لفى غفلة مما وراءكم وسيأتيكم مالا قبل لكم به . وأمثال ذلك حتى أذن له السلطان فى الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه . فحين أرخى عنانه فى الاحتياط عليهم تعدى طوره ، وعدى شوطه ، فقبض عليهم ، وخفى بعد ذلك أثرهم وانقطع خبرهم ، وتفرد المذكور بتلك الأموال المعدة ، والأمتعة المنضدة ، مكيدة منه وغدراً ، وكان عاقبة أمره خسراً [1] .

---

(١) علق الجوينى مؤلف كتاب جهان گشاى على مذبحة أترار بقوله إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفّر المسلمون عنها بسيل من الدماء ، كما كلفتهم كل شعرة من رءوسهم مائة ألف من أرواحهم . Vambery : Op. cit., p. 117

١٦

ذكر ورود رسل جنكزخان على السلطان بعد قتل التجار

ثم ورد بعد ذلك ابن كفرج بغرا ، وكان أبوه من أمراء السلطان تكش ، مصحوباً بشخصين من التـــاتار ، رسلا على السلطان من قبل جنكزخان فى أنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار وأن لا تتعرض إلى أحد منهم ، فغدرت ونكثت ، والغدر قبيح ، ومن سلطان الإسلام أقبح . فإن كنت تزعم أن الذى ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك، فسلّم ينال خان إلىّ لأجازيه على ما فعل ، حقناً للدماء ، وتسكيناً للدهماء ، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالى[1] الأرواح ، وتتعضد معها عوامل الرماح[2] . فأمسك السلطان عن تسيير ينال خان إليه على رعب خامر قلبه ، وخوف سلب لبه ، إذ كان لا يمكنه تسييره إليه وأكثر العساكر

---

(١) فى الأصل : عوالى .

(٢) يقال إنه لما وصلت أخبار مذبحة التجار فى مدينة أترار إلى مسامع جنكيزخان ، استشاط غضبا ، وهاله الأمر ، فهجره النوم . وروى ابن العبرى فى كتابه ، تاريخ مختصر الدول ص ٤٠١ ، قصة طريفة فى هــذا الصدد مؤداها أن جنكيزخان صعد إلى رأس تل عال وكشف عن رأسه ودعا الله أن ينصره على عدوه الخوارزمى ، ووقف على هذا التل ثلاثة أيام لم يذق فيها طعاما ، وفى الليلة الثالثة رأى فى منامه راهبا فى أثوابه السوداء وبيده عصاه يقول : لا تخف ، افعل ما شئت فإنك مؤيد . فانتبه جنكيزخان مذعوراً ذعراً مقرونا بالفرح ، وعاد إلى منزله وقص رؤياه على زوجته ، فطمأنته بأن مجىء هــذا الأسقف إليه بداية لسعادته ، ثم استدعى جنكيزخان أحد الأساقفة ففسر له حلمه بأن من رآه فى منامه لم يكن إلا قديسا من القديسين ، ثم زين له رؤياه . ونلاحظ أن هذه القصة على ما فيها من طرافة إنما هى فى الغالب من نسج خيال ابن العبرى ، إذ أنه كان من كبار رجال الدين المسيحيين الذين عاصروا الغزو المغولى ، وربما يكون غرضه من وضع هذه القصة الإيحاء بميل المغول عامة وجنكيزخان خاصة للديانة المسيحية دون سواها .

ورتوت الأمراء من أقاربه ، وهم كانوا طراز خلته، ووجه رزمته ، والمتحكمين فى دولته[1] . واعتقد أنه لو لاطف جنكزخان فى الجواب لم يزده ذلك إلا طمعا فيه ، فتماسك وتجلد ، وأبى . وقدخامر الرعب الخلد ، وأمر بقتل أولئك الرسل فقتلوا[2]. فيالها من قتلة هدرت دماء الإسلام ، وأجرت بكل نقطة سيلا من الدم الحرام ، فاستوفى عن الغيظ فيضاً ، وأخلى بكل شخص أرضا .

---

(١) كان الأتراك من عشيرة تركان خاتون بوجه خاص ، يتحكمون فى الدولة ومواردها ، فضلا من أن معظم رجال الجيوش الخوارزمية كانوا من عشيرتها ، ولذا فقد خشى علاء الدين محمد خوارزم شاه عاقبة تسليم ينال خان وهو من أقرباء تركان خاتون والدة السلطان .

(٢) ذكر دوجلاس Douglas ، أن علاء الدين محمد خوارزم شاه لم يقتل الرسل الثلاثة بل قتل زعيمهم ابن كفرج وأطلق سراح الاثنين الآخرين بعد أن حلقت لحيتاهما ، حتى يرويا قصة مصرع الرسول المغولى لجنكيزخان كما شاهداها .

انظر Douglas : The Life of Jenghiz Khan, p. 15.

١٧

ذكر ما اعتمده السلطان من التدبير الخطأ لما بلغه مسير جنكزخان نحوه فى عساكره

أول ما اعتمده من التدبير فى هذا الأمر الفادح، والخطب الكالح، أنه عزم أن يبنى سوراً على سمرقند بكبرها ودورها[1] على ما قيل اثنى عشر فرسخا، ثم يشحنها بالرجال ليكون رداء بينه وبين الترك، وسداً دونهم وسائر أقاليم الملك. ففرق عماله وجباته فى جميع البلاد، وأمرهم أن يستسلفوا لسنة خمس عشرة[2] وستمائة خراجاً تاما برسم عمارة سور سمرقند. فجبى ذلك فى أدنى مدة، وأعجله التاتار عن ذلك المراد، ولم يصرف شىء منها إلى عمارة السور.

وثانيه أنه بعث الجباة ثانيا إلى جميع بلاد الممالك وأمرهم بجباية خراج ثالث فى سنتهم تلك، وأن يستخدم بها رجال رماة مكملة العدة، ويكون عدد رجال كل جهة على قدر ما يحصل منها من المال، قليلا كان أو كثيراً، يكون لكل واحد منهم جمل يركبه ويحمل سلاحه وزاده. فاستخدموهم أسرع ما يكون، وتوجهوا من جميع الأقطار إلى مراكز مراياته كالسيل سائراً إلى منحدره، والسهم صادراً عن وتره. وصادفهم الخبر وهم فى طرقهم بإجفال السلطان عن حافة جيحون من غير قتال. ولو أقام إلى أن تصل الجموع لأجمع خلقا[3] لم يسمع بمثله كثرة، لكن قضاء الله أغلب، وأمره أنفذ، وله الحكم فى تقليب الأحوال، وتبديل الأبدال، ونقل الأملاك من وال إلى وال.

---

(١) أى محيطها.

(٢) فى الأصل: خمسة عشر.

(٣) أى ساق خلقا.

ومن التدبير الخطأ أنه لما سمع بقرب جنكزخان ، فرق عساكره بمدن ما وراء النهر وبلاد الترك ، فترك ينال خان فى عشرين ألف فارس بأترار ، وقتلغ خان وجماعة أخرى فى عشرة آلاف [1] فارس بشهركنت [2] ، والأمير اختيار الدين كشكى أمير آخور [3] ، وأغل حاجب الملقب بأينانج خان فى ثلاثين ألفا [4] ببخارا ، وطغانخان خاله وأمراء الغور مثل جرميخ وحرور [5] ، وابن عز الدين كت وحسام الدين مسعود وغيرهم فى أربعين ألفا بسمرقند [6] ، وفخر الدين حبش المعروف بعنان النسوى وعسكر سجستان بترمذ ، وبلخمورخان بوخش [7] ، وأبى محمد خال أبيه ببلخ ، وأسرك بهلوان بخندروذ [8] ، وعلجق ملك بجيلان [9] ، والبرطاسى بقندز

(١) فى الأصل : عشرة ألف .

(٢) شهركنت : مدينة فى طرف تركستان قريبة من مدينة جند الواقعة على نهر سيحون ، وبينها وبين خوارزم عشرة أيام أو أقل . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ٣١٦ .

(٣) أمير آخور : هو المشرف على الاصطبلات السلطانية وما فيها من الخيل والبغال والجمال وغيرها مما هو داخل فى حكم الاصطبلات . ويكون فى الغالب مقدم ألف ويسكن فى اصطبل السلطان . انظر كتاب السلاح فى الإسلام للقائمقام عبد الرحمن زكى ، ص ١١ . ويلاحظ أن أمير آخور مركب من لفظين أحدهما عربى وهو أمير ، والثانى فارسى وهو آخور ومعناه مكان العلف (المعلف) فيكون معنى أمير آخور أمير المعلف لأنه المتولى لأمر الدواب .

وهناك أيضا وظيفة السراخور ، وهى مركبة من لفظين فارسيين ، أحدهما سرا ومعناه الكبير ، والثانى خور ومعناه العلف ، والمراد كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤٣٨ حاشية ٣ . والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٤٦٠ — ٤٦١ .

(٤) فى الأصل: ثلثين ألف . ويقال فى رواية أخرى إن عدد قوات بخارى بلغت عشرين ألف رجل . ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٨ .

(٥) جرميخ وحرور أميران من أمراء الغور .

(٦) يقال أيضا إن عدد قوات سمرقند كانت خمسين ألف رجل . ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٦٨ .

(٧) وخش : مدينة فى نواحى بلخ على نهر جيحون ، ينتسب إليها العالم أبو على الحسن الوخشى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣م) . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ص ٤٠٤ .

(٨) خندروذ : إحدى مدن فارس .

(٩) جيلان : اسم لبلاد كثيرة من وراء طبرستان ، ويقال إنها كانت قرى فى مروج بين الجبال . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ١٩٤ .

وأسلبه خان بوجل[1]. وبالجملة لم يترك بلداً من البلاد مما وراء النهر خاليا من عسكر بجر[2]، وقد أخطأ فى ذلك فلو التق[3] التاتار بكتائبه قبل أن يفرقها لاختطفهم خطفة، ونسفهم[4] عن الأرض نسفاً[5]. ولما شارف جنكز خان تخوم البلاد السلطانية تباشر صوب أترار وداوم القتال عليها ليلا ونهاراً حتى استولى عليها وأحضر ينال خان بين يديه، فأمر بسبك الفضة وقلبها فى أذنيه وعينيه، فقتل تعذيبا، جزاء عن فعله الفظيع، وخطبه الشنيع، وسعيه المذموم عند الجميع[6].

---

(١) يقال أيضا ولخ.

(٢) عسكر بجْر أى جيش عظيم.

(٣) فى الأصل: التقا.

(٤) فى الأصل: أنسفهم.

(٥) يذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تعليل السبب الذى دفع علاء الدين محمد خوارزم شاه إلى توزيع قواته على المدن الخوارزمية المختلفة، فيرى جيبون Gibbon أنه ظن أن المغول سيملون حصار هذه المدن العديدة، ومن ثم يعودون إلى بلادهم دون أن ينالوا من هذه المدن أو من ساكنيها منالا. ويرى سيكس Sykes أن علاء الدين محمد خوارزم شاه ظن فى ذلك الوقت أن جنكيزخان سيكتفى من البلاد الاسلامية بنهب ما تصل إليه يده من الغنائم والأسلاب، ثم يعود إلى حيث أتى. ويرى ڤلاديميرتسوف Vladimirtsov أن السلطان الخوارزمى كان لايثق بقواده، ولذلك كان يخشى أن يتجمع عدد كبير من رجاله تحت قيادة رجل واحد، فتنقلب عليه هذه الجيوش تحقيقاً لرغبة قائد ما قد تحدثه نفسه بعصيان السلطان. وذكر ڤلاديميرتسوف فوق ما تقدم أن القواد الخوارزميين لم يكونوا من الكفاية والمقدرة بحيث يستطيع قائد واحد منهم أن يقود جيشاً كبيراً، أضف إلى ذلك أن علاء الدين وجد أنه من الصعب عليه أن يلتقى بأعدائه فى العراء ولذا فضل التحصن داخل المدن. انظر
Gibbon: The Decline and Fall of the Raman Empire, vol. vi, p. 279;
Sykes: A History of Persia, p. 56.
Vladimirtsov: The Life of Chingis-Khan, pp. 121—122.

(٦) يجدر بنا أن نذكر هنا أن جنكيزخان لم يشترك فى الاستيلاء على مدينة أترار كما ذكر النسوى، وإنما عهد بهذه المهمة إلى ابنيه أجتاى وجغتاى، وقد اقتيد ينال خان، بعد وقوعه أسيراً فى أيدى المغول، إلى معسكر جنكيزخان الذى كان فى ذلك الوقت أمام سمرقند. انظر D'ohsson: Op. cit., t.I, pp. 218—221.

١٨

ذكر حيلة تمت لجنكزخان على السلطان حتى توهم من أمرائه وحُرّض(١) على مفارقتهم ففرّقهم

لما استولى جنكزخان على أترار ، حضره بدر الدين العميد ، وكان ينوب بأترار عن الصفى الأقرع وزير السلطان ببلاد الترك، وخلا به ، وكان يحقد على السلطان لقتله(٢) أباه القاضي العميد سعداً ، وعمه القاضي منصوراً ، وجماعة من بني عمه وأخوته عند استصفائه مملكة أترار ، وقال : ليعلم الخان أن السلطان أبغض خلق الله عندى لإفنائه خلقاً من أهلى ، ولو قدرت على استيفاء ثأرى منه ببذل روحى لفعلت . لكنني مخبرك بأنه سلطان عظيم صاحب قدرة ، ولا يغرك تفريقه العساكر بهذه الأطراف ، فإن فيها معه من الجيش اللهام لغنية عن غيره ، ولو أراد لحشر(٣) من بسيط ملكه وفسيح عرصته أضعاف ذلك ، والرأى عندى أن تعمل عليه حيلة يتوهم بها(٤) من أمراء عسكره . وعرّفه ما بينه وبين والدته من الوحشة والتنافر ، وتجاذبا فى ذلك أطراف الكلام حتى اتفقا على أن يزور بدر الدين العميد كتباً عن لسان الأمراء قرايب والدة السلطان يذكر فيها : أننا قد تسحبنا من بلاد الترك بعشائرنا ومن يلوذ بنا إلى السلطان ، رغبة فى خدمة والدته ، وقد نصرناه على كافة ملوك الأرض حتى ملكها ، وذلت له الجبابرة ، وخضعت له الرقاب . وهاهو الآن قد تغيرت نيته فى حق والدته عتواً منه وعقوقاً . وهى تأمر بخذلانه ، فنحن على انتظار وصولك واتباع مرادك وسؤلك .

---

(١) فى الأصل : حرص .

(٢) فى الأصل : قتله .

(٣) فى الأصل : يحشر .

(٤) كذا فى الأصل ، والمراد أن يرتاب فيهم .

وسير جنكزخان هذه الكتب على يد بعض خواصه ، هارباً فى ظاهر الأمر ، ومبعوثاً فى باطن السر . فنشرها عن منذرات بحينه [1] ، مظلمات الدنيا فى عينه . ففترت عزائمه فى مقاصده ، إذ أتته الرزايا [2] من وجوه فوائده ، وأخذ يبدد شملهم ، ويفرق جمعهم ، تعليلا بتقوية البلاد على ماذكرناه .

وسير جنكزخان دانشمند الحاجب ، وهو من خواصه ، إلى تركان خاتون بخوارزم يقول : قد عرفت مقابلة ابنك حقوقك بالعقوق ، وهأنذا [3] قد قصدته بمواطأة من أمرائه ، ولست بمتعرض إلى ما تحت يدك من البلاد . فإن أردت ذلك بعثت [4] إلىّ من يستوثق لك منى فتسلم لك خوارزم وخراسان وماتتاخمهما من قاطع جيحون. فكان جوابها عن هذه الرسالة أنها خرجت عن خوارزم مجفلة ، وتركتها وراءها مهملة [5] .

---

(١) الحين : الهلاك .
(٢) فى الأصل : الدرايا .
(٣) فى الأصل : ها أنا .
(٤) فى الأصل : تبعث .
(٥) راجع الفصل التالى .

١٩
ذكر خروج تركان خاتون عن خوارزم
فى أواخر سنة ست عشرة [١] وستمائة

واتفق وصول رسول جنكزخان إلى خوارزم الحاجب المقدم ذكره، وورود الخبر بإجفال السلطان عن حافة جيحون، فقلقت لهذا الخبر قلقاً لم تكتحل عينها معه بغرار، ولم تر خوارزم دار قرار. فاستصحبت ما أمكنها استصحابه[٢] من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه، وخرجت عن خوارزم مودعة والعيون كانت لوداعها تصوب [٣]، والقلوب تذوب. وقدمت عند خروجها من نقيض البر، ما أرّخ الزمان بسوء الذكر، وترك سبة مخلدة على وجه الدهر، وهو أنها كانت تعتقد أن نار تلك الفتنة عن قريب تخمد، وأن العروة المنفصمة سوف تعقد، وأن صباح مسراها عما قليل يحمد. فأمرت بقتل من كان بخوارزم من الملوك الأسارى، وأبناء الملوك وذوى المراتب المنيفة من كبار الصدور وسادات القروم، زهاء اثنى عشر نفساً محرمة، مثل ابنى السلطان طغرل السلجوقى، وعماد الدين صاحب بلخ، وابنه الملك بهرام شاه صاحب ترمذ، وعلاء الدين صاحب باميان، وجمال الدين عمر صاحب وخش، وابنى صاحب سقناق من بلاد الترك، وبرهان الدين محمد صدر جهان، وأخيه[٤] افتخار جهان، وابنيه ملك الإسلام وعزيز الإسلام، وغيرهم. ولم تعلم أن رتق ذلك الفتق، ورفو ذلك الخرق، بالإنابة[٥] إلى الله تعالى أولى، وأن الرجوع إلى الحق.

---

(١) فى الأصل: ستة عشر.
(٢) فى الأصل: ما أمكنه استصحابها.
(٣) تصوب: تنجعه.
(٤) فى الأصل: أخوه.
(٥) فى الأصل: الاثابة.

أجمد فى البدو والعقبى . فخرجت عن خوارزم وصحبها من قدر على الخروج ، وتعذرت صحبتها على أكثر الناس ، إذ كانت النفوس لا تسمح بتسييب ما حوت من الحطام ، وجمعت من وجوه الحل والحرام . واستصحبت عمرخان بن صاحب يازر ، وكان معوّقاً بها[1] لخبرته بهاتيك الطرق المفضية[2] إلى بلاده ، وكان المذكور قد لقب بصبورخان ، وسبب تلقيبه بصبورخان أن أخاه هندوخان كان قد سمله حين استولى على الملك ، فرفق به المباشر للسمل مبقياً[3] على بصره ، وناظراً فى نظره ، فتعامى المذكور إحدى عشرة[4] سنة إلى أن توفى هندوخان وملكت تركان خاتون بلد يازر محتجة بأن هندوخان كان مزوجاً من قبيلتها بامرأة من قرابيها ، ففتح عمرخان عينيه ، وقصد باب السلطان يرجو تقرير الملك عليه ، فلم يحصل له مما كان يأمله غير تلقيبه بصبورخان . نعم وخرج المذكور فى خدمتها عن خوارزم وليس معها غيره من تعوّل عليه لكشف ملمة أو إزالة بؤس ، أو دفاع خطب عبوس . وقد خدمها تلك المدة أتم خدمة ، حتى إذا قاربت تخوم يازر ، خافت أن يفارقها المذكور فأمرت بضرب عنقه ، فقتل صبراً وأهلك غدراً . وسارت بما معها من الحرم والخزائن فصعدت قلعة إيلال ، وهى من أمهات قلاع مازندران ، فأقامت بها إلى أن فرغ التاتار من إجلاء السلطان وإلجائه إلى الجزيرة التى مات فيها[5] ، على ما سنشرحه إن شاء الله .

وحوصرت إيلال مدة أربعة أشهر ، وبنى حولها سور ، وغلقت

(١) أى محبوسا مقيما . وفى الأصل معوقا . (٢) فى الأصل المقضية .

(٣) فى الأصل : متقياً . (٤) فى الأصل : إحدى عشر .

(٥) توفى علاء الدين محمد خوارزم شاه فى إحدى جزر بحر قزوين سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠/١٢٢١م) ، وكان قد التجأ إليها فاراً من وجه المغول . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن تركان خاتون عندما عولت على الرحيل عن خوارزم ، كان فى عزمها أن تلتجىء إلى العراق العجمى ولكنها اعتصمت وهى فى الطريق بقلعة إيلال بإقليم مازندران . ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٧١ — ١٧٢ .

الأبواب على السور، تغلق بالليل وتفتح بالنهار، وهذه عادتهم فى حصار القلاع المنيعة، إلى أن ضويقت بالحصار. ومن العجيب النادر، أن قلعة من قلاع مازندران وهى دائمة الأنواء، كثيرة الأنداء، والسماء بها قل ما تقشع، والأمطار بها لا تكاد تقلع، تؤخذ بالعطش، فقدر الله تعالى أن أصحت السماء[1] مدة الحصار، فألجأتها إلى طلب فأجيبت إلى ذلك، ونزلت ومعها الوزير المعزول محمد بن صالح. وقد ذكر أنها كانت تنزل من القلعة والسيل يخرج من بابها، وفاضت الصهاريج فى ذلك النهار سراً من الله تعالى الواحد القهار، فى هدم بنية وتأسيس أخرى، وإن فى ذلك لذوى الألباب ذكرى[2]. وأسرت تركان خاتون وحملت إلى جنكزخان[3]، وأخبارها كانت تأتى جلال الدين فى زمانه، ولست أدرى ما فعل الزمان بها بعده[4].

وحدثنى بدر الدين هلال الخادم، وكان من جملة خدامها، ولما أيس من خلاصها ونجا بنفسه سالماً إلى جلال الدين، فشملته عنايته، فأصبح حظياً، ووجد منصبا عليا، قال: قلت لها: هلمى نهرب إلى جلال الدين ولد ولدك، وفلذة كبدك، فإن الأخبار قد تواترت بشوكته، وبسطة باعه، واتساع عراصه. قالت: بعداً له وسحقاً، وكيف يهون علىّ أن أكون فى نعمة ابن أى جيجاك[5] وتحت ظله، يعنى أم جلال الدين، بعد ولدىّ

---

(١) أصحت السماء أى صارت لاغيم فيها.

(٢) استولى المغول بقيادة القائدين شپى Chépé وسوبوتاى Souboutaï على هذه القلعة بينما كانا يطاردان السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه فى الاقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية. D'ohsson: Op. cit., t.I, pp. 259—260.

(٣) اختلف المؤرخون فى تحديد المكان الذى كان فيه جنكيزخان عندما وصلته تركان خاتون، فذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل، ج ١٢ ص ١٧٢ أن جنكيزخان كان فى سمرقند. وذكر دوسون، ج ١ ص ٢٦٠، أنه كان يحاصر مدينة الطالقان، إحدى المدن فى أعالى نهر جيحون.

(٤) ذكر دوسون أن تركان خاتون ظلت أسيرة فى أيدى المغول حتى رحلوا إلى بلادهم فصحبوها معهم إلى هناك حيث ماتت فى مدينة قره قورم سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م). انظر D'ohsson: Op. cit., t. I, p. 260.

(٥) أى جيجاك: اسم والدة جلال الدين منكبرتى.

أزلاغ شاه وأق شاه ، والأسر عند جنكزخان وما أنا فيه من الذل والهوان أحب إلىّ من ذلك . وكانت تبغض جلال الدين بغضاً شديداً . وحكى لى الخادم المذكور قال : آل أمرها فى الأسر ، من العسر ، أنها كانت تحضر تارات سماط جنكزخان فتحمل منه ما يقوتها أياماً ، وكان حكمها قبل ذلك قد نفذ فى أكثر الأقاليم ، فسبحان مغير الحال بعد الحال .

وأما صغار أولاد السلطان فقتلوا جميعا حين نزلوا إلا أصغرهم سناً كاخى شاه، وكانت مستأنسة به، تزجىّ[1] به أيام البؤس والأسى ، وأوقات الصد[2] والبلوى . بينا هى كانت تسرح رأسه ذات يوم وهى تقول : عندى اليوم من ضيق الصدر مالم أكن أجد قبل ، إذ أتاها بعض سرهنكية جنكزخان مستحضراً الصبى ، ففارقها وكان آخر عهدها به . فلما أحضر بين يديه أمر بخنقه فخنق . فجوزيت فى الدنيا بما ارتكبت من الإهلاك ، وإفناء بنى الأملاك .

وأما بنات السلطان فقد تزوج بكل واحدة منهن[3] شخص من المزندة ما خلا خان سلطان ، وهى التى كانت مزوجة بسلطان السلاطين عثمان صاحب سمرقند ، فإن دوشى خان[4] بن جنكزخان استخصها لنفسه . وتزوج بتركان سلطان ، وهى شقيقة أزلاغ شاه ، دانشمند الحاجب الذى ورد رسولا من جنكزخان على تركان خاتون .

وأما حال الوزير نظام الملك المعزول فقد أقام بينهم مكرماً مشفعاً ، لعلمهم بتغيير رأى السلطان عليه ، وانحطاطه عن منزلته لديه . وربما كان جنكزخان يأمره باسترفاع حسبانات بعض البلاد فيقوم له بذلك جاه يسير إلى أن استولى دوشى خان على خوارزم وصب على أهله صوب نقمته ،

---

(١) فى الأصل : ترخى .
(٢) فى الأصل : الضدّ .
(٣) فى الأصل : منهم .
(٤) المقصود هو جوجى (چوچى) بن جنكيزخان . والمعروف أن أبناء جنكيزخان الذين اشتركوا معه فى حملته على البلاد الاسلامية هم ، عدا جوجى ، أجتاى (أكتاى ، أگتاى) وجغتاى (چغتاى) ، وتولوى (تولى) .

وحملت إلى جنكزخان مغنيات السلطان ، وفيهن بنت زنكيجة ذات جمال وحسن ، فطلبها زين ، الكحال السمرقندى ، من جنكزخان ، وكان المذكور قد داوى عين اللعين من الرمد فوهبها له ، وكان الكحال مفرطاً فى قبح الصورة وسوء العشرة فأبغضته ، وحق لها أن لاتستبدل بمثله عن سلطان الإسلام ، والقاعد من قمة الفرقدين على الهام . فأقامت عند الوزير يومين أو ثلاثة وهو يشرب ، وجاءها الطلب من الكحال مراراً وهى تدافع ، فشى الكحال إلى جنكزخان مشنعا ، وقال الوزير : أنا أحق بها من غيرى ، فغضب جنكزخان وأمر بإحضار الوزير فأقيم بين يدى جنكزخان وأخذ يعد عليه غدره بأستاذه ، وفساده فى دولته ، وأخفر عليه ما أعطاه من ذممه ، وأحل الأرض من حرام دمه .

٢٠

ذكر نبذ من أحوال تركان خاتون وسيرتها

كانت المذكورة من قبيلة بياووت [١] ، وهى فرع من فروع يمك [٢] ، وقد لقبّت عند ارتفاع شأنها بخداوند جهان ، يعنى صاحبة العالم ، وكانت بنت خان جنكشى ، ملك من ملوك الترك ، فتزوج بها تكش بن إيل أرسلان [٣] زواج الملوك بنات الملوك . ولما انتقل الملك إلى السلطان محمد وراثة عن أبيه تكش ، تسحبت إليه قبائل يمك ممن يجاورها من الترك فتكثر بهم ، واستظهر بمكانهم ، وتحكمت لهذا السبب تركان خاتون فى الملك ، فلم يملك السلطان إقليما إلا وأفرد لخاصتها منه ناحية جليلة .

وكانت ذات مهابة [٤] ورأى ، وإذا رفعت الظلامات إليها تحكم فيها بالعدل والإنصاف . وكانت تنتصف للمظلوم من الظالم ، غير أنها كانت جسوراً [٥] على القتل ، وكانت لها خيرات ومسبلات فى البلاد ، ولو إنا أوردنا ماشاهدناه من عظم شأنها لطال الكلام . وكانت لها من كتّاب الإنشاء [٦] سبعة من مشاهير الفضلاء وسادات الأكابر ، وإذا ورد عنها وعن السلطان توقيعان مختلفان فى قضية واحدة ، لم ينظر إلا فى التاريخ ، فيعمل [٧] بالأخير بكافة الأقاليم . وكان طغرا تواقيعها « عصمة الدنيا والدين ألغ تركان ملكة نساء العالمين » . وعلامتها ، « اعتصمت بالله وحده » . وكانت تكتبها بقلم غليظ ، وتجود الكتابة فيها بحيث يعسر أن تزور علامتها .

---

(١) قبيلة بياووت ، فرع من قبائل كانكالى Caucalis . ويرجع أصلها إلى السهول الواقعة فى شمال خوارزم وفى الشمال الشرقى من بحر قزوين . D'ohsson : Op. cit., t. i, p. 196.

(٢) لعل المقصود بكلمة يمك ، قبائل كانكالى .

(٣) فى الأصل : رسلان . (٤) فى الأصل : ذا مهابة .

(٥) فى الأصل : جسورة . وجسور ، من الصفات التى لا تلحقها تاء التأنيث مثل امرأة عجوز ، هى صبور . (٦) راجع صفحة ٥٧ حاشية ٦ .

(٧) فى الأصل : فتعمل .

٢١

ذكر رحيل السلطان من كُتُلُف(١) بعد استيلاء جنكزخان على بخارا

لما بلغ السلطان استيلاء جنكزخان على أترار وقتله(٢) اينال خان ومن كان معه من العسكر ، أقام بحدود كتلُف وأندخوذ(٣) منتظراً وصول الجموع النقذية من الجهات ، مرتقبا ما تصنعه حبالى الليالى ، من الحوادث بالأعالى . فساق جنكزخان بعد استيلائه على أترار إلى بخارا ، وهى أقرب المدن إلى مراكز الرايات السلطانية ، يحاصرها . وقد قصد بذلك أن يقطع بين السلطان وبين عساكره المتفرقة ، حتى لو بدا له فيما فعل من تفريقهم ، لم يقدر على جمعهم . فحط على بخارا محاصراً ، وبمن ساقهم من رجالة(٤) أترار وخيالتها متكاثراً ، وداوم القتال عليها ليلا ونهاراً ، حتى استولى عليها عنوة واقتداراً .

ولما رأى كشلى أمير آخور(٥) ومن معه من أصحاب السلطان أنها أشرفت على الأخذ تجادلوا واستبدلوا بمسكة العزائم ، هتكة الهزائم . وأجمعوا على أن يخرجوا فتحملوا(٦) حملة رجل واحد ، تنفيساً للخناق ، وفكاكا من شدة

(١) كُتُلُف : بلدة فى خرسان ، بين مدينتى بلخ ومرو .

(٢) فى الأصل : وقتلهم . (٣) راجع صفحة ٦٧ حاشية ١ .

(٤) رجالة : جمع راجل والحقت تاء التأنيث بالجمع .

(٥) أمير آخور : هو المشرف على الاصطبلات السلطانية وما فيها من الخيل والبغال والجمال ، وفى الغالب يكون مقدم ألف ، ويكون ساكنا باصطبل السلطان . انظر كتاب السلاح فى الإسلام للقائمقام عبد الرحمن زكى ص ١١ . ويلاحظ أن آخور لفظ فارسى معناه العلف ، فيكون معنى أمير آخور أمير العلف لأنه المتولى لأمر الدواب . انظر المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٤٣٨ حاشية ٣ .

(٦) أى ارتحلوا .

الإرهاق ، ففعلوا وخرجوا . ولو أراد[1] لأفلحوا[2] . ولما رأى التاتار أن الأمر إدٌ والخطب جد ، والحد حديد ، والبأس شديد ، انهزموا من قدامهم ، وفتحوا لهم طريق انهزامهم . فلو أن المسلمين أردفوا الحملة بأخرى، كاسعة فى أدبارهم ، مثخنة فى غمارهم[3] ، لاستمرت الهزيمة بهم . غير أنهم لإدبار زمانهم قنعوا بالخلاص ، ولما علم[4] التاتار أن قصاراهم النجاة ، جدوا[5] فى طلبهم ، وسدوا[6] عليهم وجوه مهربهم ، وتبعوهم[7] إلى حافة جيحون ، فلم ينج منهم إلا أينانج خان بشرذمة يسيرة . وشمل القتل معظم ذلك الجيش ، وغنم التاتار من الأموال والأسلحة والعباد والعدة ما ارتاشت به أحوالهم ، وأمرعت رحالهم[8] .

ولما فاجأ السلطان خبر هذه الحادثة الكارثة ، أقلقه وأكمده ، وأضعف عن كل شيء قلبه ويده ، فعبر جيحون بائساً ، وعن بلاد ماوراء النهر آيساً ، وفارقه إلى التاتار عند اضطراب حاله ، وفناء رجاله ، المقدمين من بنى أخواله، سبعة آلاف من الخطابية . واتصل علاء الدين صاحب قُنْدُز بجنكزخان مظاهراً ، وبعداوة السلطان مجاهراً[9] ، وانقطع إليه الأمير جاهررى من قدماء بلخ ، وأخذ الناس فى التخاذل والتسلل ، ومن هناك وهى الأمر ، وانبثق السكر ، وانفصمت العرى ، وانتقضت المراير والقوى ، ولكل مرير انتقاض ، ولكل أمر انقراض . كذلك يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه عمن يشاء وهو الفعال لما يريد .

---

(١) كذا فى النسخة الخطية ، ولعل المقصود بها « أراد الله » أو « أرادوا »

(٢) فى الأصل : لفلحوا .

(٣) فى الأصل : عمارهم .

(٤) فى الأصل : علموا .

(٥) فى الأصل : جد .

(٦) فى الأصل : سد .

(٧) فى الأصل : تبعهم .

(٨) بلغ التخريب فى مدينة بخارى مبلغاً كبيراً حتى أن أحد سكان هذه المدينة ، لما هرب إلى خراسان ، أجمل ماأحدثه المغول فى مدينة بخارى بقوله : أتوا فخربوا ، وأحرقوا ، وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا .Vambery : Op. cit., p. 130 .

(٩) فى الأصل : مجاهداً .

ولما اتصل الخبر بجنكزخان من سبق ذكره من الرتوت ، أشعروه بما استشعر السلطان من الوجل ، وأعلموه بما عنده من الفشل ، جرد المقدمين نمه نوين وسبطي بهادر[١] فى ثلاثين ألفاً حتى عبروا النهر صوب خراسان[٢]، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولا . وجرى من السفك والنهب والتخريب ما غادر الصناع خشين ، وشرد الزراع عزين[٣] ، واستخاص الضاحية الضامنة ، واعتصر البادية والكامنة ، وأخرس الثغا[٤] والرغا[٥] ، وأنطق الهام والأصداء ، وشوهد من اللأواء ما لم يسمع بمثله فى الأعصر الأول ، ولا فيما مضى من الدول .

وهل بلغك أن طائفة خرجت من مطلع الشمس ، فقطعت الأرض إلى باب الأبواب[٦] فعبرت إلى بلاد قفجاق[٧] ، وشنت على قبائلها غارة

---

(١) هما القائدان المغوليان شبي «چبه» Tchéb ، وسوبوتاى Souboutaï . وقد أرسلهما جنكيزخان فى إثر علاء الدين محمد خوارزم شاه ، على رأس جيشين يتكون كل منهما من ألف فارس ، وقد طارداه حتى اضطراه إلى الاعتصام بإحدى جزر بحر قزوين .
D'ohsson : Op. cit., t. i, p. 240.

(٢) المقصود هنا نهر جيحون .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن المغول حينما عولوا على عبور نهر جيحون لم يجدوا سفناً تصلح للعبور ، فصنعوا أحواضا من الخشب ، وكسوها بجلود البقر لئلا يتسرب الماء إليها ، ثم وضعوا فيها أسلحتهم وأمتعتهم وألقوا بخيولهم فى الماء وتعلقوا بأذنابها بعد أن شدوا تلك الأحواض إلى أجسادهم ، « فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة » . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج١٢ ص١٧٠ .

(٣) فى الأصل : عرين ، وعزين ، بالزاى المعجمة ، أى متفرقين .

(٤) الثاغية : الشاة ، والثغاء : صوت الشاة والمعز وما شاكلهما .

(٥) الراغية : الناقة أو البعير ، والرغاء : صوت ذوات الخف .

(٦) باب الأبواب ، وتسمى أيضا الدربند : مدينة على الشاطىء الغربى لبحر قزوين شمالى باكو وقبالة تفليس . انظر المقريزى : السلوك ج ١ قسم ١ ص ٢٤٨ حاشية ٣ ، والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص٣٦٤ ، ودائرة المعارف الإسلامية مادة Derbend.

(٧) يكتب هذا الاسم فى الكتب التركية قپچاق . انظر كتاب عثمانلى تاريخى لأحمد راسم ، ص ١٢٩ ، وانظر أيضا كتاب لغات تاريخية وجغرافية لأحمد رفعت ج ٦ ص ٦ .

شعواء وخبطتها بالسيوف خبط [1] عشواء ، فلم يدس أرضاً إلا نهبها ، ولا بلداً إلا خربها ، ثم رجعت إلى صاحبها من طريق خوارزم بعد هذه الدورة سالمة غانمة ، وقد أهلكت حرث البلاد ونسلها ، وعرضت على ظبي السيوف أهلها. كل ذلك فيما دون سنتين . إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين [2] .

---

(١) فى الأصل : خبطاً .

(٢) سورة الأعراف ، آية ١٢٨ . وقد أوردها هوداس خطأ على النحو التالى : إن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين .

٢٢

ذكر ما قاسى[1] السلطان من الشدائد والجفلات إلى أن مات بالجزيرة ببحر قلزم

ولما عبر السلطان جيحون وصل إلى الخدمة السلطانية عماد الدين محمد بن السديد الساوى وزير ابنه ركن الدين صاحب العراق ، وقد كان ابنه ركن الدين وجهه إلى باب السلطان لقضاء[2] أشغاله فى ظاهر الأمر ، ومستريحا منه بتخلية بابه عنه من نفاث الشر ، إذ كان قد شكى إلى السلطان تحكمه[3] واستبداده ، وأنه لم يتبع فى الأمور إلا هواه ومراده . فلما حضر إلى الباب السلطانى ، وعلم بما دبر عليه ، نصب إذ ذاك حبائل الحيلة فى التخلص من تلك الورطة ، وكان ذاقول مسموع ، ورأى فى الأمور متبوع . فأخذ ينفث على السلطان أنه إذا تسحب إلى العراق سالياً عن خراسان وأهلها قاليا قرارة الميلاد ، ومياه الطارف والتلاد ، فيها يثير له من الأموال والرجال ما يسد به الثلم ، ويداوى به الكلم ، أحاديث زور ، وأخابير غرور ، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً[4] ، فباع العين بالضمار ، وخلف وراءه من البلاد والرجال ما كانت للعراق بالنسبة إليها كالشيء عند المعتزلة بل أحقر ، وبالجوهر الفرد عند من يثبته بل أصغر[5] . فرحل من حافة

(١) فى الأصل : قاسا .
(٢) فى الأصل : لقضى .
(٣) فى الأصل : بحلمه .
(٤) سورة النور ، آية ٣٩ .

(٥) يذكر فى هذا المقام أن علاء الدين محمد خوارزم شاه لما عزم على الفرار من وجه جنكيزخان ، عقد مجلساً من وزرائه وكبار قواده للتشاور فيا يفعله ، فانقسم المجتمعون فى الرأى ، فريق رأى ترك بلاد ما وراء النهر للمغول والانصراف إلى حماية الأقاليم الواقعة غربى نهر جيحون ، وفريق آخر رأى أن ينسحب علاء الدين إلى غزنة حيث يجمع جيوشه المتفرقة ويواجه بها القوات المغولية . وقد فضل علاء الدين الرأى الثانى وسار فى طريقه =

جيحون إلى نيسابور ، ولم يقم بنيسابور إلا ساعة من نهار رعباً تمكن من قلبه ، وذعراً أسس فى صميم صدره ، وخيفة سالت به فى أودية الظنون ، ونفرته عن ضم القوادم للسكون .

وحكى الأمير تاج الدين عمر البسطامى ، وكان من الوكيلدرية ، قال : وصل السلطان فى مسيره هذا إلى العراق بسطام[1] ، فاستحضرنى وأحضر عشرة[2] صناديق ، ثم قال : هل تعلم مافيها ؟ قلت : السلطان أخبر بها . قال : هذه كلها جواهر لا يعرف قيمتها غير هذين ، وأشار إلى اثنين منها فيها من الجواهر مايساوى خراج الأرض بأسرها . وأمرنى بحملها إلى قلعة أردهن[3] وهى من أحصن قلاع الأرض ، تزل عن محاذاتها[4] النسور ، لم ير ساكنها من الطيور غير الظهور . فحملتها إليها وأخذت خط الوالى بها بوصولها مختومة . ولما انتشر التاتار فى الأقطار ، وأمنوا جانب السلطان ، حاصروا القلعة المذكورة إلى أن صالحهم الوالى بها على تسليم الصناديق إليهم فتسلموها بختومها ، وحملت إلى جنكز خان .

نعم ، ولما أتى السلطان العراق نزل بمرج دولت أباد ، وهى من أعمال همذان ، وأقام بها أياماً يسيرة ، ومعه من نفاثات الديار ، بل لقاطات الأدبار ، زهاء عشرين ألف فارس . فلم ترعه إلا صيحة الغارة ، وإحداق

=إلى غزنة ، ولكنه تقابل وهو فى مدينة بلخ بالوزير عماد الدين (عماد الملك) الذى أوحى إلى السلطان بالعدول عن الذهاب إلى غزنة ، وزين له الاتجاه نحو العراق العجمى ، فقبل السلطان مشورته . وكان هذا الوزير مدفوعا بالرغبة فى الالتجاء إلى موطنه الأصلى بالعراق العجمى . D'ohsson : Op. cit., t. i, pp. 141—142.

(١) بسطام : مدينة فى مقاطعة قومس وتمتاز بكثرة بساتينها ، وإليها ينتسب أبو يزيد البسطامى الزاهد . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١٨٠ ، والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٨٩ . وراجع أيضا ص ٥٣ حاشية ٥ .

(٢) فى الأصل : عشر .

(٣) أردهن : قلعة من أعمال مدينة الرى وعلى مسيرة ثلاثة أيام منها . ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ١٨٩ .

(٤) فى الأصل : محاداتها .

خيول العدو[1] به كخط فى الاستدارة ، ففاتهم بنفسه وشمل القتل جل أصحابه، وقتل عماد الملك يومئذ فيمن قتل ، ونجا السلطان فى نفر يسير من أصحابه وخواصه إلى بلد الجبل، ثم منها إلى الاستنداد[2] وهى أمنع ناحية من نواحى بمازندران ذات دربندات ومضائق ، ثم منها إلى حافة البحر . وأقام عند الفرضة[3] بقرية من قراها ، فيحضر المسجد ويصلى به إمام القراءة الصلوات الخمس، ويقرأ له القرآن وهو يبكى وينذر النذور ، ويعاهد الله بإقامة العدل إن كان يكتب سلامته ، ويقيم فى الملك دعامته، إلى أن كبست[4] التاتار بها، ومعهم ركن الدين كبودخانه ، وكان السلطان قد قتل عمه نصرة الدين ، وابن عمه عز الدين كيخسروا ، وملك عليهم بلاده ، فانتهز الفرصة ركن الدين فى هذا الوقت ، وانضوى إلى التاتار ، وملك ناحية عمه ، وكانت خالية من المنازعين . فحين هجموا على الضيعة على غفلة من السلطان، ركب المركب فوقعت منهم سهام فى المركب وخاضت خلفه طائفة منهم، حرصا على أخذ السلطان ، فأشرعهم البدار بواراً ، وأوردهم الماء ناراً[5] .

وحدثنى غير واحد ممن كانوا مع السلطان فى المركب ، قالوا: كنا نسوق المركب وبالسلطان من علة ذات الجنب ما آيسه[6] من الحياة[7] وهو يظهر الاكتئاب ضجراً ويقول : لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر . فما الدنيـا لساكنها بدار ، ولا ركونه إليهـا سوى

---

(١) فى الأصل : حول العدو .

(٢) كذا فى الأصل ولعلها أستناباذ أو أستناوند وهى قلعة من أعمال الرى . ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٥ .

(٣) الفرضة : الثغر أو الميناء . (٤) كذا فى الأصل .

(٥) يلاحظ أن علاء الدين محمد خوارزم شاه ، عندما اتجه إلى الاقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية فاراً من وجه المغول ، كان قد عزم على الالتجاء إلى الخليفة العباسى فى بغداد ، على أن المغول الذين كانوا يلاحقونه لم يتركوا له فرصة لتنفيذ هذه الفكرة ، فاضطر إلى الاتجاه إلى إقليم مازندران . D'ohsson : Op. cit., t. i, pp. 251—252

(٦) آيسه : أقنطه . (٧) فى الأصل : الحيوة .

انخداع واغترار. ما هى إلا رباط يدخل من باب ويخرج من باب،فاعتبروا يا أولى الألباب . قالوا : فلما وصل إلى الجزيرة ، سر بذلك سروراً تاماً ، وأقام بها طريداً فريداً ، لا يملك طارفاً ولا تليداً ، والمرض يزداد . وكان فى أهل مازندران ناس يتقربون إليه بالمأكول وما يشتهيه ، فقال فى بعض الأيام : أشتهى يكون عندى فرس يرعى حول خيمتى هذه ، وقد ضربت له خيمة صغيرة ، فلما سمع الملك تاج الدين حسن —وكان من جملة سرهنكيته[١] وارتقى زمان جلال الدين إلى درجة الملوكية فوفى له حقه بالإحسان والإنعام جزاء له عن خدمته للسلطان فى هذه الأيام وملكه أستراباد[٢] بأعمالها وقلاعها — أهدى إليه فرسا[٣] أصفر. ومن قبل كان الأمير اختيار الدين أكبر أميرآخورية السلطان[٤] ، وقد ضم إليه ثلاثين ألف فرس يقول : إن المرتب معى ثلاثون ألفاً ، ولو شئت جعلتها ستين ألفاً من غير أن أتكلف صرف دينار أو درهم ، وذلك أننى استدعى من كل دشار[٥] خيل السلطان فى البلاد جوباناً واحداً فينيفون على ثلاثين ألفا . فلينظر المتأمل إلى بعد ما بين الحالتين ويعتبر . نعم ومن حمل إليه فى تلك الأيام شيئاً من المأكول وغيره كتب له توقيعا بمنصب جليل ، أو إقطاع طائل ، وربما كان الرجل يتولى كتابة التوقيع لنفسه إذ كان لا يوجد عند السلطان من يكتب التواقيع الجزرية[٦] ، بل كلها كانت برسم[٧] جلال الدين ، فلما أحضروها

---

(١) أى أحد قواده .

(٢) أستراباد : إحدى المدن بإقليم طبرستان . انظر خريطة بلاد فارس

(٣) فى الأصل : فرس.

(٤) نسبة إلى أمير آخور . راجع ص ٩٠ حاشية ٣ .

(٥) الدشار أو الجشار ، هو مكان رعى الماشية من خيل أو غيرها . المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٤٩٠ حاشية ٢ .

(٦) يرجح أن هذه التواقيع قد سميت بهذا الاسم نظراً لأنها كتبت فى تلك الجزيرة ببحر قزوين التى اعتصم بها علاء الدين محمد خوارزمشاه .

(٧) فى الأصل: برسالة ، والمقصود هو أن تلك التواقيع كانت كلها باسم جلال الدين منكبرتى ، أى موجهة إليه .

إليه عند ظهوره[١] أمضاها جميعا، ومن كان معه سكين أو منديل أو علامة من السلطان بإقطاع أو منصب قبّلها وقبِلها وأمضى حكمها .

ولما حل بالسلطان وهو بالجزيرة حمامه ، وانقضت لانقضاء الدين أيامه ، غسله شُهُم الحشم شمس الدين محمود بن يلاغ الجاوش[٢]، ومقرب الدين الملقب بمهتر مهتران مقدم الفراشية[٣] ، وما عنده ما يكفنونه به ، فكفنه شمس الدين محمود المذكور بقميصه[٤] ، ودفن بالجزيرة سنة سبع عشر وستمائة[٥] .

أذل الملوك وصاد القروم	وصيّر كل عزيز ذليلا
وحفّ الملوك به خاضعين	وزُفوا إليه رعيلا رعيلا
فلما تمكن من أمـــره	وصارت له الأرض إلا قليلا
وأوهمه العـــز أن الزمان	إذا رامه ارتد عنه كليلا
أتته المنيـــة مغتاظة	وسلّت عليه حساما صقيلا
فلم تغن عنه حماة الرجال	ولم يجد[٦] قيل عليه فتيلا[٧]
كذلك يُفعل بالشامتين	ويفنيهم الدهر جيلا فجيلا[٨]

(١) أى بعد عودة جلال الدين من بلاد الهند على أثر رحيل المغول عن أقاليم الدولة الخوارزمية إلى بلادهم .

(٢) الجاويش أو الشاويش أو الجاووش ، لفظ تركى وجمعه جاويشية . والجاويش جندى من رتبة بسيطة يكلفه مخدومه بحمل الرسائل وتبليغها . المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٨٧٠ حاشية ٢ .

(٣) مقدم الفراشية ، هو الذى يشرف على بيت الفراش الذى يحوى البسط العديدة والخيام .

(٤) ذكر السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء ص ١١٣ ، أن علاء الدين محمد خوارزم شاه كُفّن بشاش فراش كان معه .

(٥) أى سنة ١٢٢٠/١٢٢١م .

(٦) فى الأصل : يجد .

(٧) فى الأصل : قتيلا .

(٨) وصف ابن الوردى فى كتابه تتمه المختصر فى أخبار البشر ص ١٥٥ ، حال علاء الدين محمد خوارزم شاه فى أواخر أيامه بقوله :

وفارق المسكين أوطانه	وملكه ممتحنا بالمرض
وكم حوى من جوهر مثمن	فما فدى الجوهر هذا العرض

٢٣

ذكر وصول شهاب الدين الخَيوقى[١]

من خوارزم إلى نساء

وحصار التاتار نساء وإهلاكه وإهلاك العامة بها

كان شهاب الدين أبو سعد بن عمران فقيها فاضلا مبرزاً مفتيا فى مذهب الشافعى رضى الله عنه . وقد جمع إلى الفقه ، اللغة والطب والخلاف وسائر العلوم والفصاحة واللسن والتدبير الحسن ، فالمشترى مشترى سعادته ، وعطارد[٢] تلميذ إفادته ، وثاقب النجم عبد دهائه ، وصائب الفكر خادم رأيه . ونال عند السلطان من الرتبة ما ليس وراءها لابتغاء العُلى أمد ، فما فوق السماء للسمو مصعد ، فكان يشاوره فى الأمور العظام ، ويفاوضه فى جلائل الأمور . فكنتَ ترى ملوك الأرض ووزراءها وذوى المراتب العلية من أمرائها وقوفا ، على بابه صفوفا ، وهو يدرّس الأئمة على جارى عادته . وكان إليه تدريس خمس مدارس بخوارزم ، وهو لا يبطل الدرس

---

(١) قرأ هوداس Houdas هذا الاسم فى النسخة الخطية قراءات ثلاثا : أولاها «الحيرقى» كما جاء فى هذا الموضع من الكتاب ، وثانيها «الخيوقى» كما جاء فى الطبعةالعربية ص ٥١ ، ٥٢ ، أما القراءة الثالثة فكانت « الخبوقى » كما جاء فى صفحة ٥٨ من الطبعة العربية أيضا . وقد ظننت بادىء الأمر أن ذلك ما هو إلا نتيجة خطأ فى الطباعة ، فلما رجعت إلى الترجمة الفرنسية وجدت أنه ترجمها مع الأسف ترجمات ثلاثا : الحيرقى EL-Hâîraqi ، الخيوقى EL-Khéyouqi ، الخبوقى EL-Khabouqi .

ولما كانت النسخة الخطية ، وهى محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ، ليست فى متناولنا ، فقد حاولت أن أقف على صحة هذا الاسم بالاستعانة بالمراجع الأخرى . وقد اهتديت إلى أن صحته « الخَيوقى » أو « الخِيوقى » نسبة إلى مدينة « خَيوق أو خِيوق » ، إحدى مدن خوارزم ، وتسمى أيضا خيوه . وتمتاز هذه المدينة كما يقول ياقوت ، باعتناق أهلها المذهب الشافعى على حين أن أهالى سائر مدن خوارزم يعتنقون المذهب الحنفى . انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٥٠٣ .

(٢) المشترى وعطارد : من أسماء النجوم .

فيها إلى أن يزكت[1] ، فتكلمه حجابه في أمور أولئك . وربما كان ذو الحاجة يقيم على الباب متردداً سنة أو أكثر ، فلم تقض حاجته لكثرة الأشغال ، واتساع العرصة في الملك ، وتزاحم ذوى اللبانات . واحتاج السلطان إلى اتخاذ طابع لعلامته وهي : « اعتمادى على الله وحده » . واستناب في تعليم التواقيع بالطابع أكبر بناته خان سلطان ، إذ[2] التواقيع كثرت حتى كان تعليمها يستغرق أكثر الأوقات ويشغله عن سائر المهام ، فما كان يعلم في السنين الأخيرة إلا على توقيع يتضمن أمراً جليلا[3] .

وكان مما يدل على جلال قدر شهاب الدين أبي سعد ، أن الرسالة إذا خرجت على لسان ملك من الملوك كائناً من كان يذكر بعد الوزير في آخر التوقيع ، وأما شهاب الدين فلا يذكر ، تعظيما له وإجلالا لقدره عن أن يذكر بعد الوزير ، بل يكتب « بالأمر الأعلى ، أعلاه الله ، والمثال العالي لازال عاليا بما ذكرناه » ، من ألقاب الوزير . ثم يكتب حسب الرسالة الواردة بالإملاء .

وقد بنى[4] [شهاب الدين] بخوارزم في جامع الشافعية[5] دار كتب لم ير قبلها ولا بعدها مثلها . فلما عزم على الخروج من خوارزم ، وقد أيس من العود إليها ، ضن بتركها فاستصحب نفائسها . ووقعت بعد مقتله بنساء في أيدى العوام والسوقة ، فكنت أتتبعها وأجمعها ، وظفرت بعده

---

(١) زكت الإناء ملأه ، وزكته الحديث أوعيته إياه . والمعنى المقصود الذى يفهم من سياق الكلام هو الانتهاء من البحث والدرس .

(٢) في الأصل : إذا .

(٣) كان علاء الدين محمد خوارزم شاه ، منذ تربع على عرش الدولة الخوارزمية ، في شغل شاغل بمشاكله العديدة الخارجية عن النظر في أحوال دولته الداخلية . فقد شغل بتحقيق أهدافه التي رسمها لنفسه والتي تتمثل في الاجهاز على الدولة الغورية بالاستيلاء على حاضرتها غزنة ، وفي توسيع أملاك الدولة الخوارزمية على حساب دولة الخطا في الشرق ، وتوسيع أملاكه في الغرب على حساب الخلافة العباسية بوجه خاص . انظر كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢٥ — ٢٧ ، ٣٥ — ٤٦ ، ص ٦٠ — ٦٣ .

(٤) في الأصل : بنا .

(٥) في الأصل : الشفعوية . وقد تقدم أن شهاب الدين المذكور كان من فقهاء المذهب الشافعي .

بنفائس منها إلى أن وقعت فى تجاذب أيدى الغربة مشرّق أرض مرة ومغرّباً
تخلفتها بما حويته من الموروث والمكتسب بالقلعة ، ولم أتحسر[1] مما خلفت
بها إلا على الكتب .

ولما وصل المذكور إلى نساء ، ومعه خلق كثير من أهل خوارزم ،
أقام بها ينتظر تجدد الأخبار من جهة السلطان ليقصد خدمته ، فورد الخبر
بوروده بنيسابور ورحيله عنها من غير تلوم ، وتحير شهاب الدين فى أمره ،
فذهب عليه أمره ، وأبهم عليه رأيه ، إلى أن وصل بهاء الدين محمد بن سهل
وهو أمير من أمراء نساء ، وذكر أن السلطان لما ولىّ مجفلا[2] تقدم إليه
بأن يمضى إلى نساء ويحذر الناس ويقول لهم : إن هذا العدو ليس كسائر
العساكر ، والرأى تخلية البلاد والتسحب إلى البرارى والجبال ريثما يجمعون[3]
من الغارات ما تملأ به أعينهم وأيديهم ، فيرجعون ويسلم الناس من فاجىء
ركضتهم[4]. ثم لو قدر أهل نساء على عمارة قلعتهم ، وكان السلطان قد خربها ،
فقد أذنّا لهم فى عمارتها والتحصن بها . وكان السلطان تكش تجشم[5]
لاستخلاصها مراراً فلم يقدر عليها . وحين أيس من استصفائها لنفسه ،
صالح صاحبها عماد الدين محمد بن عمر بن حمزة فأدخله فى ربقة طاعته ،
واستنهضه صحبته لاستخلاص سائر بلاد خراسان الدانية منها والقاصية ،
فلم يترك بها بلدة عاصية . وحين توفى عماد الدين بعد تكش بسنة أو أقل[6]

(١) فى الأصل : أتجسر .

(٢) أى فاراً من وجه المغول إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية .

(٣) فى الأصل : فيجمعون .

(٤) يتفق النسوى مع ما ذكره سيكس Sykes فى هذا المقام من أن علاء الدين محمد خوارزم شاه لم يجمع جيشا واحدا قويا يواجه به المغول عند ما شرعوا فى غزو الدولة الخوارزمية ، بل وزع قواته على المدن المختلفة ظنا منه أن جنكيزخان سيكتفى من البلاد الاسلامية بنهب ما يصل إلى يديه من الغنائم والأسلاب ومن ثم يعود إلى حيث أتى .

انظر Sykes : Op. cit., p. 56.

(٥) فى الاصل : تجسم .

(٦) توفى علاء الدين تكش خوارزم شاه سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) .

مات ابنه الكبير ولى عهده ناصر الدين سعيد بعد وفاة والده بستة أشهر ، وقد قيل إنه كان دسّ على والده من سقاه سماً قاتلا ، فلم يتمتع بعده بالملك طائلا. ووجه السلطان إلى نساء وحمل صغار أولاده وخزائنه إلى خوارزم، فأقاموا بها محصورين إلى حين خروج التاتار فتخلصوا على ماسنذكره .

وأمر السلطان ، لما ملك نساء عليهم ، بتخريب قلعتها فقلعت من [1] أساسها وسووا القدن فيها بالجاريف[2]، حتى فرقت بمجموع ترابها وزرعوا فيها الشعير تشفياً ، وكانت من عجائب القلاع المبنية على التلول . ومن صفتها أنها كانت كبيرة جداً ، تسع خلقاً كثيراً ، وليس أحد من أهل المدينة ، غنيا كان أو فقيرا ، إلا وله فيها دار ، وبنيت فى وسطها أخرى للسلطنة أعلى [3] منها ، والماء يجرى منها إلى التى تحتها ، والتى تحتها لم ينبع الماء فيها إلا بعد حفر سبعين ذراعاً [4] . وسبب ذلك ، على ماقيل ، أن المرتفعة منها كانت جبلا فيه عين ماء والتى تحتها مجموعة من تراب جمع إلى ذيلها لما صارت نساء فى زمن كستاسف ملك الفرس ثغراً حاجزاً ، وحداً حائلا بين الترك والفرس ، سخرت أهل البلاد لجمع ذلك التراب إلى ذيل الجبل فكبرت القلعة .

---

(١) فى الأصل : عن .

(٢) فى الأصل : وسدوا القدن فيهابالحاريف . والقدْن جمع فدان ، مساحة من الأرض والمقصود إعداد أرض القلعة للزراعة بعد هدمها .

(٣) فى الأصل : أعلا .

(٤) من الثابت أن الحروب المستمرة التى سادت عصر الخوارزميين ، كان لها أثرها فى حياتهم العامة وفى مدنهم المختلفة ، فنراهم يحيطون هذه المدن بالأسوار المنيعة ، ويشيدون قصورهم ومبانيهم داخل هذه الأسوار ، وفضلا عن ذلك فقد شيدوا القلاع داخل المدن ليلجأ إليها السكان المدنيون والعسكريون إذا ما هدد المدينة خطر خارجى ، ولذلك لم يقتصر الأهالى على تشييد الثكنات العسكرية فيها ، بل امتلأت هذه القلاع بالمنازل التى أعدت خصيصا لإيواء الأهالى إذا ما دعا الداعى . وكان غالبية السكان ، من أثرياء المدينة وفقرائها ، يملكون المنازل فى هذه القلاع ، كما احتفظ السلطان لنفسه بقصر فى كثير منها .

نعم ولما سمعوا ماذكره بهاء الدين محمد بن أبي سهل عن لسان السلطان ، اختاروا عمارة القلعة على الخلاء ، وشرع الوزير ظهير الدين مسعود بن المثور الشاى فى عمارتها بالسخرة ، وغيّرها فبنى(١) عليها حائطا يشبه حيطان البساتين ، وتحصن الناس بها . وأقام عندهم شهاب الدين أبو سعد بن عمر الخيوقى(٢) وجماعة من أهل خوارزم. ولما علم الأمير تاج الدين محمد بن صاعد وخاله الأمير عز الدين كيخسرو(٣) وجماعة من أمراء خراسان بإقامة المذكور بها رغبوا فى الامتداد إليه ، والإقامة أيام المحنة لديه ، ليكون ذلك ذخرا لهم عند السلطان نافعا ، وحجابا بينهم وبين مكائد بنى الزمان دافعا .

واتفق أن جنكزخان جرّد إلى خراسان صهره تفجار نوين (٤) ، وأميرا من قواده اسمه يركا نوين فى عشرة آلاف(٥) فارس لنهبها وإحراقها وامتصاص مخ عظامها ودم أعراقها، والتجرير على بقايا ورزايا(٦) أرماقها(٧) . فوصلت عوارة(٨) منهم إلى نساء مقدمها أمير يعرف بيل كوش(٩) ، فترامى

(١) فى الأصل : فبنا .

(٢) سبق أن ورد هذا الاسم فى صدر هذا الفصل «شهاب الدين أبوسعد بن عمران» . ولم يتحقق هوداس Houdas من صحة هذا الاسم أثناء قراءة النسخة الخطية ، بل نرى على العكس من ذلك أن هذا اللبس ينتقل إلى الترجمة الفرنسية أيضا . وقد حاولت دون جدوى أن أقف على صحة هذا الاسم بالرجوع إلى بعض المراجع العربية الأخرى . انظر ص ٤٨ ، ٥١ من طبعة هوداس العربية وص ٨٢ ، ٨٦ من الطبعة الفرنسية ، وانظر أيضا ص ١٠٩ حاشية ١ من هذه الطبعة .

(٣) فى الأصل : كيخسروا .

(٤) لفظ نوين معناه أمير أو سيد أو قائد . راجع ص ٤٦ حاشية ١ . ولعل المقصود بتفجار نوين القائد Togatcher كما جاء فى كتاب دوسون . انظر D'ohsson : Op. cit., t. i, p. 274.

(٥) فى الأصل : عشرة ألف .

(٦) فى الأصل : رذايا .

(٧) أرماق : جمع رمق ، وهو بقية الحياة .

(٨) كذا فى الأصل ، ويفهم من سياق الكلام أن المعنى المقصود هو الفرقة الصغيرة ، كما يستدل على هذا المعنى أيضا مما ذكره دوسون وهو فى معرض كلامه عن حصار مدينة نساء . انظر D'ohsson : Op. cit., t. i, p. 275.

(٩) ذكر دوسون ، نقلا عن كتاب جهان كشا ، أن اسمه بل كوش Belgousch وليس بيل كوش . انظر D'ohsson : Op. cit., t. I, p. 275.

الناس إليهم مقابلين ، ووقع نشابة فى صدر يل كوش نخر ميتا ، فنقموا بذلك على أهل نساء ، وقدموا حصارها على حصار سائر المدن بخراسان ، فساقوا إليها فى الطِم والرِم[1] ، والليل المدلهم ، وحوصرت قلعتها خمسة عشر يوما لم يفتروا عن القتال[2] ليلا ولا نهارا ، ونصب عليها عشرون منجنيقا تجذبها الرجالة الذين جمعوا[3] من أطراف خراسان ، وكانوا يسوقون الأسارى تحت الخركات[4] ، وهى بيوت على وضع الجملون . أخذت من الخشب ، ولبست بالجلود . فلو رجعوا ولم يوصلوها إلى السور ضربت رقابهم . فكان هذا دأبهم إلى أن ثلموا فيها ثلمة لا تنسد ، ثم لبس[5] التاتار بأجمعهم لامة حربهم وزحفوا عليها ليلا ، فملكوا السور ، وانتشروا عليه . والناس قد استخفوا فى بيوتهم إلى أن أضاء النهار نزلوا إليهم من السور ، فساقوهم إلى فضاء وراء البساتين يسمى عدربان[6] كأنهم قطعان الضانية تسوقها الرعاة . ولم يمد التاتار أيديهم إلى سلب ونهب ، إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسع[7] بالصغار والنساء ، والضجيج يشق

---

(١) جاء بالطم والرم أى بالمال الكثير .

(٢) فى الأصل : لم يفتروا القتال .

(٣) فى الأصل : الذى جمت .

(٤) لعل المقصود بلفظ « الخركات » هو الدبابات ، جمع دبابة ، وكانت أشبه ما تكون بالبرج المتحرك ، له أحيانا أربعة أدوار ، أولها من الخشب ، وثانيها من الرصاص ، وثالثها من الحديد ، ورابعها من النحاس الأصفر . ويتحرك هذا البرج الهائل على عجلات ، وتصعد إلى طبقاته الجنود لمهاجمة الحصون ولتسلق الأسوار . ويتصل بكل دبابة آلة تسمى كبش ، تجمع على كبوش وأكبش ، لها رأس ضخم وقرنان تدفعها الجنود نحو الأسوار لتهديمها . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٥٦ حاشية ٨ . وانظر أيضا كتاب السلاح فى الإسلام للقائمقام عبد الرحمن زكى ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(٥) فى الأصل : لبسوا .

(٦) ذكر هوداس Houdas أن هذا الاسم ورد فى النسخة الخطية دون تنقيط ، ولذا يحتمل أن يكون أيضا غدربان أو غدريان .

(٧) فى الأصل : الواسعة .

جلباب السماء ، والصياح يسد [1] منافذ الهواء [2] ، ثم أمروا الناس بان يكتف [3] بعضهم بعضا ، ففعلوا ذلك خذلانا ، وإلا فلو تفرقوا وطلبوا الخلاص عَدْواً من غير قتال ، والجبل قريب ، لنجا أكثرهم . فحين كتفوا جاءوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدا [4] وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهواء [5] . فمن دماء مسفوكة ، وستور مهتوكة ، وصغار على ثدى أمهاتها المقتولة متروكة . وكان عدة من قتل بلسان من أهلها ، ومن انضوى إليها من الغرباء ورعية بلدها سبعين ألفاً [6] ، وهى كُورة من كور خراسان [7] . وأحضر شهاب الدين الخيوقى [8] وابنه السيد الفاضل تاج الدين بين يدى تفجار نوين ويركا ، مكتوفين ، وأحضرت صناديق خزائنه ففرغوها وهم وقوف ، إلى أن حال الذهب بينه وبينهما ، فقتلا شهيدين . وهو الآن مدفون بنساء بمزار تسمى ميل جفنة .

---

(١) فى الأصل : تسد . (٢) فى الأصل : الهوى .

(٣) فى الأصل : يكتفوا .

(٤) فى الأصل : العدي . والعدا مقصور عداء ومفرده عِدْو وهو حجر رقيق يستر به الشيء . وعدو كل شيء طواره .

(٥) فى الأصل : الهوى . (٦) فى الأصل : سبعون الفا .

(٧) يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن المغول تمكنوا من الاستيلاء على مدينة نساء بسنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) .

(٨) راجع ص ١٠٩ حاشية ١ .

٢٤

ذكر نبذ مما جرى بخراسان بعد السلطان مجملا ولا حاجة إلى التفصيل ، إذ الأحوال تشبه بعضها بعضاً وليس إلا عموم القتل وشمول التخريب

لما رحل السلطان إلى العراق مجفلا ، ولما وراءه من بلاد خراسان مهملا ، وتبعه يمه نوين[١] وسبطى بهادر[٢] طالبين ، وعبر النهر إلى خراسان تفجار ويركا اللعينان ، وجرى بنساء ماذكرناه ، تفرقوا فى نواحى خراسان فصاروا فرقا ، وانتشروا خرقا ، فكان إذا ساق ألف فارس منهم إلى ناحية من نواحيها يجمع رجاله رساتيقها ، فيسوق بهم إلى المدينة فيدير[٣] بهم المجانيق . ويأخذ بهم النقوب إلى أن يستولى عليها ، فلم يترك بها نافخ نار ولا ساكن دار . واستولى الرعب على النفوس حتى أن الذى أسر كان أروح سراً من القاعد فى بيته ينتظر الحادثة .

وكنت حينئذ بقلعتى المعروفة بخرندر[٤] ، وهى من أمهات قلاع خراسان ، ولست أعرف أول من ملكها من أسلافى . وقد اختلفت

---

(١) سبق أن ذكر هذا الاسم « نمه نوين » ، وكان ذلك وفقا لقراءة هوداس فى النسخة الخطية . ولم يتحقق هوداس من صحة هذا الاسم بل لم يتنبه إلى هذا التعارض فى الترجمة الفرنسية فترجمها مرة « نمه Nemeh » ومرة أخرى « يمه Yemeh » . وسواء أكان الأصل هو نمه نوين أو يمه نوين ، فالمقصود به القائد المغولى شبي (چبه) Tchébé ، كما سبق ذكرنا . راجع ص ١٠٢ حاشية ١ .

(٢) المقصود بسبطى بهادر ، القائد المغولى Souboutai . انظر Dohsson : Op. cit., t. i, p. 240.

(٣) فى الأصل : فيدبر .

(٤) راجع صفحة ٧٩ حاشية ١ .

الأقاويل فيها على حسب الأهواء ، وليس يمكننى أن أذكر[1] إلا الصحيح ، وهم يعتقدون أنها فى أيديهم من بدء الإسلام وإسفار صبحه بخراسان والله أعلم بذلك ، فقد بقيت إذ ذاك والدنيا تموج بالفتن مهربا للأسرى وملجأ للخائفين ، إذ هى واسطة البلاد وحدقة العمران ، فكان أرباب الحشمة وذوو[2] الصيت من أهل النعمة ، يهربون إليها حفاةً عراةً ،وأكسوهم بقدر الإمكان عراهم ، وأساعدهم على ما عراهم ، ثم أوصلهم إلى من أخطأته السيوف من أهاليهم ، فلازالوا[3] كذلك إلى أن كبسوا خراسان عن آخرها ، وقفز إليهم شخص يسمى حبش من كاهجه ، وهى ضيعة من ضياع استواخبوشان[4] ، وكان « سرهنكا »[5] فلقبوه ملكا ، استهزاء وسخرية ، وقدموه على المرتدة ، وولوه أمر المجانيق ، وتدبير الرجالة . فهى الناس منه بالداهية الدهياء[6] ، والخطة النكراء[7] والعذاب المنزل من السماء . وقد دخل فى المداخل الخبيثة ، وأخذ يكاتب رؤساء الضياع . وكانت ضياع خراسان ذوات أسوار وخنادق وجوامع ، والرؤساء بها أرباب مكنة ، فيأمر الواحد منهم أن يقوم بنفسه ورعيته فيحضر بالفؤوس والمعاول ومايقدر عليه من القسى وآلات الحصار ، فإن أجاب إلى ذلك حاصر بهم مدينة من المدن فيستولى عليها ويصب[8] عليهم صوت عذاب ، وإن تقاعد عنه وتعلل مشى إليه وحاصره فأخرجه ومن معه وعَرَضهم[9] على السيف ، وأوردهم مورد الحتف .

وقد أخروا[10] أمر نيسابور وحصارها عن سائر الكور التى كانت معدودة

---

(١) فى الأصل : ليس يمكننى أذكر .
(٢) فى الاصل : دووا .
(٣) أى المغول .
(٤) ناحية من نواحى نيسابور .
(٥) سرهنك : رتبة عسكرية .
(٦) فى الأصل : الدهيا .
(٧) فى الأصل : النكرا .
(٨) فى الأصل : يضبّ .
(٩) فى الأصل : عرضهم .
(١٠) أى المغول .

فى توابعها إلى أن وقع الفراغ من تخريبها ، وكانت تنيف عن عشرين مدينة، ثم قصدوا نيسابور فى عامتهم (١)، ليذيقوا أهلها نكال طامتهم، ويجمعون (٢) إليها من كان منهم فى أطراف خراسان أقواماً متفرقة ، حتى إذا قاربوها خرج أهلها مناوشين ، فأصابت صدر تفجار اللعين نشابة تمكنت من (٣) محل سره ، وأراحت الناس من شره ، فانتقل إلى نار الله الموقدة، التى تطلع على الأفئدة . وعلم (٤) التاتار لما شاهدوا غلبة العوام أنها لا تحاصر إلا بعدد يأتيهم (٥) فتأخروا عنها وكاتبوا جنكزخان مستمدين مستنجدين ، فأمدهم بقيقو نوين ، وقدبوقا نوين ، وطولن حربى ، وعدة أمراء آخرين فى زهاء خمسين ألف فارس (٦) . فخطوا عليها ، وأحاطوا بها فى أواخر سنة ثمان عشرة (٧) وستمائة ، وذلك بعد تسحب جلال الدين إلى الهند على ما سنذكره إن شاء الله (٨) . فلما قاربوها ، أقاموا شرقيها بقرية نوشجان، ذات أشجار كثيرة ومياه غزيرة ، إلى أن أزاحوا عللهم بها فى المتارس والدبابات والمجانيق والجلونات ، فساقوا إليها ونصبوا فى نهارهم ذلك ، مائتى منجنيق مكملة الأسباب ، فرموا بها واستولوا عليها بعد ثلاثة أيام

(١) تقدم المغول إلى مدينة نيسابور سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) .

(٢) فى الأصل : ويجمع . (٣) فى الأصل : عن .

(٤) فى الأصل : علموا . (٥) فى الأصل : تأتيهم .

(٦) الثابت أن الجيوش المغولية التى وكل إليها أمر الاستيلاء على مدينة نيسابور كانت بقيادة تولوى بن جنكيزخان . أنظر D'ohsson ; Op. cit., t. i, p. 288.

(٧) فى الأصل : ثمان عشر .

(٨) من الأمور التى تستدعى النظر فى هذه المناسبة ، أن مدينة نيسابور قد خربت مرتين فى غضون نصف قرن ، مرة سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) على يد الأتراك الغز الذين ثاروا فى وجه السلطان سنجر السلجوقى واكتسحوا خراسان ، ومرة أخرى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) بتأثير هزة أرضية عنيفه حتى اضطر الأهالى إلى الهجرة والسكنى فى الأراضى الصحراوية المحيطة بالمدينة ردحا من الزمن ؛ وبعد أن استعادت نيسابور بهاءها وعمرت بسكانها ومبانيها ، قدر لها أن تخرب للمرة الثالثة على يد تولوى . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٧٩ — ٨٢ ، ج ١٢ ص ١٣١ .

فألحقوها بسائر المدن فصارت كغيرها ، وقد سال بها السيل ، وطاف بها الويل ، وناح عليها النهار والليل . ثم أمروا الأسارى فبسطوها بالمجاريف حتى صارت أرضاً ملساء، لامدرة بها ولاصخرة ، يأمن فيها الفارس العثرة، فلعبوا فيها بالأكرة (١) . ومات أكثر أهلها تحت الأرض إذ كانوا قد اتخذوا بها سراديب ونقوباً ظناً أنها (٢) مانعتهم (٣) .

وحين طلع جلال الدين من الهند ، على ما يأتى شرحه ، وملك إقليم خراسان وما يليه من العراق ومازندران على خرابها ، ثمنوا (٤) الدفائن بها كل سنة بثلاثين ألف دينار ، وربما كان الضامن يأخذ هذا المقدار ويظفر به فى يوم واحد ، إذ كانت الأموال بقيت مدفونة فى السراديب مع أصحابها . فهذا قياس مطرد فى سائر مدن خراسان ، وخوارزم ، والعراق، ومازندران ، وأذربيجان ، والغور ، وغزنة ، وباميان ، وسجستان ، إلى تخوم الهند . فلو ذكرت مفصلة لم يتغير فيه إلا اسم المحاصِر والمحاصَر ، فلاحاجه إلى التطويل فى ذلك .

(١) راجع ص ٦٠ حاشية ١ . والمقصود هنا أن مبانى هذه المدينة قد اقتلعت من أساسها وأصبحت أرضها صالحة لأن تجرى بها لعبة الأكرة .

(٢) فى الأصل : أن .

(٣) عمد المغول إلى الإجهاز على جميع سكان مدينة نيسابور انتقاما لمقتل توجاشر Togatcher (تفجار) زوج ابنه جنكيزخان الذى قتل أمام هذه المدينة ، لذلك عول تولوى على ألا يترك آدميا من سكانها ، بل لم يترك المغول أيضا القطط والكلاب . انظر D'ohsson : Op. cit., t. i, pp. 278 & 290. ، بل يروى فى هذا الصدد أن تولوى ، لما رأى بعض السكان يتلمسون النجاة بالرقاد بين جثث القتلى ، أمر بقطع جميع رءوس القتلى ، ووضع هذه الرءوس فى جانب والأجساد فى جانب آخر . انظر ابن الأثير ; الكامل ، ج ١٢ ص ١٨١ . وقد قدر عدد من قتل من سكان هذه المدينة بنحو ١,٧٤٧,٠٠٠ نسمة . انظر Douglas : The Life of Jenghiz-Khan, p. 23.

(٤) فى الأصل : شمنوا .

٢٥

ذكر تولية السلطان ولاية العهد ولده جلال الدين منكُبِرتى وخلع ولده قطب الدين أزلاغ شاه

قد ذكرنا أن ولاية العهد كانت لقطب الدين أزلاغ شاه ، لما كان يقتضى الوقت من مداراة رأى تُركان خاتون وتتبع مرادها ، على حالتى قربها وبعادها[1] . فلما اشتد المرض بالسلطان بالجزيرة وبلغه أن والدته قد أسرت[2] ، أحضر جلال الدين وأخويه الحاضرين بالجزيرة ، أزلاغ شاه وأق شاه ، وقال : إن عرى السلطنة قد انفصمت ، والدولة قد وهت قواعدها وتهدمت، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه وتشبثت بالملك أظفاره وتعلقت أنيابه ، وليس يأخذ ثأرى منه إلا ولدى منكبرتى ، وهأنذا[3] موليه العهد ، فعليكما بطاعته ، والانخراط فى سلك تباعته . وشد سيفه بيده على وسط جلال الدين ، فلم يلبث بعده إلا أياماً قلائل حتى قضى نحبه ، ولحق بربه ، فنقل إلى حفرته بحسرته ، رحمه الله تعالى .

---

(١) راجع ص ٧١ .

(٢) راجع ص ١٠٤ — ١٠٨ . وانظر أيضا كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١٣١ — ١٣٢ ، ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٣) فى الأصل : هاأنا .

٢٦

ذكر حال خوارزم بعد جلاء تُركان خاتون عنها

ولما أجلتها المذكورة ، وأخلت بها ، ولم تترك بها من يقوم بضبط الأمور وسياسة الجمهور ، تولى أمرها على كوه دروغان ، وكان رجلا عيّاراً مصارعاً ، وقد سمي كوه دروغان لعظم أكاذيبه — ومعناه أكاذيب كالجبال ، ووقع الناس من سوء تدبيره وعدم خبرته بقوانين السياسة وقلة حظه من أدوات الرياسة فى خباط واختلاط ، وزالت هيبة الملك ، واسترابت النفوس إلى ما فى طبائعها من التفاصل[1] والتباين ، والتشاحن والتضاغن . وبقيت أموال الديوان خلسة لكل مختلس ، ونهزة لكل مفترس . وكان المذكور إذا كتب وصولا إلى بعض الجهات لجباية خراجها بمائة ألف دينار تقديراً ، فحملت إليه منها ألف دينار ، يسر بذلك ويقع عنده أنها موهبة سمحوا بها عليه ، ومحبة فيه ، وولاء له ، إلى أن رجع إلى خوارزم بعض نواب الديوان بعد وفاة السلطان مثل عماد الدين المشرف وشرف الدين كيلك ، فزورا كتباً سلطانية ، ولم يعلم الناس بعد وفاة السلطان ، فضبطوا أموال الديوان ، وانزجر كوه دروغان بعض انزجار حيث إنه سمع أن السلطان باقٍ وأنه فى قبالة التاتار ، واستمر الحال على ذلك إلى أن رجع إليها جلال الدين وأخواه أزلاغ شاه وأق شاة بعد وفاة السلطان.

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها التفاضل .

٢٧

ذكر عود جلال الدين وأخويه أزلاغ شاه وأق شاه إلى خوارزم

لما اندرج السلطان إلى رحمة الله ودفن بالجزيرة على ماسبق شرحه[١] ، ركب جلال الدين البحر إلى خوارزم بأخويه المذكورين ، وهم زهاء سبعين فارس . فلما قاربوها ، التقوهم من خوارزم من الدواب والأسلحة والأعلام بما حسنت به حالهم ، وأخلّ بهم اختلالهم ، وتباشر[٢] الناس بقدومهم تباشر من أعضل داؤه فظفر بدوائه ، أو عسر لقاؤه فعاد إلى أودائه ، واجتمعت عندهم من العساكر السلطانية ممن أضمرتهم البوادى ، ونفضتهم المجالس والنوادى بخوارزم ، زهاء سبعة آلاف فارس أكثرهم البياووتية[٣] مقدمهم توخى بهلوان الملقب بقتلغ خان . فمالوا إلى أزلاغ شاه للقرابة ، وأنكروا عليه رضاه بالخلع كفراناً للنعمة ، وتواطأوا[٤] على أن يقبضوا على جلال الدين[٥] فيسملوه أو يقتلوه[٦] ، وأحس أينانج خان بما دبر عليه فأعلمه بذلك ، وأشار عليه بالرحيل ، فرحل صاعداً صوب خراسان فى ثلاثمائة فارس مقدمهم دَمَر ملك ، وأقام[٧] أولئك بخوارزم بعده ثلاثة أيام ، ووافاهم الخبر المزعج بحركة التاتار صوب خوارزم من جهة ماوراء النهر ، فرحلوا على أثر جلال الدين صوب خراسان . وسنذكر ماجرى لهم وله بعد الرحيل فيما بعد إن شاء الله تعالى .

---

(١) راجع ص ١٠٤ — ١٠٨ . (٢) فى الأصل : تباشروا .

(٣) نسبة إلى قبيلة بياووت وهى فرع من قبائل كانــكالى Cancalis التى كانت تقيم فى السهول الواقعة فى شمال خوارزم والشمال الشرقى من بحر قزوين . انظر D'ohsson ; Op. cit., t. i, p. 196

(٤) فى الأصل : تواطوا . (٥) فى الأصل : على أن يقبضوا جلال الدين .

(٦) فى الأصل : فيسلمونه أو يقتلونه . (٧) فى الأصل : أقاموا .

ذكر نظام الدين السمعانى وإقامته عندى بقلعتى[(١)] خرندز مدة ، وخروجه عنها فى غير الوقت انزعاجا

كان نظام الدين السمعانى من بيت الفضل والرياسة ، ذا محاسن موروثة منذ تعاقب الضوء الظلام، وترادفت الليالى والأيام ، لا ينكر ذوو[(٢)] البيوتات الشريفة محتدهم ، من يلق منهم يقل[(٣)] لاقيت سيدهم . وكان المذكور حراً فاضلا، بل نجماً فى الفضائل كأن يَخِر[(٤)] النجم دونه، والفصحاء كادوا يعبدونه، متى ينطق فقل : لافض فوه ، وإن يكتب فقل : لاشلّ عَشْرُه[(٥)].

وقد نقل إلى خوارزم، رغبة من السلطان فى أن يكون مثله فى ملازمته يشاوره فى أمور الملك وتدابيرها ، ونال من السلطان رتبة محسودة ومنزلة مغبوطة . ولما تخلف عن الخدمة السلطانية . أراد تحصين بعض القلاع ماأبقت[(٦)] المخافة[(٧)] ، من حشاشة نفس لفظتها الآفة . فوصل إلى قلعة خرندز وأقام بها شهرين ؛ وكان مع جلال قدره، وعظم محله ، وعظ فى القلعة عدة مرار لحرقة باله ، وتراجع آماله . ولعله لو سيم بخوارزم أن يعظ، إذ الناس[(٨)] ناس ، والزمان زمان ، كان يأبى ذلك إذا ذكر السلطان فى وعظه، ولم يملك البكاء ، مما زاد فى وعظه على نياح ، والسامعون على بكاء وصياح .

ولما استولى التاتار على نساء[(٩)] ، وهى أول مدينة استولوا عليها من

(١) أى قلعة محمد النسوى .
(٢) فى الأصل : ذووا . (٣) فى الأصل : يقول .
(٤) فى الأصل : تخرر . ويخر بمعنى يسقط .
(٥) المقصود هنا أصابع اليد العشرة . والمعنى المقصود هو ما يتفق وما يقوله العرب : لا شلت يمينه .
(٦) فى الأصل : ابقته .
(٧) فى الأصل : المحافة . وقد صححها هوداس فى الترجمة الفرنسية « المخافة » ؛ والواقع أنها لا هذا ولا ذاك ، وإنما هى المخافة ، كما يفهم من سياق الكلام .
(٨) فى الأصل : إذا الناس . (٩) كان ذلك فى سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) .

مدن خراسان — وبلغه قتله الإمام شهاب الدين الخيوقى [1] رحمه الله بها ، أدركه الوجل ، واستولى عليه الهول والوهل . وكان يدور معى على شفقان القلعة ، فيرينى منها مواضع تزلق النمل طالعة ، وتعجز الطير فى حوماتها قارعة ، فيقول : هاهنا يطلع التاتار . واتفق أن ناجن نوين [2] وكان من كبار الطاغية [3] ، وصل [4] إلى القلعة ثالث يوم استيلائهم على نساء ، وحط عليها حيث تمكن النزول وهو جانب واحد [5] . [ولما] رأى [6] نظام الدين ذلك خانه [7] الصبر ، وأهلكه [8] الذعر ، وألح على أن أدليه بالجبال من بعض جهاتها المأمونة [9] ، بحاشيته ودوابه ، وغلمانه وأسبابه ، ففعلت ذلك على إنكار مضمر بل مظهر ، وتعجبت مما داخل أعوان الدولة وأعيانها من الوجل الذى لم يعتقدوا معه أن قلعة تمنع ، أو صولة ترد وتدفع ، نعوذ بالله من الخذلان .

فنزل المذكور ليلا بالجبال من غربيها ، والتاتار نازلون بشرقيها . وكانوا إذا نزلوا من السقيف إلى التل ، وهو تل لا يسلك ، يتدحرجون إلى أسفل التل ، فانكسر لهم بعض الدواب ، ووصل المذكور إلى خوارزم وبها أولاد السلطان ، مُنْصَرَفهم [10] من الجزيرة ، وسير لى من أزلاغ شاه توقيعاً بإقطاع جليل .

---

(١) فى الأصل : الخبوق . راجع صفحة ١٠٩ حاشية ١ .

(٢) جاء هذا الاسم غير منقوط فى النسخة الخطية ، لذلك فإنه يحتمل قراءات كثيرة . وقد حاولت تحقيق هذا الاسم بالرجوع إلى المصادر المختلفة ، فلم أجد هذا الاسم أو ما شابهه من بين القواد الذين اشتركوا فى الاستيلاء على مدينة نساء ، على أن القائد المغولى الذى لعب دوراً هاما أمام مدينة نساء كان تولوى بن جنكيزخان .

(٣) أى جنكيزخان .

(٤) فى الأصل : ووصل .

(٥) كذا فى الأصل ، ولعلها [من] جانب واحد .

(٦) فى الأصل : رأى .

(٧) فى الأصل : خافه .

(٨) فى الأصل : وهلكه .

(٩) أى أن ينزله ببعض الجهات الجبلية الأمينة .

(١٠) أى وقت انصرافهم من تلك الجزيرة الكائنة ببحر قزوين التى لجأ إليها علاء الدين محمد خوارزم شاه وتوفى فيها بعد أن فر من وجه الجيوش المغولية . راجع ص ١٠٤ — ١٠٨ .

نعم ولما شاهد اللعين ناحن نوين القلعة وأنها كعقاب الجو[١]، لا وصول ولا حصول، بعث الرسول، وعرض السول، فطلب عشرة آلاف ذراع من الخام، وعدة ملتمسات أخرى خسيسة، لؤما[٢] طُبع على غراره[٣] ووسم بناره بل عاره. ولم يقنعه ما حواه من ملابس أهل نساء، فأجبته إلى ما سأل دفعا للسيئة[٤] بالتى هى أحسن، فلما أحضر الخام، لم يجسر أحد من القلعة أن يحمله إليهم لعلمهم بأنهم يقتلون من خالطهم، سواء كان رسولا أو قاصيا سولا، إلى أن أجاب شيخان هرمان إلى ذلك من أهل القلعة تبرعا منهما، وأحضرا أولادهما ووصيا برعاتهم والإحسان إليهم إن قتلا، وحمل ذلك إلى اللعين فتسلمه وقتل الشيخين ورحل. ثم شن الغارة على بلدها، فساق من المواشى ما امتـــلأت به الأباطح، وضاقت به قيعانها والصحاصح، قارب كل من نديه[٥] وثار غبر أطلال الضباع عليه.

ومن العجائب أن خراسان لما شملها القتل، وخصت القلعة المذكورة دون سائر الأماكن بالسلامة من صدمتهم، والخلاص من نقمتهم، وقع فيها الوباء، وعم أهلها بالفناء، فكانت تخرج فى كل يوم[٦] منها عدة جنائز حتى لحقت بالآخرين وكفاهم ملك الموت كلفة الحصار. فسبحان من حكم[٧] على الخلق بالفناء، ولقد أحسن من قال:

من لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والداء واحد[٨]

(١) العُقاب طائر من الطيور الجارحة، ويطير فى الجو على أبعاد شاهقة، ويبنى عشه فى أعالى الجبال حيث يصعب الوصول إليه، ولذا قيل، « أمنع من عقاب الجو ».

(٢) فى الأصل: لوماً. (٣) فى الأصل: عراره.

(٤) فى الأصل: للسية. (٥) كذا فى الأصل.

(٦) فى الأصل: فى يوم.

(٧) فى الأصل: حلم، ثم صححها هوداس Houdas فى الطبعة الفرنسية « خلَّم ». والحقيقة أنها لا هذا ولا ذاك، وإنما هى « حكم »، كما ذكرت.

(٨) كذا فى الأصل، وصحة البيت هو:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

٣٩

ذكر رحيل جلال الدين من خوارزم وسببه

لما علم جلال الدين بأن أخاه أزلاغ شاه ومن معه من الأمراء تآمروا[١] على مسكه، وأجمعوا على هلكه [٢]، ركب فى ثلاثمائة فارس مقدمهم دمر ملك[٣]، فقطع المفازة الحاجزة بين خوارزم وخراسان فى أيام قلائل وهى، ستة عشر مرحلة للقفول على سوقهم، ومعهود عادتهم فى الرحيل والنزول وتخلص منها إلى بلد نساء.

وكان جنكزخان، لما بلغه عود أولاد السلطان إلى خوارزم، وجه إليها عسكراً كثيفاً[٤]، وقدم إلى من بخراسان من عساكره بالتفرق على حافات تلك البرية مرصدين، فضربوا على البرية المذكورة حلقة من تخوم مرو إلى حدود شهرستانة، وهى كورة من كور فراوة، حتى إذاهم أولاد السلطان بالمسير إلى خراسان عند انزعاجهم من خوارزم يقبضونهم. وكان بحافة

(١) فى الأصل: توامروا.

(٢) يرجع السبب فى تآمر أزلاغ شاه على أخيه جلال الدين، إلى أن أباهما علاء الدين محمد خوارزم شاه كان قد اضطر أن يوصى بالملك من بعده لابنه أزلاغ شاه تحت تأثير تركان خاتون، متخطيا فى ذلك ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتى، ثم عاد وهو فى أخريات أيامه وأوصى بالملك لابنه جلال الدين لتأكده من قدرته على الوقوف فى وجه المغول ولأن تركان خاتون كانت قد أسرت. فلما وصل جلال الدين وأخواه إلى خوارزم بعد وفاة أبيهم، جمعوا جيشا كبيرا لمواجهة المغول، على أن قادة هذا الجيش كانوا من أنصار تركان خاتون وابنها أزلاغ شاه، فتآمروا على قتل جلال الدين. D'ohsson ; Op. cit., t. i, p. 262

(٣) جاء هذا الاسم فى دوسون Timour-Melik انظر D'ohsson ; Op. cit., t. i, p. 224

(٤) كان هذا الجيش بقيادة جوجى وجغتاى وأجتاى (أكتاى) من أبناء جنكيزخان، الذين كانوا قد أتموا فتح بلاد ما وراء النهر بالاشتراك مع جيوش جنكيزخان. انظر D'ohsson : Op. cit., t. i, p. 263. ويلاحظ أن جنكيزخان كان فى مدينة سمرقند عند ما وجه فرقتين من الجيوش المغولية إلى كل من خوارزم وخراسان. انظر ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٧٩ — ١٨٢.

برّية نساء منهم سبعمائة فارس مقيمين ، ولم يعلم الناس موجب إقامتهم هناك ، إلى أن خرج جلال الدين من المفازة صادمهم ، فبلغ كل من الفريقين غاية الإمكان ، فى منازلة الأقران ، ومناوشة الضراب والطعان . وانجلت عن انهزام التاتار ، وتركوا أسلابهم وعدتهم وعتادهم وأسلحتهم وأزوادهم ، ولم يفلت منهم إلا الشارد الفارد (1) البارد المبادر . فهذا أول سيف فى الإسلام خضب بدمائهم ، ولعب فى جثث أشلائهم (2).

وكان جلال الدين يقول لى بعد علو شأنه ، وتمكنه من سلطانه : لولا ماتارك (3) ، يعنى التاتار (4) ، بلد نساء وإسعادهم إيانا بالخيل التى لهم لما تمكنا من الوصول إلى نيسابور (5) ، لضعف دوابنا التى قطعنا بها المفازة.

وقد كانت طائفة من التاتار تهافتوا إلى قنوات البلد حين أعياهم النجا ، وصالحهم الصوارم والقنا ، فأخرجهم الفلاحون وساقوهم إلى المدينة ، فضربت رقابهم . وكنت حينئذ بمدينة نساء فى خدمة الأمير اختيار الدين زنكى بن محمد بن حمزة ، ولم يعلم المذكور بما قد تم على التاتار ، إذ ورد على المذكور كتاب من رئيس جوانمند ، وهى قرية من قرى نساء ، يذكر فيه أن خيلا جاءتنا فى نهار يومنا هذا زهاء عن ثلاثمائة فارس بأعلام سود زاعمين أن جلال الدين فيهم ، وأنهم أفنوا التاتار المقيمين بنساء ، فما كنا لنصـــدقهم (6) إلى أن حضر شخص منهم إلى قريب السور وقال : أنتم معذورون فى احترازكم هذا ، والسلطان شاكركم على ذلك ، فأدلوا لنا من

---

(1) الفارد : المنفرد ، الوحيد .

(2) الثابت أن الجيش الذى أرسله جنكيزخان إلى خوارزم لم يكن قد وصل بعد ، وهذا هو سبب انتصار جلال الدين .

(3) كذا فى الأصل ، وتارك بمعنى ترك .

(4) فى الأصل : تاتار .

(5) كان جلال الدين منكبرتى قد فر إلى مدينـــة نيسابور بعد اشتباكه مع المغول بالقرب من مدينة نساء .

(6) فى الأصل : نصدقهم .

المأكول وعليق الخيل ما يسد الجوعة ، ويعين على الرحلة ، وستعرفون الحال فتندمون . قال : فأدليناهم إذ ذاك مااحتاجو إليه ،ورحلوا بعدساعة. فتحقق صاحب نساء أن الذى وقع على التاتار المقيمين (١) بنساء هو جلال الدين (٢) ، فجرد بعض خواصه بخيل وأحمال بغل برسم الخدمة ، فلم يلحقه (٣) . فساق جلال الدين إلى نيسابور ، وأقام من توجه بالخيل والبغال بقلعة خرندز ، إلى أن وصل أزلاغ شاه وأق شاه بعده بثلاثة أيام بجفلين (٤) من التاتار ، فقدمها لها ،ووصل جلال الدين إلى نيسابور منصوراً وبما يسر الله تعالى من إدماء سيفه بدماء الكفرة مسروراً .

---

(١) فى الأصل : المقيم .

(٢) فى الأصل : بنساء جلال الدين .

(٣) أى جلال الدين .

(٤) فى الأصل : بجفلين .

٣٠

ذكر خروج قطب الدين وأخيه أق شاه من خوارزم بعد رحيل جلال الدين عنها وسببه ، وما آل إليه أمرهما

لما رحل جلال الدين عن خوارزم ناجياً من لهوات الحين[١] ، ومفلتاً مما دبّر عليه من أنواء النفس أو العين ، ورد الخبر بتجريد عسكر من التاتار إلى خوارزم لطردهم عن سريعة الطلب ، وإزعاجهم عن حصانة الأمل[٢] ، فأجفل عنها قطب الدين وأخوه أق شاه مسافطاً فى يده على مافاته فى ذلك الوقت من الاستظهار بمكان جلال الدين والانتصار به . فاقتفى أثره باحثاً عن خبره ، سالكاً حيث سلك سائراً منجداً كان أو غائراً ، إلى أن وصل إلى مرج سائغ ، فوافاه رسول نساء بما كان معه من خيل التقدمة برسم جلال الدين ، فوقعت عنده إذ ذاك على حقارتها ، وقلة مقدارها ونزارتها ، موقعاً مشكوراً . ورسم لصاحب نساء بعده مواضع زيادة على ما كان تحت يده من البلاد ، ففرح صاحب نساء فرحا شديداً ، إذ كان يرضى بالأمان وحده لعوده إلى نساء فى زمن التاتار ، واستعادته الحق الموروث عن غير مثال يصدر ، وأمر من السلطان يحتج به فيعذر ، فبينا هم فى تقرير أمر الإقطاع إذ أتاهم مخبر بكتاب من ابن عمى سعد الدين جعفر بن محمد منذراً بأن عسكراً من التاتار وصل إلى القلعة يكشف أخبار جلال الدين ومقصده ومن وصل من العساكر السلطانية بعده ، ولم يعلموا بوصول أزلاغ شاه . وذكر فى كتابه أنه خرج من القلعة يشغلهم بالمناوشة ريثما يركب السلطان ، يعنى أزلاغ شاه ، مستعداً للحرب ، أو متحملا لهرب .

---

(١) الحين : الهلاك .

(٢) كان هذا الجيش ، كما سبق القول ، بقيادة جوجى وجغتاى وأجتاى من أبناء جنكيزخان .

فركب أزلاغ شاه للوقت ورحل ، وتبعه التاتار إلى أستوا[1] بلد خوشان ولحقه بقرية تسمى « وشت » ، فوقف لهم واصطف حذاءهم ، وجدّ الفريقان فى القراع ، وأبليا عددهما فى المصاع[2] . ثم انجلت عن هزيمة الكفار ، وإيفائهم بعودة الفرار ، أنى[3] ورماح الطلب مشرعة ، وخيوله مسرعة ، فلم ينج منهم إلا راكب جواد ، أو مختبىء فى معاطف واد .

واغتر أزلاغ شاه ومن معه بما تيسر من الفتح المستعجل ، ذاهلين عما يصنعه رجم المقدور فى المستقبل ، ظانين بأن نواحى خراسان ليس بها من التاتار إلا من قد عُرض على الهادم[4] وسيق إلى سواقى الصوارم . فكبسهم بمنزلتهم تلك ، طائفة أخرى من الملاعين ، ولم ترعهم إلا إحاطة الطلاب[5] بهم إحاطة الأطواق بالأعناق ، فتوالى اليسر عسرا وترادف النصر كسرا[6]

تردى ثياب الموت حمراً فما أتى
لها الليل[7] إلا وهى من سندس خضر

فاستشهد رحمه الله ، واستشهد معه أخوه أق شاه ومن معهما من لفاظات المصائب وجلالات أنياب النوائب . وعاد التاتار برأسيهما وقد نصبا على الرماح ، رغماً للأحرار وكيادا[8] للنظار ، يدورون بهما فى البلاد فتقوم القيامة على أهلها عند مشاهدة الرأسين ، وتجدد لهم مصيبتهم فى الحسن

---

(١) أستوا : كورة من نواحى نيسابور وتشتمل على قرى كثيرة . كما ينتسب إليها القاضى أبو جعفر محمد بن بسطام الاستوائى المتوفى سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) . انظر ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٥ .

(٢) المصاع : القتال بالسيوف .

(٣) أنى : كيف أو إلى أين المهرب .   (٤) الهادم : الموت .

(٥) فى الأصل : الأطلاب .

(٦) فى الأصل : فتوالى اليسر عسر ، وترادف النصر كسر .

(٧) فى الأصل : له الليل . والبيت من قصيدة فى الرثاء لأبى تمام .

(٨) قرأها هوداس فى النسخة الخطية كياداً ثم عدلها فى الطبعة الفرنسية إلى « كباداً » ، والحقيقة أن القراءة الأولى كانت صحيحة .

والحسين[1] ، فنجى[2] الله دنيانا من صبية تأكل أولادها عقوقا ، وجافية لا ترعى لأضيافها حقوقاً . وإلى الله المشتكى من صرف الزمان ، وريب الحدثان[3] .

نعم وكان مع أولئك القتلى من الجواهر ، نفائس كالنجوم الزواهر ، ولم يفتش التاتار عنها ، فخرجت عوام تلك الضيعة إلى القتلى فجمعتها ، وكانوا يبيعونها لقلة معرفتهم بها فى سوق الهـــوان بأبخس الأثمان ، وعهدى بنصر الدين صاحب نساء أنه اشترى منهم عدة فصوص بذخشانية وزن كل واحد منها[4] ثلاثة[5] مثاقيل أو أربعة ، كل فص منها بثلاثين ديناراً أو أقل . وقد اشترى المذكور منها فص الماس بسبعين ديناراً ، فحمل إلى جلال الدين بعده فعرفه وقال : كان هذا الفص لأخى أزلاغ شاه . وقد اشتروه له بخوارزم بأربعة آلاف دينار وسلمه جلال الدين إلى صائغ بكنجة[6] يركبه له فى خاتم ، فزعم أنه قد ضاع فصدق ، وأمر بالنداء عليه فى المدينة يومين فلم يظهر .

---

(١) الحسن والحسين، ابنا على بن أبى طالب .
(٢) فى الأصل : فلجأ .
(٣) راجع كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١٣٩ .
(٤) فى الأصل : منهما . (٥) فى الأصل : ثلاث .
(٦) كنجة : حاضرة إقليم أرّان . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ص ٢٨٣ . وتمتاز هذه المدينة بساتينها الكثيرة . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٦٣ .

٣١

ذكر وصول جلال الدين إلى نيسابور ورحيله عنها صوب غزنة

لما وصل إلى نيسابور[١] وأقام بها شاحذاً عزيمته فى الجهاد ، وطفق يكاتب الأمراء وأصحاب الأطراف والمتغلبين فى هذه الأيام عن الجهات عند تعطلها عن الحماة ، وكانوا قد كثروا ، وقد سموهم ظرفاء ذلك الوقت بأمراء سنة سبع ، يأمرهم بسرعة الوصول ، واستجاشة الجمهور بوعد بالترجية مقرون ، ورفق عن الخرق مأمون . وكان اختيار الدين زنكى بن محمد بن حمزة قد عاد إلى نساء فملك مغصوب حقه ، واستعاد مسلوب إرثه ، وهو مع تحققه موت السلطان لم يجسر أن يظهر الاستقلال ، فكانوا يكتبون التواقيع والبروات[٢] وهو يعلمها بعلامة من كان قد ورث السلطان بنساء قبل استيلاء التاتار عليها إلى أن ورد عليه التوقيع الجلالى[٣] بتقرير ما تمكنت منه يد الاستعادة ، والوعد له إن شاهد منه ما يزيد من الخدمة بالزيادة . فعادت الأمثلة اختيارية ، وأقام جلال الدين بنيسابور شهراً يتابع الرسل إلى الجهات فى الاحتشاد والاستمداد إلى أن علم التاتار بذلك ، فأسرعوه عن المراد ، فخرج من نيسابور فيمن انضوى إليه من الخوارزمية يطوى المراحل إلى أن وصل إلى القلعة القاهرة ، وهى التى بناها مؤيد الملك صاحب كرمان بزوزن[٤] ، تخال نيران الحراس بها لارتفاعها كواكب ، بل الحباحب ، وهمّ أن يتحصن بها فوجه إليه عين الملك ختن مؤيد الملك ، وكان مستحفظاً بها ، يحذره ذلك ويقول له : إن مثلك لا يحسن به أن يتحصن بقلعة ولو بنيت

(١) راجع كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١٥٤ وما بعدها .

(٢) أى البراءات .

(٣) نسبة إلى جلال الدين منكبرتى .

(٤) زوزن : إحدى مدن خراسان ، وتقع بين نيسابور وهراة .

على فرق الفرقدين أو هامة الجوزاء بل أعلى وأبعد ، وحصون الملوك ظهور الحصن ، وما للضراغم والمدن ، فلو تحصنت بالقلعة لأفنى التاتار عليها أعمارهم إلى أن ينال الغرض .

وأمر جلال الدين بإحضار بعض ما في الخزائن من الذهب ، فأحضر وفرّق بأكياسه على من صحبه من خواصه ، وانفصل عن القاهرة ، وجدّ في السير إلى تخوم بست[1] ، فأعلم بها أن جنكزخان مقيم بالطالقان[2] في كتيبة كثيفة ، وجيوش على الإحصاء منيفة ، فاستظلم ضوء النهار واستخشن جانب القرار والفرار ، إذ لامهرب قدامه ، ولا منجى[3] خلفه وأمامه ، فاستمر مخاطراً وإلى غزنة مبادراً بدار من لايمكث بدار ، ولا توطى الأرض جنب قرار . فأخبر ثاني يومه ذلك أو ثالثه أن أمين ملك ، وهو ابن خال السلطان وكان والى هراة ومقطعها بالقرب ، قد[4] أخلى هراة مستبعداً من التاتار ، فقصد سيستان[5] ليستولى عليها فلم يقدر ، وهو الآن عائد ومعه زهاء عشرة آلاف فارس رجالا أتراكا ، وأشبالا فتّاكا ، من نخب العساكر السلطانية سالمين من النكبة بعدّة متكاثرة ، وأهبة وافرة . فبعث جلال الدين إليه يعلمه بقربه ، حاثاً له على سرعة الوصول إليه ، فاجتمعا واتفقا على كبس التاتار المحاصرين قلعة قُنْدهار[6] ، فنهضا إليهم وأعداء الله غارون[7] ، لا يدرون كيف ترصدهم النوائب ، وتحيط بهم المقانب[8] ، يحسبون أن

---

(١) بست : مدينة بين سجستان وغزنة وهراة . انظر ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ص ١٧٠ .

(٢) راجع خريطة الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها .

(٣) في الأصل : منجا .

(٤) في الأصل : وقد .

(٥) في الأصل : سيبستان .

(٦) قندهار : بضم القاف وسكون النون ، من بلاد السند أو الهند . ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ١٦٧ .

(٧) غارون : غافلون .

(٨) المقانب : جمع مقنب ، أي جماعة الفرسان . ويقال قنبوا نحو العدو وتقنبوا ، إذا تجمعوا .

الظُّبى[1] قد توارت عنهم فلا حامل، وأن عوامل الرُّدَيْنيات[2] قد تعطلت فلا عامل. حتى إذا شاهدوها ظِماء[3] إلى نحورهم، عطاشا إلى صدورهم، ركبوا صهوة الفرار، فلم يفلت منهم إلا نفر يسير، مخبرين جنكزخان بما تم على عسكره. فقامت قيامته حين رأى أصحابه جزراً للسيوف القواطع، وطعماً للنسور الخوامع.

وساق جلال الدين إلى غزنة فدخلها ظاهراً ظافراً[4]، ولله على تيسير عسير النجح شاكرا. ولعل من وقف على كتاب المسالك والممالك، وعلم أن ما بعد خوارزم وغزنة الذى ثبت فيه عساكر جنكزخان طالبة جلال الدين بعدٌ شاسع، فوجده مع ذلك كالليل مدركه وإن خال المنأى[5] عنه واسع. وهل سمعت بجنود تواصلت مسيرة شهرين وجموع غصّت بها ما بين البحرين؟

---

(١) الظبى : السيوف .

(٢) فى الأصل : الرد ثنيات . والردينيات بمعنى الرماح .

(٣) فى الأصل : ظما .

(٤) يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن مدينة غزنة كانت ، فى الوقت الذى دخلها جلال الدين منكبرتى ، يسودها القلاقل والثورات بسبب تعدد جيوشها المختلفة الأجناس ، إذ كان يسكنها الأتراك والغوريون من بقايا الدولة الغورية ، كما أن بعض الجنود من الخوارزميين كانوا قد لجأوا إليها فراراً من وجه المغول . وكان طبيعيا أن يتنازع قواد هذه الجيوش وأن يتنافسوا على السلطة ، كما كان من الطبيعى أن يكثر الطامعون فى حكم هذا الإقليم . فلما وصل جلال الدين إلى هذه المدينة ، انضوى كثير من الجند تحت لوائه ، كما انضم إليه عدد كبير من أولئك الخوارزميين الذين كانوا قد فروا إلى حدود الهند فى أثناء الغزو المغولى . وعلى هذا النحو أصبح جلال الدين على رأس جيش يتراوح بين ستين وسبعين ألفا من الخيالة .. انظر D'ohsson : Op. cit., t.i, pp. 297—300

(٥) فى الأصل : المشاى .

٣٢

ذكر حال بدر الدين أينانج وما جرى له بخراسان وغيرها بعد خلاصه من بخارا إلى أن توفى بشعب سلمان

كان بدر الدين أينانج خان من كبراء أمراء السلطان وحجابه[(١)]، ووجوه قواده وعظائه. وقد رتبه السلطان فيمن رتب ببخارا على ما سبق ذكره، ثم قذفته الجفلة بعد استيلاء التاتار عليها إلى البرية المتصلة بنساء فى شرذمة يسيرة من أصحابه وغيرهم، فأقام بحيث لا يصدق رواد، ولم ير وراد، فلا ماء ولا زاد. ولما سمع اختيار الدين زنكى صاحب نساء بإقامته هناك خوفا، رغب فى أن يعده ذخراً لنفسه عند السلطان نافعا، وحجابا بينه وبين من ينازعه حق إرثه وازعا. فراسله مهنئاً له بالسلامة، ومنياً فى كل ما يقدر عليه من الأرفاد[(٢)]، إلى أن ألقى عنده عصا الإقامة لعله برفيع منزلته، ومنيع رتبته، ورجائه الانتفاع بمقبول قوله ومأمول طوله وقال: إن كان سبب الانزواء بالبرية الاحتراز من فاجىء[(٣)] ركضة التاتار فما نحن بغافلين عنهم أين حلوا، ومتى ارتحلوا. فامتد المذكور إلى نساء وواساه اختيار الدين بما ساعدته القدرة من سلاح ودواب وملبوس وأسباب ومطعوم، حتى ارتاشت أحواله، وأخلّ به اختلاله.

وكان أبو الفتح رئيس نشجوان، وهى من أمهات قرى نساء ذات سواد وسور وخندق وباشورة، يمالىء[(٤)] التاتار ويكاتبهم، فأعلم حين دمر شحنة خوارزم بإقامة أينانج خان بنساء، والاتفاق بينه وبين صاحبها، فجرد إليه عسكراً لطرد أينانج خان وحصده، فحين وصلوا إلى نشجوان أصحبهم

(١) راجع ما كتبناه عن الحجابة فى صفحة ٦٢ حاشية ٢.

(٢) الرفد: العطاء.

(٣) فى الأصل: فاجى.

(٤) فى الأصل: يمالى.

رئيسها من يدلهم على أينانج خان ، وكان بالقرب منه ، وقد التأم إليه أيام مقامه بنساء ونواحيها من العساكر السلطانية كل منزو فى زاوية ، ومنضو إلى ناحية . فاصطف بهم حذاء العدو للجدال ، وحرّض المؤمنين على القتال . وقد شهدت الوقعة فائزاً بفضيلة المجاهدين على القاعدين ، إذ كنت ألازمه نائبا عن صاحب نساء فى إنجاح مآربه ، وإسعاف مطالبه ، كيلا يحتاج فيما دعت حاجته إلى مراجعة. فشاهدت من أينانج خان فى الوقعة مالو شاهده رستم[1] فى زمانه لرهبه خدمة عنانه ، وهدية آداب سيفه وسنانه ؛ فحين اشتبكت الحرب خاض بنفسه غمرتها يضرب باليدين ، ويقد الذراع بنصفين[2] . وحمل التاتار عليه حملتين فثبت لهم أحسن ثبات ، واستك إذ ذاك سمع الهوى من قرع الحديد بالحديد ، والمواضى رويت صدورها من موارد الوريد . وتحطم سيف أينانج خان عند احتداد جمرة المصاع[3] واشتداد وقدة القراع . وعثر به فرسه فأردف بجنيب وألحق بسيف ، وكشف أصحابه عنه ما أحاط به من أوشاب الزحوف ، وأخلاط الصفوف . فحين علا صهوة فرسه حمل عليهم حملة جعلها خاتمة القتال ، وصيرها آخرة النزال ، فولوا الأدبار مفلولين ، ونكصوا على أعقابهم مخذولين ، يظنون أن النجا ينجيهم الطلب ، ويقيهم مصارع العطب ؛ أنى وورائهم السراحيب القود ، وقدامهم المهامة البيد ، فاقتفى أينانج الفلّ إلى نشجوان ، نشوان لإفنائهم ، ظمآن إلى دمائهم ، فلم يزل نهاره ذلك كاسعاً[4] فى أدبارهم ، ومثخناً فى فى أعمارهم ، يتبعهم فى كل مسرب ، ويحشرهم عن كل مهرب .

---

(١) رستم : من أشهر أبطال الفرس ، وكان الشعراء يكثرون من ذكره فى أشعارهم ، ويضربون الأمثال ببطولته . انظر مقال الدكتور عبدالوهاب عزام بك عن « الصلات بين العرب والفرس وآدابهما فى الجاهلية والإسلام » ، فى عدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف .

(٢) يقدّ الذراع بنصفين أى يقطعها نصفين .

(٣) المصاع : القتال بالسيوف .	(٤) كاسعاً : مطارداً .

حيّ الرضا من رداهم ميت العصب

ووصل آخر النهار إلى نشجوان ، وقد انتبذت إليها من نباذات رحى[1] الحرب ، طائفة منهم واقفين ببابها ، منادين أبا الفتح فأبى الفتح ، بعد أن سخم وجهه بثؤور الارتداد ، وتردى لخسران الدارين برداء[2] الالحاد . فحين عاينوا حر الطلب إلى الخندق غاطسين فى الماء ، ووقف أينانج خان فيمن وصل معه من سرعان الخيل يمطر عليهم من عزالى[3] القسى إمطاراً، إلى أن غرقوا فأدخلوا ناراً .

ولما عاد إلى مخيمه منصور اللواء ، صاعد الجد على خط الاستواء ، وجه إلى صاحب نساء مبشراً بتيسير الله مرامه ، وتسديده نحو المراد سهامه . وأصحبه عشر رءوس من الخيل التاتارية برسم الازمعان ، وعشرة من أسرائهم ، وأوعز إليه بحصار نشجوان وتطهيرها[4] من أبى الفتح ، فحاصرها واستولى عليها ، وهلك أبو الفتح تحت المعاصير ، وخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . ورحل أينانج خان صوب أبيورد[5]، وقد تمكنت هيبته فى النفوس فجبى[6] خراج أبيورد من غير منازع ، وقد انضوى إليه هناك ممن طوحتهم الطوائح ، وأضمرتهم الشعاب والأباطح ، من العساكر السلطانية رتوت مثل يلتاج ملك ، وتِكنى ملك ، وبكشان جنكشى ، وكجيدك أمير آخور[7] وأمين الدين رفيق الخادم ، وجماعة أخرى . وعاد إلى نساء وقد كثف سواده[8] ، وكثرت أتباعه وأجناده . واتفق وصوله إليها مضى صاحبها اختيار الدين زنكى لسبيله ، واقترح على

---

(١) فى الأصل : رحا .
(٢) فى الأصل : ترداء .
(٣) فى الأصل : غزالى .
(٤) فى الأصل : تطهرها .
(٥) أبيورد : مدينة بخراسان بين سرخس ونساء . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ١٠٢ . وانظر أيضا خريطة بلاد فارس .
(٦) فى الأصل : لجبا .
(٧) أمير آخور : راجع ص ٩٠ حاشية ٣ .
(٨) كثف سواده : كثر أتباعه . والسؤدد كثرة السواد ، أى كثرة الأنصار والأشياع .

القائم مقامه أن يسامحه بخراج سنة ثمان عشرة وستمائة ، معونة له على مؤنة من اتصل به من العساكر السلطانية ، فأجابه إلى ذلك طوعا أو روعا . فجباه وفرقه فيهم وسار منها إلى سبزوار[1] من أعمال نيسابور وبها إيلجي بهلوان ، وقد تغلب عليها وطمع في مغالبته عليها فالتقيا بظاهرها وانجلت المعركة عن هزيمة إيلجي بهلوان ، وامتد به الركض إلى جلال الدين وهو إذ ذاك في أعماق بلاد الهند[2] ، وقويت شوكة أينانج خان ، واستفاض حكمه في أعماق بلاد خراسان عامة ، وسائر ما أبقته الفتن كافة . ثم إن كوج تكين بهلوان ، وكان مقيما بمرو متغلبا على حشاشة منها أخطأتها المنون ، عبر جيحون إلى بخارا وكبس شحنة التاتار بها وقتله ، فحرك ساكن الفتنة ، وألهب خامد الإحنة ، فقصدوه في زهاء عشرة آلاف فارس ، وكسروه وامتدت به الجفلة إلى سبزوار وبها يكنقو بن إيلجي بهلوان ، فحلا[3] بها واتفقا على أن ينحدرا إلى جرجان ويصلا جناحهما بأينانج خان ، وكان إذ ذاك بظاهرها ، فوردا عليه وتبعهما التاتار متقاسمين منازل الطلب والهرب ، ومترقبين العلالة بين السير والخبب ، فوجداه بالحلقة — وهي فضاء بين جرجان واستراباذ[4] واسع للمجال والقتال — ووصل التاتار بعدهما بيومين ، وتصاف[5] الفريقان ، وعند ذلك حمي الوطيس ، واختلط المرءوس والرئيس . فكنت ترى السيوف للهامات دامغة ، والرماح في

---

(١) انظر خريطة بلاد فارس .

(٢) كان جلال الدين منكبرتي قد فر إلى بلاد الهند بعد أن حلت به الهزيمة على يد جنكيزخان على حافة ماء السند كما سيأتي ، وكما ذكرناه مفصلا في كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١٥٣ — ١٦٤ ، ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٣) جاءت هذه الكلمة في الأصل العربي لطبعة هوداس «فأحليا» ، ثم صححها هوداس نفسه خطأ في طبعته الفرنسية « فأخلا » ، والأصح أن يقال حلا بها أي نزلا .

(٤) استراباذ : بلدة من أعمال طبرستان وهي تتكون من مقطعين : أستر وهو اسم رجل وأباذ بمعنى عمارة ، وعلى ذلك فمعناها عمارة استر . انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٨٧ ، وياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٢٤ . وانظر أيضا خريطة بلاد فارس .

(٥) في الأصل : تصافا .

الأكباد والغة . وثارت عجاجة غبراء سترت العيون عن الأشباح ، فلم تعرف الرماح من الصفاح . واستشهد يومئذ من مشاهير الرجال ، ومساعير الأبطال سركنقر وكجيدك أميرآخور [1] ، فرسا الرهان عند الضراب والطعان ، واكتست الأرض لون الشقائق من دماء الطلى والعوانق ، إلى أن زلت أقدام الأتراك ، وتقاسموا بين الأسر والهلاك ، وولى أينانج خان ولم يزل راكضا خيله ، نافضا عن الأثقال ذيله [2] ، حتى اتصل بغياث الدين بيرشاه وهو بالرى ، فسر بمقدمه وعرف له حق قدمه ، فلم يزل يوفى له الإكرام إلى أن طمحت نفسه من خطبة والدته إلى ما يستبعد مراماً ، ويستعقب خجلا وملاما ، فلم يعش بعد ذلك إلا أياما . فقيل إنه دس إليه من ذعف له نقيعاً ، وغادره على الفراش صريعاً ، والله أعلم بصحة ذلك . فدفن بشعب سلمان من بلاد فارس ، وهو مزار معروف .

كانت الوقعة بجرجان فى سنة تسع عشرة وستمائة [3] ، وقد حضرتها أيضا ، فرمتنى لهوات الحرب إلى الأصفهبذ عماد الدولة نصرة الدين محمد ابن كبودخامه ، وهو بقلعة همايون ، فأكرمنى وأقمت عنده أياما إلى أن أمنت الطرق فوجهنى إلى قلعتى مخفراً .

(١) راجع ص ٩٠ حاشية (٣) .
(٢) فى الأصل : ناقصا عن الأثقال ذيله .
(٣) فى الأصل : تسعة عشر وستماية .

٣٣

ذكر حال ولد السلطان ركن الدين غورشايجى صاحب العراق وما آل أمره[1]

كان المذكور قد اتصل بالسلطان عند تسحبه إلى العراق ، وانتبذ به الركض من الكبسة بقزوين إلى حدود كرمان ، فانبسطت فيها أوامره ، ونفذت أحكامه ، وأقام بها مدة تسعة أشهر نافذ الأمر فى أعمالها ، متصرفا كيف شاء فى أخرجتها وأموالها ، إلى أن لاحت له أمان[2] فى العود إلى العراق فعدّ بها جده ، وأصلد عليها زنده ، فشخص نحوها سائرا إلى دمه بقدمه ، فساق إلى أصفهان ووافته الأخبار بها بأن جمال الدين محمد بن أبى أبه القزوينى حدثته نفسه بتملك العراق ، واجتمع عليه بهمذان من الأتراك العراقية طلاب الفرصة ومساعير الفتنة خلق مثل ابن لاجين. جقرجة ، وأيبك الخزيندار[3] ، وابن قراغز ، ونور الدين جبرييل ، وآقسنقر الكوفى ، وأيبك الاندار ، ومظفر الدين باردكز صاحب قزوين .

واتفق أن قاضى أصفهان ، مسعود بن صاعد ، قد خرج عليه فى تلك الأيام ابن أبى أبه مائلا ، ولموالاته قائلا ، فزحف ركن الدين بمن معه من

---

(١) يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الدولة الخوارزمية عند ما بلغت درجة كبيرة من الاتساع فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه ، رأى هذا السلطان أن يقسم أقاليمها بين أبنائه الأربعة ، ليتولى كلٌّ تصريف شئون قسم منها ، وبذلك يتمكن من السيطرة عليها ، ويضمن بقاءها على ولائها لأسرته .

وعلى هذا الأساس آل حكم الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية إلى جلال الدين منكبرتى ، وآلت أقاليمها الشمالية إلى قطب الدين أزلاغ شاه ، وأقاليمها الجنوبية إلى غياث الدين شيرشاه ، أما القسم الغربى من هذه الدولة فقد كان من نصيب ركن الدين غور شاه . انظر ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٥٤ .

(٢) فى الأصل : أمانى .

(٣) لعلها الخازندار . راجع ص ٥٨ حاشية ١ .

العسكر وأتباع الرئيس صدر الدين الخجندى(١) على محلة القاضى المعروفة بجوبارة ، فسفك وأهلك ، إلى أن استولى عليها وملك . وهرب القاضى إلى فارس مستذريا(٢) بظل الأتابك سعد(٣) ، فأمنه وآواه وأكرم مثواه . ثم عزم ركن الدين على المسير إلى همذان للقاء جمال الدين وتدارك أمره ، وحصد ما نجم من شره ، وتفرقت عساكره فى محال أصفهان للتزوّد ، وإزاحة عللهم فى التحمل والتجرد . وكانت قلوب أهلها قد حنقت عليهم بما جرى على محلة القاضى من النهب والسفك ، فأغلقوا أبواب المدينة ، وقاموا إلى السكاكين ، فقتلوا خلقا منهم فى الأسواق والدكاكين ؛ ففت ذلك فى عضد ركن الدين وهمته ، وفتر ما قوى من عزمته . ثم أنه جرّد قرسى بك ابن خاله وطغانخان ، وكجبوقة خان ، وشمس الدين أمير علم(٤) العراقى لقتال ابن أبى أبه العراقى(٥) . فلما تدانت الخطى بين الفريقين خالفهم كجبوقة خان إلى ابن أبى أبه كفرانا لمن ملكه رقاباً حساناً ، ووجده وشاقاً فجعله خاناً ، وانخذل الباقون بخذلانه فرجعوا من غير التقاء .

وامتد ركن الدين نحو الرى فوجد بها طائفة من دعاة الإسماعيلية يدعون أهل الرى إلى طاعتهم ، ويزينون لهم أن سلامتهم فى مشايعتهم ، فعلم ركن الدين بهم فقتلهم . وورد الخبر قبل استجمامه بها بأن التاتار صامد صمده ، وناو قصده ، ففزع إلى قلعة أستون آوند(٦) وتحصن بها ، وهى

---

(١) نسبة إلى خجنده ، إحدى المدن الواقعة على نهر سيحون .

(٢) مستذريا : ملتجئا .

(٣) هو سعد بن زنكى أتابك فارس (٥٩٩/٦٢٣ هـ = ١٢٠٢/١٢٢٥ م) . انظر ما كتبناه عن أتابكية فارس فى كتابنا : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١٠٩ — ١١٠ . وانظر أيضا سلسلة نسب هذه الأسرة فى ص ١٦٨ من نفس الكتاب .

(٤) أمير علم : اسم يطلق على من يتولى أمر أعلام السلطان . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٨ . والمقريزى : السلوك ح قسم ١ ص ١٢٤ حاشية ١ .

(٥) كذا فى الأصل ، ولعله ابن أبى أبه القزوينى ، كما سبق ذكره .

(٦) إحدى القلاع القريبة من الرى .

حصينة جداً ، تزل عن محاذاتها أجنحة النسور ، غير محتاجة[1] لمناعتها إلى السور . فأحاط التاتار بها ، وبنوا[2] على عادتهم فى حصار مثلها من القلاع حولها سوراً . وكان ركن الدين ومن ملكها قبلُ يعتقدون أنها لا تؤخذ إلا صبراً ، ولا تملك إلا بعد حصارها دهراً ، ولم يقدر عليها حيلة ومكراً. فلم ترعه إلا زعقة الملاعين حول فنائه سحرة. والسبب فى ذلك أن الحراس كانت مرتبة[3] على جهاتها التى يحترز عليها ، ويتوهم منها حيلة تعمل . وقد غفلوا عن جهة لم يعن[4] السلف بترتيب الحراس عليها لمناعها ، فوجد التاتار فى بعض تلك الجهات شقا فى السقيف نبت فيـــه العشب من أسفله إلى أعلاه ، فاستعملوا من الحديد أوتاداً طوالا ، ودقوها فيه ليلا، وكانوا إذا دقوا الواحد منهـا علاه الواحد منهم ودق فوقه آخر ، إلى أن صعـد وأدلى الحبال وجذب الآخرين ، فأحاطوا بالدار ، وتفرق الجند وخذل الحارس والبواب وحل لهم الباب . باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

فمسّاهم وبُسطهم حرير   وصبحهم وبُسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قنـاة   كمن فى كفه منهم خضاب[5]

فقتلوا ركن الدين أحسر ما كان برداء جمال ، وعمود اعتدال ، وطلعة هلال وروعة عزة وجلال .

كأن بنى نبهان يوم وفاته   نجوم سماء خرّ من بينها البدر[6]

ولمـا بلغ جمال الدين محمد بن أبى أبه ومن معه من أمراء العراق ما تم على ركن الدين وأصحابه ، خفق قلبه ، وطار لبه ، وأخذ من بهمذان من

---

(١) فى الأصل : غير محتاج .
(٢) فى الأصل : بنا .
(٣) فى الأصل : مرتبته .
(٤) فى الأصل : يعين .
(٥) الشعر للمتنبي .
(٦) البيت لأبى تمام .

الأجناد ينفث إلى ذروته وغاربه (١) بالانخراط فى سلك التاتار والاستيلاء به على ما أرثه سعياً فى ضلال ، وتسويلا فى محال ، «كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى (٢) برىء منك،إنى أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين» (٣) فكاتبهم طائعا مذعنـــا ، وبشعار الطاعة معلنا ، فسيروا له خلعة تاتارية مشهورة بالشوم (٤) ، مطرزة بالحسد واللوم . فلبسها مجاهراً بالوداد ، مسخّماً (٥) وجهه بثؤور الارتداد .

وتوجه التاتار صوب همذان ، وأرسلوا إليه يقولون : إن كنت صادقاً فيما زعمت من طاعتنا وموالاتنا فلابد من الحضور . فحضر واثقاً بما أعطوه من ذمام عهد ، ونفثوا عليـه من كلام ينبى عن ود (٦) . وخجل فى وثوقه بغدار ، وبناية على شفا جرف (٧) هار ، فقتلوه وقتلوا من معه من العراقية . ومشوا إلى همذان والتقاهم الرئيس علاء الدولة الشريف العلوى ، وكان ابن أبى أبه قد بالغ فى إيذائه (٨) ، واستيفاء ما حوته يده من الأموال واستصفائه . فضمن المذكور لهم حسن الطاعة ،فقلدوه أمرها ، ورجعوا إذ كانوا يعلمون أن يمه نوين وسبطى بهادر (٩) قد استوليا على همذان منذ خروج التاتار . فكبساها عن أموالها ، وأخلياها عن رجالها ، فليس بها طائل ، وأن مادونها حائل .

---

(١) من أمثال العرب : يفتل له فى الذروة والغارب ، أى يدبر ويكيد له .

(٢) فى الأصل : إننى .

(٣) سورة الحشر ، الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٤) الشوم : الشؤم .

(٥) مسخما : مسوّداً .

(٦) فى الأصل : يثنى عن ود .

(٧) فى الأصل : حرف.

(٨) فى الأصل : إئذائه .

(٩) راجع ص١٠٢ حاشية ١ ، ص١١٦ حاشية ١ . ويلاحظ أن «بهادر» كلمة تركية معناها شجاع ، انظر Bretschneider : Op. cit., t.i, p. 279, note 668.

٣٤

ذكر حال غياث الدين ومسيره إلى كرمان

كان السلطان قد نص على ولده غياث الدين بيرشاه بملك كرمان ، ولم يتفق مسيره إليها حتى جرى بقزوين[١] من الكبسة ماسبق شرحه ، فلفظته أشداق البلية إلى قلعة قارون وخدمه الأمير تاج الدين صاحبها أتم خدمة إلى أن عاد ركن الدين غور شايجى من كرمان إلى أصفهان ، فبعث إليه يحرضه على المسير إلى كرمان ويعلمه بأنها خالية ممن[٢] يمانع ، صافية ممن[٣] يحامى أو ينازع . فسار إلى أصفهان وبها ركن الدين فأكرمه أتم إكرام ، ولاطفه بإحسان وإنعام ، فنهض إلى كرمان بعد ثلاثة أيام فملكها ، وصفت أشرابها ، ودرت عليه أحلابها ، وأخذ أمره يزداد بها بهاء ونورا ، وأمر ركن الدين بالعراق وهناً وفتوراً إلى أن تم عليه من القتلة بقلعة استون آوند ماذكرناه ، ففزعت[٤] الآمال فيه إلى الكذب ، وأحال الدهر[٥] محاسنه عن كثب[٦] ، فنعى إلى ذوى الآداب والحسب .

تعثرت به فى الأفواه ألسنها
والبرد فى الطرق والأقلام فى الكتب[٧]

وعادت العراق معرضة للقصاد ، بملكه خالية عن المنادين الأضداد . وخرج الأتابك يغان طايسى[٨] إذ ذاك عن محبسه بقلعة سرجهان . وكان سبب حبسه بها أن السلطان كان قد رتبه فى خدمة ولده ركن الدين

(١) فى الأصل : بقرزين .
(٢ ، ٣) فى الأصل : عمن .
(٤) فى الأصل : ففرعت .
(٥) فى الأصل : والمحال لدهر .
(٦) فى الأصل : عن كبث .
(٧) الشعر للمتنبى فى رثاء أخت سيف الدولة
(٨) يكتب اسم هذا الرجل أيضا « إيغان طائيسى » ، انظر ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٠ .

غورشايجى حين ملّكه العراق ليكون أتابكا لديه ، ورداء بين يديه . فشكا ركن الدين إلى أبيه تجرؤ.[1] المذكور وتأبيه ، وأوهمه أنه إن أرخى[2] من عنانه فيما يذره ويأتيه ، يبدو منه ما يعسر تلافيه . وأذن له فى القبض عليه فقبض ، وحبس بقلعة سرجهان إلى أن خلت العراق فى هذه الفتن ممن[3] يحميها ، وحلت لمن يطمع فيها ، أخرجه والى القلعة أسد الدين الجوينى .

وكانت الأهواء إليه مائلة ، والآراء فى منابذته فائلة[4] . فاجتمعت عليه طوائف من العراقية والخوارزمية ، فاشتدت بهم مناكبه ، واحتدت عليه أنيابه ومخالبه . فمن جملة من[5] انضوى إليه بهاء الدين سكر مقطع ساوة[6] وجمال الدين عمر بن يوزدار والأمير كيخسرو[7] ، ونور الدين جبريل مقطع قاشان[8] ، وابن نور الدين قران خوان ، وأيدمر الشامى ، وكتك مقطع سمنان[9] وأيدغدى كله ، وطغرل الأعسر ، وسيف الدين كيتارق مقطع كرخ .

وكان أدك خان قد استولى على أصفهان فى هذه الفـــترة ، وأراد غياث الدين استمالة قلبه ، وأن يجعله من حزبه ، فزوّجه بأخته آيسى خاتون ، تثبيتا له على الطاعة ، ودافعه فى زفافها إليه إلى أن يبدو له ما ينكشف عنه الوحشة القائمة بين المذكور والأتابك يغان طايسى ، إذ كانا قد استوليا على طرفى العراق ، واستحوذ عليهما السلطان ، فلم يريا سوى الشقاق ، وأبيا

---

(١) فى الأصل : تجرأ .

(٢) فى الأصل : أرخا .

(٣) فى الأصل : عمن .

(٤) فائلة : ضعيفة .

(٥) فى الأصل : ما .

(٦) ساوة : مدينة بين الرى وهمذان ، خربها المغول سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ، وقتلوا أهلها وأحرقوا مكتبتها العامرة . انظر ياقوت . معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢١ — ٢٢ .

(٧) فى الأصل : كيخسروا .

(٨) قاشان : مدينة قرب أصبهان ، ومنها تجلب الغضائر القاشانى ، وأهلها من الشيعة الإمامية . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ص ١٣ .

(٩) راجع ص ٥٣ حاشية ٢ .

مذهب الاتفاق . فصمد الأتابك نحوه وهو بأصفهان فى زهاء سبعة آلاف فارس من نخب الأتراك العراقية الخوارزمية . وحين حس أدك خان برحيله صوبه ، راسل غياث الدين مستنجداً ، فأنجده بدولة ملك فى ألفى فارس .

وأعجله[1] الأتابك عن وصول المدد فالتقيا بظاهر أصفهان ، وأدك خان فى خف من العدد . وانجلت المعركة عن أسر أدك خان ، فكف الأتابك عن قتله لقرابته من السلطان ، وامتيازه برفيع منزلته عن الأقران . فحين أخذت الكؤوس مأخذها منه ومن أصحابه ، تقدم بإحضار أدك خان فأحضر ، وكان المجلس غاصا[2] بالعراقية . فوفى له الأتابك حق الإعظام ، والتقاه بالإجلال والإكرام . غير أنه أجلس دون بعض العراقية فغاظه ذلك وحمله الإدلال بقرابته من السلطان على أن سافهه فى الكلام ، وشافهه فى الخصام ، فأمر به فخنق ، وندم الأتابك حين أفاق على ما فعل ، وأنى له وقد سبق السيف العزل .

ولما بلغ دولة ملك ، وكان قد جرد من كرمان نجدة[3] لأدك خان على الأتابك يغان ، ما حدث من الوقعة بباب أصفهان ، جذب عنانه ، ولزم مكانه ، وكاتب غياث الدين منهيا إليه بصورة الحال ، وما انكشف عنه حومة القتال . فلحقه غياث الدين طالباً للثأر ، ومقاوما[4] من العار ، وتضافرا على قصد أصفهان ، وبها الأتابك يغان طايسى ، وكان القاضى قد صالحه أو طاوعه بأهل محلته ، وعصته محلة الرئيس صدر الدين الخجندى[5] لمضادة بينهما ، وثارات منيمة[6] ، فساق غياث الدين إلى أصفهان وصبح الأتابك بظاهرها قبل أن يبلغه النذر ، أو يروعه الذعر ، فكان كما قال أبو فراس :

---

(١) فى الأصل : عجله . (٢) فى الأصل : غاضا . (٣) فى الأصل : تجده .

(٤) فى الأصل : مفادما . وقاوم الرجل صاحبه بمعنى قام معه ، وفى المصارعة قام أحدهما للآخر .

(٥) نسبة إلى مدينة خجندة الواقعة فى أعالى نهر سيحون .

(٦) الثأر المنيم ، هو الثأر المبيت الذى لابد من الوفاء به .

ويارب دار لم تخفنى منيعـة[1] طلعت عليها بالردى أنا والفجر

فلم يرعن الخدمة يداً ، ولم ينزع عن الطاعة يداً . فقبل الأرض حين رآه ، وعفر وجهه فى التراب ، واستوفى فى التخضع سائر الآداب . وزال مافى قلب غياث الدين من الوحشة بمواطأته للجماعة على قتل أدك خان ، وزوّجه بأخته أيسى خاتون وزفت إليه ، واستوحش لذلك رفقاؤه من الأمراء ، ففارقوا مخيمه ، وأقاموا حجره ، إلى أن ترددت رسل غياث الدين إليهم فى الإصلاح ، وكف عادية الكفاح ، فزال عنهم ما توهموا ، وبطل ماهموا به من التفرق ، وعزموا فعادوا إلى الخدمة طائعين ، وعلى صدق الموالاة متابعين ، ماخلا أيدمر الشامى فإنه ساقه حينه[2] إلى الأتابك أزبك صاحب أذربيجان ، فقتل هناك . وتمكن غياث الدين من العراق ونفذت أوامره فى خراسان ومازندران ، فأقطع دولة ملك مازندران بأسرها فقوى على أمرها ، ويغان طايسى همذان بأعمالها ونواحيها فانبسطت أحكامه فيها ، وتفرق كل منهما على رياش عمله ، فرتب أعماله ، وجبى[3] أمواله . ولما رجع دولة ملك إلى الخدمة ، قويت شوكة غياث الدين فقصد أذربيجان ، وبها الأتابك أزبك بن محمد بن إيلدكز[4] صاحبها ، وشن الغـارة على بلد مراغة وما يلى العراق من سائر أعماله . وأقام بأوجان[5] ، وترددت رسل أزبك فى موضعه على سلم يفتدى بها[6] من حرارة كأسه ، ومرارة بأسه ، وزوجه بأخته الملكة الجلالية صاحبة نخجوان ، وعاد غياث الدين إلى العراق بعد تأكد أسباب الوفاق[7] .

---

(١) فى الأصل : ويارب دار لم يخفنى منيعه .

(٢) حيْنه ، أى قضاؤه وهلاكه . (٣) فى الأصل : جبا .

(٤) هو خامس أتابكة أذربيجان : ٦٠٧ / ٦٢٢ هـ = ١٢١٠ / ١٢٢٥م ، ويكنى بمظفر الدين . وقد قرأ هوداس Houdas اسمه فى النسخة الخطية « ايلدكز » وهذا خطأ . انظر ما كتبناه عن أتابكة أذربيجان فى كتابنا : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص١٠٨ — ١٠٩ . وانظر أيضا سلسلة نسب أتابكة أذربيجان فى ص١٦٧ من نفس الكتاب .

(٥) أوجان : إحدى مدن أذربيجان . (٦) فى الأصل : يقتدى .

(٧) حدثت حوادث هذه الحرب سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣م) . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٠ — ١٩١ .

٣٥

ذكر مسير غياث الدين إلى فارس وشنه الغارات في نواحيها وفساد عسكره فيها

كان غياث الدين بالعراق يكيل لمجاوريه بمكيالهم له من الموارأة[1] والنفاق ، إلى أن قويت شوكته بمن انضم إليه من العساكر السلطانية ، نفاضات المنون ولفاظات الحرب الزبون[2] . واتفق إفلات أينانج خان من حرب عرت[3] بينه وبين التاتار بظاهر جرجان ، على ماسبق شرحه ، فوفى له حق مقدمه ، وأفاض عليه من سجال نعمه ، مراعاة لحقوقه السالفة ، ومولاته التالدة والطارفة[4] ، وبالغ في إجلاله وإكرامه وإقامة العطايا له ولعامة رجاله ، حتى نافسه في ذلك خالاه دولة ملك ، وبلتي ملك ، وجنبه الأتابك يغان طايسي ، وهموا بهلاك المذكور بغياً وكناداً[5] ، وحسداً على منزلته وعناداً .

وحين علم غياث الدين بما أطمروا[6] له من الشر ، ونووا في حقه من الختل والغدر ، حذّرهم ، وبعواقب المعاقبة أنذرهم . فتسحب كل واحد منهم إلى جهة من الجهات ، كارهاً مواصلته بباطن موتور ، وحقد في الصدر مستور . واتفق حينئذ عود التاتار ثالثاً إلى العراق ، وقد وجد شملهم مبدداً للنظام . منحل العرا والأوذام[7] ، فوقع بدولة ملك بحدود زنجان فقتله ، فذاق وبال أمره ، وحاق به شر غدره . ولما أحاطت به أفواه الشرك ، وشاهد نفسه في أشداق الهلك ، دلّ ابنه بركتخان ، وكان طفلا ، على

---

(١) في الأصل : الموازاة . والموارأة ، المساترة والإخفاء .

(٢) في الأصل : الربون .

(٣) عرت : اشتدت .

(٤) في الأصل : الطارقة .

(٥) الكنود : كفر النعمة .

(٦) طمر الشيء : طواه ودفنه . ولعلها هنا أضمروا .

(٧) الأوذام : سيور الدلو ، ورباطها عند أنواحها ، والواحد وَذَم .

جادة أذربيجان ، وقال اسلكها إلى أن تفضى بك إلى المأمن . فسلكها إلى تبريز ، فعطف به الأتابك أزبك وكان يربيه ، وقام فى تربيته مقام أبيه ، إلى أن طلعت الرايات الجلالية من الهند [1] ، وملكت تبريز انسلّ عن غمد التعويق ، وانسحب إلى رحب فنائه عن الضيق .

ثم وقع التاتار بيغان طايسى عند منصرفهم من زنجان [2] فنهبوا جلة سواده وأهلكوا [3] عامة قواده ، ونجا بنفسه وعرسه إلى حدود طارم [4] . وعاد التاتار فعبر جيحون منتصراً ، وبما قد غنم منهم مستظهراً . وهكذا الحسد لا يرضى إلا بسخط صاحبه ، وانشاب [5] الزمان عليه بأنيابه ونوائبه . وعاد من نجا منهم إلى غياث الدين بوجوه سوّدها العصيان ، وجموع بددها الخذلان ، فقوى بهم أزره ، واشتد بعودهم ظهره . وكان قد نقم على الأتابك مظفر الدين سعد بن زنكى صاحب فارس فى تلك المدة عدة أمور ، منها مكاتبة أهل أصفهان مستميلا لأهوائهم المتقلبة ، مستجلبا لآرائهم المنجذبة المضطربة . ومنها قلة الاحتفال ، بما يقتضيه حكم الحال ، من المسامحة بالأموال ، والمساعدة بالرجال . فساق نحو فارس فى جيوش كثيفة ، وخيول على الآلاف منيفة . وحين علم الأتابك أن لا قِبَلَ له به تحصن بقلعة اصطخر [6] ، فساق غياث الدين إليها ، وزحف على ربضها [7] فملكها

(١) المقصود هنا عودة جلال الدين منكبرتى من مخبئه فى بلاد الهند بعد رحيل جنكيزخان وجنوده إلى منغوليا .

(٢) زنجان : إحدى المدن الكبرى فى أقصى شمال بلاد الجبل وعلى الحدود الجنوبية لأذربيجان وتنتسب إليها جبال زنجان . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ س ٣٦٩ . وانظر أيضا خريطة بلاد فارس .

(٣) فى الأصل : وهلكوا .

(٤) طارم: أحد الأقاليم الجبلية المشرفة على مدينة قزوين .

(٥) فى الأصل : وانساد .

(٦) اصطخر : من أهم وأقدم مدن فارس وحصونها، وكانت فى وقت ما حاضرة الملك فارس . انظر ياقوت : معجم البلدان ج ١ س ٢٧٥ — ٢٧٧ .

(٧) الربض : ما حول المدينة من بيوت .

عنوة ، وخربها عقابا وسطوة . ثم ارتحل عنها إلى شيراز فدخلها عنوة ، وسقاها من كؤوس الانتقام قهوة [1] . وحط على قلعة « جره » [2] زمانا ثم صالح أهلها على مال وأعطاهم أمانا ، ومات أينانج خان هناك فدفن بشعب سلمان [3] .

وسير ألب خان إلى كازرون [4] ، وبها الشيخ أبو اسحق الشيرازى ، فاستولى عليها وسبى الذرارى ، وهتك الحرم ، وأحل بأهلها النقم . وكان قد اجتمع هناك على مر الدهور ، أموال جمة من النذور، فحملها ألب خان إلى بيت ماله ، وأعاد بها رونق حاله وجماله ، وهيهات إنها مظالم حديدات السفائر ، ومغارم ثقيلات الغوائر ، ومطاعم ظاهرها عاسل ، وباطنها سم قاتل . لاجَرَم [5] كان عاقبة أمره أن أسره التاتار بباب أصفهان فشدوا زجليه [6] تحت الفرس وكتفوه وبعثوه مسيرة سنتين إلى خاقان [7] فأحرقه وعرض على النار رمقه [8] . ولعل العذاب العاجل [9] يرد عنه الآجل، فلا يعذب مرتين ، والله عزيز ذو انتقام .

ثم سار غياث الدين منها إلى حدود « أمهر » من بلاد بغداد فأخلاها علم الدين قيصر نائب الديوان العزيز [10] ظنا منه بأنه يسلك بها مسلكه بفارس نهبا وإحراقا ، وسفكا وإرهاقا ، فلم يتعرض غياث الدين إليها، محافظة على الأدب ، ومراعاة لما فرض الله من الطاعة ووجب . وجمع الإمام

---

(١) كان ذلك سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٣ .
(٢) جره : قلعة بالقرب من مدينة شيراز .
(٣) الشعب بكسر الشين : الطريق فى الجبل .
(٤) على مسيرة ثلاثة أيام من مدينة شيراز حاضرة أتابكية فارس .
(٥) أى لاشك .
(٦) فى الأصل : رجيله .
(٧) لعل المقصود هنا إرساله إلى قره قورم حاضرة المغول .
(٨) الرمق : بقية الحياة .
(٩) فى الأصل : الاجل .
(١٠) أى ديوان الخلافة .

الناصر[1] رضوان الله عليه تلك السنة جمعا كثيرا من إربل وسائر البلاد الجزرية ، وديار بكر وربيعة، وراسل غياث الدين فى العود إلى ما هو أحمد فى الأولى ، وأعود عليه فى الآخرى . فأذعن بالطاعة وعاد إلى العراق[2] .

---

(١) الخليفة الناصر لدين الله ، أبو العباس أحمد بن المستضىء : ٥٧٥ / ٦٢٣ هـ = ١١٨٠ / ١٢٢٥ م .

(٢) على الرغم من أن غياث الدين تمكن من السيطرة على العراق العجمى وخراسان بالإضافة إلى إقليم مازندران جنوبى بحر قزوين ، فضلا عن الجزء الأكبر من أتابكية فارس ، على الرغم من ذلك كله لم يجن هذا الأمير أكثر من الدعاء له على المنابر فى خطبة الجمعة . إذ أن الكثيرين ممن قبلوا طاعته اقتصروا على الوعد بإرسال هذه الجزية ولم يقوموا بتنفيذ ما وعدوا . وقد عمد الأتراك فى هذه البلاد إلى تخريب ما تصل إليه أيديهم ، ولم يستطع غياث الدين أن يحد من أعمال السلب والنهب التى قاموا بها .

وعلى هذا النحو ، فقد ظل هذا الاقليم ، رغم خضوعه لغياث الدين ، فى حالة شديدة من الفوضى والاضطراب ، واستمر الحال على هذا النحو حتى آل حكمه إلى جلال الدين منكبرتى بعد عودته من البلاد الهندية .

٣٦

ذكر الحوادث بغزنة قبل وصول جلال الدين إليها

كان كربر ملك بغزنة ينوب عنه، فلما سنح[١] لأمين ملك قصد سيستان[٢] طمعاً فى الاستيلاء عليها، سيّر إليه يستحضره ليتعاضدا على تلك الجهة المذكورة، فنهض إليه مساعداً، وعما كان يليه من غزنة وأعمالها مباعداً. وكان اختيار الدين خربوست، وهو من قدماء الغور، مقيما ببرشاوور[٣]، على إقطاعه الذى أفرد له جلال الدين بها قبل. فاغتنم إذ ذاك خلو غزنة ممن[٤] يحميها، وأراد تحريف كلمة الدعوة فيها. فدخلها على ركوب منهم إلى جانبه، وكان صلاح الدين محمد النساى[٥] واليا بقلعة غزنة للسلطان موالياً. فصالح خربوست عنداستيلائه مظهراً مشايعته جهاراً، ومضمراً انتهاز الفرصة فيه أسراراً. فلما حصل الاسترسال، ولاحت الفرصة فيه وقفا ذات يوم فى الميدان، عمد بخنجر فى صدره هتك حجاب ستره، وعاد الصلاح إلى الفتنة، فقلع الفساد وأصفى السلطان البـــلاد، وأمر أصحاب خربوست، فكبسوهم فى الدور والحجر، وأخرجوهم من تحت كل مدر وحجر، وأمر بتاج الدين ابن أخت خربوست فصلب.

وكان رضى الملك مشرفا للديوان الجلالى بغزنة، فرأى صلاح الدين تقليده أمورالديوان كيلا ينسب إلى الاستقلال، ولا يفوت حق الأخرجة والأموال، فقلده ذلك، فلما استقر به المكان تاه وتجبّر، وعتا وتكبر،

---

(١) فى الأصل : أسنح .
(٢) فى الأصل : سيبستان .
(٣) هى بشاور الحالية، إحدى مدن إقليم السند. انظر خريطـة الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها.
(٤) فى الأصل : عمن .
(٥) كذا فى الأصل، ولعلها النسائى، نسبة إلى مدينة نساء .

حين رأى أمور الدولة لا تزداد على الرتق إلا فتقا ، وعلى الرفو إلا خرقا . فاحتجن أموال الديوان عن مصارفها ، وبسط يده فى الإنعامات والإطلاقات زائدة على وظائف الوزراء . ثم أحس من صلاح الدين إنكارا على ما كان يركبه من ذنب تذم عواقبه ، وكسب لم تصف مشاربه ، أغرى به طائفة من السجزية[1] فقتلوه ، واستقل رضى الملك بالملك إلى وصلها جلال الدين ، فرأى تقرير ما يليه مدة تغافلا عما سبق من هباته ، وتصاما عما بلغه من زلاته ، إلى أن كسر التاتار ببيروان[2] على ما يأتى شرحه . ورجع[3] إلى غزنة ظافراً ، أمر بالقبض عليه والمطالبة بما بذره من الأموال أيدى إتلافه ، ووذره[4] خطرات إسرافه ، فعصر مطالباً بالمال ، إلى أن مات على شر حال .

(١) كذا صححت عن الطبعة الفرنسية لهوداس Houdas ، والمراد هنا طائفة تنتمى إلى سجستان .

(٢) انظر خريطة الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها .

(٣) لعلها ، ولما رجع .

(٤) فى الأصل : ووده ؛ وذره أى قطعه وجرحه.

٣٧
ذكر الحوادث بغزنة بعد عود جلال الدين إليها

وصل غزنة في سنة ثمان عشرة وستمائة[١] ، وتباشر الناس بوصوله تباشير الصوّام بهلال الفطر ، وذوي المحول[٢] والإعدام بانهلال القطر . واتصل بخدمته سيف الدين بغراق الخلجي ، وأعظم ملك صاحب بلخ ، ومظفر ملك صاحب الإيغانية ، والحسن قزلق ، كل هؤلاء في زهاء ثلاثين ألف فارس ، ومعه من عسكره وعسكر أمين ملك مثلها .

وحين بلغ جنكزخان ما حل بعسكره من النقمة بقندهار[٣] ، جرد إليه ابنه تولى خان[٤] في عسكر كثيف من نخب الرجال أحلاس[٥] الظهور ، وأبناء الصوارم الذكور ، واستقبله جلال الدين بنية في الجهاد قوية ، وحمية في الإسلام أبية ، ووافقه بيروان في الخيول بل السيول ، والجنود بل الأسود . فلما ترآى الجمعان حمل بنفسه على قلب تولى خان فبدد نظامه ، ونثر تحت قوائم الخيل أعلامه ، وألجأه إلى الانهزام ، وإسلام المقام ، وتحكمت فيهم سيوف الانتقام . وركب جلال الدين أكتاف الغل يخطف بالقواطع علاوات الأخادع[٦] ، ويفصل بالأسياف مجامع الأكتاف . وكيف لا وقد فجعوه بإخوته وأبيه ، ومملكته وذويه ، وفصيلته التي تؤويه ، فترك لا والد ولا مولود ، ولا عابد ولا معبود ، تلفظه النوادي إلى البوادي ، وتقذفه المخاوف إلى التنائف[٧] . وقتل تولى خان[٨]

---

(١) في الأصل : ثمان عشر .

(٢) في الأصل : المجول . والمحل ضد الخصب .

(٣) راجع ص ١٣٣ حاشية ٦ . (٤) هو : تولوى Toulouï

(٥) الحلس ، بفتح فكسر : الشجاع .

(٦) الأخادع : عروق في الرقاب .

(٧) في الأصل : التنايف . أما التنائف فجمع تنوفة بمعنى المفازة .

(٨) يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن ما ذكره النسوي عن مقتل تولوى بن جنكيزخان في هذه الموقعة لا يستند إلى أساس ، والثابت أن تولوى لم يقتل في هذه الموقعة بل ولم يشترك فيها . وتدل الحقائق التاريخية الثابتة على أن هذا الابن كان ضمن من رافقوا جنكيزخان في أثناء عودته إلى بلاده .

فى وهج القتال ، واحتداد جمرة الصيال ، وكثر الأسر حتى كان الفراشون يحضرون الأسارى الذين [1] يأسرونهم إلى بين يديه ، فيدقون الأوتاد فى آذانهم ، تشفياً منهم وجلال الدين يتفرج ، ووجهه بالبشاشة يتبلج [2] ، فقد عذبوهم فى الحياة [3] الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى [4] .

وقد كانت شرذمة من التاتار حاصرت قلعة ولج ، وضايقتها [5] مطاولة ، فلما بلغهم ماصبّ الله على أولئك من سوط العذاب ، أفرجوا عنها خائبين خائفين ، ومنّ الله بالخلاص على المسلمين . فلما عادت الجفلة إلى جنكزخان ، قام إليه بنفسه فى عساكره التى يضيق عن ضمها الفضاء ، ويغص بجموعها العراء . واتفق أن العساكر الخلجية [6] قد فارقوا جلال الدين فى ذلك الوقت صحبة سيف الدين بغراق ، وأعظم ملك ، ومظفر ملك ، غضاباً أحوج ماكان إلى حضورهم ، وأنجادهم إياه فى جمهورهم . وسبب ذلك أنهم لما كسروا ابن جنكزخان ببيروان زاحمتهم الأتراك فيما أفاء الله عليهم من الغنائم لوماً طبعوا على غراره [7] ، ووسموا بناره ، حتى إذا نازع بعض الأتراك الأمينية [8] أعظم ملك فى فرس من خيل التاتار ، وطال [9] بينهما التنازع ، ضربه التركى بمقرعة [10] ، فاشمأزت لذلك نفوسهم ، ونفرت قلوبهم ،

(١) فى الأصل : الذى .

(٢) فى الأصل : يبتلج .

(٣) فى الأصل : الحيوة .

(٤) فى الأصل : أبقا . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام ، أن انتصار جلال الدين فى إقليم بيروان كان له أثره فى ثورة بعض المدن الخوارزمية فى وجه المغول ، ظنا أن هذا الانتصار كان ضربة قاضية وجهت إلى الجيوش المغولية ، ومن أهم هذه المدن مدينة هراة ، وهى المدينة الخراسانية الوحيدة التى سلمت إلى حد ما من التخريب فى أثناء الغزو المغولى . ومهما يكن من شىء فقد تمكن المغول فى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م) من الاجهاز على هذه المدينة ، كما تمكنوا من قتل غالب سكانها ، ولم يعفوا من القتل إلا أصحاب المهن والحرف للاستفادة من خبرتهم انظر Höworth : Op. cit., part I, p. 91. و D'ohsson : Op. cit., t.i,pp. 311,–314.

(٥) فى الأصل : ضايقها .

(٦) نسبة إلى خلج ، وهو موضع قرب مدينة غزنة . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤٥٤ .

(٧) فى الأصل : عراره .

(٨) نسبة إلى أمين مُلك .

(٩) فى الأصل : وأطال .

(١٠) فى الأصل : بعقرعه .

وطارت فى رءوسهم نعرة الخلاف ، إذ رأوا أنهم لم يقدروا على الانتصاف. ومهما هم جلال الدين بإرضائهم ، زاد الأتراك شراً وعصبية بسوء معاملة ، وعدم مجاملة ، وقلة حظ من التجارب ، وقطع نظر[1] من العواقب .

وتشاكى الغرباء[2] بعضهم إلى بعض وقالوا : إن هؤلاء الأتراك كانوا يعتقدون التاتار ليس من جنس البشر ، لا يفزعون إذ لا أثر فيهم للمناصل[3] ولا ينصرفون إذ لا عمل فيهم للعوامل[4] . حتى إذا رأيناهم تحكم فى مفاصلهم المناصل ، وفى قبائلهم القنا والقنابل ، رضوا بعهدهم بنكثه وبعقدهم بحله استكباراً فى الأرض ومكر السيء[5] ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

وكان جلال الدين إذا لاطفهم فى الاسترجاع ، وراسلهم فى عقد كلمة الإجماع ، نفرت الأتراك نفوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، ففارقوه .

ولقد أخطأ[6] ملوك ذلك البيت فى انتصارهم بالترك ، على جنسهم من ذوى الشرك إذ[7] الذى يقاتل عن دين متين وعقيدة أكيدة لا يرجو ثواباً ، ولا يخشى عقاباً ، لا يؤمن عند الحاجة توانيه وتتبعه أهواءه[8] فى ساعاته وآنيه .

نعم ، ولما بلغ جلال الدين نهوض عدو الله إليه فى معظم جيوشه ، وحفوفه إليه فى الطاغية من أخاييشه[9] ، وقد فارقه الأمراء فى مساعير أبطالهم وجماهير رجالهم ، حدس[10] بالآفة ، وأحس بالمخافة ، وعلم أن لا طاقة له بجنكزخان إلا باسترداده ، وتتبعهم على مرادهم ، فرأى أن يتأخر إلى ماء السند ثم يستأنف بها مكاتبة المنفصلين ، ويعرفهم أن العود أحمد ، وإلى

(١) فى الأصل : نظراً .
(٢) فى الأصل : الغربا .
(٣) فى الأصل : المناصل .
(٤) فى الأصل : العوامل .
(٥) فى الأصل : ومكراً لسيء .
(٦) فى الأصل : أخطا .
(٧) فى الأصل : إذا .
(٨) فى الأصل : اهواه .
(٩) الخيش : موضع الأسد وجمعه أخياش ، وجمع الجمع أخاييش . ذكر المحل وأراد الحال ، وهم الشجعان الأشداء .
(١٠) حدس : ظن وتوهم .

الجانبين أعود . فإن أجابوا إلى ذلك يلتق [1] جنكزخان بهم مبكراً ، وبمن معـــه من الأتراك مستظهراً . فعجله جنكزخان عما دبر ، فجاء الأمر بخلاف ماقدر .

وكان لجلال الدين عند خروجه من غزنة قولنج [2] شديد ، ولم ير مع ذلك الجلوس فى المحفة ، فركب الفرس تجلداً على مابه من ألم شديد،ووجع وبيد[3] ، إلى أن منّ عليه بالعافية الشافية ، والسلامة الوافية . وورد الخبر أثناء ذلك أن مقدمة جنكزخان نزلت بجردين ، فركب جلال الدين ليلا ، حمد عند صباحه مسراه ، مستضيأ بتوفيق الله وهداه ، وكبس المقدمة بجّردين ، فلم يرعها إلا العاديات صوابح والموريات قوادح ، ولم يفته إلا سرعان الخيل تحت ذيول الليل .

ولما بلغ اللعين[4] ذلك هاله ، ونعى إليه آماله ، أخذ لايلوى على شيء ، يطوى المراحل أسرع طى . ورجع جلال الدين إلى مخيمه بحافة ماء السند، وضاق الوقت عما كان ينويه من جمع المراكب ، واسترجاع الكتائب . ووصل مركب واحد فأمر بتعبير والدته وحرمه ومن ضمته الدور، وحجبته الستور ، فانكسر المركب وتعذر العبور . ووصل جنكزخان مستعداً للقتال،وإذا أراد الله بقوم سوءاً[5] فلامرد له ، ومالهم من دونه من وال.

---

(١) فى الأصل : يلتق .

(٢) القولنج : مرض معوى مؤلم .

(٣) الوبيد : الشديد .

(٤) يقصد جنكيزخان .

(٥) فى الأصل : سوء

ذكر المصاف بين جلال الدين وبين جنكزخان على حافة ماء السند وهذه من معظات الحروب ومعضلات(١) الخطوب

وصل جنكزخان إلى حافة ماء السند قبل إتمام مانواه جلال الدين من استرجاع الأمراء المنفصلين ، فتطاير الفرسان وتجالد الشجعان ، سحابة يومهم ذلك ، ثم تصافا صبيحة يوم الأربعاء لثمان خلون من شوال سنة ثمان عشرة(٢) وستمائة . فلما تلاقى(٣) الفريقان ، والتقت حلقتا البطان ، وقف جلال الدين حذاه فى قل من العدد ، وقد فارقه العدد الدثر .

بنفس تعاف العــار(٤) حتى كأنه
هو الكفر عند الروع أو دونه الكفر

ثم حمل بنفسه على قلب جنكزخان فمزقه بدداً ، وجعله طرائق قددا(٥) وولى اللعين بنفسه هزيماً ، يحث مركب النجا حرصا على النجاة هشيما . وكادت الدائرة تدور على الكفار ، والهزيمة تستمر بأهل النار ، لولا أن اللعين أفرد قبل اللقاء الكمين ، وفيه عشرة آلاف فارس من نخب رجاله الملقبين بالبهادرية(٦) . فخرجوا على ميمنة جلال الدين ،وفيها أمين ملك ، فكسروها وطرحوها على القلب فتبدد نظامه ، وتزعزعت عن الثبات أقدامه وانجلت المعركة عن(٧) قتلى مضرجين بالدماء ، غاطسين فى الماء ، فكان الرجل

(١) فى الأصل : معظلات .
(٢) فى الأصل : ثمان عشر .
(٣) فى الأصل : تلاقا .
(٤) فى الأصل : الغار ، والبيت لأبى تمام .
(٥) طرائق قدد ، أى جماعات متفرقة ، والمفرد قِدّة .
(٦) نسبة إلى بهادر ، وهى كلمة تركية معناها شجاع . انظر Bretschneider; Op. cit.; vol. i, p. 279, note 668.
(٧) فى الأصل : على .

منهم يأتى النهر فيهوى (١) بنفسه فى تياره ، وهو يعلم أنه لابد غريق (٢) ، وأن ليس له إلى الخلاص طريق . وأسر ولد جلال الدين وهو ابن سبع سنين أو ثمان فى الوقعة ، وقتل بين يدى جنكزخان .

ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء السند كسيراً ، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن (٣) بأعلى صوتهن: بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر. فأمر بهن فغرقن ، وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب (٤). وأما العساكر الخلجية المفارقة لجلال الدين فقد (٥) استنزلهم جنكزخان بعد فراغه من جلال الدين من عصم الجبال (٦) وشم الأعلام والقلال ، واستخرجهم من بطون الغاب ، وأجواف الشعاب . وتحصن أعظم ملك بقلعة دروذه فحوصرت إلى أن أخذت فألحقت بالآخرين الأخسرين .

وحدثنى ضياء الملك عالى الدين محمد بن مودود العارض النسوى —وكان ذا أصل زكى ، وزند فى الأريحية وَرِى — قال : أهويت بنفسى إلى الماء ولم أعرف السباحة ماهى ، فغطست وأشرفت على الهلاك، وبينا (٧) أنا فى غمرات الماء أضطرب ، إذ بصبى معه زق منفوخ فمددت يدى وهممت بتغريقه ، وأخذ الزق منه فقال : إن كنت ترضى بخلاصك دون هلاكى شاركنى فيه أوصلك إلى الساحل ، ففعلت وسلمنا . وطلبته بعد ذلك أشد الطلب أجازيه على صنيعه فلم أجده على قلة عدد الناجين .

---

(١) فى الأصل : فتهوى . (٢) فى الأصل : أنه لابد من غريق .

(٣) فى الأصل : يضجن ، ويحتمل أن تكون يضججن .

(٤) ذكر دوسون أن نساء السلطان وقعن فى الأسر ، ولم يشر إلى غرقهن فى نهر السند ، والراجح أن أم جلال الدين ونساءه قد غرقن فعلا فى ماء السند كما ذكر النسوى ، وأما التى أسرها المغول فكانت تركان خاتون أم علاء الدين محمد خوارزم شاه التى أسرت فى إقليم مازندران . انظر D'ohsson; Op. cit., t.i, p. 307

(٥) فى الأصل : قد . (٦) فى الأصل : الجبال .

(٧) فى الأصل : بينا .

٣٩

ذكر عبور جلال الدين ماء السند وحوادث سنة تسع عشرة وستمائة[١]

لما وصل جلال الدين إلى حافة ماء السند، وقدسدت[٢] دونه المهارب وأحاطت به المعاطب، وقد رأى وراءه البواتر، وقدامه البحر الزاخر، رفس فرسه فى الماء لا بسأ عدته، فعبر به الفرس ذلك النهر العظيم صنعا من الله تعالى فيمن يتولى حفظه. وكان قد بقى معه ذلك الفرس إلى أن فتح تفليس معافى[٣] عن الركوب.

وقد تخلص إلى تلك الجهة زهاء أربعة آلاف رجل من عسكره. حفاة عراة كأنهم أهل النشور، حشروا فبعثروا من القبور. وفيهم ثلاثمائة فارس تقدموا جلال الدين بعد العبور ثلاثة أيام، إذ كانت غوارب الموج قد رمته إلى ناحية بعيدة فى ثلاثة من خواصه وهم قلبرس بهادر، وقابقح، وسعد الدين على الشربدار[٤]. والجماعة لم يعلموا بسلامته فأصبحوا حائرين وفى تيه الفكرة سائرين، هملا كالشاء فقد راعيها، وقد أحاطت بها مواييش[٥]

---

(١) فى الأصل: تسعة عشر.
(٢) فى الأصل: سددت.
(٣) فى الأصل: معافا.
(٤) إن مدلول وظيفة الشربدار ظاهر، وهو الخدمة بشرابخاناه السلطان أو الأمير، على أن هذه الوظيفة كانت من وظائف الخدم أو الحرف الصناعية. أما الأمير الذى يتولى سقى السلطان على الموائد ويهيمن على مد السماط وتقطيع اللحم، وسقى المشروب بعد رفع السماط، فاسمه الساقى. هذا بخلاف وظيفة الجاشنكير، ويقوم صاحبها بذوق المأكل والمشرب، قبل أن يناوله السلطان أو الأمير خوفا من أن يدس عليه فيه سم أو نحوه. انظر القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٤٦٩، ٤٥٤، ٤٦٠.
(٥) فى الأصل: مواييس.

الذئاب، تخطفها فوارس الطلاب، إلى أن اتصل بهم جلال الدين فاعتدوا لمقدمه عيداً، وظنوا أنهم نشئوا خلقاً جديداً.

وكان فى الزردخاناه [1] الجلالية [2] شخص يعرف بجمال الزراد، وقد انتبذ قبل الوقعة بما كانت تحويه يده من خالص ماله إلى بعض الجهات، فوصل إذ ذاك بمركب فيه ملبوس ومأكول، وقطع ماء سار به إليهم [3]، فوقع ذلك عند جلال الدين موقعاً حسناً، وولاه أستاذ الدارية [4]، ولقبه باختيار الدين، وسيجىء ذكر أحواله فى موضعها إن شاء الله تعالى.

ولما علم زانه شتره، صاحب جبل الجودى، أن جلال الدين محته لهوات الحرب فى القل من أتباعه، والفل من أشياعه، إلى جانب بلاده مكسراً، ولم يترك الوقعة معهم من الخيل إلا يسيراً، صمد صمده فى زهاء ألف فارس وخمسة آلاف راجل، اغتناماً لنهزة الانتصاف، وانتهازاً لفرصة الاستضعاف. وبلغ خبره جلال الدين فرأى الموت قد فغر فاه، والصوارم تطلب وجهه وقفاه. فحيث أمّ [5] شهرت عليه السيوف، وأنى أمّ أحدقت به الحتوف، ومعه من الجرحى من يتعذر استصحابهم إن أراد الخفوف للانفلات، وعلم أن الهنود لو ظفروا بهم لم يقتلوهم إلا مثلة ونكالا، فمضى الأخ منهم إلى أخيه الجريح، والقريب إلى حميمه الطريح، وجزّ رأسه ورحلوا عازمين على أن يعبروا النهر إلى صوب التاتار فيختفوا ببعض تلك الآجام المحتفة والغياض الملتفة، فيعيشوا بما تنال أيديهم من الغارات.

---

(١) الزردخاناه: دار السلاح، وهى كلمة فارسية مركبة، وقد أطلقها المقريزى على السلاح نفسه. ومن معانى الزردخاناه أيضاً، السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب. انظر المقريزى: السلوك، ج ١ قسم ٢ ص ٣٠٦ حاشية ١.

(٢) نسبة إلى جلال الدين منكبرتى. (٣) فى الأصل: سودره إليهم.

(٤) أستاذ الدار: أو الأستادار هو الذى يتولى شؤون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشرابخاناه والحاشية والغلمان، وهو الذى يمشى بطلب السلطان ويحكم فى غلمانه وباب داره. وله حديث مطلق وتصرف تام فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكساوى. القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤ ص ٢٠.

(٥) أمّ: قصد.

وتخيل الهنود أنهم من التاتار لحين تآمروا(١) على ذلك ، توجهت الرجالة صوب مقصدهم ، وتأخر عنهم جلال الدين بمن معه من ناصرته وأعيان خيله على رسم اليزك(٢) فجاء(٣) زانه شتره ومن معه من مكاثرته. فلما اكتحلت عينه(٤) بجلال الدين حمل عليه بنفسه وجيشه ، بل بطيشه . فركب جلال الدين عزيمة الرجال فى الثبات فوقف له إلى أن قاربه ورماه بنشابة طارت إلى صدره ، هتكت حجاب سره ، فخر ساجداً لاسجود عبادة ، بل سجود إبادة . وانهزم عساكره ، وتحمل جلال الدين بخيله وعدته وما أفاء الله عليه من أمواله وأسلحته .

ولما سمع قمر الدين نائب قباجة بدبدبة وساقون بهذه الوقعة الغريبة والحادثة العجيبة، تقرب إلى جلال الدين بإهداء ألطاف ، وتقاديم أصناف فى جملتها الدهليز ، تفادياً عن قتاله(٥)، وتصوناً مما تم على زانه شتره من التقائه وجداله ، فوقع ذلك منه موقعا مشكوراً (٦) .

---

(١) فى الأصل : توامروا .

(٢) اليزك : لفظ فارسى معناه الطلائع . وقد جاءت أمثلة كثيرة لوجوه استعمال هذا اللفظ منها « كان يزكه وطلايعه لاتنقطع من الفرنج » . انظر كتاب السلاح فى الاسلام للقائمقام عبد الرحمن زكى ، ص ٦١ .

(٣) فى الأصل : فجاءت .

(٤) فى الأصل : اكتحل عنيه .

(٥) فى الأصل : تفادما عن قتاله .

(٦) يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن هرب جلال الدين منكبرتى إلى بلاد الهند لم يكن بالأمر بالجديد على حكام إقليم غزنة . فقد كانت البلاد الهندية مأوى للحكام من الأتراك الذين فروا إليها من قبل . فقد قامت الدولة الغورية فى هذه الجهات ، ثم توسع حكامها فى امتلاك الأقاليم الهندية، بل إنهم اقتصروا على حكم هذه الأقاليم بعد أن ضاعت هيبتهم فى إقليم غزنة ، على أثر ظهور الدولة الخوارزمية واتساع رقعتها فى هذه الجهات .

انظر Lane-Poole : Mediæval India Under Mohammedan Rule, p.71

٤٠

ذكر ما كان بين جلال الدين وقباجة
من وفاق تارة وخلاف أخرى

ولما استراح جلال الدين من ثقل تلك الوطأة ، ولمّ ما به وبقايا أصحابه من شعث الوقعة ، بلغه أن بنت أمين ملك سلمت من الغرق ولجأت إلى أوجاهى من مدن قباجة ، فأرسل إليه يقول [١] : إن ذوات الخدور ، وضمائر الستر من حرمه قد غرقن ، وإن بنت أمين ملك تمت إليه بقرابة ، وقد رغب فى نقلها إلى الدار ، فليجهزها إليه صحبة الرسول . فنشط قباجة ليجرى مرضاته فيما توخاه[٢] ، وجهزها تجهيز الهدى إلى زوجها الكفى [٣]، وأصحبها تقاديم برسم جلال الدين فى جملتها الفيل . فقبل جلال الدين ذلك أحسن قبول ، وقابله بأجمل مقول ومفعول ، وانتظم الصلح ، وأمنت البلاد ، إلى أن قضت الأيام بالفرقة والبين ، ودبت عقارب الفساد فى فى ذات البين ، وتجدد من موجبات الوحشة ما يأتى ذكره : منها أن شمس الملك شهاب الدين ألب كان السلطان قد استوزره لجلال الدين على ماذكرناه . وكان المذكور جامعا لأدوات الرياسة ، لم يطبع على مثله غرارها[٤] ؛ ولم يضع شرواه فى مضمارها ، سماحة كرم ، وسجاحة شيم ، وهيبة خفيت لها جنادب الليل ، وغصت لها مباعث السيل . فرمته الوقعة إلى قباجة فأمنه وآواه ، وأكرم مثواه . وحيث كان يعتقد أن جلال الدين ليس فيمن نجا،

---

(١) نقلها هوداس عن الأصل الخطى : « بلغه أن بنت أمين ملك سلمت من الغرق اوجاهى من مدن قباجة أرسله يقول » . ثم رأى هوداس أن يضيف [الى] الى أوجاهى . ولعل تصحيحنا يستقيم مع المعنى .

(٢) فى الأصل: تواخاه .

(٣) الكفى : الكفء . وجمع الكفى أكفياء ، مثل ولى وأولياء .

(٤) فى الأصل : عرارها .

ولا ممن يخاف ويرجى ، استرسل معه فى أمور كان الحزم يقتضى إخفاءها[١] عنه . فلما تحقق أن جلال الدين سلم ، استوحش من جانب شمس الملك لما نفث إليه مصدوره ، وندم على ما أودعه من سر ضميره . ولما علم جلال الدين أن شمس الملك عنده ، استدعاه وحمله التوهم على انتقاض ذممه ، والاسترواح إلى سفك دمه ، طمسا على أسرار وضعها عنده ، وظن أنه ضيعها ، وأودعها لديه ، فتوهم من إشاعتها . ولم يعلم جلال الدين بذلك إلى أن فارق الملك نصرة الدين محمد بن الحسن بن خرميل ، والأمير أبان المعروف «بهزارمرد» ، قباجة إلى جلال الدين فأعلماه بباطن أمره ، وغامض سره فى غدره ، وختله فى قتله الوزير المستجير به .

ومنها أن قرن خان بن أمين ملك ، كانت الوقعة طرحته إلى مدينة كلور[٢] من مدن قباجة ، فشرهت نفوس عامتها إلى سلبه ، فقتل طفلا أحسن ما كان ورد خد ، وغصن قد ، وطلعة غرة ومجد . وحملت إلى قباجة من سلب اليتيم درة كانت فى أذنه ، فشكر الحامل على حمله ، وجازى القاتل خيراً على قتله وأقطع له ضيعة وإحنة[٣] فى الصدر دفينة ، وكان يداريه تربصا لجنين المقدور فى إدالة الميسور على المعسور ، إلى أن اتصل به الأمراء المنفصلون عن أخيه غياث الدين بيرشاه وهم سنجقان خان ، وإيلجى بهلوان ، وأرخان ، وسير سلاحدار السلطان[٤] ، وتكشارق جنكشى ، فقويت الأنفاس الخامدة[٥] ، وحميت النفوس الجامدة ، وقصد مدينة كلور فحاصرها ، وداوم

---

(١) فى الأصل : اخفاؤها .

(٢) من مدن إقليم البنجاب .   (٣) وإحنة : غلة .

(٤) كان ديوان الجيش من أهم دواوين الخوارزميين ، ففيه كان يدبر كل مايلزم الجيش من أسلحة وذخائر وعتاد وأموال ، ويتبع هذا الديوان « بيت السلاح » الذى تحفظ فيه الأسلحة المختلفة ، ويقوم بالعمل فيه عدد كبير من الصناع يشتغلون فى إصلاح الأسلحة .. ويشرف على هذا البيت رجل عرف بالسلاح دار .

(٥) فى الأصل : الخامدة .

القتال عليها ، ضرباً بالسيوف القواضب ، وآخذاً باللحى والذوائب . وباشر الزحف بنفسه ، فأصابته نشابة فى يده فأصبح كالأسد موتوراً ، والنمر مجروحا ومضروراً . ولم يفتر فى القتال ليلا ولا نهاراً ، إلى أن استولى عليها ، فلم يترك بها مباشر قراع ، بل لابسة قناع . ثم رحل منها إلى قلعة « برنوزج » ، وحط عليها وباشر القتال بنفسه وخواصه ، وأصابته هناك نشابة أخرى فألحق برنوزج بأختها عن كثب ، وكان الخراب لها أعدى من الحرب ، وتاهت الوحشة بهذه الأسباب بينه وبين قباجة .

ولما رأى قباجة أن بلاده تطوى شيئا فشيئا فزع إلى الاحتشاد ومال إلى الاستنجاد ، فركب فى زهاء عشرة آلاف فارس ، وأنجده شمس الدين إيلتمش[1] ببعض عسكره ، فتجرد للانتصاف ، وعزم على المصاف .

وعلم جلال الدين أن التقاه[2] بأصحابه الذين عضتهم الوقائع ، ورضتهم[3] الخطوب القوارع ، بغرير[4] عزم على الثبات وركب .

ليسرى[5] فى ضمير الليل سراً ويخطر فى جوانبه خيالا

فى السباع والذئاب الجياع ، مخرجين من جهد البلاء ، وضنك البؤس واللأواء[6] ، حتى أحاط به وبعسكره إحاطة الدائرة بالمركز ، فعجله عن الركوب مستعداً ، وألجأه إلى الهروب مجداً . فسار بنفسه ومن خفت به الظهور مجفلا .

ونجا برأس طمِرَّه ومضى كما رعت النعام فراخه فاستعجلا
لحقته غائلة الشقـــاء فحوّلت فى كفه الرمح المثقف مغزلا

---

(١) كان شمس الدين إيلتمش أحد أرقاء الترك فى الدولة الغورية ، وقد سار إلى بلاد الهند بعد سقوط هذه الدولة ، وتمكن من تأسيس إمارة فى الجزء الشمالى من هـذه البلاد . وقد حكم هذا الرجل مدينة دهلى من ٦٠٨ / ٦٣٤ هـ (١٢١١ / ١٢٣٦ م)

(٢) كذا فى الأصل .
(٣) فى الأصل : ورضيتهم .
(٤) كذا فى الأصل .
(٥) فى الأصل : يسترى .
(٦) اللأواء : الشدة . وفى الأصل اللواء .

وترك العسكر شاغراً بما فيه من الخيام المضروبة ، والدهاليز المنصوبة ، والخزائن المتكاثرة ، والعدد الوافرة . ونزل جلال الدين وأصحابه به نزول العسكر بخيام السبق ، وتحملوا بما غنموا من الأموال والأثقال فرشوا بها عارى نبالهم، وأمّروا ضعيف خيالهم[1]. فأهلا به من مقصد حمد فيه سعيه القاصد ، ومنزل صدق فى خصب أهله الرائد[2] .

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

---

(١) أمّره : جعله أميراً . والخيال صورة تمثال الشىء كخيال الإنسان فى المرآة . وهو أيضا ثوب يلقى على خشبة يخيل به للبهائم والطير فتظنه إنسانا . ويقصد النسوى أن الجنود تشجعت وقويت بعد أن كانت كالخيال .

(٢) فى الأصل : فى حصبة أهله الرايد .

وقد جاء فى خطبة الرسول عليه السلام فى أهل مكة ، إن الرائد لا يكذب أهله . وهو الذى يرسلونه ليبحث عن الماء والعشب فلو كذبهم لأهلكهم .

٤١

ذكر الحوادث بعد كسر جلال الدين قباجة
وماجرى بينه وبين شمس الدين إيلتمش إلى أن خرج من الهند

لما كسر جلال الدين قباجة ، نزل على نهاوور[١] ، وكان بها ابن لقباجة وقد عصى والده متغلبا عليها ، فرأى جلال الدين تقريرها عليه على مال معجل وآخر فى كل سنة تحمّله . ورحل صوب سيستان وبها فخر الدين السعلارى والياً عليها من قبل قباجة ، فتلقاه بالطاعة ، وسلم مفاتيحها إليه رغبة أو رهبة ، فجبى المال ، وأرضى الرجال . ثم رحل عنها صوب «أوجا» فحاصرها أياماً ، واقتتل من الفريقين خلق كثير ، ثم صالحوه على مال حمل إليه ، ورحل صوب «خانسر»[٢]، وكان رأيها والرأى بين الملك بلغة الهند من أتباع شمس الدين إيلتمش وأنصاره ، والمقسمين بطاعته وشعاره . فخرج طائعا ، وحضر إلى الخدمة مشائعا ، وألقى[٣] بها جلال الدين عصا القرار ، استجماماً[٤] من وعثاء السفر ، واسترواحاً من مكابدة الخطر . فأتاه الخبر بأن شمس الدين إيلتمش قاصده فى ثلاثين ألف فارس ، ومائة ألف راجل ، وثلاثمائة فيل ، سواد[٥] فدح بثقله كاهل الدوّ[٦] ، وسد بقسطله منافذ الجو .

وقد تنهض العصفور كثرة ريشه ويسقط إذ لا ريش فيها نسورها[٧]

---

(١) المقصود هنا مدينة لاهور . انظر D'ohsson : Op. cit., t.i,p. 309.

(٢) كذا فى الأصل ولعلها «خانسار» وهى قرية قريبة من همذان . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٧٣ ، ٣٩٢ .

(٣) فى الأصل : ألقا .

(٤) فى الأصل : استحماما .

(٥) سواد : جوع .

(٦) الدو : البرية .

(٧) فى الأصل : يسورها .

فتجرد نحوه جلال الدين تجلداً ، وقدم أمامه جهان بهلوان أزبك باين وهو من حماة الأبطال وكماة الرجال ، برسم اليزك وساق ، فخالفه يزك شمس الدين فى الطريق ، وتوسط أزبك باين معسكر شمس الدين ، فهجم على جماعة منهم فقتل منهم وجرح . وأحضر إلى جلال الدين من أعلمه بذلك الجمع الكثير ، والجم الغفير . وورد عَقَيب[1] ذلك رسول شمس الدين إيلتمش فى طلب الموادعة ، والتماس المصالحة ، وكف يد المكافحة ويقول : ليس يخفى على ما وراءك من عدو الدين ، وأنت اليوم سلطان المسلمين ، وابن سلطانهم ، ولست استحل أن أكون عليك عوناً للزمان ، وعدة للحدثان . ولا يليق بمثلى أن يجرد السيف فى وجه مثلك إلا إذا اضطره إليه دفاع ، أو سامه إليه تحرز وامتناع . وإن رأيت زوّجتك بابنتى لتستحكم الثقة ، وتتأكد المقة[2] ، وتزول الوحشة . فمال جلال الدين إلى ما قال ، وأصحب رسوله باثنين من أصحابه ، وهما يزيدك بهلوان ، وسنقرجق طايسى فمضيا إليه ، واختاراه عليه ، وأقاما لديه ، استخلاصا مما منوا[3] به من مكابد الأخطار ، ومداومة الأسفار ، ووصلهم سهر الليل بذات النهار .

وترادفت الأخبار بأن إيلتمش وقباجة وسائر ملوك الهند ، وعامة راياتها وتكاثرتها وأصحاب ولاياتها ، قد تآمروا[4] على قلعه ، وأن يمسكوا عليه حافة ماء « خجنير » فيلجئوه[5] إلى حيث لا سبيل إلى الذبّ ، ويحترشوه احتراش الضب[6] . فعظمت إذ ذاك بليته ، وفترت فى وجوه العزائم نيته ، ورأى أن الزمان حزّب عليه أحزاباً ، ومتى سدّ للحوادث بجُهده باباً ، فتح عليـــه أبوابا . فاستشار نصحاءه فى تدبير ذلك الأمر بصوابه ، وإتيانه من بابه . فترجحت آراؤهم فى التقريب والتبعيد ، وتخالفت أقوالهم فى التخطية والتصويب .

---

(١) فى الأصل : عُقيب .

(٢) المقة : المحبة .

(٣) منوا : ابتلوا .

(٤) فى الأصل : توامروا .

(٥) فى الأصل : فيلجاوه .

(٦) احترش الضبّ : اصطاده .

اما الواردون من العراق ، المنفصلون من أخيه غياث الدين ، [فقد] مالوا بأجمعهم إلى قصد العراق ، تطميعا له من انتزاعها من يد أخيه . وقد ذكروا أنها معرّضة لقصّادها لتواكل الآراء ، ومداهنة النصحاء ، واغتنامهم صلاح أنفسهم فى وجوه المقاصد والأنحاء ، استصغاراً لغياث الدين ، واستضعافاً لركنه ، ورخاوة جانب سياسته ووهنه . وأشار عليه جهان بهلوان أزبك بلزوم بلاد الهند من جنكزخان استظرافاً ، وبملوك الهند استضعافاً . فحمله شغفه بتملك الممالك الموروثة والحكم فيها على قصد العراق ، فخفّ النهوض إليها ، واستناب جهان بهلوان على ما كان يملكه من بلاد الهند الحسن قزلق ، وقد لقبه « بوفاء مُلك » على ماقد نجا من بلاد الغور وغزنة من صدمات التاتار ، واستمر وفاء ملك إلى آخر أيامه ، ومنقرض شهوره وأعوامه . وطرد جهان عما كان يليه فى سنة سبع وعشرين وستمائة ، فوصل إلى العراق . وسيأتى الشرح على بقية حاله فى موضعها إن شاء الله[1] .

---

(١) نرى مما ذكره النسوى وغيره من المؤرخين عن حال جلال الدين منكبرتى فى بلاد الهند ، أنه كثيرا ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل من هول ما أصابه خاصة ، وأصاب دولته عامة بعد موقعة السند . وقد نظم ابن الوردى قصيدة وصف فيها جلال الدين ودولته فى هذه الأثناء جاء فيها :

من ملك الدنيا ودانت له	فالجهل كل الجهل أن يحسدا
بقدر ما ترفع أصحابها	تحطهم فالرأى قرب المدى
ويلى على المغرى بعليائها	سيضحك اليوم ويبكى غدا
تعطيه كالمشفق لكنها	تبطش فى الأخذ كبطش العدا
مبتدأ حلو لمن ذاقه	ولكن انظر خبر المبتدا
غدارة خوانة أهلها	ما زهد الزهاد فيها سدى

انظر ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٥ .

٤٢

ذكر حصار التاتار خوارزم فى ذى القعدة سنة سبع عشرة[١] وستمائة واستيلائهم عليها فى صفر سنة ثمانى عشرة[٢] وستمائة

وقد خصصتُ حصارها بالذكر دون سائر البلاد لعظم[٣] أمرها ، ومبدأ احتفال التاتار لها . لما انفصل أولاد السلطان عن خوارزم على ما ذكرناه ، وافى[٤] التاتار تخومها ، وأقاموا بالبعد منها إلى أن تكملت عدّتهم للحصار وعددهم ، وتواصلت نجدتهم من الأقطار ومددهم . فأول من وصل منهم باجى بك فى عسكر كثيف ، ثم بعده ابن جنكزخان أوكطاى وهو الخاقان يومنا هذا[٥] ، ثم سيّر الخبيث وراءهم حلقته الخاصة ومقدمها بقرجن نوين فى سرار الطواغيت ، وأشرار العفاريت . وأردفهم بابنه جغطاى ومعه طولن جربى ، واستون نوين ، وقاضان نوين فى مائة ألف أو يزيدون[٦] . فطفقوا يستعدون للحصار ويستعملون آلاته من

---

(١) فى الأصل : سبع عشر . (٢) فى الأصل : ثمان عشر .

(٣) فى الأصل : لمعظم . (٤) فى الأصل : وافا .

(٥) حكم أجتاى Ogotai بن جنكيزخان من ٦٢٤/٦٣٩ هـ = ١٢٢٧/١٢٤١ م . ومن ذلك يتضح أن محمد النسوى قد كتب سيرة جلال الدين منكبرتى بعد وفاة جنكيزخان سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ، بل بعد وفاة جلال الدين نفسه سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م) ، ولهذا الأمر خطورته عند الحكم على قيمة الكتاب نفسه كمرجع تاريخى ، من حيث إدراك تحرر المؤلف إلى حد ملحوظ ، رغم ولائه لمن سرد سيرته ، من قيود الكتابة .

(٦) مهما تعددت أسماء القواد التى ذكرها النسوى فى هذا المقام ، فالمهم أن جنكيزخان قد أسند قيادة الجيوش المغولية التى وجهها إلى خوارزم لأبنائه الثلاثة ، جوجى وجغتاى وأجتاى (أكتاى) . انظر .D'ohsson; Op. cit., t.i, p. 265 & seq

المجانيق[1] والمتارس والدبابات[2]. وحيث رأوا خوارزم وبلادها خالية عن حجارة المجانيق، وجدوا هناك من أصول التوت غلاظ الجداول كبار الأصول ما يكفي ويفضل، فأخذوا يقطعون منها قطعاً مدورة، ثم ينقعونها في الماء فتصير كالحجارة ثقلا وصلابة، فتعوضوا بها عن حجارة المجانيق[3] فلا يزالون[4] على البعد منها إلى أن استكملوا آلاتها. ثم إن دوشي خان[5] وصل برجاله ما وراء النهر[6]، فراسلهم منذراً ومحذراً، ووعدهم الأمان إن سلموها سلماً. وقال: إن جنكزخان قد أنعم بها عليه وأنه ضنين بتخريبها، حريص على إبقائها عليه. ومما يدل على ذلك أن هذا العسكر ما تعرضوا لمدة مقامهم بالقرب منها إلى غارات رساتيقها تمييزاً لها عن غيرها بمزيد الرعاية، ومزيد العناية، وإشفاقاً عليها من تعريضها للأنواء والإتلاف ما لم تصل إليها يد الإتلاف. فمال ذوو[7] النباهة منهم إلى المسالمة، غير أن السفهة غلبوهم على رأيهم بإغرائهم، ولا أمر للمغضى إلا مضيّعاً.

---

(١) استعمل العرب المنجنيق منذ أيام الرسول، ولا يعرف على وجه التحقيق أنقل العرب استعماله عن الفرس أم الروم. والمجانيق أنواع مختلفة أهمها مايستعمل في (أ) رمي السهام، إذ توضع في المنجنيق الواحد عدة منها وترمى عنها بالأقواس إلى مسافات بعيدة وبقوة خارقة. (ب) رمي الحجارة لهدم الحصون بالحجارة الضخمة. (ج) رمي قدور النفط أو الكرات المشتعلة من النار اليونانية. (د) رمي العقارب أوسلال الرماد وغيرها من الرمم المعفنة. انظر كتاب السلاح في الاسلام للقائمقام عبد الرحمن زكي، ص ٥٨ — ٥٩.

(٢) راجع ص ١١٤ حاشية ٤.

(٣) في الأصل: المجنيق.

(٤) في الأصل: يزالوا.

(٥) المقصود هو جوجي بن جنكيزخان.

(٦) أي إلى الجهات الواقعة شرق نهر جيحون، وقد وصل جوجي إلى هذه الجهات بعد أن أخضع الكثير من المدن التي وكل إليه إخضاعها والواقعة على نهر سيحون. فالثابت أنه بعد أن أخضع هذه المدن ووضع عليها حكاما مخلصين، أصدر أوامره إلى جنوده بالعبور إلى خوارزم. انظر D'ohsson : Op. cit., t.i, pp. 221—223

(٧) في الأصل: ذو.

وكان السلطان يكاتبهم وهو بالجزيرة أن لأهل خوارزم علينا وعلى سلفنا من الحقوق المتلاحقة ، والسوالف الحاضرة والسابقة ، ما يوجب علينا النصح لهم ، والإشفاق عليهم ، وهـذا العدو عدو غالب فعليكم بالمسالمة والطريق الأرفق ، ودفع الشر بالوجه الأوفق . فغلب السفيه على رأى النبيه ، ولم ينفع ما قدم من التنبيه ، وخرج الأمر من أيدى ذويه . فساق دوشى خان إليها فى البحر الخضم ، إلحاقاً الفرد بالأعم ، وأخذ يطويها محلة فمحلة ، فكان إذا أخذت واحدة منها التجأ الناس إلى أخرى يحاربون أشد حرب ، ويذبُّون عن أنفسهم وعن حريمهم أتم ذبّ ، إلى أن أعضل الأمر ، وكشر عن نابه الشر ، ولم يبق معهم إلا ثلاث محال تراكمت الناس فيها متزاحمين ، أرسلوا حين أعيتهم الحيل ، وضاقت بهم السبل ، إلى دوشى خان ، الفقيه الفاضل عالى الدين الخياطى محتسب [1] خوارزم ، وكان السلطان يحترمه لفضيلتى العلم والعمل ، مستضعفا ومستشفعا ، الآن وقد نشبت أظفاره ومخالبه ، ودميت أنيابه وترايبه ، فهلا ذلك قبل ظهور الاضطرار ، وانقضاء مدة ملك الخيار . وأمر دوشى خان باحترامه ، وأن ينصب له خيمة من خيامه ، فلما أحضر ذكر فى جملة ماقال : إننا قد شاهدنا من هيبة الخان وقد آن أن نشاهد من مرحمته . فاستشاط اللعين غضباً ، وقال : ماذا رأوه من هيبتى وقد أفنوا الرجال، وطاولوا القتال ، فأنا الذى شاهدت هيبتهم وها أنا الآن أريهم هيبتى . وأمر فأخرج الناس فرادى وثباتاً [2] ، وجموعاً وأشتاتاً ، ونودى بانفراد أرباب الصنائع وانعزالهم

(١) كانت وظيفة المحتسب من الوظائف ذات الشأن عند المسلمين بوجه عام . إذ كان للمحتسب نواب يطوفون فى الأسواق فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع ، ويشرفون على السقايين لضمان تغطيتهم القرب ، ولبس السراويل بما لاينافى الآداب العامة ، ويعنون معلمى الكتاتيب من ضرب الصغار ضرباً مبرحا ... واتسعت سلطته حتى ألزم رجال الشرطة أن يقوموا بتنفيذ أحكامه .»
انظر كتاب النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن ، ص ٣٥٥ .

(٢) ثباتاً : جمع ثبة وهى الجماعة أو الفرقة ، أى جماعات جماعات .

ناحية ، فمنهم من فعل ونجا ، ومنهم من اعتقد أن أرباب الحرف تساق إلى بلادهم وغيرهم يترك فى وطنه ، فيقيم بمسكنه وعطنه ، فلم ينفرد ، ثم وضعوا فيهم السيوف بل المعاول والفؤوس[1] ، إلى أن أضجعوهم على العراء[2] وجمعوهم فى حيز[3] الفناء[4] .

---

(١) فى الأصل : الفوس .

(٢) فى الأصل : العرا .

(٣) نقلها هوداس Houdas عن النسخة الخطية « حز » ثم صححها فى الطبعة الفرنسية حزز ، والواقع أن صحتها حيز .

(٤) صور ابن الأثير ماأصاب هذه المدينة تصويرا دقيقا فى هذه العبارة : ثم أنهم [المغول] فتحوا السد الذى يمنع ماء جيحون عن البلد ، فدخله الماء ، فغرق البلد جميعه ، وتهدمت الأبنية ، وبقى موضعه ماء ، ولم يسلم من أهله أحد البتة ، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله ، منهم من يختفى ، ومنهم من يهرب ، ومنهم من يخرج ثم يسلم ، ومنهم من يلقى نفسه بين القتلى فينجو ، وأما أهل خوارزم فمن اختفى من التتر غرقه الماء ، وقتله الهدم ، فأصبحت خرابا يبابا . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٨٢ . وقد ذكر دوسون نقلا عن كل من رشيد الدين والجوينى ، أنه قد وكل إلى كل جندى مغولى قتل أربعة وعشرين رجلا ، كما ذكر أيضا أن أصحاب الحرف والمهن الذين أرسلوا إلى منغوليا بلغوا مائة ألف رجل . ورغم أن هذه الأرقام تبدو فيها المبالغة ، فإنها تصور ماأصاب مسلمى هذه المدينة من محن . انظر D'ohsson : Op. cit., t. i, p. 269.

٤٣

ذكر طلوع جلال الدين من الهند ووصوله إلى كرمان(١)
فى سنة إحدى وعشرين وستمائة
وماجرى من الحوادث إلى أن ملك العراق

قاسى جلال الدين ومن معه من رزايا(٢) الأرواح المتخلصة ، من بين مشتجر الرماح فى البرارى القاطعة بين كرمان والهند ، شدائد أنستهم سائر الكرب وأوردتهم بأجمعهم سواقى العطب ، وقد أعوزتهم فى تلك القفار علالات الشفاه ، وبلالات الأفواه ، فضلا عن الأقوات ، فكان الرجل يتنفس عند هبوب السموم ، تنفس المحموم ، فلم يزل(٣) نفسه بالسموم يرجع إلى أن ينقطع . فتخلّص إلى كرمان فى أربعة آلاف فيهم ركاب أبقار وحمير(٤) .

وكان بها براق الحاجب ينوب عن أخيه غياث الدين . وبراق هذا كان حاجبا لكورخان(٥) ملك الخطابية ، ورد رسولا على السلطان مبدأ المكاشفة بينهما ، فمنعه أن يعود إلى مرسله رغبة فيه ، فبقى محصوراً بخوارزم إلى أن أورث الله السلطان أرضهم وديارهم ، وملك بلادهم وأمصارهم ، فأحضره « عالى به » ورتبه فى جملة حجابه ، إلى أن وضعت الأيام ما جنته(٦) أرحامه من فتنة التاتار ، لفظته الوقائع إلى أن خدم غياث الدين بيرشاه ، وهو

(١) حكم أتابكة كرمان من سنة ٦١٩ / ٧٠٣ هـ = ١٢٢٢ / ١٣٠٣ م .

(٢) فى الأصل : رذايا .

(٣) فى الأصل : تزل .

(٤) يجدر بنا أن نشير هنا إلى أوجه الشبه بين ماحدث لجلال الدين منكبرتى فى هذه البلاد وبين ماحدث للاسكندر الأكبر من قبل بعد أن أخفق فى الاستيلاء على بلاد الهند .

(٥) راجع صفحة ٤٣ حاشية ٤ .

(٦) فى الأصل : أجنته .

إذ ذاك صاحب كرمان ، فآواه وأكرمه ، وأفاض عليه فضله وكرمه، وتوفر في اصطناعه ، والجذب بباعه . وحين لاح لغياث الدين تملك العراق لخلوها عن المزاحمين عليها ، استناب براقاً بكرمان طمعاً في وفائه ، وتأميلا على ذمامه وظناً منه بأن الصنعة عنده تثمر فلا ينكرها ، والنعمة عليه يشكرها فلا يكفرها ، ولم يعلم أن أعجر ماء يحاول أرضاً ذات دحل[1] ، وأجفى[2] نية من انطوى على بتل[3] . فأقام المذكور بها يخاط طاعة بجفاء ويُسر حسواً في ارتغاء[4] ، وهلم جرّا إلى أن رمت البرية بجلال الدين إلى كرمان ، فوجـــده في ظاهر الأمر ولياً مطيعاً ، وصفياً إلى الانقياد سريعاً[5] . وأقام بكواشر ، وهي دار المملكة ومحل السرير ، شهراً إلى أن حدس منه أنه نوى غدراً ، وأضمر مكيدة ومكراً ، شاور في أمره وجوه أصحابه ، وذوي الوفاء والحفيظة من نوابه وحجابه ، فأشار عليه أورخان بالقبض عليه واستصفاء مملكة كرمان والاستظهار بها على سائر الممالك والبقاع ، وكم امرىء بالرشد غير مطاع . وخالفه في هذا الرأي الوزير شرف الملك علي بن أبي القاسم الجندي المعروف بخواجه جهان ، وقال : هذا أول من بذل الطاعة من ولاة البلاد وزعماء الأطراف ، وليس كل واحد يتحقق غدره ومكيدته ، ويتبين في النفاق سريرته وعقيدته ، فلو

---

(١) الأعجر : الماء الكثير . والدحل : الأرض الخوارة اللينة التي يتداخل فيها الماء .
(٢) في الأصل : أصفا .
(٣) البتل : القطيعة .
(٤) مثل من أمثال العرب يقصدون به المكر وإخفاء شيء وإظهار غيره . وقد قرأه هوداس خطأ عن النسخة الخطية : يسر حشوا في ارتقاء .
(٥) انظر ما كتبناه عن أتابكية كرمان في كتابنا : الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي ، ص ١١١ . وانظر سلسلة نسب أتابكة كرمان في صفحة ١٦٩ من نفس الكتاب . ويلاحظ أن براق الحاجب قد عمد إلى إظهار ولائه لجلال الدين فقدم إليه الكثير من الهدايا كما عرض عليه إحدى بناته ليتزوجها . انظر .D'ohsson : Op. cit., t. i, p. 6 ، نقلا عما كتبه الجويني وصاحب تاريخ گزيده .

غوجل جزاء غدره ، نفرت القلوب ، واشمازت النفوس ، وتبدلت الأهواء ، وتغيرت النيات والآراء . فرحل جلال الدين صوب شيراز[1] ، وورد عليه الأتابك علاء الدولة صاحب يزد[2] مذعناً له بالطاعة ، ومعلناً شعار التباعة ، فرحاً بإقبال مواكبه وطلوع كواكبه ، وأحضر من الخدم والتقادم ما عمر به منزلته ، فلقبه أبا خان وكتب له توقيعا[3] بتقرير بلاده .

وكان الأتابك سعد صاحب فارس قد استوحش من أخيه غياث الدين لإساءات[4] سبق ذكرها ، فرغب جلال الدين فى إصلاحه لنفسه ، وسيّر الوزير شرف الملك إليه خاطباً ابنته ، فأسرع إلى الإجابة والانقياد ، وجرى فى حلبة المراد طلق الجواد . ورجع المذكور منجح الطلب ، مقضى الأرب ، كريماً يتقبل كريمة[5] ، ويحمل من صدف الملك إلى شرف السلطنة درة يتيمة . فاستظهر جلال الدين بمصاهرته ، وقويت العزائم بمظاهرته[6] . ثم تقدم من شيراز إلى أصفهان فخرج إليه القاضى ركن الدين مسعود بن صاعد خروج ظمآن إلى مشاهدته ، مرتاح لمساعدته ومعاضدته ، هوى منه لم يرض بزمام وحطام ، وولاء لم يدلك بإسراج وإلجام ، وفاءت أصفهان أفلاذ كبدها إليه ، من عدد للجند مصنوعة ، وآلات للحرب مجموعة . فطابوا نفوساً ، حين وجدوا مركوباً وملبوساً .

ولما سمع غياث الدين بتورطه وتوسطه ، ركب إليه فيمن تكنفهم رعايته ، وتظلهم رايته ، من بقايا العساكر السلطانية زهاء ثلاثين ألف فارس ، لطرده عما رامه ، وصرف إليه اهتمامه . فرجع جلال الدين بحزبه حين سمع بقربه ، آيساً مما طمحت إليه نفسه من مآربه ، يائساً حزيناً على فوات مطالبه ، وسير إلى غياث الدين « أدك » أمير آخور وكان من

---

(١) شيراز : حاضرة أتابكية فارس .

(٢) يزد : إحدى مدن فارس وتقع على بعد سبعين فرسخا من شيراز .

(٣) فى الأصل : توقيع .

(٤) فى الأصل : لاساات .

(٥) فى الأصل : ينقل كريهة .

(٦) فى الأصل : بعطاهرته .

دهاة خواصه ، يقول : إن الذى قاسيته من الشدائد الفادحة بعد السلطان[1]، لو عرضت على الجبال لأشفقن أن يحملنها ، واستثقلنها فأبين أن يقبلنها ، وحين ضاقت على الأرض بما رحبت ، وانتفضت يدى عما ورثت وكسبت ، قصدتك لأستريح عندك أياماً ، وحيث علمت أن ليس عندك للضيف إلا ظبى السيف ، وللوارد النزيل سوى الصارم الصقيل ، رجعت بظماء من السيوف حلأت عن المناهل ، ووردت كما أتت ببلابل . وسير إليه تولى خان ابن جنكزخان وفرسه وسيفه ، وكان قد قتل فى المصاف ببيروان على ما شرحناه[2] .

فلما سمع غياث الدين بالرسالة ، انصرف منعطفاً ، وعاد إلى الرى منحرفاً ، وتفرقت عساكره فى المصايف . وكان جلال الدين سيّر صحبة رسوله عدة خواتيم ، وأمر بإيصالها إلى جماعة من الأمراء السلطانية علامات منه ، يمنيهم الاحسان ، ويزيّن بوعده اللسان ، مستميلاً لهم عن أخيه ، وممداً من البر دونهم أواخيه[3] . فمنهم من تناول الخاتم وسكت ، وأجاب إلى الانقطاع إليه والتقاعد عن نصرة أخيه غياث الدين ، ومنهم من سارع به إلى غياث الدين فناوله الخاتم ، فعندذلك أمر بالقبض على الرسول المذكور والاحتياط عليه ، وبادر إلى خدمة جلال الدين أبو بكر ملك ، وهو من بنى أخواله ، والمتجنبين على قتاله . وذكر أن القلوب إليه مشتاقة ، وإلى لقياه توافقة ، وإلى لقا الجمال بارتهان رضاه . فركب جلال الدين فى ثلاثة آلاف ضعاف[4] متوكلا على الله وحده ، منتجزاً فى النصر وعده . وسار سير

(١) علاء الدين محمد خوارزم شاه .   (٢) راجع ص ١٥٤ حاشية ٨ .

(٣) أواخيه : أواصره .

(٤) قرأ هوداس Houdas هذه الكلمة فى النسخة الخطية « ضعاف » ، ثم عدلها فى الطبعة الفرنسية إلى « ضغاف » ، والواقع أن القراءة الأولى هى الصحيحة .

السحاب يحثه ريح الجنوب فى رجال لو راموا الوعور[1] فوعول[2] ، أو قصدوا السهول فسيول ، قدكرت عليهم[3] التجارب ، ونيبتهم[4] النوائب . حتى أناخوا بعقوته مطلقين الأعنة فى ليل من القسطل كواكبه الأسنة ، فعجل غياث الدين عن التدبير ، وفوجىء[5] عن النفير ، فلما أتاه المنذر ركب فرس النوبة[6] إلى قلعة سلوقان ، ودخل جلال الدين خيمته وبها بكلواى والدة غياث الدين ، فاستوفى لها أدب الخدمة . وشرط التعظيم والحرمة ، وأنكر انزعاج غياث الدين واخلاءه مكانه ، وقال : لم يتول من بنى أبى سواه ، وأناله فيما يميل إليه ويهواه . وإنه اليوم عندى بمنزلة العين الناظرة[7] أو أعز ، واليد الباطشة أو أعز ، فسيرت إليه من سكن روعه وأزال[8] روعه ، فعاد إلى الخدمة . نعم ونزل السلطان فى حدقة الحلقة[9] منزلة السلاطين والخانات ، والأمراء يأتونه بالأكفان على الرقاب ، يعفّرون[10] وجوههم فى التراب ، فيقفون بين يديه استغفاراً عما سبق من جريمة الاسعاد[11] عليه اعتذاراً ، وهو يسمعهم من العفو . ما يعيد آبد أنسهم[12] ، ويزيل حادث بأسهم . وصفت له شراب الملك ، ودرّت عليه أحلاب الولايات ، وانثالت إليه كناين المدن والقلاع ، فلم يمض إلا أدنى مدة حتى حضر بابه من كان بخراسان والعراق ومازندران من المتغلبين ، هيبة منه ، استنزلهم من قنن[13] قلاعهم ، واستجذبهم من أباعد بقاعهم . فتواردوا من غير استدعاء ، فنهم من حسنت فى أيام

---

(١) الوعر : المكان الصعب .

(٢) فى الأصل : فرعول . والوعل حيوان يسكن قمم الجبال .

(٣) فى الأصل : كرتهم .

(٤) نيّب الرجل السهم ، عجم عوده .

(٥) فى الأصل: وقوضى .

(٦) انظر ص ٦٥ حاشية ١ .

(٧) فى الأصل: للناظرة.

(٨) فى الأصل : واثال .

(٩) حدقة الحلقة : وسطها .

(١٠) فى الأصل : يغفرون .

(١١) كذا فى الأصل.

(١٢) فى الأصل : ايد .

(١٣) قنن : أعالى .

الفتنة[1] سيرته ، فأعيد إلى مكانه . ومنهم من ساءت طريقته ، فأذيق وبال طغيانه . وكانوا قبل قد أقاموا حجزة على اشتداد منهم ، يمنون غياث الدين بالخطبة المجردة. وهلكت بقايا الأشباح فى تجاذبهم ، ورزايا[2] الأرواح عند تسالبهم . فأفرجت أيام السلطان عن الناس الكرب ، وأطفأت من نيران الفتن ما التهب ، وتفرقت الوزراء العمال فى الأطراف بالتواقيع السلطانية فضبطوها[3] .

---

(١) فى الأصل : الفترة . (٢) فى الأصل : رذايا .

(٣) انظر كتاب D'ohsson: Op. cit., t. iii, pp. 3—9.

٤٤

ذكر نبذ من سيرة غياث الدين فى الملك

ولما كان السلطان بالهند مكابداً ما ذكرناه من مداومة الكفاح ، وملاقاة الصفاح ، والسهم بالوجه الوقاح ، انضوى إلى غياث الدين من شداد عسكر أبيه من كتمته الآجام[١] وحمته الأعلام[٢] . وساق بهم إلى العراق فملكها ، وأقيمت له الخطبة بخراسان والعراق ومازندران على ما ذكرناه ، ولد كلّ متغلب بمكانه لا يحمل أتاوة ، ولا يظهر إلا بالقول طاعة . فاستولى تاج الدين قمر على نيسابور وما حولها من أعمالها ، على شعث حالها ، ونقصان أموالها . وتغلّب يلتقو بن إيانجى بهلوان على شيراز وبيهق[٣] ومضافاتهما . وتملك شال الخطائى جوين[٤] وإلجام[٥] وباخرز[٦] وما يتاخمهما . واستولى شخص من الاسفهسالارية ، وقد تلقب بنظام الدين ، على اسفراين[٧] وبندوار[٨] وما يليهما . وآخر ، وكان اسفهسالاراً توحش أيام السلطان الكبير[٩] يعرف بشمس الدين على بن عمر ، [على] قلعة صلول ، واشتعلت جذوته[١٠] ، وتوالت الحروب

---

(١) الآجام : جمع أجمة وهى مأوى الأسد . وفى الأصل : عسكر أبيه كتمته الآجام .

(٢) الأعلام : الجبال .

(٣) بيهق : ناحية من نواحى نيسابور . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٤٦ .

(٤) جوين : إحدى مقاطعات فارس ، وينتسب إليها علاء الدين عطا ملك الجوينى صاحب كتاب جهانكشا . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ١٨١ .

(٥) إلجام : ناحية من نواحى مدينة هراة .

(٦) باخرز : كورة ذات قرى كثيرة بين نيسابور وهراة . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٨ .

(٧) اسفرايين : قرية حصينة من نواحى نيسابور . ياقوت : ج ١ ص ٢٢٨ .

(٨) بندوار : مدينة قريبة من اسفرايين .

(٩) علاء الدين محمد خوارزم شاه .

(١٠) فى الأصل : جدوته .

بينه وبين نظام ، وهلك فيهما خلق كثير . وعاد اختيار الدين زنكى بن محمد بن عمر بن حمزة إلى نساء ، وقد كان المذكور وإخوته وبنو أعمامه بخوارزم تسع عشرة[1] سنة ممنوعين من الخروج ، فعاد إلى ما أورثه أبوه فملكها ، ولم تطل أيامه بها ، وأقام مقامه بها بعدُ ابن عمه نصرة الدين حمزة بن محمد بن حمزة بن عمر بن حمزة ، واستولى تاج الدين عمر بن مسعود ، وكان من التركمان ، على ابيورد[2] وخرقان[3] إلى ما يلى مرو وعمر قلعة مرغة ، وقد كانت تناوح[4] السماك ، وتناطح الأفلاك .

هذا حال خرسان ، وعلى هذا القياس كان أمر مازندران والعراق ولا حاجة إلى التطويل ، وغياث الدين متوفر على لذاته ، منهمك فى أهوائه وشهواته ، لا يشهد مقاماً محموداً ، ولا يشهر حساماً مغموداً . وقد تجرد أثناء ذلك إليه من التاتار عشرة آلاف فارس فلم يثبت لهم ، وحين سمع بهم تسحّب إلى الجبال مفرجاً لهم عن العراق ، فقضوا أوطارهم من النهب والقتل والإحراق . ولما رأى الأتراك وهيه[5] فى السياسة ، أظهروا الفساد وخربوا[6] البلاد ، وجزروا[7] على ما أبقته التاتار من أرماق العراق ، فكانوا يأتون الضيعة فيكمنون حولها حتى تصبح الرعية ، فتخرج مواشيها فيسوقونها إلى المدينة نهاراً جهاراً ، والرعية تستغيث فلا تغاث ، وكائن كان صاحب الثور يتبع ثوره فيشتريه مراراً[8] ، إذ لا يقع له أرخص من ذلك . هذا كله لرخاوة كانت فى عنان تدبيره ، وإلا فكان رحمه الله شهما فى نفسه ، مجربا كالسيف القاطع بل أمضى ، والبدر اللامع بل أضوا .

---

(١) فى الأصل : تسعة عشر .
(٢) راجع ص ١٣٧ حاشية ٥ .
(٣) بلدة من نواحى بسطام . راجع ص ١٠٥ حاشية ١ .
(٤) فى الأصل : تناطح . (٥) وهيه : ضعفه .
(٦) فى الأصل : وحربوا . (٧) جزر الشاة : نحرها .
(٨) أى وكثيراً ما كان صاحب الثور الخ .

وحيث انقطعت مواد الأموال عن خزائنه ، اضطر (١) إلى إسكات الأتراك بالسكوت، وكان إذا لجّ بعضهم فى السؤال، وألحّ فى الطلب يرضيه بزيادة فى لقبه ، فإن كان أميراً يلقبه ملكا ، وإن كان ملكا يلقبه خانا (٢) ، يمضى بهذا الوجه وقتا ، ويعبر زماناً ، فكأن أبا بكر الخوارزمى وصف حاله بقوله(٣) :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الأسماء أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم ... ما كان يجعله للحش بوابا
قَلّ الدراهم فى كفّى خليفتنا ... هذا فأنفق فى الأقوام ألقابا

وتحكمت والدته فيما كان تحت ولايته ، وتلقبت بخداوند جهان(٤) أسوة بوالدة السلطان(٥)، تركان خاتون . وبلى الناس بخباط ، واعتراض واختلاط . فمن خصام ينفق أسواقه(٦) فلا يكسد ، وتهب رياحه فلا يركد(٧) . وزحام يتصل مواده فلا ينقطع ، ويطبق غمامه فلا ينقشع ، فالناس دائماً (٨) بين تباين وجدال ، وتباعد وقتال ، إلى أن منّ الله تعالى عليهم بطلوع السلطان من الهند فانصلح الزمان، وانزجر مفسده وناهبه، وارتدع لصّه وحاربه .

لقد بث عبد الله خوف انتقامه ... على الليل حتى ما تدب عقاربه (٩)

وحيث ورد ذكر شرف الملك ، فلا بد من تقرير منشأه ومبدأ حاله ، وانتقاله من رتبة إلى أخرى أعلى منها شأناً ، وأرفع مكاناً إلى أن تقلد الوزارة.

---

(١) فى الأصل : واضطر .

(٢) راجع ما كتبناه عن لفظى خان وملك فى صفحة ٣٨ حاشية ٤ .

(٣) لما كان أبو بكر الخوارزمى (٣٢٣/٣٨٣ هـ = ٩٣٤/٩٩٣ م) قد عاش فى عصر كان البويهيون يسيطرون فيه على الدولة العباسية ، ويتحكمون فى الخلفاء أنفسهم مما دفع هؤلاء الخلفاء إلى إرضائهم بشتى الوسائل والأساليب ، منها الإسراف فى منحهم الألقاب ، فمن المحتمل أن يكون الخوارزمى قد قصد بهذه الأبيات أن يصوّر هذا المظهر فى حياة العباسيين فى ذلك الوقت .

(٤) أى سيدة العالم .

(٥) علاء الدين محمد خوارزم شاه .

(٦) نفقت السوق : راجت.

(٧) فى الأصل : فلا يركز .

(٨) فى الأصل : دايبا .

(٩) الشعر لأبى تمام فى مدح عبد الله بن طاهر .

٤٥

ذكر فخر الدين على بن أبى القاسم الجندى
إلى أن تقلد الوزارة(١)
ولقب بشرف الملك خواجة جهان(٢)

كان المذكور قد ناب عن المستوفى فى ديوان جند(٣) برهة، وهو أول أشغاله، وبداية تصرفاته وأعماله، ثم تولاه بعده استقلالا، وكان الوزير بها يومئذ نجيب الدين الشهرزورى المعروف بالقصة دار. والقصة دار هو الذى يرفع إليه القصص بالحاجات والظلامات أيام الأسبوع فيجمعها ويوصلها إلى موقف العرض ليلة الجمعة عند فراغ السلطان لها، فيأخذ أجوبتها، وذلك من المناصب الجليلة عندهم. وكان ابنه(٤) بهاء الدين حاجى ينوب عنه وزيراً بجند. ونجيب الدين هذا قد صحب السلطان وخدمه فى هذا المنصب أيام كان السلطان صاحب الجيش بخراسان، وفى هذا المنصب من الارتفاع والانتفاع موادعة ممنوعة، وإمداد غير مقطوعة، فلما تمكن فخر الدين [من] منصب الاستيفاء (٥) بجند، طمحت همته إلى مغالبة نجيب الدين ومسالبته وزارة جند، فرفع عليه مائتى ألف دينار تناولها مدة مباشرته. وحكى رحمه الله فى بعض مجالس الأنس أيام خواجا جهانيته، قال:

لما عزمت على الرفيعة على المذكور، شاورت فى إمضاء العزيمة عدة من أكابر الصدور ممن لم يأل فى نصحى، ولا يقيس(٦) نجحه ونجحى(٧).

(١) راجع صفحة ٨١ حاشية ٣ (٢) أى سيد العالم (٣) راجع صفحة ٧٧ حاشية ٣.

(٤) قرأها هوداس Houdas فى النسخة الخطية «أبوه» ثم عدلها فى الطبعة الفرنسية.

(٥) كان المستوفى من كتّاب الأموال بالدواوين، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحة من استخراج أمواله ونحو ذلك. وقد بقى اسم المستوفى فى بلاد فارس إلى القرن التاسع عشر الميلادى وكان يطلق على كبار كتاب المالية. انظر المقريزى: السلوك، ج ١ قسم ١ ص ١٩٢ حاشية ٢.

(٦) فى الأصل: بفروس. (٧) فى الأصل: نجحه ونجحى.

فما زادوا عليّ إلا الإنذار ، وقولهم حذار حذار ، لعلمهم بمعمور محله ، ومقبول كلمته ، وتمكنه فى الدولة بسابقتى خدمته وقدمته . فلم ينهه ذلك عما شرهت إليه النفس الأمارة ، ومن مغالبته على صدر الوزارة ، فرفع(١) القدر المذكور ، وأثبتوه فى الديوان ، وأنهوه إلى السلطان . وقد جلس ذات يوم جلوسه العام ، فدخلت فيمن دخل ، ووقفت فى أخريات الناس، فرأيت نجيب الدين واقفاً بقرب(٢) السرير ليس فوقه إلا عدد يسير ، وهو مطرق مفكر ، فخاطبه السلطان وقال : مالى أراك نجيب الدين مفكراً ، ولعلك تظن أن الذى رفع عليك من القدر النزر يحط عندى من قدرك ، وأيم الله وتربة والدى السلطان لم أطالبك بشيء مما رفع عليك ، بل جعلته وهبة منى لولدك بهاء الملك حاجي. فقبّل نجيب الدين الأرض،فتبينت عظم محله ، وبهت(٣) لأجله وارتعت ، ورجعت أجر رجلى على الأرض رعباً تمكن من جلدى، وذعراً أوهن خَلدى(٤)،ساقطاً فى يدى على ما ارتكبته من معاداة من هو أعلى منى يداً ، وأورى فى السعادة زنداً . فمضت لى أيام فى خوارزم كالليالى سواداً ، وليالٍ(٥) كالأيام سهاداً . إلى أن برز الأمر السلطانى بتقليدى وزارة جند ، فزال ما بى من الكمد ، والتهب من السرور ما قد خمد. نعم فتقلدها أربع سنين وأكثر من محدثات العسف، وأثقل كواهل الرعية بالحيف . فصاروا فى أيامه أعرى من الصخر معصوراً ، والسيف مشهوراً، والغصن مخبوطاً ، والدجاج على السفود مربوطاً. واتفق بعده عبور السلطان على جند صامداً(٦) صمد بخارا ، فتبادروا إلى مفصل الطلامات(٧) صارخين كما يقيق فى الجو بنات الأعداد(٨)، وجهور فى الشعب حجيج البلاد .

(١) فى الأصل : فرفعت . (٢) فى الأصل : يقرب .
(٣) فى الأصل : بهتت . (٤) خَلدى : قلبى وبالى.
(٥) فى الأصل : ليالى . (٦) صامداً : قاصداً .
(٧) فى الأصل : الطلاعات . وقد قرأها هوداس Houdas قراءة صحيحة فى موضع آخر. انظر ص ٢٣١ من طبعة هوداس العربية .
(٨) فى الأصل: الحوانيات. وقاقت الدجاجة، صوتت . والمقصود بنات الأعداد، جماعة الدجاج .

فمن قائل[1] نهب ماله وأخرج عياله ، ومن آخر غصب عليه موروث أملاكه فأفضى به إلى هلاكه ، ومن مشنع أشعلت نار التهديد فى حشاه ، فأطفأها برشاه .

فأذن لهم السلطان فى إحراقه بنارهم ، تبريداً لأوارهم ، وإراحة لأسرارهم. فاستخفى المذكور وتوارى ، وانتزح منها إلى بخارا . فظفروا ببنائيه فأحرقوه وتسحّب فخر الدين من بخارا إلى ناحية الطالقان وأقام بها مستخفيا خبره، معمياً عينه وأثره ، إلى أن رمت الحوادث التاتارية بجلال الدين إلى حدود غزنة — على ما سبق شرحه — بادر إلى الباب،وتوثّب فى جملة الحجاب . وكان لسناً جلداً ، مقداما على السلطان ، منبسطا فى الكلام ، فصيحاً فى اللغة التركية .

واستمرت به الحال فى الحجوبية إلى أن حدث من الوقعة بماء السند ماقدمنا ذكره ، فهلكت أرباب الدولة ما بين قتيل وغريق ، وتلف الوزير شمس الملك شهاب الدين ألب الهروى على يد قباجة ، حسبما تقدم ذكره ، وخلا صدر الديوان عمن يقوم بضبط ما ملكوه من ديار الهند وتدبيرها، والنظر فى أحوالها وأمورها ، فأقيم المذكور فى صدر الوزارة نائباً عمن ترشح فيها بعدها ، فساعدته المقادير حتى استمر فى الأمر ، ونال الرتبة التى طالما يتناحر[2] عليها كباش القروم[3] ، وسادات الصدور ، فلم يحظ بها إلا العدد اليسير الذين سار ذكرهم فى الآفاق ، واعترفت لهم رجالات خراسان والعراق . فعلا أمره ، وارتفع قدره ، واستغنى بعصام المروة[4] عن عظام النبوة[5]، فلم يزاحمه أحد على ما كان بصدده إلا بُلى بنكبة ،وخاب شر خيبة .

وكان السلطان مع تمكنه وبسط يده فى ارتفاعات الأقاليم يبذرها

---

(١) فى الأصل: قابل . (٢) فى الأصل : طالما يتأخر . وتناحر القوم تخاصموا .

(٣) القروم جمع قرم وهو السيد العظيم فى قومه. (٤) المروة : الحجر الصلب يورى النار.

(٥) النبوة : الجفوة والبعد .

كيف شاء ، لم ينزله منزلة الوزراء ، فلم يخاطبه إلا بشرف الملك . وكان من عادتهم أن يخاطبوا وزراءهم بخواجة [١] ، وأن يجلسوهم على إيمانهم عند الإذن العام . وكان المذكور يجلس بجلس الحجاب بين يدى السلطان أيام وزارته ، وكان لا [٢] يجلس إلا على السماط العام . ومن عادة من لقب بنظام الملك أن يجلس على الخوانجاة الخاصة، وكان من تقدمة من الوزراء يجلس فى دار الديوان فى الدست الأسود ، ولم يكن شرف الملك يجلس فى الدست فى دار الديوان ، بل [٣] كان له دست فى داره إذا رجع من الديوان يجلس فيه . ومن عادة من لقب بالنظام أنه إذا كان فى دست الوزارة لا يقوم لمن يحضر وإن كان ملكا ، إجلالا للمنصب ، وحفظا لناموس المحل ، إذ هو قائم مقام السرير . وكان شرف الملك يقوم لأرباب المناصب وهو فى صدر الديوان . وكانوا يحملون لمن يقدمه من كبار الوزراء إذا ركب أربع حراب مغشاة [٤] النصب بالذهب ، ولم يأمر له السلطان بذلك . وسيجىء باقى أحواله متفرقة فى مواضعها ، إلى أن تقاضاه الزمان بدينه فجرّعه كأس حينه [٥] ، فلحق بالواحد الغفار ، إن الكرام قليلة الأعمار .

(١) خواجه : كلمة تركية معناها سيد . راجع ص ٨٢ الحاشيتين ٣ ، ٤ .
(٢) فى الأصل : وكان لم .
(٣) فى الأصل : بلى .
(٤) فى الأصل : مغشى.
(٥) حينه : هلاكه .

٤٦

ذكر سبب وصولى إلى أبواب السلطان واستمرارى فى الخدمة

كان الملك نصرة الدين حمزة بن محمد بن عمر بن حمزة لما ورث نساء من ابن عمه، على ما شرحته، استنابنى فى أموره، وعول علىّ فيما كان بصدد تدبيره. وكان المذكور فى الفضل سحراً، وفى البذل بحراً. وكان يحفظ سقط الزند لأبى العلاء، واليمينى للعتبى، والملخّص لفخر الدين الرازى، والاشارات للشيخ الرئيس. وله بالعربية والفارسية أشعار مدونة، فمن شعره وهو محبوس:

وإنى لنى قيد هذا الزمان لكالدر إذ بات حشو الصدف
تحلى بقدرى جيد العلى ونظم فضلى عقد الشرف
وإنى على الرغم من حسدى لأسلافى الصيد نعم الخلف
وإن كان أنكر قدرى الزمان فذا هفوة صدرت عن خرف (١)
فعن أمم تنجلى غمتى كبدر الدجى بعد ما قد خسف
وتأتى المقادير منقادة يقولون عفوك عما سلف

وأما ترسله فالسحر الحلال، والعذب الزلال، يزرى بنَوْر (٢) الخمائل (٣)، وقد عطرتها أنفاس الشمائل، فما كتب إلىّ أيام مقامى بمازندران مع أينانج خان قبل انتقال الملك إليه ما أغرانى، تذكر نجداً، وتلوى شوقاً ووجداً، وقد هاجت نبضة البرق الكليل، وزفرت خفقة النسيم العليل، فسام منتضى (٤) ذلك بطرف أرتع فى مآقه

(١) فى الأصل: حرف. والخرف: فساد العقل من أثر الكبر.
(٢) النَّور: الزهر.
(٣) فى الأصل: الجمائل.
(٤) فى الأصل: منتصى. وانتضى الفارس سيفه، استله من غمده.

اسراب الدمع ، وفتش أحباء هذا عن خبر يهفوا إليه السمع ، بأشوق منى إلى مناسمة أخبار المجلس الرفيع حشاشة المجد ، وريحانة الفضل ، وباكورة البراعة ، ومالك رق اليراعة . نشر الله رميم الفضائل بامتداد ظله ، وقد كنت قبل وارده [١] ألوم نفسى على التلوم منادم التندم وأنشد :

أأترك ليلى ليس بينى وبينها   سوى ليلة ، إنى إذاً لصبور

مستجيراً من التصاريف المولعة بتفريق الأحبة ، فكيف وقد بعد الدار ، وشط المزار ، فالآن لا تعلل إلا بفالج برءه ، ورابح ذكره . وقد توجه بعض خدمه تلقاء المخيم الميمون ، فأوجب محض الخلوص إرسال نبذ من تباريح الصبابة كى لا أثبت على حواشى النسيان . كيف وحسن العهد طوع سجيته ، والله تعالى يطيل بقاءه والسلام [٢] .

فهذا القدر على مبلغ القدرة ذاك وللمراد أقصد الإنصاف فى المدح والتقريظ محال . وقد برع فى علوم الأوائل ، مجموعة إلى سائر الفضائل ، فرغ لتحصيلها أيام تعريفه بخوارزم وكانت تسع عشرة [٣] سنة . وله فى النجوم أحكام قلما تتخرم [٤] ، فكان يقول عند إخفاء خبر السلطان وتوسطه أعماق بلاد الهند إنه سيظهر فيملك ويصلح ، وإن غياث الدين لا يفلح ، وإن طالعه لا يقتضى انه يسعد ، وهذه ناره [٥] ستخمد . فكان لا يخطب لغياث الدين لهذا السبب [٦] منفرداً بتلك الشعار، عن سائر زعماء الأمصار. فوقع بعد حين ما ذكر ، وجاء الأمر حسب ما حكم به وقذف ، لكن بعد هلاكه فكان كما قيل: حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء . فقد حكم بظهور السلطان واستقامة أموره ، ولم يعلم بهلاك نفسه قبل ظهوره ، فخاب الأمل وأخطأ الفكر .

---

(١) فى الأصل : والدراهم .

(٢) من الواضح ، كما يقول هوداس، أن فى هذا الخطاب الكثير من العبارات والألفاظ الغامضة.

(٣) فى الأصل : تسعة عشر.

(٤) فى الأصل : يتحرم .

(٥) فى الأصل : نارة .

(٦) فى الأصل : بهذا السبب .

معللتى بالوصل والموت دونه إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر[1]

ولما علم غياث الدين برأيه فى السلطان واختياره عليه، ومسيره[2] دون سائر أكفائه إليه، جرد إليه طولق بن أينانج خان فى عسكر أبيه وأنجده بأرسلان خان وطائفة أخرى، وكانت من المتغلبين[3] بالأطراف يأمرهم باتباع رأيه فيما قدّم وأخر، والشد على عضده فيما أورد وأصدر. وحين بلغ نصرة الدين ذلك شاور نصحاءه فى إزالة البوس، ودفاع الخطب العبوس. فكانت زبدة مخضهم أن وجهنى إلى الأبواب الغياثية بقدر[4] من المال لرد الفتنة الشاغرة، ولسد الأفواه الفاغرة[5]، فتوجهت نحوها كارها، ثم صادفت[6] ابن أينانج خان بحدود رعد ليلا، فتسترت بأذيال الليل البهيم[7] مجفلا إجفال الظليم[8]، بل هارباً كالكليم[9]. فلما وصلت إلى جرجان، رأيت بظاهرها خياماً فأخبرت بأنها للأمير كوج قندى، وصل من الأبواب الجلالية[10] متوجهاً إلى خراسان لينوب بها عن أورخان. وذكر ما حدث بالرى فى زوال الدولة الغياثية، وتجدد الدولة الجلالية[11]. فمشيت إلى المذكور، وما أدرى كيف أسير، وكدت إليه من فرحى أطير. فجالسته طويلا، وسمعت للأحوال جملة وتفصيلا. ثم فكرت فى الأمر، وعلمت أن لا وجه للعود، وابن أينانج لا يرده عن نساء، وقد تعلقت بها أظفاره،

---

(١) البيت لبشار بن برد. وفى الأصل:

معللتى بالوعد والموت دونه إذا مت عطشانا فلا نزل القطر

(٢) فى الأصل: ومسيلة. (٣) فى الأصل: وكانت المتغلبين.

(٤) فى الأصل: بصدر.

(٥) فى الأصل: لردته الفتنة الشاغرة وأسدته الأفواه الفاغرة.

(٦) فى الأصل: صادمت. (٧) فى الأصل: اليهم.

(٨) الظليم: ذكر النعام. (٩) هو كليم الله موسى.

(١٠) نسبة إلى جلال الدين منكبرتى.

(١١) أى تقلص نفوذ غياث الدين بن علاء الدين محمد خوارزم شاه وسيطرة جلال الدين منكبرتى على أراضى الدولة الخوارزمية بعد عودته من الهند.

إلا أمر سلطانى ، فسرت إلى استراباذ (1) ، وبها الملك تاج الدين الحسن يستعد لقصد الأبواب الجلالية ، فعزمت على مرافقته ، وجعلت أحثه على سرعة البدار . فبينما هو يتحمل ، إذ وصلت غارة دانشمندخان ـ وهو من الخيائية ولم يدس بعد بساط السلطان إلى تخوم بلده ـ فانتقض عليه تدبيره وألجأتنى الضرورة إلى العود إلى طريق بسطام ، فعدت إليه وسرت إلى الرى مخاطراً ، ومنها إلى أصفهان مبادراً . وكانت الأخبار تتبعنى بحصار نساء والتضييق عليها فيحرمتى أن أستريح ، وأن أنتشق الريح . غـــير أنى تعوقت بأصفهان شهرين اضطراراً لا اختياراً ، إذ لا وصول إلى السلطان لأسباب من جملتها فساد اللر (2) بالجبال، وإخافتهم للطرق المفضية إلى السلطان، والأتابك سعد من القواعد المهيدة (3) ، والألفة الأكيدة ، وهو معادى . ومنها الثلوج وانسداد المسالك ، وهلاك خلق من السابلة فى تلك المهالك . فكنت أبيت بأصفهان « بلبان القـدارى السركان قد » (4) إلى أن أقبلت أيام الربيع بطيبها ، وفرشت الأرض بجلابيبها ، وتحركت رايات السلطان صوب أذربيجان (5) وأقيمت مخيمه بتخوم همذان والسلطان غائب . وكان قد نهض لـكبسة الأتابك يغان طايسى وهو ختن غيـاث الدين المزوج بشقيقته . ولـما نصر (6) الله السلطان على أخيه ، وملكه ما كان يحويه ، تسحّـب المذكور صوب أذربيجان يرى أنه يناضل عن دولة قد حم حمامها ،

---

(1) راجع ص ١٣٨ حاشية ٤ .

(2) يبدو أن هذا اسم لبعض القبائل، ولعلها تنتسب إلى جبـال اللور أو بلاد اللور بجنبيه (لورستان) وتمتد بين مدينتى تستر وأصبهـان . ويسكن هذه البلاد خلق عظيم يمتازون بخفة حركاتهم . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ .

(3) المهيدة : الممهدة .

(4) إن اختفاء النقط من هـذه الأسماء فى النسخة الخطية جعلت من العسير كتابتها على وجهها الصحيح .

(5) كان ذلك سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص١٩٨.

(6) فى الأصل : انصر .

وانقضت ايامها . وتعاضدا هو والأتابك أزبك صاحب آذربيجان على خــلاف السلطان [1] . وحين تحقق خفوق الرايات السلطانية صوبهما ، وحفوفها نحوهما ، سوّلت له نفسه البدار إلى العراق واغتنام خلوها عن السلطان . وبلغ السلطان خبره فكبسه بهمذان ، ولما ظفر به أمنه وآواه ، ومهد له ذراه ، وختم بالخير عقباه ، وعاد إلى مضاربه فرحا بحصول مآربه.

وكنت قد قدمت إلى شرف الملك خواجة جهان قبل عود السلطان ما كان أصحبنى نصرة الدين برسم كريم الشرق وزير غياث الدين من الخدمة ، وهى ألف دينار ، فشكر ووعدنى بتمشية الحال ، وقضاء[2] الأشغال ، فأحسن المتاب ، وبرز الأمر السلطانى بتقرير بلاده مضافاً إليها ما كان يتاخمها عدة نواح ، وقد عينوا من الخواص من يصحبنى إلى نساء لطرد ابن أينانج خان عنها وإحضاره للأبواب السلطانية ، فلم يكن إلا يومان أو ثلاثة[3] حتى ورد الناعى بهلاك نصرة الدين وأن ابن أينانج خان أخرجه من قلعة نساء فأحضره وصرعه كياداً[4] لذوى الآمال ، وأضجعه عناداً للأحرار من الرجال . ونقل إلى ترابه بماء شبابه [5] ، فقامت نواعى المجد يندبنه جميعا ، ويبكينه نجيعا[6] ، فظللت بينهم صريعا ، وأنشدهم والقلب وجيع :

قد كان لى فى رأيه وذكائه أشراط[7] صدق أن يموت سريعا

وقد قابل ابن أينانج خان سوابق خدمتى ووالده بنساء وجرجان، بقتل من ظفر به من ألزامى، ونهب ما وجد من أسبابى وكبس بيتى بما جمعه إرثى واكتسابى .

---

(١) كانت الحالة الداخلية فى أذربيجان من العوامل التى ساعدت الخوارزميين على السيطرة على هذا الأقليم ، فقد كان الأتابك أوزبك بن البهلوان حاكم هذا الأقليم رجلا مسناً ، منصرفاً إلى مجالس اللهو والعبث ، لا يهتم بمصالح بلاده ، بل إنه ترك مقاليد الأمور لزوجته التى أخذت تصرف شئون دولتها على قدر استطاعتها .

(٢) فى الأصل : قضى .   (٣) فى الأصل : فلم يكن إلا يومين أو ثلثة .

(٤) قرأها هوداس Houdas فى النسخة الخطية كياداً، ثم عدلها فى الطبعة الفرنسية كباداً، والقراءة الأولى هى الصحيحة .

(٥) فى الأصل : بما شبآبه .   (٦) النجيع : الدم .

(٧) أشراط : أمارات وعلامات .

٤٧

ذكر مسير السلطان صوب خوزستان

بعد تمكنه من أخيه

لما تمكن السلطان من أخيه وصار معه كأحد أمرائه ، يتصرف بتصاريف آرائه ، سار نحو خوزستان وأقام بها مشتيا ، ووجه من هناك ضياء الملك علاء الدين محمد بن مودود العارض النسوى رسولا إلى الديوان العزيز . وكانت رسالته تتضمن تعنتاً(١) وتعتباً(٢) ، وكان من قبل قد جرد جهان بهلوان إيلجى برسم اليزك (٣) ، فصادم المذكور عسكرا من عسكر الديوان وعربا من خفاجة ، فأوقع بهم ، وخرق(٤) الهيبة ، وهتك الحرمة ، وعادوا إلى بغداد بوجه غير مرضى ، وأرب غير مقضى .

وأحضرت منهم طائفة إلى المخيم السلطانى فأطلقوا ، ووصل ضياء الملك بعد هذه الحادثة إلى بغداد ، فأحل بمعهود الإكرام ، ومألوف الاحترام ، وطالت مدة المقام ، وأحف(٥) الناس فيه أقوالا تخمينا ، ورجموا بالغيب ظنوناً ، إلى أن ملك السلطان مراغة ، فأذن فى العود موفور الحظ من

---

(١) فى الأصل : تعنباً .

(٢) يجدر بنا أن نذكر فى هـذا المقام أن مهمة جلال الدين الأولى ، بعد توطيد نفوذه واطمئنانه إلى أنه لم يعد هناك من ينازعه السلطان ، هى أن يوجه عنايته إلى توسيع نفوذه على حساب القوى المتعددة القائمة فى ذلك الوقت ، وأن ينتقم من أعدائه القدامى الذين لم يناصروا أباه إبان الغزو المغولى . وكانت الخلافة العباسية من أهم هؤلاء الأعداء الذين وقفوا فى سبيل تقدم الدولة الخوارزمية فى عصورها السابقة ، ولا شك أن الخليفة العباسى الناصر كان إلى حد ما من العوامل التى شجعت جنكيزخان على غزو الدولة الخوارزمية . لذلك وضع جلال الدين منكبرتى نصب عينيه أن يوجه ضربته إلى الخليفة عدو أبيه وجده ، فشرع فى غزو خوزستان سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥م) وكان هذا الاقليم تابعا له .

(٣) راجع صفحة ١٦٢ ، حاشية ٢ . (٤) فى الأصل : أخرق .

(٥) أحفوا : ذكروه بالقبيح من الصفات .

الإنعام ، جزيل القسط من النايل العام . وحين كشف عن وجه الربيع قناع الشتاء ، رحل من نواحى بغداد نحو أذربيجان ، فلما أشرف على دقوقا صعد أهلها السور فصرحوا بالشتائم ، لما بلغهم من شنه الغارات على بلاد الديوان ، فأغاظه ما أسمعوه ، فأمر بالزحف عليها ، فلم يكن إلا حملة واحدة حتى صعدت الأعلام ، وترادف الزحام ، ووضعوا فى أهلها السيوف ، فإلى أن نودى بالكف هلك خلق كثير . وصمد[1] السلطان نحو أذربيجان ، فلما حاذى جبال همذان ، بلغه عبور يغان طايسى من أذربيجان صوب العراق وجرى من الكبسة عليه بهمذان ما قد سبق ذكره .

---

(١) صمد : قصد .

٤٨
ذكر ملك السلطان أذربيجان[١]

لما انتظم يغان طايسى فى الخدمة ، وخلت العراق ممن ينعق بفساد ، ويحكم بغير استقامة وسداد ، رحل السلطان صوب أذربيجان ، فلما قاربها وردت على شرف الملك كتب أهل مراغة حاثين عزائم السلطان بالمسير إليها ، خلاصا مما منوا به من شنوع الظلم ، واستيلاء أرباب الدولة ، وحكم النساء[٢] ، وتشبث أظفار الكرج بها ، وضعف الأتابك صاحبهم عن حماية بيضته ، والذب عن حوزته[٣] . فساق إليها ودخلها من غير مدافع ، وأقام بها أياما[٤] ، ووجه من هناك القاضى مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمى رسولا إلى ملك الروم وملوك الشام بكتب تتضمن تملكه بلاد أذربيجان ، وقلعه ما تشبث بها من أنياب الكرج بحدّى سنانه وعضبه[٥] ، فذانك برهانان من ربه وإعلامهم بأنه نوى غزو[٦] الكرج ، فيعركهم نهبا وحربا ، ويعرفهم أن للبيت ربا . وقد ضمنها[٧] صدراً من الرغبة فى الموالاة .

وفى نهاره ذلك فوض إلىّ كتابة الإنشاء ، فتقلدتها للإنساء على كره منى لذلك ، استحقاراً بها من قلة تجربة وعدم خبرة ، وذهولا عما فيها من مواد

---

(١) كان ذلك فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٢) كان أوزبك بن البهلوان حاكم أذربيجان قد ترك مقاليد أمور دولته إلى زوجته ، وهى ابنة السلطان طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة فى العراق ، فأخذت تصرف شئون الدولة على قدر استطاعتها . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٨ .

(٣) فى الأصل : جورته .

(٤) استولى جلال الدين على مدينة مراغة دون صعوبة ، ثم أخذ يتودد إلى أهلها بأن حاول أن يصلح من أحوالهم كما عمد إلى إصلاح ما تخرب من هذه المدينة فى أثناء الحرب . انظر كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١٧٧ .

(٥) العضب : السيف القاطع .

(٦) فى الأصل : بغزو .

(٧) فى الأصل : ضمها .

متواصلة الأمداد ، وفوائد غير منقطعة المواد ، وجاه يعم نفعه وضره ، ويشمل عسره ويسره . وقد حصل لى فى يوم واحد من منافع الإنشاء وفوائده ، والسلطان بنخجوان [1] لقضاء [2] أشغال أهل خراسان ومازندران ، مافوق ألف دينار . وأما مادون ذلك فى سائر الأيام فمادة لا تنقطع ، فصرت أقاتل من يزاحمنى عليها . وانفصل مجير الدين عن الخدمة متوجهاً إلى الجهات المذكورة ، ولم يعد إلا بعد فتح تفليس [3] .

ثم إن السلطان رحل من مراغة صوب أوجان [4] ، وهى أرض معشبة ذات مياه جارية ، وقد خرّب التاتار مدينتها فى مبدأ خروجهم فأقام بها أياما والناس يمتارون [5] من تبريز ، وبها بنت طغرل بن أرسلان زوجة الأتابك أزبك فلم يمنعوهم ، فجاءه من أهل تبريز من أطمعه فى تمليكها ، فسار نحوها ، وحط عليها ، وأحاط بها من كل صوب . فخرج إليه الرئيس نظام الدين بن أخى شمس الدين الطغرائى — وكان متحكما فيها يملك رقاب أهلها ، موالاة له ولأسلافه ورثوها عن آبائهم ، ومودة فيهم امتزجت بدمائهم — فساق إليها وتقدم إلى الأمراء بترتيب آلات الحصار من المجانيق [6] والدبابات والسلالم [7] ، فأخذوا يقطعون أشجارها ، وهى كثيرة جداً ، فخرج بعد سبعة أيام من إحاطة السلطان بها ، رسول بنت السلطان طغرل فى طلب الأمان لها ولخولها وخدمها على أموالهم ودمائهم ، على أن تكون مدينة خوى [8] مفردة باسمها ، وأنها تخفّر إليها مصونة . فأجاب السلطان

---

(١) نخجوان : بلد فى أقصى أذربيجان . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ص ٢٧٣ .

(٢) فى الأصل : لقضى .

(٣) كان ذلك فى سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦م) . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٠٧ .

(٤) أوجان : إحدى مدن أذربيجان .

(٥) يمتارون : يتحركون .

(٦) فى الأصل : المناجنيق .

(٧) فى الأصل : السلاليم .

(٨) خوى : إحدى مدن أذربيجان الكبيرة بينها وبين سلماس أحد وعشرون ميلا ، كثيرة الخيرات والفاكهة ، وينتسب إليها الثياب الخوية . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤٩١ — ٤٩٢ . والقلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥٩ .

إلى ذلك وتسلم تبريز سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وسير السلطان خادميه الخاصين تاج الدين قليج وبدر الدين هلال خفيرين[1] فأوصلاها إلى خوى بمن معها من أتباعها سالمين ، ودخل السلطان تبريز فملكها عفواً صفواً ، ونزل بدار السلطنة ، وولى الرئيس نظام الدين رئاستها ، واستمرت حال الطغرائي فى نفاذ الحكم ، وقبول القول ، وما كان المذكور يخوض فيما يتعلق بالدولة وأموالها ، بل فيما يعود إلى مصالح الرعية ويرضيهم ، وتقوية صالحهم ووجيههم ، وزجر مفسدهم وسفيههم ، من غير أن يتولى أمراً ، ويتقلد شغلا ، إلى أن قبض عليه ، على مايذكر فى موضعه إن شاء الله تعالى[2] .

---

(١) فى الأصل : خفرين .

(٢) على الرغم من أن أهالى أذربيجان كانوا قد وقفوا فى وجه الخوارزميين أثناء غزو جنكيزخان لبلادهم ، بل وناصروا المغول عليهم وقت محنتهم ، فإن جلال الدين قد تسامح مع أهالى تبريز ، وأحسن إليهم ، وأصلح ما خرب من هذه المدينة .

انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٩ .

٤٩
ذكر كسر السلطان الكرج

لما ملك السلطان أذربيجان اجتمع الكرج[١] بموضع يعرف بكربى من حدود زون[٢] فى ستين ألفاً ، مظهرين جلادة ومضمرين بلادة ، وقد أخذهم من مجاورته المقيم المقعد ، وملكهم المزعج المكمد . وكان قصدهم من الاجتماع إشعار السلطان بما عندهم من الشوكة والكثرة لعله[٣] يرغب فى مهادنتهم[٤] فيسلمون بها من حَرّ[٥] العقاب ، ومر الخباب[٦] . واجتمعوا لذلك متجلدين ، وعلى زوال الدولة الأتابكية متجردين ، إذ كانت مصيدة وهم يقتنصون فيها جملة وفرادى ومثنى[٧] وآحادا .

ولما بلغ السلطان اجتماعهم على مضغ الأباطيل بينهم ، كلف إليهم فيمن حضر من عساكره ، وقد كان أكثرهم تفرقوا إلى إقطاعاتهم بالعراق وغيرها ، فحين وصل إلى شاطىء نهر أرس[٨] وجد هناك أمراء البزك

(١) أى أهالى جورجيا .

(٢) كذا فى النسخة الخطية ، ويذهب هوداس إلى أن المقصود بها هو زوزان Zauzân أحد أقاليم أرمينية . (٣) فى الأصل : لعل .

(٤) يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن أهالى جورجيا قد قابلوا إعلان جلال الدين الحرب عليهم بالتحدى والاستهزاء ، إذ أرسلوا إليه يقولون : « إننا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك ، وهو أعظم منك وأكثر عسكراً وأقوى نفساً ، ما تعلمه ، وأخذوا بلادكم فلم نبال بهم » . ولم يفت ذلك فى عضد جلال الدين ، بل جمع جيوشه وسار يوقع بهم الهزيمة تلو الأخرى . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٠٠ .

(٥) فى الأصل : خرّ . (٦) الخباب : الخداع .

(٧) فى الأصل : مثنا .

(٨) هو نهر أراس Araxes ، ويصب فى بحر قزوين بعد أن يلتقى بنهر الكور Kur . وقد ورد ذكر هذين النهرين فى صبح الأعشى باسم الرس والكر . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٠٢ . وانظر أيضاً خريطة «وسط آسيا» فى كتاب : Bretschneider Op. cit., vol. i.

ومقدمهم جهان بهلوان إيلجى وقوفاً ، فأعلموه بأن العدو بالقرب ، وأن فيهم كثرة ، فكان جوابه عما سمع أنه رفس فرسه فرمى به فى المخاض ، غير مبال بما ذكروه من قرب العدو وكثرته ، وتبعه العسكر . فلما وصل إلى كربى ، رأى الكرج نزولا على نشز عال[1] ، جبلا على جبل ، وسواداً كليل أليل[2] ، وقصارى ماشوهد منهم فى نهارهم[3] ذلك زعقات تشق أستار النجم ، وتسمع آذان الصم . فراعه من كثرتهم ما يروع الذئاب من سوام الغنم ، والليوث الجياع من هوام النعم . واصطف حذاءهم تحت الليل فرتب الخيول ، قلباً مشحوناً بكمائه ، وميسرة مملوّة بحماته ، وميمنة محفوفة برماته ، ولم يزل نهاره ذلك ينتظر نزولهم إلى القتال فلم ينزلوا . فلما جنحت[4] الشمس للغروب ، ضرب السلطان خركاة[5] صغيرة وراء القلب فبات فيه ، وتقدم إلى الخانات والأمراء يتناوبون السهر إلى السحر ، ففعلوا ما أمر ، واحتذوا بنارهم . ولما أصبحوا استحضرهم وقال : إن العدو قد عزم على المطاولة ، ومال عن المصاولة إلى المماطلة ، فالرأى أن نقصدهم من كل صوب مصعدين . فإن حملوا عليكم فبادروا إلى الزوال ، وارشقوهم بالنبال . وتحرك السلطان صاعداً ، بل ساعداً ، وتحركت بحركته الأطلاب ، كما نفضت جناحها العقاب . وتبادرت ميسرة السلطان فى الصعود ، وفيها أخوه غياث الدين وأورخان ويغان طايسى وعدة أمراء آخرين . فحمل عليهم شلوه ، وكان من شطارهم المشهورين ، فنازلوه . وتطايرت السهام كما تتهارى[6] النجوم

---

(١) فى الأصل : عالى .

(٢) ليل أليل : شديد الظلمة .

(٣) فى الأصل : نارهم .

(٤) فى الأصل : أجنحت .

(٥) خركاة : كلمة فارسية معناها خيمة أو مخيم . المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص٣٢ حاشية ٥ .

(٦) تتهارى : تتساقط .

السابرة، وتتهاوى الثلوج المتطايرة. واختلط المسلم بالكافر[1]، والرابح بالخاسر، والصاعد بالنازل، والفارس بالراجل، وتضاربوا مابين الشوى[2] والمقاتل، وتسابق فى الصعود إلى ذروة الجبل، فمن هارب يرى نجاته وتقاه فى ارتقائه، وطالب يحثه على الصعود صدق أمله وتحقق رجائه. فحين قرعت الخيل صدمات الخيل المنصورة، فى أخلاط الويل المثبورة[3]، ولى الكرج أدبارهم على رءوسها قبل أن يصير[4] التناظر تبارياً، والترامى تضارباً. وهفوا بأجنحة الفرار، متعلقين بالذل والصغار، يرون الأشباح كتائب تختطفهم، والأشخاص مقانب[5] تنسفهم. وفرشت أرض المعركة بزهاء أربعة آلاف جيفة تهاووا[6] فيه استخلاصا من حر الطلب.

ووقف السلطان على تل، والكرج تساق إليه بخزايم الذل، كما ساق المجرمون إلى النيران وجوه عليها غبرة[7] الكفران، ترهقها فترة الخذلان. وأقام هنالك إلى أن تزاحفت الطلبة، واجتمعت الكسبة، وقد ضربت له خركاة، فمن أراد الوصول إليه يطأ القتلى ويدوسهم. وحكى أن شمس الدين القمى[8]، وكان من حجاب الأتابك أزبك، قال: أرسلنى صاحبى إلى الكرج أيام استيلائهم وقال وددت أن يكون على ؓ، يعنى أمير المؤمنين

---

(١) كان السواد الأعظم من أهالى جورجيا يدينون بالديانة المسيحية، بخلاف الحال فى أتابكية أذربيجان. وكثيراً ما كان يتخذ المسيحيون فى جورجيا من المحن التى حلت بالشرق الإسلامى أثناء الغزو المغولى ومن ضعف أذربيجان والأقاليم المجاورة لها، فرصة للاغارة عليها فى فترات متعددة، وكثيراً ما استولوا على المدن الواقعة على حدود بلادهم وأذاقوا أهلها سوء العذاب، ونهبوا ما وصل إلى أيديهم من خيرات هذه البلاد. ولذلك نرى أن المعاملة التى عامل بها جلال الدين منكبرتى أهالى جورجيا تختلف عن تلك التى سار عليها فى أذربيجان، فبينما قتل وسبى ونهب فى جورجيا، نراه يذهب إلى درجة كبيرة من التسامح فى أذربيجان.

(٢) الشوى: الأطراف.

(٣) المثبورة: الهالكة. وفى الأصل، المثورة. (٤) فى الأصل: تصير.

(٥) المقانب: جمع مقنب وهى جماعة الخيل. (٦) تهاووا: تساقطوا. وفى الأصل، يهاموا.

(٧) فى الأصل: عبرة.

(٨) نسبة إلى مدينة قم، إحدى مدن العراق العجمى. انظر خريطة بلاد فارس.

عليه السلام ، باقياً فى زمانى لأريه من سطوتى ماينسيه يومى بدر وخيبر[1] .
فلما استبيح فى ذلك النهار خميسهم[2] ، وقتل مرءوسهم ورئيسهم ، أخذته الحيرة فلم يعرف أعلام الأرض وأغفالها ، فنزل ونام بين القتلى ولطخ وجهه بالدم سخمة بالعار ، فحدس[3] ابن داية غياث الدين ، وهو صبى ، به فأخرجه وأحضره إلى السلطان مكتوفاً .

فكذب الله اللعين فى مجاوزته حد الأدب وسخره بمن لا يذكر فى الرجال فضلا أن يعد من الأبطال . وأمّنه السلطان ولم يستعجل فى قتله ليرى الناس حسن صنيع الله فيمن طعن[4] فى مظهرى الدين ، وناشرى[5] كلمة اليقين .
ووجه السلطان ملك الخواص ، تاج الدين قليج ، إلى تبريز بجماعة من أمرائهم الأسرى[6] ورءوس القتلى ، مبشراً بما أتاح الله على يديه من الفتح الرائع منظره ، الشائع خبره . وساق من المعركة إلى مدينة زون . فزحف عليها وفتحها للوقت ، ثم أمر القاضى بها أن يفرد من بها من المسلمين ، نساءهم وذراريهم ، وقد أفاء[7] الله على السلطان وأنصاره أموالا موفورة ، وغنائم غير محصورة ، رحض بها الصدور عن رَيْن الحسد[8] لاشتراك الكافة فى الغنى المقصود ، واستوائهم فى كفاية الموجود . ووصل شرف الدين أزدره وحسام الدين خضر صاحبا سرمارى يومئذ إلى الخدمة ، ووصلا إلى السلطان وكتب لهما توقيعا[9] بتقرير ما كان لهما عليهما .

---

(١) فى الأصل : خيبر .
(٢) الخميس : الجيش الجرار .
(٣) حدس : ظن به .
(٤) فى الأصل : ظعن .
(٥) فى الأصل : باشرى .
(٦) فى الأصل : الأسرا .
(٧) فى الأصل : أفا .
(٨) فى الأصل : رخص بها الصدور عن زبن الحسد . ورحض الثوب ، غسله . والرين، الدنس.
(٩) فى الأصل : توقيم .

٥٠

ذكر عود السلطان من زون إلى تبريز
وتخليف الميمنة ببلاد الكرج
فى رجب سنة اثنتين وعشرين وستمائة

كان السلطان لما قرن الظفر بتاليه ، وأردف الفتح الأول بثانيه ، بثّ غوارته[1] إلى خربات بلاد أبخاز[2] ، وفى نفسه قصد تفليس ، وورد عليه كتاب من شرف الملك ، وكان بتبريز ، يذكر فيه أن شمس الدين الطغرائى وابن أخيه[3] الرئيس نظام الدين قد توامروا على الفتك به والعصيان على السلطان إفكا وزورا ، وكذباً افتراه من كان موتورا . وقد ظهر بعد حين أنه بهتان ، لن يشهد بصحته برهان . غير أن الطغرائى كان ديّناً منصفاً فى سيرته ، ذاباً عن رعيته ، لم يرض أن يخاف ، ولا يمكّن أحداً[4] أن يتجاوز حد الإنصاف . وإذا طولب أهلها بما لا يجب ولا يليق ، وحمل ما لا يطيق ، كان يحميهم تارة بالشفاعة ، وطوراً بالتوبيخ والشناعة .

ونواب شرف الملك يكرهون ذلك ، إذ ملكوها متهرمين لا يقنعهم الطفيف[5] ، ولا يرضيهم من الخدم الخفيف ، وقد شحنوا[6] أفواههم

---

(١) من معانى الغارة ويقصد المؤلف الجيش المغير .

(٢) إحدى مقاطعات جورجيا الجبلية ، وهى كما يقول ياقوت صعبة المسالك وعرة ، لامجال للخيل فيها . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ٧٢ .

(٣) قرأها هوداس Houdas فى النسخة الخطية « أخته » ثم عدلها فى الطبعة الفرنسية .

(٤) فى الأصل : أحد .

(٥) فى الأصل : الضعيف .

(٦) فى الأصل : شحوا.

بالاطاع ، ولا يداخل الولائج الخوف فهم مفاتح الكهوف[1] .

كالحوت لا يرويه شيء يلهمه   يصبح ظمآن وفي البحر فمه[2]

فلما وقف السلطان على كتابه ، وقد نشره عن سموم الأراقم وطعوم العلاقم ، عزم على العود إلى تبريز يعتقد أنها قد تغيرت عن مزاجها ، وأن علة حدثت بها ، فلا بد من علاجها . واستحضر أمراء الميمنة بباب سرادقه ، وخرج إليهم بعض الحجاب ، وقال : إن السلطان يقول إننا قد تحققنا تقصيركم[3] في المصاف واتفاقكم على أن تولوا وجوهكم ، إن حمل الكرج عليكم . وحيث وهب الله لنا النصر والظفر ، وأحاق سوء العذاب بمن كفر ، فقد عفونا عنكم ما تحققناه ، على أن تقيموا بهذه البلاد فتقلبوها بغاراتكم ظهرا لبطن ، إلى أن نعود إليكم . فضمنوا له ذلك وأصحبهم السلطان صاحبي سرماري دليلين إلى مضايق أبخاز ودربنداتها .

وحدثني حسام الدين خضر ، وكان صديق ، جدا قال : أقمنا بأبخازه فهيمر ثلاثة أشهر ، يشنون عليها الغارات إلى أن أخلوها من الغنائم وأبلوا أهلها بالعظائم ، ورخصت المماليك الكرجية ، حتى إن المملوك منها يباع بدينارين أو ثلاثة . والذى تخلص منهم بمواشيه إلى وراء الدربندات لم يأمن من ركضاتهم ، فكنا نصل بهم إلى بعض الدربندات ونتأخر ثم نحذرهم أن يعبروه ، ونخبرهم بما وراءه من المضايق ، فلم يبالوا بذلك ، فيعبرونها[4] وحداناً وزرافات[5] ، ويرجعون بعد يومين أو ثلاثة بالغارات والأسارى . وقد أذاب الله الكرج لهم ، فكانوا يلجئونهم[6]

---

(1) الولائج : جمع وليجة وهم بطانة الرجل ومن يعتمد عليهم من غير أهله . ولعل المعنى قد اتضح بهذا التصحيح . وفي الأصل : ولا يداخل الكهوف ومفاتح الولايج الخوف .

(2) أورد هوداس هذا البيت منثورا في سياق الكلام .

(3) في الأصل : بقصيركم .

(4) في الأصل : فيبعدونها .   (5) في الأصل : رزافات .

(6) في الأصل : يلجونهم .

من مضيق إلى مضيق ، وينجعونهم بفريق بعد فريق . ووصلوا إلى حيث لم يبلغ للإسلام راية ، ولم تستل فيها سورة ولا آية .

ورجع السلطان إلى تبريز ، وأحضر شرف الدين بين يديه من الدثراء والأوباش من شهد على الطغرائي وابن أخيه بما كان قد أنهى إلى السلطان أكذوبة لم يخلق الله لها رأساً ولا ذنباً ، ولم يضرب لها وتدا ولا طنباً[1]، وأمر السلطان بالقبض عليهما ؛ فأما الرئيس فقتل للوقت وترك بالشارع صريعا ، يمج دماً نجيعاً[2] . وأما الطغرائي فحبس وصودر ما ينيف على مائة ألف دينار مال ، أو هي متن طاقته ، وأتى من وراء فاقته . وكان الواصل منها إلى خزانة السلطان دون ثلاثين ألف دينار . ثم نقل من تبريز إلى مراغة محتاطا عليه ، وشرف الملك لم يفتر فى نصب الحبائل ، وإعمال الحيل فى إهلاكه إلى أن أخذ خاتم السلطان بقتله . وأراد الله بقاء ذلك السيد الجليل ، والصدر العديم المثل والبديل[3] . فضن بهلاكه من ينوب إعن الديوان الجلالى بمراغة فأعانه بالخيل وهرب تحت الليل .

وسار إلى إربل ومنها إلى بغداد ، وحج فى سنة خمس وعشرين وستمائة، فلما ازدحم الناس حول الكعبة ، وقف تحت الميزاب على رأسه مصحف ، وحاج الأقاليم وقوف ، والذى كان متولى سبيل السلطان حاضر ، وقال : أيها الناس قد أجمع المسلمون كافة أن ليس لله فى أرضه مقام أشرف من هذا المقام ، ولا يوم أجل من هذا اليوم ، ولا كتاب أشرف من هذا الكتاب ، ولا أعظم . وأنا حالف بالثلاثة هذه ، أن الذى نسبنى إليه شرف الملك ما كان إلا إفكا مفترى ، وغلظ اليمين بما تغلظ به إيمان البيعة

---

(١) الطنب : الخيمة .

(٢) ذكر ابن الأثير أن جلال الدين منكبرتى نكل به أشنع تنكيل ، فأمر بأن يطاف عليه فى المدينة ليأخذ كل من ظلم على يديه بحقه منه ، ثم قتله فى النهاية . ابن الأثير : الكامل، ج ١٢ ص ٢٠٠ .

(٣) فى الأصل : البذيل .

فى البراءة . وتفرق الناس فنهم مشيِّم[1] ومعرِّق[2] ، ومغرب ومشرق . وتحدث بذلك كل طائفة فى مسالكهم وأماكنهم ، وتواترت الأخبار به على السلطان ، ووصل أمير الحاج وشهد بما شاهده منه فى ذلك الموقف ، فعلم السلطان براءته ، وندم على مافعل ، ندامة خجل مما انتكبه [3] ، بائس على ما اكتسبه من سوء الذكر واحتقبه[4] ، هيهات أين من الندامة ؟ دور عن سكانها خالية ، وسكان تحت أطباق الثرى بالية . وقد قال الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم[5] فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين [6] . ثم إن السلطان أمنه فأعاده إلى تبريز ، ورد عليه أملاكه وقد تركوها أطلالا ، وكان يحضره المشورة .

نعم ، وأقام السلطان بتبريز فصام بها رمضان وأمر فوضع منبراً[7] بدار السلطنة ، ونص على ثلاثين من علماء الأطراف وفضلائها ، وقد حضروا لحاجاتهم فوعظ كل واحد منهم يوماً ، والسلطان قاعد فى القصر حذاء المنبر ، فشكر منهم من وعظ وقال حقاً ، وذمّ من بالغ فى الإطراء ولم يقل صدقاً . وكان صدر الدين العلوى المراغى رحمه الله من جملة المشكورين .

---

(١) مشيم : ذاهب إلى الشام . (٢) معرق : ذاهب إلى العراق .
(٣) فى الأصل : مما أتـكبه . (٤) فى الأصل : وأحقبه .
(٥) فى الأصل : ياأيها الذين إن جاءكم . (٦) سورة الحجرات ، آية ٦ .
(٧) فى الأصل : منبر .

٥١

ذكر ملك السلطان كنجة وسائر بلاد أرّان

لما ألقى السلطان عصا القرار بتبريز منصرفه من الكرج ، وجه أورخان في رجاله إلى كنجة فتسلمها ، وتسلم الكور التى تنضاف إليها مثل بيلقان[١] وبرذعة[٢] وسكور[٣] ،وشيز[٤] . وكان نائب الأتابك الرئيس جمال الدين القمى[٥] صاحب ثروة ومال ، وقدرة وسعة حال . فسلمها إليه مبادراً فى الخدمة ، ومبقياً على ماحوته يده من النعمة . فتمكن أورخان بكنجة،وكان شرف الملك قد سير معه نائبه المعروف بالكافى ليتولى أمر الديوان وجباية الأموال عند تسلمها ، فلما استولى أورخان عليها ، مد يده إلى ماليس له من الحقوق الديوانية ، لتمكنه فى الدولة وقرابته من السلطان ، وجرت بينهما مفاوضات أفضى آخرها إلى المخاشنة ، وجذب أورخان على الكافى سيفه . وورد الخبر بذلك على شرف الملك ، فشكا[٦] إلى السلطان صورة الحال ، وأراه أنه مايريد ضبط الأموال إلا لخزانته . فاسترد السلطان أورخان إلى بابه . واستمرت الوحشة بين أورخان وشرف الملك إلى آخر عهدهما . وقد

---

(١) بيلقان : إحدى مدن أرمينية ، وهى قريبة من شروان . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٤٠ .

(٢) برذعة : بلد فى أقصى حدود أذربيجان ، وهى معرب « برده دار » ومعناه بالفارسية موضع السبي وذلك أن بعض ملوك الفرس سبي سبيا من وراء أرمينية وأنزلهم هناك . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠ انظر أيضاً ، القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤ ص ٣٦١ .

(٣) كذا فى الأصل ولعلها شمكور ، وهى قلعة فى نواحى أران بينها وبين كنجة يوم واحد . ياقوت . معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٩٥ وتمتاز هذه المدينة بمناراتها الشاهقة . القلقشندى: صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٦٣ .

(٤) شيز : ناحية من نواحى أذربيجان . يقال إن منها زرادشت نبي المجوس . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ٣٢٥ .

(٥) نسبة إلى مدينة قم ، إحدى مدن العراق العجمى . (٦) فى الأصل : فشكى.

وقفت على عدة مكاتبات لأورخان إلى شرف الملك لم يخاطبه فيها إلا بخواجة طاش من غير تلقيب ولا مخاطبة ، وكانت تنطوى مضامنها اللوم والتوبيخ والتخطية والتخوين فيما هو بصدده من أمور الدولة وقضايا الملك . وكان يلاطفه، فلم ينزل عن حران وشماس[1]، ويداريه فلم يخلص منه رأساً برأس ولولا الإسماعيلية أراحوا شرف الملك منه ، كاد يقيم مقامه غيره .

---

(١) الحِران : العصيان ، وحرنت الدابة أى وقفت ولم تسكن للقيـــاد . والشموس : الامتناع والاباء .

٥٣

ذكر نكاح السلطان بنت طغرل بن أرسلان

وردت نساء من قِبَل بنت طغرل بن أرسلان ، والسلطان بتبريز ، يعلمن[١] السلطانَ فى رغبتها فى أن يملكها، وأنها تثبت بالشهود أنها مطلقة من زوجها الأتابك أزبك.فأجابها إلى ذلك مشروطاً بإثبات الطلاق ، فشهد لها قاضى ورزقان ، وهى كورة من كور تبريز ، وشخص آخر بأن زوجها المذكور علق طلاقها على أن لا يغدر بفلان وقد غدر به،وحكم الفقيه عز الدين القزوينى وهو القاضى يومئذ بتبريز، بوقوع الطلاق والبينونة[٢] . وسيرت الملكة برسم التتار أموالا جمة . وتزوج السلطان بها ، وسار بعد عقد النكاح من تبريز إلى خوى[٣] ودخل بها . وزاد لها على خوى مدينتى سلماس[٤] وأرمية [٥] بأعمالها .

وحدثنى الصدر ربيب الدين ، وزير الأتابك أزبك ، قال: كان الأتابك أزبك بقلعة النجة من أعمال نخجوان يسمع استيلاء السلطان على بلاده شيئاً فشيئاً ، فلم يزد على قوله : إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[٦] . إلى أن بلغه أمر النكاح . فسأل مخبره بذلك : أكان برضاً من الملكة أم على كره منها ؟ قال : برغبة منها صادقة ، وخِطْبة من صوبها متتابعة . وقد خلعت على شهود الطلاق . وأنعمت عليهم . قال : فوضع رأسه على المخدة ، وحم لوقته ، ومات بعد أيام .

(١) فى الأصل : تعلم . (٢) فى الأصل : البينونية .

(٣) راجع ص ١٩٥ حاشية ٨ .

(٤) سلماس : إحدى مدن أذربيجان ،وبينها وبين أرمية يومان أو بينها وبين تبريز ثلاثة أيام . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ١١٠ ، ولهذه المدينة أهميتها التجارية بوجه خاص . انظر القلقشندى . صبح الأعشى ،ج ٤ ص ٣٥٨ .

(٥) أرمية ، مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان ، وهى فيما يقال مدينة زرادشت نبى المجوس وبينها وبين تبريز ثلاثة أيام ، وبينها وبين إربل سبعة أيام . ياقوت : معجم البلدان، ج١ ص٢٠٣ وكان لهذه المدينة قلعة حصينة على أحد الجبال تسمى قلعة تلا ، ومما يذكر أن هولاكو كان قد وضع فيها أمواله لحصانتها . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٥٩ .

(٦) سورة الأعراف ، آية ١٢٨ .

٥٣

ذكر قضاء عز الدين القزوينى بتبريز وسببه وعزل قوام الدين الجدارى

كان السلطان لما قارب تخوم أذربيجان — وقد أسفر[١] صبح الفتح، ولاحت تباشير النجح — ورد عليه كمال الدين المتولى شغل الاستيفاء[٢] بالديوان الأتابكى رسولا مستعطفاً، وبالضراعة فى رده متلطفا[٣] على أن يقيم صاحبه رسمى الخطبة والسكة باسم السلطان، وأن يحمل إلى الخزانة السلطانية فى عاجل الحال صدراً من المال، فلم يصادف قوله أذناً واعية، وقلوباً لما يعيد من المحمول راعية.

وأردف المذكور بالفقيه عز الدين القزوينى، وكان فاضلا بارعا، بنى[٤] الطغرائى من ماله بتبريز مدرسة، وفوض إليه بتدريس عدة مدارس أخرى غيرها. فحين تحقق عز الدين أن السلطان لا بد له من أذربيجان، وأن تأثير القول فى هذا الباب، تأثير الرخا[٥] فى الصخرة الصما، اختلى بشرف الملك، واستوثق منه على أنه إذا ملك تبريز يوليه قضاءها. وكان القاضى بها يومئذ قوام الدين الحدارى ابن أخت الطغرائى توارثاً عن أسلافه، فلما ملك السلطان تبريز، واستمرت حال الطغرائى فى الجاه وقبول القول، علم القزوينى أن الذى وعد[٦] به من تفويض القضاء إليه لا يكون إلا بعد نكبة الطغرائى، فلم يزل يسرى عنه إلى شرف الملك،

---

(١) فى الأصل: أصفر.
(٢) انظر ما كتب عن وظيفة المستوفى فى ص ١٨٣ حاشية ٥.
(٣) فى الأصل: منطلقا.
(٤) فى الأصل: بنا.
(٥) الرخاء: الريح اللينة.
(٦) فى: الأصل أوعد.

بنميمة كقطار ديمة ، وبوقيعة(1) كسراب بقيعة ، حتى هاجه عليه كالحاقد ، وأراه فى عينه كالمعاند ، فنكب على ما ذكرناه ، وتقلد القزوينى القضاء .

وبلغنى أن المذكور دخل على الطغرائى وهو محبوس يظهر افتقاداً ، ويشمت اعتقادا ، فدخل بعض أصحابه بسجادته قبل دخوله وبسطها فى مجلس الطغرائى ، فمد الطغرائى يده ولفها ورماها إلى صف النعال ، ثم دخل القزوينى وجلس وعزاه بابن أخيه المقتول الرئيس ، فلم يتغير وجه الطغرائى ، ولم ينزعج لقتله ، إلى أن قال القزوينى : كان المرحوم المظلوم مطروحا بالعراء ، فكفنته ودفنته . فبكى الطغرائى حينئذ وقال : لم يصعب علىّ ما ذكرته أنه مقتول .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول(2)

لكن الذى ذكرته من تكفينك إياه عار عظيم ، وشين(3) على وجه البيت مقيم . وتمكن القزوينى من شرف الملك فيما لا يعنيه من رفع زيد ، وخفض عمرو ، ونصب عامل ، وجزم نايل ، إلى أن ورد قاضى دمشق على السلطان رسولا عن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب سقى(4) الله ثراهم صحبته القاضى مجد الدين رسول السلطان ، فلما فرغ من أداء رسالته وخرج(5) ، جلس فى مجلس الوزير ، ومحفله

(1) فى الأصل : وتوقيعه .
(2) البيت لكعب بن زهير .
(3) فى الاصل : شنن . (4) فى الأصل : سقا .
(5) بينما كان جلال الدين منكبرتى يوسع أملاكه ويوطد نفوذه فى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، وقع خلاف كبير بين ثلاثة من أمراء الدولة الأيوبية من أبناء الملك العادل أيوب وهم الكامل محمد صاحب مصر ، والمعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس وطبرية وما جاورها ، والأشرف موسى صاحب بلاد الجزيرة وخلاط وميافارقين . ولم يأل المعظم عيسى جهداً فى الكيد لأخويه بمهاجمة بعض أملاكهما تارة ، وبتأليب بعض الحكام عليهما تارة أخرى ؛ من ذلك أنه أرسل الى جلال الدين منكبرتى الذى تجاور أملاكه أملاك أخيه الأشرف يعرض عليه تكوين حلف منهما يكون هدفه الأول الاستيلاء على مدينة خلاط من=

غاص[1] بالأكابر ، قال له القاضي مجير الدين : اذكر لمولانا الوزير ما حدثك به عز الدين القزويني . فأبى[2] أن يذكر ، إلى أن حلف عليه بنعمة السلطان . فقال : إن القاضي عز الدين قال له موبخاً : ماذا رأى صاحبك ، يعني الملك المعظم ، في ميله إلى هؤلاء عن أخوته السلاطين ؟ وايم الله إن معاداة إخوته أنفع له وأعود عليه من مصافاة هذه الطائفة ، وسيندم على ما يفعل حين لا تنفعه الندامة . فغاظ شرف الملك ما سمعه وأحضر القزويني ، وقابل بينه وبين الناقل ، وخجل القزويني ، وبقي بفصاحته كباقل[3] . فقال شرف الملك لولا حرمة الشيخوخة[4] وفضيلة العلم ، لطيّرت رأسك بهذا السيف . قم عني يا خبيث مدحوراً[5] . فقام عز الدين خجلا .

فلست أدري أي السادات الثلاثة أجود ، وأيهم عن الخير أبعد ، المستشهد أو الشاهد ، أو المشهود عليه ؟ ولعمري إن عز الدين أنصف فيما قال وذكر ما يشهد به العيان ، ويسجل بصحته الامتحان ، غير أن اعتياد المخامرة قبيح ، وكفران النعمة لؤم صريح[6] . فعزل وولي القضاء مجير الدين بعد استنزاله بالمصادرة عن ماله ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

= أملاك الأشرف موسى . وقد صادفت هذه الفكرة قبولا حسنا لدى جلال الدين الذي وجد في ذلك الحلف فرصة لتوسيع نفوذه ، وتبودلت الهدايا بين الفريقين المتحالفين . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٣ — ٢١٤ و D'ohsson ; Op. cit., t. iii, p. 18.

(١) في الأصل : غاش .
(٢) في الأصل : فأبا .

(٣) نقلها هوداس عن النسخة الخطية « كالباقل » ثم صححها في الطبعة الفرنسية « كالثاقل » . والواقع أن صحتها « كباقل » . وقد قيل : « أعيا من باقل » . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن باقل هذا رجل من العرب كان قد اشترى ظبيا بأحد عشر درهما فقيل له : بكم اشتريته ؟ ففتح كفيه وفرق أصابعه وأخرج لسانه يشير بذلك إلى أحد عشر ، فانفلت الظبي ، وضربوا به المثل في العي.

(٤) في الأصل : الشيخوخية .
(٥) مدحوراً : مطروداً . وفي الأصل: مذحوراً.

(٦) في الأصل : لوم صريح.

٥٤

ذكر عود السلطان إلى بلد الكرج

وفتحه تفليس

ثم ركب السلطان بعد العيد لغزوة أخرى فى الكرج ، يبيض بها وجه الإيمان ، ويعفّر خدود عبدة الصلبان . فعند وصوله إلى نهر أرس ، مرضتُ مرضاً شديداً تعذرت معه الحركة ، وأذن لصاحبىْ سرمارى إذ ذاك فى العود إلى بلدهما ، فسيرت معهما ، وبرز الأمر إليهما أنهما لايفتحان[1] كتاباً يرد عليهما من ملوك الشام والروم والكرج إلا بحضورى ما دمت فيهم ، وأن لايحضر رسول من رسل هذه الجهات إلا وأنا حاضر ، وإلى ما يرد أو يصدر ناظر ، فأقمت بها سبعة أشهر لتعذر الوصول إلى المراكز السلطانية ، وقد دوخ أعماق أبخاز .

ولما وصل السلطان إلى شاطىء نهر أرس ، مسك لشلوه الكرجى كتباً[2] أرسلها إلى أمراء أبخاز يحذرهم برحيل السلطان صوبهم وينذرهم ، فأمر السلطان به فوسط[3] على شاطىء النهر ، وقاسى السلطان وعسكره من الثلوج فى ذلك الشتاء ببلد الكرج شدة عظيمة ، وكلح وجه الهواء بها كلوحاً أثر فى الحوافر ، فضلا عن الأطراف والمحاسر[4] . ولما وصل إلى مروج تفليس ، جرّ العساكر إليها ، متجردة عن أثقالها ، فوجدها حصينة منيعة ، قد بنى معظم سورها على الجبال والسقفان . فتهافت عوامها إلى مصرع البوار ، تهافت الفراش فى النار ، فاستجرّوهم إلى أن انفصلوا من

---

(١) فى الأصل : لايفتحا . (٢) فى الأصل : كتب .

(٣) وسط فلان الشى : جعله وسطا ، وقطعه نصفين .

(٤) المحاسر : الأعضاء المكشوفة كالوجه .

جدران المدينة ، وحملوا عليهم حملة كشفتهم عن رءوس بلاغلاصم (1) ، وايد بلامعاصم، وانزحموا في العود، وسبقهم إلى الباب غياث الدين وملكت المدينة بهذه الحملة ، وتحكمت السيوف في أهلها ، والأيدى الناهبة فى أموالها . وقتل من بها من الكرج والأرمن . وتحصن أجناد الكرج وأرتاروزتهم (2) بالقلعة . ومن صفة تفليس أنها بنيت على حافة نهر أرس بين جبال وأودية ، والنهر يشق بين المدينة والقلعة ، وهو نهر عظيم لايخاض ، وكان بينهما جسر من خشب فأحرق حين شوهد هول المقام ، وتسلط يد الانتقام، وتكاثف عليه الزحام . ثم عبر السلطان النهر فى نهار واحد إلى ناحية القلعة ، وكتب الله له ولعسكره بالسلامة فأحاط بالقلعة ، وأخذ الناس يعدون آلات الحصار وخرج أثناء ذلك رسول من بها من الكرج فى طلب الأمان ، فأجاب السلطان إلى ذلك ، إذ كان الشتاء قد هجم ، وتسلم القلعة بما فيها من ربد (3) الأحقاب ، أموال تكل عن ذكرها أنامل التحرير ، وتضيق عن إثباتها أدراج الأضابير (4) .

(1) الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق ، والجمع غلاصم .

(2) لعل المقصود بها الجنود المرتزقة ، فقد كانت جيوش جورجيا تضم قوى كبيرة من الجيوش المرتزقة من البلاد المحيطة بها . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٠٧ .

(3) فى الأصل : زبد . والربد : المحبوس القديم من الأشياء .

(4) فى الأصل . الأصابير .

ولعل من المناسب أن نذكر هنا أن جلال الدين قد نكل بسكان المدينة بأن أعمل الأسر فى الرجال والسبى فى النساء ، ولم يعف من القتل إلا من اعتنق الاسلام . وهكذا انتقم للمسلمين الذين عانوا ما عانوه من أهالى جورجيا فى السنوات التى سبقت عودته إلى فارس من بلاد الهند . ومن المهم أن نذكر أيضاً أن الخوارزميين استطاعوا بعد هذا النصر أن يضعوا أيديهم على هذه البلاد وأن يطبعوها بالطابع الاسلامى إلى حين . انظر .

Defremery : Fragments de Géographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits, pp. 486-487. (J.A., Nov. -Déc, 1849).

ذكر قصد السلطان كبسة براق الحاجب بكرمان ورجوعه عنها قبل وصوله إليها

لما فتح السلطان تفليس ، غارت غوارته[١] فى أقاصى أبخاز ، ومن قبل كانت الأخبار تصله من صوب العراق بفساد نيّة براق فى الطاعة ، وأنه أخذ يكاتب التاتار ويراسلهم مغرياً إياهم بالسلطان[٢] ، وانضاف إلى ذلك انقطاع مواد خدمته المعهودة ، وكان شرف الدين على بن الفضل التفرشى[٣] وزير السلطان بالعراق يطالع بأخباره يوماً بعد يوم ، فوردت[٤] الأخبار من صوبه والسلطان بأبخاز أن المذكور أبرز خيامه[٥] إلى بعض منفسحاته ، مغتراً ببعد السلطان ، فحملته همته التى كانت ترى الصعب ذلولا ، والبعيد الوعور سهولا ، أن يكبسه بكرمان . فاختار من جريدته[٦] ستة آلاف خفاف ، واستصحب أخاه غياث الدين موعوداً بأن كرمان يصفيها من المتغلب ويسلمها إليه إذ كانت ملكه ، فوثق فيها بغادر ، وعوّل فى تسليمها إلى فاجر وخلف حرمه وأثقاله بكيلكون مع رتوت الخانات وكبار الأمراء .

وكان شرف الملك حينئذ مقيما بتفليس مركوزا بها ، يبلى بقايا الكرج بالبلايا ، وغوارته تضرب يمنة ويسرة[٧] ، يزيدهم حسرة . وكنت بسرماري ،

(١) يقصد المؤلف الجيش المغير .

(٢) انظر أيضا ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٠٩ .

(٣) نسبة إلى تفرش ، وهى ناحية من نواحى قاشان .

(٤) فى الأصل : فورد .

(٥) فى الأصل : برز خيامه .

(٦) الجريدة : الفرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها ، ويقصد بها فى كثير من الأحيان سير السلطان على وجه السرعة دون أن يأخذ معه أثقالا أو حشداً . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٠٦ حاشية ٨ .

(٧) فى الأصل : يمنه ويسره .

على ماذكرته ، وأخبار السلطان منقطعة ، فبينما أنا جالس والهموم قد ملكت فكري ، والأحزان قد أخذت بجوامع سرى ، إذ دخل واحد من جاوشية[1] السلطان مبشراً بقدومه ، وقد تقدم بعمارة الجسر الممدود بسرماري على نهر أرس . فقمت إلى الجسر ، ووقفت حتى عمر ، وصاحباها واقفان ، وعبر السلطان فنزل بشرقيها ، فأنهى إليه أن ثلاثة من أسرى الكرج ومشاهير أمرائهم ، وكان السلطان قد أسرهم فسيرهم صحبة ملك الخواص تاج الدين قليج إلى تبريز حين وجهه إليها بكسر الكرج ، قد أحضرهم بعض نواب[2] شرف الملك إلى سرماري وقرر فداءهم عشرين ألف دينار ، وقد تملم أكثرها نائب شرف الملك قماشاً وعيناً ودواب[3] ، وحان أن يطلقهم ، فاستحضرني السلطان ، وأمر أن لا يمكن أحد من إطلاقهم ، وقال : لو كنت أرغب في بيع عدوي لجمعت من الكرج أموالا لا تأكلها النار ، ولا يكاد يفنيها الليل والنهار . ورحل إلى صوب كرمان ولم يتعرض إلى ما أحضروه من فدائهم ، وحملته إلى شرف الملك وهو بتفليس فسلط عليه جوده المبذر ، فلم يبت على خزانته منه شيء .

وقد كان السلطان استصحب خمسة آلاف فارس أخرى ، دون المتجردين معه صوب كرمان، ليغيروا على بلد خــــلاط ، وقدم عليهم بسرماري سنجقان خان ، فساقوا إلى بلد خلاط مما يلي سرماري ، وعادوا بعد ثلاثة أيام بغارات ضاقت بها الطرق . وساق بنفسه صوب كرمان ركضاً بادر أفواج الرياح ، وقسم[4] أوقات الإظلام والإصباح ، لم ينل فيه لذة طاعم ، ولا راحة نائم ، طوى فيه عرض البيد فوق قوائم ، توهمته منهن فوق

---

(١) كذا في الأصل ، وصحتها جاويشية .

(٢) في الأصل : بواب . (٣) في الأصل : دواباً .

(٤) في الأصل : أقسم . وقسم الأمر دبره وفكر فيه .

قوادم[1] . فتعب ولم يبلغ مقصوده من براق ، إذ كان المذكور محترزاً ، ولما علم بتحرزه وتحصنه رجع آيباً ، وعما طمحت إليه همته خائباً[2] .

---

(١) القوائم : السوق من الأرجل . والقوادم : الأجنحة .

(٢) يذكر ابن الأثير فى هذا المقام ، أن جلال الدين أرسل إلى صاحب كرمان رسولا « ومعه الخلع ليطمئن ويأتيه وهو غير محتاط ولا مستعد للامتناع منه ، فلما وصل الرسول علم أن ذلك مكيدة عليه لما يعرفه من عادته ، فأخذ ما يعز عليه وصعد إلى قلعة منيعة فتحصن بها ، وجعل من يثق إليه من أصحابه فى الحصون يمتنعون بها وأرسل إلى جلال الدين يقول : إنى العبد والمملوك ، ولما سمعت بمسيرك إلى هذه البلاد أخليتها لك لأنها بلادك ، ولو علمت أنك تبقى على لحضرت بابك ، ولكنى أخاف هذا جميعه » . فأرسل إليه جلال الدين الخلع وأقره على ولايته . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٠٩ .

٥٦

ذكر ما جرى للعساكر المذكورة فى بلاد الكرج فى غيبة السلطان

كان شرف الملك مقيما بتفليس ، على ما سبق شرحه ، فأرجف إلى الخانات بكيلكون أن شرف الملك حوصر بتفليس ، وقد أتاه الكرج فى غلبة قد تثلوا فيها كنائن الاحتشاد . فتشاوروا فى أمره ، وكشف بؤسه وإزالة ضرّه ، فأشار أكثرهم بالتغافل عنه ، والتشاغل إلى ما أنتم بصدد من حفظ الحرم والأثقال السلطانية ، ماخلا أورخان وحده قال : لو أسر الكرج وزير السلطان ومثل هذا العسكر بالقرب منه لبقيت على الدولة وصمة لاينسى وضرها ، ولا يرحض[1] عن وجهها قترها ، وتعود الأحدوثة التى حصلت بهذه الفتوح سمعة وهن ، وسبة منقصة ، وتبين هذا على عداوة مؤكدة كانت بينه وبين شرف الملك دون سائر الخانات ، غير أنه كان فى نفسه من الرجال الأجواد ، والأبطال الأفراد ، أرباب الحزم والسداد . فركب بنفسه وعسكره ، فلما رأوا جده[2] فى نصرة شرف الملك ، وصدقه فى الذبّ عنه والمحاماة دونه ، خرجت إليه منهم أفواج حتى صار فى خمسة آلاف فارس أو أكثر ، وسار بهم إلى تفليس ، وسرت فى صحبته ، وظهر أن الذى بلغه من حصار تفليس إرجاف ، ردفه خلاف ، وباطل ليس له حاصل . وقدم ملك الخواص تاج الدين قليج بعد يومين مبشراً بوصول السلطان إلى نخجوان عائداً من العراق ، فأعطاه شرف الملك أربعة آلاف دينار حق البشارة . ووصل السلطان عقيبه ، وتفرقت العساكر فى بلاد الكرج ناهبين كاسبين ، ورتب السلطان قرملك[3] وتاج الدين الحسين مقطع

---

(١) يرحض : يغسل ويمحى . (٢) فى الأصل : حده .

(٣) يحتمل أن يكون هذا الاسم «قراملك» أو «قره ملك» . وقرا أو قره لفظ منولى أو تركى معناه أسود أو نحس أو ردىء .

استراباذ ، ونصرة الدين محمد بن كبودجامه صاحب جرجان بتفليس ، وقصد بعساكره المتجردة عن البيوت والأثقال خلاط[1] ، فلما وصلها ثار عليه العوام ومن بها من العساكر الشامية ، فزحف عليهم زحفة انكشفت عن قتلى مضرجين[2] قد طرحوا ، وأسرى قد جرحوا . وتزاحم الناس إلى المدينة ، ودخل العسكر معهم ثم خرج . واختلفت الأقاويل فى سبب خروجهم ، فزعم الأتراك أن السلطان أمرهم بالرجوع كيلا ينهب ، وقد اعتقد أنها لاتعصى إلا يملكها مهما شاء . وأما أهل خلاط فقد زعموا أنهم أخرجوا قهراً ، والله أعلم[3] . وأقام السلطان عليها أربعين يوماً ورجع .

نعم ولما انفصل السلطان من الحرم والأثقال قاصداً خلاط ، رحل شرف الملك صوب كنجة مشتياً بها . وكان صاحب أرزن الروم قد نصر أحد ابنيه وأنكحه ملكة الكرج ، وحين ملك السلطان تفليس ، أحضر الصبي بين يديه فأمّنه وآواه ، ومهد له ذراه ، إلى أن نهض السلطان صوب خلاط فى هذه المرة ، استحوذ عليه الشيطان فارتد فى حافرة الكفر وعاد إلى الكرج ، وأخبرهم بقلة من فى تفليس وضعفهم ، فاغتنموا بعد السلطان وخفة أصحابه بها ، فساروا إليها بما احتشدوه من خيل ورَجْل[4] ، فأخلاها قرملك ومن معه من الأمراء ، جبناً عُرف المذكور بسمته ، وقصوراً شاع من همته ، فدخلها[5] الكرج وأحرقوها ، لعلمهم بأنهم يعجزون عن حفظها .

(١) كانت مدينة خلاط ملكا للأشرف موسى بن الملك العادل أيوب . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٣ .

(٢) فى الأصل : مصرجين .

(٣) يذكر ابن الأثير فى هذا المقام أن أهل خلاط لما وجدوا الخوارزميين يعملون النهب والسلب والقتل والسبي فى المدينة ، قاتلوا جلال الدين حتى أبعدوا عسكره عن المدينة . وكانوا «يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله » . كما ذكر ابن الأثير أيضاً أن جلال الدين اضطر إلى الرحيل عن المدينة نظراً لاشتداد البرد واضطراب حال بعض بلاد أذربيجان مما اضطره إلى الرحيل لإعادة توطيد نفوذه هناك . ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٤) الخيل : الفرسان . والرجل : المشاة . (٥) فى الأصل : فدخلوها .

وكان شرف الملك مقيما بكنجة ، تطير كتبه إلى السلطان وهو محاصر خلاط ، تعلمه باجتماع الكرج طالبين تفليس ، فرجع على أن يتدارك[1] الأمر[2] قبل تعذر تلافيه ، وفوات الفرصة فيه ، فلم يلحق ذلك . وقد كانت الأتراك الإيوانية قد أوغروا صدر السلطان بإخافتهم الطرق ، وأخذهم الغارات بما يتاخمهم من البلاد ، وكان فيهم كثرة ، وطال ماركبوا فى زهاء عشرة آلاف فارس . فحين انصرف عن خلاط ، سار إليهم فشن عليهم غارة لم تخل من نهاب نفوس ، واختطاف رءوس . وساق مواشيهم إلى موقان فكان الخمس منها ثلاثين ألفاً . ولما شفى[3] السلطان غيظه فيهم ، انفرد فى قرابة مائة فارس من خواصه إلى خوى لاجتماعه بالملكة صاحبتها ، فلما قاربها أعلم بأن بكلك السديدى ، وسنقرجا[4] الدويدار[5] ، وطائفة من المماليك الأتابكية نزول بمرج خوى فى أضعاف من كان مع السلطان ، فلم ير إذ ذاك للعود وجهاً ، فأقدم مبادراً ، وساق إليهم مخاطراً ، فلم يلبثوا[6] له ، وتبعهم السلطان وجدّ فى الطلب ، حتى ضيق منافسهم ، فوقفوا له وطلبوا الأمان فأمنهم ، وانخرطوا فى سلك الخدمة .

ولم يصل السلطان إلى كنجة إلا بعد فراغ الكرج من إحراق تفليس . ولما فارقه شرف الملك عند توجهه صوب خلاط فى هذه المرة ، قبض على القاضى مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمى ، وصادره على اثنى عشر ألف

---

(١) فى الأصل : انه يتدارك . (٢) فى الأصل : الأمراء .

(٣) فى الأصل : اشفى .

(٤) ورد هذا الاسم « سنقرجاه » فى موضع آخر سنشير إليه فيما بعد .

(٥) الدُّوَيْدار أو الدواتدار أو الدوَادَار أو الدَّوِدار ، اسم مركب من لفظين ، أحدهما عربى وهو الدواة ، والثانى دار ومعناه ممسك ، وصاحب وظيفة الدوادارية هو الذى يحمل دواة السلطان او الأمير ، ويتولى أمرها مع ما يلحق ذلك من المهمات نحو تبليغ الرسائل عن السلطان أو الأمير وإبلاغ عامة الأمور ، وتقديم البريد وغير ذلك . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٤١ حاشية ١ ، وانظر أيضا دائرة المعارف الإسلامية مادة Dawatdâr .

(٦) من اللبث وهو الإقامة .

دينار ، زعماً منه انه خان السلطان فى أداء رسالاته التى وجه فيها ، فبقى شهراً محبوساً إلى أن أدى ماذكرناه برسم الخزانة . وقد ذكر المذكور أن الذى أخذ منه بالرشا[1] والخدم[2] كان ضعف ماأخذ منه برسم الخزانة . ثم إن شرف الملك كره ملازمته خدمة السلطان بعد الإيحاش[3] لوجاهته ، ورفيع منزلته ، وسوابق خدمته ، فولاه قضاء تبريز ، وضعاً للشيء فى غير موضعه .

---

(١) فى الأصل : الرشى. والرشا : الرشوة.
(٢) فى الأصل : الخذم . أما الخدم ، فيقصد بها الهدايا .
(٣) فى الأصل : الانجاش .

٥٧

ذكر وصول شمس الدين رسول المغرب(١)
فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة

لما عاد السلطان إلى كنجة فى هذه المرة ، وصل رسول المغرب فتلقوه بالإكرام والاحترام ، ووظفت له إنزال وإقامات ، على ريب منهم فى أمره ، وشك فى صدقه ، إلى أن وصل رسول السلطان من الروم وأخبر بأن هذا الرسول قد قطع البحر إلى الروم وهو حاضر ، وتلقاه علاء الدين كيقباذ صاحب الروم بنفسه ، وضربت له خيمة النوبة ، وبولغ فى احترامه وإعظامه ، إلى أن علم أنه مبعوث إلى السلطان لا إليهم ، فنقص من الانزال، وأخل بمعهود الإجلال . فعند ذلك زال الشك فى أمره ، وصدق فى رسالته، واستحضره السلطان ، وكنت الترجمان بينهما ، ولست أرى فى إعادة ما أورده من الرسالة فائدة إلا الوحشة(٢). ومن مزيلات الشك ودوافع(٣) الشبهة فى صدق هذا الرسول أنه كان ذا همة عالية ، ومروة تامة ، لا تتشره نفسه إلى احتقاب واكتساب . وأقام بكنجة سنة أو أكثر إلى أن أذن له بالعود ، فكان مبلغ ما حمل إليه فى هذه المدة مايقارب عشرة آلاف دينار ، ففارق ولم يبق معه شىء منه ، بل كان استقرض من التجار جملة أخرى طائلة ، واشترى بها الثناء والحمد . واقترح على السلطان عند عوده الكوسات

(١) لعل الرسول المقصود فى هذا المقام هو رسول من قبل الخليفة العباسى فى بغداد كما يبدو من النص نفسه .

(٢) كانت العداوة على أشدها بين الخلافة العباسية فى بغداد وبين الخوارزميين منذ أيام علاء الدين تكش خوارزم شاه ، كما استفحل الخلاف فى عهد ابنه علاء الدين محمد وخاصة بعد أن وقف الخليفة العباسى الناصر موقفاً عدائياً من الخوارزميين قبيل الغزو المغولى وفى أثنائه . وكان طبيعيا أن يستفحل العداء بين جلال الدين منكبرتى وبين الخلافة العباسية فى بغداد .

(٣) فى الأصل : وروافع .

والأعلام، فأجابه إلى ملتمسه، وطلب أن يُكتب له توقيع بالجنة الزَّبَدانية[1] بدمشق، وعلم أنه كان ورثها عن أسلافه وقد غصبت منه وأخذت ظلماً. فأجابه السلطان إلى جميع ما سأل، وأصحبه بتقي الدين الحافظ رسولاً من جهته، إذ كان لا يرغب في التوجه إلى الجهة القاصية من له في الدولة قدر، أو في البلاد ذكر. فلما انفصلا، أرجف من جهة العراق أن شرذمة من التتار وصلت إلى العراق، فرأى السلطان أن يبادر إلى أصفهان، فساق حتى أناخ «بميانج»[2]، وهي من كور أذربيجان على حافة النهر الأبيض، واستعرض الجيش بفضائها. فبينا السلطان يعبر على الأطلاب مستعرضا إذ قدم رسول المغرب عائداً من مراغة، فقال لي السلطان: اسأله عن سبب عوده، فسألته فقال: لما بلغني أن العدو واصل، وأن السلطان يركب على نية الغزو، أحببت أن أفوز بفضيلة المجاهدين على القاعدين. فشكره السلطان على ذلك، وقال: هكذا فليكن أصحاب الخلفاء. وأمرني أن أسير معه وأوريه العسكر طلباً طلباً، ففعلت، ولما رجعنا إلى الخدمة قال السلطان: عسكر أمير المؤمنين أكثر أم عسكرنا؟ فقال: عسكر أمير المؤمنين أضعاف هذا العسكر، لما فيه من الجموع والرجالة، غير أن هؤلاء كلهم رجال الحروب.

ثم ورد الخبر بأن العسكر الذي وصل إلى العراق من جملة العساكر السلطانية الذين كانوا مركوزين بالهند، ومقدمهم بلكاخان. فعاد السلطان إلى مضاربه بأوجان[3]، وجهز رسول المغرب تجهيزاً ثانياً، فلما وصل الرسول إلى الموصل دخلت عليه طائفة ليلا فأخرجوه ولم يعد، وتحقق أنه حدر إلى بغداد ورجع بقماشه وخيله إلى السلطان وما تعرضوا إليها ولم يدر عاقبة أمره.

---

(١) في الأصل: الزبدانية. والزبداني: بساتين من ضواحي دمشق.

(٢) ميانج أوميانة: إحدى مدن أذربيجان بين مراغة وتبريز. ياقوت: معجم البلدان، ج ٨ ص ٢٢٠، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤ ص ٣٦٠.

(٣) أوجان: إحدى مدن أذربيجان.

٥٨

ذكر تمليك السلطان مدينتى بيلقان(١) وأردويل(٢) بأعمالهما شرف الملك
فى سنة أربع وعشرين وستمائة

لما توجه السلطان إلى العراق فى هذه السنة وجدهما(٣) من الخراب بحال لم ترج عمارتهما(٤) ، وما كان قد حصل بهما عليق خيله ، ورجعت الممتارة عنهما بأوعية خالية ، فملكهما شرف الملك ، علماً بأنهما ما دامتا فى جملة الخاص لاتزداد إلا خراباً ، ولم تلفيا(٥) إلا يباباً. فضرب عليهما فى تلك السنة سورين من آجر ، ترغيباً للرعية فى العود إليهما ، فعادتا إلى أحسن ما كانتا عليه قديماً من حال العمارة ، وأثمرتا(٦) أموالا يتضاءل(٧) مال كنجة وتبريز فى جنبهما(٨) قدراً .

وقد نزل السلطان بعد سنة أو أكثر فرفع شرف الملك على يدى إلى المواقف السلطانية رقعة مضمونها أن أقل المماليك يقبل الأرض ، وينهى لدى السرير الأعظم أنه يحمل إلى المطابخ والمخابز والاسطبلات من حاصل بيلقان ما يأتى شرحه : الغنم الحلال ألف رأس ، الحنطة ألف مكوك(٩) ، الشعير ألف مكوك . فوقف السلطان عليها ، وما زاد غير تبسّم .

---

(١) راجع صفحة ٢٠٥ حاشية ١ .

(٢) أردويل أو أرديل : إحدى مدن أذربيجان ، بينها وبين تبريز سبعة أيام . انظر ياقوت: معجم البلدان ، ج١ ص ١٨٣ ، وقيل إنها كثيرة الخصب وعلى فرسخين منها جبل عظيم الارتفاع ، وأهلهـا غليظو الطبع شرسوا الأخلاق ، انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٥٦ .

(٣) أى مدينتى بيلقان وأردويل .

(٤) فى الأصل : عمارتها .

(٥) فى الأصل : تلقيا .

(٦) فى الأصل : أثمر .

(٧) فى الأصل : يتضال .

(٨) فى الأصل : جنبها .

(٩) المكوك وجمعه مكاكيك : مكيال للحبوب يسع صاعا ونصفا ، والصاع قدر نصف ويبة ، والويبة ثلاث كيلات . وهذه المكاييل ليست ذات سعة واحدة فى أنحاء البلاد الاسلامية. انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤٠٩ حاشية ١ .

ذكر الملك خاموش بن الأتابك أزبك
ووصوله إلى خدمة السلطان

لم يخلف الأتابك أزبك ولداً إلا الملك خاموش ، وكان قد ولد أصم أبكم لا يفهم ولا يستفهم[1] منه إلا بالإشارات ، ولا كل أحد يقدر تفهيمه والاستفهام منه إلا شخص واحد قد ربّاه . وكان أبوه قد زوجه بصاحبة « رويين دز » [2] ، وهي من حفدة الأتابك علاى الدين كرابه صاحب مراغة ، فلما وصل السلطان إلى كنجة منصرفه من خلاط ، على ماسبق ذكره ، قدم الملك خاموش ، وقد سموه خاموشاً لأنه غير قادر على النطق ، وأحضر فى جملة تقادمه حياصة كيكاووس ملك الفرس قديماً ، وكانت تحوى عدة جواهر نفيسة لا تقوّم ، من جملتها قطعة بذخشانى ممسوح مصفح طولانى على قدر كف ، أفخر ما يكون من الجوهر وأبهاه ، وقد نقر فيها اسم كيكاووس وأسماء جماعة من الملوك بعده ، وأضاف السلطان إليها قطعاً أخرى نفايس مما كانت له وغيّر صناعتها ، وجعل الفص الكيكاووسى واسطتها . وكانت تشد فى الأعياد لا غير ، إلى أن كبسه التاتار بآمد فى شوال سنة ثمان وعشرين وستمائة[3] ، فظفروا بالحياصة وسائر الجواهر ، وحملت إلى الخاقان ابن جنكزخان ملك الترك [4] ، وأقام الملك خاموش

---

(١) فى الأصل : لأيفهم ويستفهم .

(٢) رويين دز : إحدى القلاع القريبة من مدينة أردويل .

(٣) انظر حوادث هزيمة جلال الدين منكبرتى عند مدينة آمد فى كتاب الكامل لابن الأثير ، ج ١٢ ص ٢٣١ .

(٤) هو أجتاى (أكتاى) بن جنكيزخان : ٦٢٤/٦٣٩هـ = ١٢٢٧/١٢٤١م .

فى خدمة السلطان مدة مديدة ، فلم يحظ بعناية إلى أن رثّت [1] حاله ، وأعول عياله [2] ، ففارق السلطان من غير إذن إلى علاء الدين صاحب الإسماعيلية [3] وساقه الموت إلى ألموت [4] ، فتوفى بها بعد شهر .

---

(١) رثت حاله : ساءت .

(٢) أعول عياله : افتقروا .

(٣) هو علاء الدين محمد الثالث بن حسن الثالث : ٦١٨/٦٥٣ هـ = ١٢٢١/١٢٥٥م .

(٤) أهم وأمنع حصون الاسماعيلية فى فارس .

انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٤ ، وراجع ما كتبه إدوارد براون E. Browne عن هذه القلعة فى كتابه: A Literary History of Persia, vol. ii, pp.203-204.

٦٠

ذكر رفع صدور العراق على شرف الدين على التفرشى وزير السلطان بالعراق

كان شرف الدين على بن الفضل من رؤساء تفرش ، وهى كورة من كور العراق ، خدم الدواوين [١] متنقلا [٢] من رتبة إلى أخرى أعلى منهاشأناً ، وأرفع مكاناً ، إلى أن ولى استيفاء [٣] العراق عند تمليك السلطان الكبير [٤] ، ولده غورشايجى إقليم العراق ، وقد تعصّب عليه ونكب فى أيام غياث الدين إلى أن طلعت رايات السلطان من الهند وصفا [٥] له ملك العراق بادر [٦] كفاه إلى الخدمة ، فاستوزره لجميع العراق محكما فى الرقاب والأموال ، منزلا حكمه منزلة الأحكام السلطانية ، فانبسطت يده وباعه ، وتموّجت بذخائر الأموال رباعه [٧] ، وأخذ يقلع صدور [٨] العراق ومن كان يتوهم من جهته مزاحمة على ماتحت يده ، ومنازعة لما هو بصدده . فنكب الصدور ، وأوغر الصدور . ولم يتول حكم العراق بأسرها وزير قبله بل كان لكل مدينة وزير يدبرها بمفردها [٩] ، فاتفق نظام الدين وزير أصفهان قديما ، وشهاب الدين عزيزان مستوفيها ، وقاضى أصفهان ركن الدين مسعود بن صاعد ، على الرفيعة [١٠] عليه ، والوقيعة به ، واسترواح الأرواح منه ،

(١) فى الأصل : الدوواين . (٢) فى الأصل : منتقلا .
(٣) راجع ماكتبناه عن وظيفة المستوفى فى صفحة ١٨٣ ، حاشية ٥ .
(٤) علاء الدين محمد خوارزم شاه .
(٥) فى الأصل : صفى . (٦) فى الأصل : بادرا .
(٧) الرباع، جمع ربع: الدار وما حولها. (٨) الصدور : رءوس القوم .
(٩) راجع ماكتبناه عن الوزارة عند الخوارزميين فى صفحة ٨١ ، حاشية ٣ .
(١٠) الرفيعة : القضية ، يريد الايقاع به .

وتفريغ الخواطر من جهته . وواطأهم شرف الملك على أن يساعدهم ليحطّه عما ناله من المنزلة المحسودة ، إذ كان قليل الاحتفال لم يتبعه فى جميع أغراضه وأهوائه [١] ، بخلاف سائر وزراء الأطراف . فأمر السلطان أن يعقد شرف الملك لهم مجلسا يسمع فيه رفايعهم [٢] ، بحضرة سائر أرباب المناصب بالديوان . وجلس السلطان ينظر إليهم من شباك يسمع مقالاتهم وهم لا يعلمون ، « يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون » [٣] .

فلما أحس شرف الدين بأن شرف الدولة مواطئهم على ما اتفقوا عليه من الرفيعة ، وحطه عن المنزلة الرفيعة ، أرضى [٤] السلطان بمائة ألف دينار يحملها إلى الخزانة ، على أنه لا يقبل قولهم فيه ، وعلى أن كلامهم يسمع فيما يرفع عليهم من المعاملات العتيقة . وكان السفير بينهما فى ذلك ملك الخواص تاج الدين قليج ، فرضى السلطان بذلك ، وأولئك [٥] لا يدرون . وقد كانوا من نصب تلك الحبـــالة قد ملئوا سروراً ، وما كان يعدهم الشيطان إلا غروراً .

وكنتُ قد حضرت المجلس أسمع رفايعهم ، فكان بين كلامهم وكلام شرف الدين فى التوجيه من البعد ما بين الثرى والثريا ، إذ كان شرف الدين فى الكفاية فريد عصره ووحيد دهره . فقام عن المجلس مستمراً على ما كان له من الجاه والحكم بعامة مدن العراق . وكاد شرف الملك يموت كمداً ، وسائر الصدور قد أقيموا بالتوكيل يطالب كل واحد منهم بعشرين ألف دينار ، وثلاثين ألفا [٦] . ولما عزم شرف الدين على العود إلى بيت

---

(١) فى الأصل: أهويته .

(٢) جمع رفيعة ، وهى القضية .

(٣) سورة الزخرف ، آية ٨٠ .

(٤) فى الأصل : أرضا .

(٥) فى الأصل: اولائك .

(٦) فى الأصل : ألف .

عليه ، لم ير أن يترك شرف الملك بغيظه ، فاستحلفه على الاعتناء به على أن يحمل إلى خزانته عشرين ألف دينار ، فحملها فى مدة سنة ، وما غيرت شيئا من قلة اعتنائه به ، وترصده الإيقاع به فى سائر أوقاته ، ولم يأل جهداً[1] فى قلعه من أصوله[2] ورده إلى خمر له . وكفاه الله ما كان ينويه إلى أن قتل بغيضه فيه .

---

(١) فى الأصل: جهراً .
(٢) فى الأصل : فى قلعه أصوله .

٦١

ذكر قتل الاسماعيلية أورخان بكنجة[١]

ولما كان السلطان بالهند ، قاصر اليدين عن مقابلة الخدمة بالإحسان ، يطيب قلب من ترضيه خدمته باللسان ، وعد لكل من معه من الأمراء بإقطاع إذا ملك العراق وخراسان . فلما تملكها وفى بما وعد ، فأقطع أورخان ما كان قد تبقى من أرماق خراسان . وكان نائبه يتعرض إلى ما يتاخمها من بلاد الإسماعيلية ، مثل تون[٢] وقاين[٣] وقهستان بالنهب والقتل ، فورد منهم شخص يلقب بالكمال ، وقد ناب عن صاحبهم زماناً ببلاده الشامية ، رسولا على السلطان بخوى يشكو نواب أورخان وتطاولهم إلى تخوم أرضهم ، فأمر شرف الملك أن يقابل بينه وبين أورخان فيقطع الشكوى . فلما سمع أورخان كلام الكمال ، وكان يتضمن نوعا من التهديد ، جذب من خفيه وحياصته وكرّاته عدة سكاكين ورماها بين يديه ، وقال: هذه سكاكيننا ، ولنا من السيوف ما هو أمضى منها وأحدّ ،

(١) كانت طائفة الاسماعيلية قد أخذت تتقرب إلى المغول منذ أيام جلال الدين حسن الثالث ابن محمد الثانى داعى دعاة الاسماعيلية فى فارس ، ٦٠٧/٦١٨ هـ = ١٢١٠ / ١٢٢١ م ، الذى راسل جنكيزخان بقصد التقرب إليه ، وحثه على مناهضة الدولة الخوارزمية بعد أن عجزت الخلافة عن مناهضتها . فلما اكتسح المغول الدولة الخوارزمية وعاد جلال الدين من بلاد الهند بعد عودة جنكيزخان إلى منغوليا ، وجد أن رجال الاسماعيلية قد أعملوا التخريب فى أراضى الدولة الخوارزمية ، وأكثر من ذلك فإنهم كانوا يتقربون إلى المغول خوفا على أنفسهم من ازدياد قوة جلال الدين منكبرتى . ولم يكن جلال الدين من القوة بحيث يستطيع أن يتوجه إلى حصون الاسماعيلية ، لذا كان العداء بين الطرفين محاطاً بالحذر من كلا الجانبين . انظر :
Vladimirtsov : Op. cit., pp. 131—132. & Bretschneider ; Op. cit., vol. i, p. 116.
وانظر أيضا كتابنا : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ٨٦ — ٨٧ .

(٢) قرأها هوداس Houdas خطأ عن النسخة الخطية «بون» ، وصحتها تون وهى مدينة فى نواحى قوهستان . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٢٥ .

(٣) قاين : بلد بين نيسابور وأصبهان . انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٢٠ .

واعلى يداً ، وليس لكم منهم شيء . وعاد الرسول بظلامة ما أنصفت ، وحاجة ما أسعفت .

فلما عاد السلطان إلى كنجة ، وثب بأورخان ثلاثة من الفدائية فقتلوه بظاهرها، ودخلوا المدينة والسكاكين بأيديهم ينادون بشعار علاء الدين(١)، إلى أن وصلوا إلى باب شرف الملك دخلوا دار الديوان فلم يجدوه بها ، وكان حينئذ بباب دار السلطنة بالقصر ، فجرحوا فرّاشاً له ، وخرجوا منادين بشعارهم ، مباهين بانتصارهم . فرجمتهم العوام من السطوح إلى أن رضّوهم وهم يقولون الى آخر النفس : نحن قرابين المولى علاء الدين(٢) .

وقد كان وصل بدر الدين أحمد رسول ألموت إلى بيلقان قاصداً باب السلطان ، فلما سمع بالحادثة تحيّر فى أمره فلا يدرى أيقدم أم يرجع. وورد كتابه على شرف الملك يستشيره فى أمره ، فاستسرّ بمقدمه لرعب داخله من طلب الفدائية داره ، وأراد تمهيد قاعد معه يؤمنه فى الأجل عن مثل ما تم على أورخان من القتلة الفظيعة ، والفتكة الشنيعة . فكتب إليه يحثه على إيراده ، ويمنيه قضى شغله على وفق المراد . وكان قصوى مرادهم ، إزالة التعرض عن بلادهم . وكانوا قد استولوا على دامغان(٣) فى زمن التاتار حين خلت عمن يحميها ، والسلطان مطالبهم بتسليمها ، فتقرر الأمر على

(١) فى الأصل : علاى الدين . والمقصود هنا علاء الدين محمد الثالث بن حسن الثالث ، داعى دعاة الاسماعيلية فى فارس : ٦١٨ / ٦٥٣ هـ = ١٢٢١ / ١٢٥٥ م .

(٢) كانت طبقة الفدائيين أهم طبقات المجتمع الاسماعيلى فى فارس ، إذا كانت الأداة التى يعتمد عليها دعاتهم فى القضاء على أعدائهم . وقد مهر الفدائيـون فى فن التخفى واستعمال السلاح وإتقان اللغات الأجنبية ، وكانوا يقتلون المسلمين أيام الجمع فى المساجد ، كما كانوا يقتلون المسيحيين فى الكنائس علنا . وكان داعى دعاة الاسماعيلية إذا أراد قتل أحد أعدائه ، أرسل إليه عادة ثلاثة من الفدائيين بحيث إذا فشل أحـدهم أدى الآخران المهمة على أكمل وجه .
أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ص ٥٢ ، طبعة R.H.O.C . وانظر أيضا :
Browne : A Lit. History of Persia, vol. ii, pp. 209-210.

(٣) دامغان : مدينة على الطريق بين الرى ونيسابور . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٦ .

استمرارها بأيديهم على أن تحمل إلى الخزانة السلطانية ثلاثون ألف دينار ، وكتب لهم بها توقيعاً[1] ، وركبوا صوب أذربيجان ، وبدر الدين أحمد رسول ألموت فى صحبة شرف الملك ، يحضر خاص مجلسه ، وعام سماطه ، وبسط شرف الملك له أسباب انبساطه . فلما وصلوا إلى مرج سراو[2] ، وقد حصـــل الاسترسال ، قال فى بعض مجالس الشرب ، وقد أخذت الكؤوس منه مأخذها ، إن لنا فى عسكركم هذا جماعة من الفـداثية ، وقد تمكنوا فصاروا كالواحد من غلمانكم ، فمنهم من خدم اصطبلك ، ومنهم من خدم عند مقدم جاويشية السلطان . فألح شرف الملك عليه أن يحضرهم ليبصرهم ، وأعطـاه منديله علامة للأمان لهم ، فأحضر المذكور خمسة من الفدائية ، فلما وقفوا بين يديه ، وكان الواحد هندياً وقحاً ، صار يقول لشرف الملك : كنت قد تمكنت منك يوم كذا وكذا فى منزل كذا ، إلا أنى كنت أنتظر ورود الأمر بإمضاء العزيمة فيك . فرمى شرف الملك حين سمع كلامه الفرجية من ظهره ، وقعد بين أيديهم بالقميص وقال : ماسبب ذلك ؟ وماذا يريد منى علاء الدين ؟ وما الذى صدر عنى من الذنب[3] والتقصير ليعطش إلى دمى وأنا مملوكه ، كما أنا مملوك السلطان ، وهأنذا[4] بين أيديكم فافعلوا ما شئتم . وبالغ حتى جاوز فى التذلل حد الاقتصار .

وبلغ السلطان ذلك فغضب له وأنكر عليه تذلله ، وسيّر إليه من خواصه

---

(١) فى الأصل : توقيم .

(٢) فى الأصل : سراة . ومما يجب الاشارة إليه فى هذا المقام ، أن هوداس قرأ اسم هذه المدينة مرة سراه ، ومرة أخرى سراة . وقد انتقل هذا الخطأ إلى الترجمة الفرنسية فقد كتبها مرة Sérâh ، ومرة أخرى Sérât . والحقيقة أن صحتها سراو ، وهى إحدى مدن أذربيجان بين أردبيل وتبريز ، وتقع على مسيرة ثلاثة أيام من الأولى . راجع ص ٦١ حاشية ٢ . وانظر الصفحات ٣٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ من الطبعة الفرنسية ، وانظر أيضا ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) فى الأصل : صدر عنى الذنب . (٤) فى الأصل : ها انا .

من ألزمه بإحراق الفدائية الخمسة على باب خيمته ، فاستعفى[1] عن ذلك فلم يعف ، فأمر على كره منه . فأوقدت على باب خيمتـه نار عظيمة ، ورمى أولئك الخمسة فيها ، فكانوا يحترقون[2] وهم يقولون : نحن قرابين المولى علاء الدين : إلى أن فارقت الأشباح الأرواح ، وصاروا رماداً تذروه الرياح . وقتل السلطان كمال الدين مقدم الجاويشية[3] بسبب استخدامه الفدائى ، إذ كان أولى من يقدم الاحتراز ، ويعمل بالاحتيـاط . ورحل من هناك صوب العراق ، وتخلف شرف الملك بأذربيجان وتخلفت[4] معه، فبينا نحن ببرذعة ، إذ ورد رسول من ألموت يلقب بصلاح الدين على شرف الملك يقول : إنك قد أحرقت خمسة من الفـدائية ، فإن أحببت سلامتك أدّ عن كل واحد منهم عشرة آلاف دينار دية . فهاله ما سمع وأكمده ، وأضعف عن كل شيء قلبه ويده . فخصّ هذا الرسول عن أمثاله بإنعام وافر ، وتشريف فاخر ، وأمرنى فكتبت لهم توقيعا ديوانيا بإسقاط عشرة آلاف دينار مستمرة فى كل سنة مما تقرر حملها إلى الخزانة السلطانية، وهى ثلاثون ألف دينار . وعلّم عليها شرف الملك علامته على التوقيع .

---

(١) فى الأصل : فاستعفى .
(٢) فى الأصل : يحترقوا .
(٣) فى الأصل : الجاوشية .
(٤) يتحدث محمد النسوى عن نفسه .

٦٢

ذكر مسير السلطان إلى العراق
فى سنة أربع وعشرين وستمائة[١]
والتقائه التاتار بظاهر أصفهان

لما وصل السلطان إلى سراو[٢] ، وجرى ما ذكرناه ، من إحراق الفدائية الخمسة سار صوب تبريز وأقام بها مدة استجماماً[٣] ، فورد الخبر من خراسان بأن التاتار على أهبة العبور ، فضم السلطان أذياله ، وجمع أطرافه ، ورأى البدار إلى أصفهان والتقاءهم بها أصوب ، ومن الاحتياط والحزم أقرب ، لما فيها من عدة وعديد ، ورجال يموجون فى بحار من حديد . فوصلها وجرد أربعة آلاف فارس صوب الرى ودامغان برسم اليزك ، إذ كانت الأخبار ترد من جهتهم يوما بعد يوم ، فهم يتأخرون والتاتار يتقدمون[٤] ، إلى أن عادوا إلى السلطان سالمين وأحضروا معهم من أعلم السلطان بما فى عسكر الملاعين من مردة العفاريت ، وعتاة الطواغيت[٥] ، مثل تاجن نوين ، وتاتاك نوين ، وباقو نوين ، أسن طغان نوين ، وياتماس نوين ، وباسور نوين وغيرهم من الملاعين[٦] .

---

(١) تكلم ابن الأثير عن هذه الحرب ضمن حوادث سنة ٦٢٥ هـ .

(٢) راجع صفحة ٦١ حاشية ٢ ، ص ٢٣٠ حاشية ٢ .

(٣) فى الأصل : استحماماً .

(٤) فى الأصل : يتقدم .

(٥) الطواغيت جمع طاغوت وهو الشيطان . قال تعالى : يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به . سورة النساء ، آية ٦٠ .

(٦) جاءت معظم هذه الأسماء فى الأصل الخطى دون نقط ، ولذا فإنها تحتمل عدة قراءات . وعلى كل فإن كتابة هذه الأسماء على هذا النحو تبدو فى جملتها مختلفة تماما عن أصلها المغولى . ولكن يجدر بنا أن تشيرهنا إلى أن « نوين » Noyan لفظ مغولى معناه أمير . انظر القلقشندى صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٢٥ ، وانظر أيضا Howorth : Op. cit., part iii, p. 88.

ونزل التاتار شرقی أصفهان على مسيرة يوم بقرية تسمى « السين »[١] . وكان المنجمون أشاروا على السلطان بمصابرتهم ثلاثة أيام والتقائهم فى الرابع، فلزم المكان يرتقب اليوم الموعود، والميقات المضروب . ومما يدل على قوة قلب السلطان فى الأمور القادحة ، وقلة مبالاته بالخطوب الكالحة ، أن جماعة الأمراء والخانات لما سمعوا بقرب العدو ، انزعجوا لذلك، وقصدوا بابه ، فجلسوا ساعة حتى أذن لهم بالدخول . فلما وقفوا بين يديه وهو واقف فى صحن الدار أخذ يتكلم زماناً فيما ليس يتعلق بالتاتار استحقارا بهم ، وإظهارا للجماعة بأن الأمر ليس بأمر ، وأن الحادث ليس بنكر ، تسكيناً لقلوبهم الخافقة ، وتقوية لنفوسهم الفارقة . وطاول فى أطراف المحادثة إلى أن أجلسهم وشاورهم فيما يقع عليه الاتفاق[٢] فى ترتيب المصاف، فكانت زبدة المشورة أنه استحلفهم على أن لا يهربوا ولا يختاروا الحياة على الموت . ثم حلف لهم بمثل ما حلفوا له تبرعاً منه من غير استدعاء ، على أنه يقاتل مستقتلا [٣] . وعين لهم يوم المصاف ، وأحضر قاضى أصفهان ورئيسها وأمرهم باستعراض الرجالة فى السلاح شاكين ، وفى غللهم[٤] المزاجة[٥] شاكرين . وعامة أصفهان لا تقاس بعامة سائر البلاد فى هذا الباب . إذ كانوا يبرزون إلى ظاهرها فى الأعياد والنياريز[٦] بقزاقندات من الأطلس مختلفة الأصباغ ، كأنها زهر الربيع ، أو وشى المِرط[٧] الصنيع يرى الرائى[٨] عليها كواكب نيرات ، أو مصاحف زينت

---

(١) سين : قرية بينها وبين أصفهان أربعة فراسخ . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٠٣ .

(٢) فى الأصل : الاتفاق .

(٣) فى الأصل : مستقلا . واستقتل : عرض نفسه للقتل واستمات فى الحرب .

(٤) فى الأصل : عللهم . (٥) لعلها المزججة .

(٦) يشير إلى عيد النوروز ، وهو عيد فارسى الأصل ، ومعناه اليوم الجديد . وقد احتفل به الأقباط والمسلمون فيما بعد ، ولا سيما الفاطميون فى مصر .

(٧) المرط : الملاءة . (٨) فى الأصل : المراى .

بعشر ايات . فلما رأى الملاعين أن السلطان أبطأ فى الخروج ، ظنوا أنه امتلأ رعباً ، وضعف قلبا ، وجنح إلى المطاولة عن المصاولة ، جرّد ألفى فارس إلى الجبال بلاد اللر[1] ليجمعوا من الغارات مايقوتهم[2] مدة الحصار. فدخلوا الجبال وتوسطوها واختار السلطان من عسكره زهاء ثلاثة آلاف فارس . فأخذوا عليهم المضايق ، وأرسلوا عليهم الصواعق والبوارق . وعادوا فأحضروا معهم زهاء أربعمائة أسير ، مابين مأمور وأمير . فسلم السلطان جماعة منهم إلى القاضى والرئيس كى يقتل فى شوارع المدينة تضرية[3] للعوام . وضرب رقاب الباقين بيده فى صحن الدار . فجروا إلى ظاهر المدينة وتركت جثثهم الخبيثة بالعراء ، تتجاذبها الكلاب جياعا ، وتتقاسمها النسور انتزاعا وابتلاعا .

وخرج السلطان فى اليوم الموعود للمصاف، فرتب الجيوش قلبا كمجتمع الليل ، وميمنة كمندفع السيل ، وميسرة مشحونة بأشاهب الخيل . وأشرقت الأرض من الوميض ، ولمعان السمر والبيض ، فلما تراءى[4] الجمعان ، خذله غياث الدين فى ذلك الوقت ، وفارقه بعسكره وطائفة من عسكر السلطان مقدمهم جهان بهلوان ايلجى ، مغتنما فرصة الانفلات عن اشتغال السلطان عن طلبه ، وتتبعه فى مهربه ، خاسرا فوز الدارين ، ومفتونا كلتا الجنتين ، لوحشه حدثت فى ذلك الوقت ، وسنذكرها وسببها فيما بعد . وتغافل السلطان عنه شغلا بالبازل[5] القرم[6] عن المثنى[7]. وبالعُقاب[8]

(١) راجع ص ١٩٠ حاشية ٢ .

(٢) قرأها هوداس Houdas فى الأصل الخطى « يقويهم » ، ثم عدلها فى الطبعة الفرنسية إلى « يقوتهم » . والواقع أن القراءة التى تتناسب مع المعنى هى لا هذا ولا ذاك وإنما هى « يقوتهم » كما ذكرنا ، والغرض جمع القوت مدة الحصار .

(٣) تضرية : إثارة للضراوة .

(٤) فى الأصل : تراى .

(٥) البازل : ما طلع نابه من الإبل .

(٦) القرم : البعير المكرم عند أهله لا يحمل عليه .

(٧) المثنى : البعير الذى سقطت ثنيتاه أى مقدم أسنانه كبرا .

(٨) العُقاب : طائر من الجوارح .

المنقض عن الكُركى(١) ، ووقف التاتار حذاء السلطان على رسمهم أطلابا متفرقة ومترادفة ، وأمر السلطان ، لما حاذاهم ، رجالة أصفهان بالعود ، اذ أعجبته كثرته، وبالعدو استحقارا واستضعافا ، وقد رأى عسكره بالنسبة إليهم أضعافا . وتباعد مابين الميمنة التى للسلطان وميسرته ، حتى لم تعرف الواحدة منهما ماحال أختها ، فغدت وحوش البر مأسورة وطيور الجو مقهورة . ولو أحست الأرض لرنّت(٢) من ثقل الحديد ، والمشى الوئيد . فالتقوا على حرب أشابت الذوائب ، وأثارت الكواكب . وحملت آخر النهار ميمنة السلطان على ميسرة التاتار ، حملة أخرجتها الى الفرار ، وحرمتها جانب القرار . وركبوا أكتافهم فقتلوا منهم أنى يثقفونهم (٣) وتبعوهم إلى تخوم قاشان ، وعندهم أن ميسرة السلطان فعلت بمن حذاءها مثل فعلهم . وكان السلطان لما رأى انهزامهم وقد جنحت(٤) الشمس للغروب، وكادالليل ينشر حوالك الجلابيب ، نزل على حافة جرف كان فى المعركة فأتاه ايلان توغو مشنعا ومعيّرا، وقال : قد تمنينا دهرا أن يرزق مثل هذا اليوم الأبيض فى هؤلاء الملاعين، نذهب فيه غيظ قلوبنا ، ونطفى حر صدورنا . فلما سمح الدهر بالمأمول ، وجاد الزمان باسعاف السول(٥) يخلى عطاش آمالنا عن الماء ويذاد عن مشربها العذب بلابها ظماء(٦). وفى هذه الليلة تقطع التاتار مسيرة يومين فنندم على فواتهم حين لا تغنى الندامة ، هلا نركب فنتبع آثارهم ، ونقطع أدبارهم ، فنسقيهم بما سقونا كؤوسا ، فنطيب(٧) نفوسا ؟

فركب السلطان للوقت . وكان التاتار لما شاهدوا السواد الأعظم ،

(١) الكركى : طائر غير جارح .
(٢) رنت : صوتت ، من الرنين .
(٣) يثقفونهم : يجدونهم .
(٤) فى الأصل : انهزامهم قد جنحت .
(٥) فى الأصل : السول . والسول ، أى السؤل وهو السؤال .
(٦) فى الأصل : يخلى عطاش آمالنا الماء ، ويذاد عن مشربها العذب بيلابلها ظماء .
(٧) فى الأصل : فتطيب .

والأمر الأفخم ، تجردت نجب شجعانهم بطاغية بهادريتهم للكمين وراء تل ، فلما عبر السلطان الجرف ، وقد توّجت الشمس قمة المغرب ، خرج الكمين من الميسرة كالنار تستعر ، لاتبقى ولاتذر ، فضربوا الميسرة على القلب ، فلم تكن إلا حملة واحـدة حتى زلت الأقدام عن مقارها ، وتهاوت الرقاب عن مزارها ، وجعلت تتساقط أشخاص الألوية والمطارد ، وتبرد النفوس عن ضرب السيوف البوارد ، وفارت [1] ينابيع الدماء ، فيض مجاديح الأنواء ، وثبت الخانات والأمراء أصحاب الميسرة وفاء بالإيمان حتى قتلوا ، فلم يسلم منهم إلا ثلاثة ، كوج تكين بهلوان ، والحاجب الخاص خان بردى ، وأودك أمير آخور . ووقف أخش ملك يقاتل إلى أن ترك من السهام كالقنفذ واستشهد ، واستشهد ألب خان ، وأرتق خان وكجبوقه خان ، ويولق خان ، ومنكلى بك طاين ، فلم يدر دائر [2] الحرب يومئـذ إلا على ليث أغلب ، أو جرف محجب . وماج الفريقان بعضهم فى بعض ضربا يزيل الزنود عن المرافق . والرءوس عن العواتق ، وطعنا يهتك ودائع الصـــدور ، ويرد مشارع الغموم والسرور . وأسر علاء الدولة أبا خان صاحب يزد ، وأخذه واحد من المرتدة فأعطاه صدرا من المال كان فى يده ، فأطلقه ووقع فى بئر بالليل فمات .

وقد علم الناس يومئذ مكان أورخان الذى قتله الإسماعيلية بكنجة من ميسرة السلطان إذ لم ير ماعاش لغيره من الخانات أثر مشكور ولامقام محمود ، وكانت الميسرة مذحياته منصورة . نعم ووقف السلطان فى القلب وقدتبدد نظامه وتفردت عن الحماة أعلامه . وأحاط العدو به من كل صوب ، فصار المَخْلَص من كثرة الأخلاط ، أضيق من سم الخياط . ولم يبق معه إلا أربعة عشر من خواص مماليكه . والتفت إذ ذاك وإذا بحامل الراية ، وهى

(١) فى الأصل : فازت .   (٢) فى الأصل : دابر .

سنجقة ، قد ولى منهزما ، فلحقه بطعنة أسلمته فيها إلى قدر (١) الأقدار ، وفتح لمن معه ولنفسه بحملة على التاتار ، أفرجت عن الطريق ، وخلصت من المضيق . ولما عاين اللعين بايثال ماقد جرى منه أعجبته بسالته فحرك المقرعة وراء ، وقال : سلمت حيث سقت ، فإنك رجل زمانك ، وكبش أقرانك . وحكى ذلك أمير من أمراء التاتار فارقهم إلى السلطان . ثم إن القلب والميسرة تفرقا فى الأقطار كسواد الأمثال ، فنهم من وقع إلى فارس ، ومنهم من طرحته الجفلة إلى كرمان ، ومنهم من احتد فى ركضه إلى أذربيجان ، ومنهم من أقعده عدم الدواب ، وتلف المراكب والأسباب ، فدخل أصفهان وعادت ميمنة السلطان بعد يومين من جهة قاشان معتقـدين أن الميسرة بأصفهان وأنهم والقلب فائزان (٢) أيضا . فلما علمت بصورة الحال جد الآخرون (٣) فى التفرق بتاتا ، والتسحب أشتاتا ، فلم يسمع بمثله مصافا عجيبا لانهزام كلا (٤) العسكرين وتفانى أمرائهما وركض الجفلة ببقاياهما إلى أخريات ديارهما ، وأقاصى أقطارهما .

وخفى خبر السلطان ثمانية أيام ، فلم يدر أحىٌّ فينتظر عوده ، أم لا فينتظر الامر بمن يقوم به بعده . وهمت عامة أصفهان بمد الأيدى الى عورات النساء الخوارزمية وأموالهن (٥) ، فاستمهلهم القاضى إلى العيد ريثما يتحقق حال السلطان . وكان المصاف فى الثانى والعشرين من رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة . وقد كان الأتابك يغان طايسى لم يخرج من أصفهان يوم المصاف لمرضه ، فاتفق القاضى ومن تخلف بها من أرباب الدولة على أنهم إن صلوا صلاة العيد ولم يظهر للسلطان خبر ، بجلسوه على السرير ، إذ كان فيه من أسباب الرياسة ، وأدوات السياسـة ما استمالت القلوب إليه ، وجمعت الأهواء عليه . فلما خرج الناس يوم العيد إلى المصلى ، وصل السلطان وحضر الصلاة ، فاعتدوا بعوده عيدا ، وظنوا بأنهم أنشئوا خلقاً جديداً . وأقام

(١) فى الأصل : قدار . (٢) فى الأصل : فايزين .
(٣) فى الأصل : جدوا الآخرين . (٤) فى الأصل : كلى .
(٥) فى الأصل : أموالهم .

بها عدة أيام إلى أن تراجعت فرق من عساكره المتفرقة، وجازى السلطان أمراء ميمنته بجزيل الرواتب والمراتب، ولقب يكت ملك بأوترخان، وتكشارق حاسى بخاص خان، وكتسنقر ملك بسنكرخان، وأبو بكر ملك بإينام خان. وسار بهم مشرقاً نحو الرى ليزيد التاتار نفوراً وتبعيداً. وجرد سراياه إلى أرض خراسان يزيد بذلك انتشار حيث القوة، وبعد سمعة القدرة. وهيهات أورداً وقد يصب الماء وشماً[1]. وقدأصبحت السماء وقيرة[2]، وقد سقط الجدار وشبزة، وقد ظهر الشوار.

إذا اجتمعت دموع فى خدود   تبين من بكى[3] ممن تباكى[4]

وأما الملاعين[5]، فقد عادوا من أصفهان خائفين، وأنهم مع انتصارهم فى آخر النهار قد نالت منهم السيوف مالم تنله من المسلمين، فنكصوا على أعقابهم مغلوبين «أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا[6]». فلم يخلص منهم إلى ماوراء جيحون إلا قليلا[7].

---

(١) الوشم: نزول المطر قطرات فلا يروى. وقد صححهاهوداس خطأ فى الطبعة الفرنسية «سما».

(٢) فى الأصل: وغيرة. والوقيرة: النقرة فى الصخر تمسك الماء. نبهت بها السماء، أى غير صافية.

(٣) فى الأصل: بكا.   (٤) فى الأصل: تباكا، والبيت للمتنبى.

(٥) فى الأصل: للاعين.   (٦) عن سورة الأحزاب، آية ٦١.

(٧) يجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن هذه الحملة المغولية لم تكن نتيجة تدبير أو تنظيم محكم، وليس أدل على ذلك مما ذكره الجوينى صاحب كتاب جهانكشا، أنه على الرغم من انتصار المغول على الخوارزميين فإنهم لم يفعلوا أكثر من الاقتراب من أبواب أصفهان، ثم عادوا مسرعين إلى بلاد ما وراء النهر بعد أن فقدوا الغالبية الكبرى من جيوشهم.

انظر D'ohsson : Op. cit., t. iii, p. 27.

٦٣

ذكر الوحشة بين السلطان وأخيه غياث الدين بيرشاه وما آل أمره بعد مفارقة السلطان

قد سبق ذكر نصرة الدين محمد بن الحسن[١] بن خرميل وانفصاله ببلاد الهند من قباجة إلى خدمة السلطان ، وكان والده من كبراء أمراء الغور وقد ملكوا هراة . ولما وهنت قواعد ملك بنى سام[٢] بالغور ، وقويت شوكة السلطان الكبير ، سبق إلى طاعته مبدياً[٣] إسفار راياته وإطلالها ببلاد شهاب الدين الغورى وولاياته . فرعى له حق هجرته وأقره على هراة إلى أن طارت نعرة[٤] الخلاف فى رأسه لأسباب يزحف ذكرها عن الغرض المقصود . فعصى بهراة ووجّه السلطان نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح ، وكولى خان شحنة[٥] خراسان ، ومؤيد الملك قوام الدين ملك كرمان ، وعز الدين جلدك مقطع الجام وباخرز[٦] من أعمال نيسابور ، إلى حصار هراة ، فحوصرت أحد[٧] عشر شهراً ، وقد خرج إليهم الحسن ابن خرميل بعد حصار ثلاثة أشهر بأمان من نظام الملك ، فغدر به كولى خان ، وكان شيخاً ظالماً سيء الأخـــلاق لئيم الطباع ، فقتله عناداً لنظام الملك .

---

(١) فى الأصل : الحسين ، وقد صححناه استناداً إلى ذكره باسم « الحسن » فى مواضع أخرى سابقة ولاحقة . راجع الكشاف .

(٢) حكمت هذه الأسرة فى هراة من سنة ٤٩٣ / ٦١٢ هـ (١٠٩٩ / ١٢١٥ م) .

(٣) فى الأصل : مبدا . (٤) فى الأصل : نفزة .

(٥) أى رئيس الشرطة . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٣٥ حاشية ١ .

(٦) راجع صفحة ١٨٠ الحاشيتين ٥ ، ٦ .

(٧) فى الأصل : احدى .

ولما راى الصاحب وزيره أنهم غدروا بصاحبه ، ركب عزيمة الرجال فى حفظ المدينة ، فحفظها ثمانية أشهر أخرى . واشتدالقتال،وفنيت الرجال، وتلفت[1] الأموال . فحين أعيت الحيل فى استصفائها،شكوا إلى السلطان صورة الحال ، ومايقاسونه من وخامة عاقبة الغدر ، وشر مغبة المكر . فأحس كولى بأن السلطان أضمر له مايورثه حزناً طويلا ، وأمرا وبيلا . ففارقهم هائما على وجهه ، وناجيا بحشاشة نفسه ، متخليا عما تحت يده من الحكم . والملك بنيسابور وحشم السلطان كلّفه[2] الركوب لأجله ، فخرج من خوارزم وبث عساكره فى مظان مهاربه لقبضه ، فاصطيد ، وأبيد على ماذكره ابن الأثير فى كتابه المسمى بالكامل .

وسار بعد فراغه من أمره إلى هراة ، إذ علم أن ليس لمرتاجها علاج غير هيبته التى تغنى عن الزحوف ، وتقوم مقام السيوف . فسار إليها ، وزحف عليها ، ودخلها فى اليوم الثالث من وصوله ، وقتل الصاحب بها أقبح قتلة[3] .

وكان نصرة الدين محمد بن الحسن بن خرميل تسحب إذ ذاك إلى بلاد الهند ، فأقام عند قباجة إلى أن جرى من إيقاع السلطان بقباجة ماذكرناه، انقطع إلى جنابه ، وبادر إلى خدمة بابه ، ولمّ ترابه . وكان ظريفا لبقا ، لطيف الفكاهة ، حسن المحاورة[4] ، سريع البداهة . فحظى عند السلطان ، وتمكن من قلبه ، فخصه بمنادمته والتملى به فى مجالس نشاطه،وولاه شحنكية[5] أصفهان حين ملكها ، وعيّن له بها إقطاعا جليلا . واتفق أن السلطان لما أقام

---

(١) فى الأصل : وترفت .

(٢) فى الأصل : كلفة. (٣) فى الأصل : مقتلة.

(٤) فى الأصل : المجاورة .

(٥) أى رياسة الشرطة بها ، ويسمى متوليها صاحب الشحنة . انظر المقريزى : السلوك . ج ١ قسم ١ ص ٣٥ حاشية ١ .

بأصفهان على نية التقاء التاتار بظاهرها ، فارقت جماعة من السرهنكية [1] الغياثية [2] باب صاحبهم لضيق حاله ، فآواهم ابن خرميل واستخدمهم ، فقال له غياث الدين فى بعض الليالى ، ولقد لعبت الشمول بالعقول ، ودارت عليه الكؤوس بالرءوس ، وهم فى مجلس السلطان « : هلا ترد غلمانى إلى باب دارى ؟ فأجابه نصرة الدين بجواب غير لائق ، وقال : الغلمان يخدمون من يطعمهم ولا يصبرون على الجوع ، ولم ندر ما هو قائل :

وقال السها [3] للشمس أنت خفية   وقال الدجى للصبح لونك حائل [4]

فغضب غياث الدين لما سمع ، وأخذ يكرر لفظه . فلما علم السلطان غيظه قال لنصرة الدين : قم يا حمدىُّ واخرج فإنك قد سكرت ، وتسمى النقابون بإصطلاح الغورية حمدية ، فخرج نصرة الدين وتبعه غياث الدين بعد هنيهة [5] ، فمضى إلى داره ، وهمّ بالدخول عليه ، فلم يفتح له الباب ، فنزل من السطح إليه وضربه بسكين فى الخاصرة ، فنقل بعد [6] أيام إلى الآخرة ، وحزن السلطان عليه أشد حزن ، وجزع لموته جزعاً خرق فيه الناموس ، وأظهر عليه من القلق والاكتئاب ما لم يظهر الوالد على ولده ، ولا الولد على افتقاد والده . وراسل غياث الدين مغاضباً ، وعلى ما صدر منه لائماً معاتباً ، وقال : إنك قد حلفت لى أن تكون صديقاً لصديقى ، وعدواً لعدوى ، وهذا المقتول أصدق أصدقائى ، وأحب أوليائى ، وكنت أنسى الهم عند لقائه ، وأرى [7] السرور فى بقائه ، وقد قتلته ظلما فأنت الناقض الناكث ، والحالف الحانث ، وما بقيت الآن لك فى ذمتى يمين .

---

(١) راجع صفحة ١١٧ حاشية ٥ .

(٢) أتباع غياث الدين بن علاء الدين محمد خوارزم شاه .

(٣) فى الأصل : السهى .

(٤) حائل أى غير ولمنح ، والبيت لأبى العلاء المعرى .

(٥) فى الأصل : هنيّة .

(٦) فى الأصل : وبعد .   (٧) فى الأصل: أورى .

وأنا مع ذلك لا أحكم فى القضية إلا بالشرع . فحاكم أخاه إلى القاضى فإن شاء اقتص وإن شاء عفا .

فاظلم بهذه الرسالة على غياث الدين ضوء النهار ، فاستخشن بعدها جانب القرار ، ثم أمر السلطان بأن يمضوا بجنازة المقتول على بابه كرّتين ، تشنيعاً عليه [1] ، فصار كالذى ارتكب حوباً [2] ، يصبح خائفاً ويمسى مذعورا ، إلى أن وقف السلطان حذاء التاتار بظاهر أصفهان ، اغتنم اشتغاله ، فنجا برأسه ولم ينج ، وكان مثله كما قد قيل :

فررت من معن [3] وإفلاســه إلى اليزيدى أبى واقـــد
فـكنت كالساعى إلى مِثْعبٍ [4] ووابل [5] من سَبَل [6] الراعد [7]

ومضى [غياث الدين] من هناك إلى خورستان ، وأرسل كريم الشرق وزيره إلى الديوان العزيز [8] معلما بمفارقته أخاه ومذكرا أيامه . وقد جاور الممالك الديوانية زمانا بالعراق فأحسن الجوار ، ولم يقصدها يوما بهتك حرمة ، أو إزالة حشمة ، إلى أن طلع أخوه من الهند فرفع الحجاب ، ورفض الآداب ، وشن الغارات عليها فقلبها بطناً لظهر . فلو أعين فى الوقت على استرجاع ماغُصِب عليه لوجد فى الخدمة أطوع من النعل اللابسة ، والطرف الذلول الفارسة . فأعيد رسوله بوعد جميل، وحظ من الإنعام جزيل . وأصحب بثلاثين ألف دينار إنعاما مستعجلا .

وتسحب [غياث الدين] من هناك إلى ألموت لما بلغه من عود التاتار

(١) فى الأصل : تشنّعا .
(٢) الحوب : الإثم .
(٣) هو معن بن أبى زائدة .
(٤) مثعب : ميزاب .
(٥) فى الأصل : موابلا .
(٦) السبل : المطر .
(٧) فى الأصل : الواعد . والراعد : ذو الرعد من السحاب .
(٨) أى ديوان الخلافة العباسية . وقد اتجه غياث الدين إلى الخلافة لما كان يعلمه من العداوة الكامنة بين العباسيين والخوارزميين .

وظهور السلطان ، رعباً لم ير معه أرضاً تمنع ، ولا عوناً يدفع ، ولا وازعاً يردع . وأقام بها إلى أن وصل السلطان إلى الرى مقتفيا آثار التاتار بعد الوقعة ، على ما سبق شرحه ، ففرّق إذ ذاك عساكره بتخوم ألموت من حدود الرى إلى أبخاز ، فصار غياث الدين كالمخنوق سدت عليه المنافس . ثم ورد رسول من علاء الدين صاحب ألموت على السلطان فى التماس الأمان لغياث الدين ليعود إلى الخدمة ، فأجاب السلطان إلى ما سأل من الأمان ، وأكدقوله بالإيمان ، وأصحب رسول ألموت بتاج الملك نجيب الدين يعقوب الخوارزمى مشرف المماليك[1] ، وجمال الدين فرج الطشت دار[2] رسولين ، يستردان غياث الدين إلى الخدمة ، وشكر علاء الدين على ما ضمن له من إصلاح ذات البين[3] . وقد كان قبل يخاطبه « بالجناب الشريف » فخاطبه إذ ذاك « بالمجلس الشريف »[4] ، تحريضاً[5] له على إتمام ما نوى إتمامه ، وإسراج ما تولى إلجامه . فحين وصلا إليه ندم غياث الدين على ما نواه من العود ، ورأى هيمانه على وجهه فى الأقطار طائحاً ، وفى

---

(١) كانت قصور الخوارزميين مليئة بالأعداد الكبيرة من المماليك الذين اشتروهم من أسواق النخاسة ، وكان أكثرهم من الأتراك الذين اشتهروا بجمال الخلقة . وكان يقوم بالإشراف عليهم رجل سمى بمشرف المماليك ، يتولى النظر فى كل ما يتعلق بهم ، فينظر فى مشاكلهم ويتولى الحكم فيهم . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢١ .

(٢) راجع صفحة ٦٨ حاشية ١ .

(٣) ذكر ابن الأثير فى هذا المقام رواية أخرى تختلف عن تلك التى ذكرها النسوى ، فقال إن جلال الدين منكبرتى ، لما علم بوجود أخيه لدى طائفة الإسماعيلية ، هددهم بغزو حصونهم إذا لم يسلموا أخاه إليه ، فرد عليه مقدم الاسماعيلية برسالة جاء فيها : « إن أخاك قد قصدنا ، وهو سلطان ابن سلطان ، ولا يجوز لنا أن نسلمه . ولكن نحن نتركه عندنا ، ولا نمكنه أن يقصد شيئا من بلادك ، ونسألك أن تشفعنا فيه ، والضمان علينا بما قلنا ، ومتى كان منه ما تكره فى بلادك ، فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار » . فأجابهم جلال الدين إلى شفاعتهم وعاد عن بلادهم . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

(٤) كان لقب « الجناب الشريف » أقل من لقب « المجلس الشريف » حسب نظام الرتب والألقاب فى ذلك الوقت .

(٥) فى الأصل : تحريصا .

الآفاق سائحاً ، أقرب إلى السلامة ، وأبعد عن الندامة ، فاقترح على علاء الدين صاحب ألموت إعانته بما يحمله ويحمل أثقاله من الخيل ، فأعانه بثلاثمائة رأس أو أربعمائة ، فخرج ، ووقعت عليه طائفة من العساكر المركوزة حول ألموت مقدم الطواشي جبه ، السلاح دار[1] ، فلحقوه ببعض حدود همـــذان ، وكادوا يمسكونه لولا أن جهان بهلوان إيلجى كان قد كمن من وراء خان[2] ، يقرضهم[3] ذات اليمين وذات الشمال ، فخرج من الكمين وردهم ، وأسر جماعة منهم ، ونجا غياث الدين إلى كرمان ، وبها الحاجب براق نائبه ، فسار إليه طمعاً فى وفائه . فأول قبيح عامله به أنه تزوج بوالدته على كره منه ومنها ، ثم إنه شنع عليهما بعد حين أنهما أرادا يسقياه سماً زعافاً ، ويشفيا الغيظ منه انتصافا ، فقتلها وقتل معها الوزير كريم الشرق ، وجهان بهلوان إيلجى ، وحبس غياث الدين ببعض القلاع .

واختلفت الأقاويل فى خاتمة أمره ، فقيل إن براقا قتله بعد حين ، وقيل إنه تخلص من الحبس إلى أصفهان ، وأن جماعة من نساء أهل القلعة رثين له فاتفقن على تخليصه ، فجمعن له الحبال وأدلينه من القلعة وقتل بأصفهان بأمر السلطان . وما أنا إلا شاك[4] فى الأمر ، متعجب منه ، فإنى قد وقفت على كتاب لبراق الحاجب إلى شرف الدين نائب العراق إلى السلطان ، والسلطان بتبريز ليقف عليه ، يذكر فيه سوابق خدمته ولواحقها ، فيعد فى جملتها أنه قتل أعدى عدو السلطان ، يريد به غياث الدين ، ثم يذكر فيه ماذا يضر السلطان لو قررنى وأنا شيخ كبير على ما تحت يدى . ثم وصلت إلى الرى فى سنة ست وعشرين وستمائة ، فبشرت بخلاصه إلى أصفهان ،

(١) راجع صفحة ٥٦ حاشية ٥ .

(٢) فى الأصل : وروا خان .

(٣) أى يوليهم . قال تعالى : وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه . سورة الكهف ، آية ١٧ .

(٤) فى الأصل : بشاك .

وقد ضربت البشائر بجميع بلاد العراق . ثم شنع بعد أيام أن صبياً تركمانيا كان تزيا بزيه ، وتسمى باسمه ، وجاء إلى أصفهان ، والوزير شرف الدين غائب ، فلم يعرفه الناس واعتقدوا أنه غياث الدين ، فخدموه إلى أن عاد الوزير وعلم أنه قد زور فأمر به فى الأسواق وضرب . وبقى من العجائب خفاء حاله على أهل أصفهان ، وقد كان سلطانهم وأقام بها ثلاث سنين ، والله أعلم بحقيقة الحال .

٦٤
ذكر الفدائية الذين سيرهم علاء الدين صاحب ألموت إلى السلطان إظهاراً للموالاة [١]

لما كان السلطان مقيما بالرى والعساكر مقتفية آثار التاتار صوب خراسان، ورد رسول من علاء الدين صاحب ألموت بتسعة من الفدائية ، تقربا إلى السلطان على أن يجهزهم إلى من شاء من أعدائه فيقتلونهم . ثم شاور السلطان فى أمرهم وجوه أصحابه وذوى الرأى ، فأشار أكثرهم بقبول ذلك ، وتعيين الأعداء لهم ، ماخلا شرف الدين نائب العراق فإنه قال : ما مراد علاء الدين من ذلك إلا استنباط نيّـة السلطان واستطلاعه على مكنون ضميره فيتقرب به حتى يطلع على ذلك إلى ما تعين له من الأعداء . فأعادهم السلطان إليه وقال: ليس يخفى عليك وعلى غيرك معاندنا ومعاهدنا ، ومخالفنا ومحالفنا ، فإن شئت أن تفعل ذلك فافعل ، ولا حاجة إلى التعيين . ونحن إن شاء الله ما نحوجك إلى هذه الكلفة وإن فى الصوارم الماضية ، والقشاعم[٢] الضارية لغنية عن السكاكين والفدائية .

وخرج غياث الدين عقيب عودهم من ألموت مزاح العلة بقدر الكفاية من الدواب والأسلحة . واستوحش السلطان من علاء الدين لتجهيزه إياه ورجوعه عما كان قد ضمن له من رده وأولاه ، واستمرت الوحشة إلى أن وجهنى إليه سنة ست وعشرين وستمائة فى معاتبات نذكرها ، ومخاطبات نشرحها فى موضعها ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) كانت طائفة الإسماعيلية فى ذلك الوقت قد فقدت سلطانها القديم فى أقاليم الشرق الإسلامى ، ولم يعد لها تلك الهيبة التى كانت تتمتع بها من قبل . ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة منها ازدياد شوكة جلال الدين منكبرتى واتساع نفوذه فى أقاليم العراق العجمى وفارس وأذربيجان وأران وغيرها ، مما جعله يحيط بأملاك الإسماعيلية جنوبى بحر قزوين . ومنها أيضا ما يرجع إلى زوال الخطر المغولى عن بلاد الشرق الإسلامى إلى حين مما ترتب عليه إطلاق جلال الدين لنفسه العنان فى هذه البلاد ، وضعف تلك العلاقة التى كانت أشبه ما تكون بالتحالف بين الإسماعيلية والمغول ، فلا عجب إذا ما حاول قادة الاسماعيلية أن يسلكوا فى هذه الفترة سياسة المسالمة مع الخوارزميين .

(٢) القشاعم : الأسود ، يعنى بها الشجعان .

٦٥

ذكر عزل صفى الدين محمد الطغرائى عن وزارة خراسان وإقامة تاج الدين محمد البلخى المستوفى مقامه بها

كان صفى الدين محمد الطغرائى ، من قرية كليجرد من رستاق تُرشيش[١] ابن رئيسها ، وكان أكبر أدواته حسن الخط ، فرفعته الاتفاقات الحسنة ، وساعدته المقادير بأنها ساقته إلى الهند مضطراً ، وحين شمل الغرق معظم أصحاب السلطان بماء السند ، على ما شرحناه ، سلم وانضم إلى شرف الملك ، وواظب على خدمته إلى أن ملك السلطان البلاد . ودانت له الممالك وعادت الأمور إلى قواعدها .

وكانت عنايات شرف الملك تشتمل حال المذكور فولاه الطغراء فتموّل المذكور وتجمل[٢] ، وأكثر الخدم والخول ، إلى أن استولى الكرج ثانيا على تفليس ، والسلطان بخلاط ، وقد شرحنا ذلك . فرجع ناقماً عليهم إحراقهم تفليس ، وولىّ الصفى وزارة شكى وقبلة من مدن شروان[٣] عند احتداد جمرتهم ، وضم إليهم قشقرا بملوك الأتابك أزبك والياً ومحامياً ، فملكاهما ، وأخذ الصفى يجبى الأموال إلى أن هم الكرج بطردهما ، فشل قشقرا عن الثبات ووجل ، وطاش للعود واستعجل ، وأقام الصفى لمحاصره الكرج أياما ، ورجعت لقرب السلطان خوفا من حفوفه إليهم فى ألوفه ،

(١) تُرشيش : ناحية من نواحى نيسابور . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

(٢) فى الأصل : تمحّل .

(٣) مما يذكر أن « أنوشروان » هو الذى بنى هذه المدينة ولذا سميت باسمه . انظر ياقوت معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٥٨ ، والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٦٤ . وانظر أيضا خريطة الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها .

واحترازاً من بأس يأتيهم بياتاً وهم نائمون ، فسلم الصفى وسلت الأموال التى جباها ، ووقعت خدمته موقعاً مرضياً ، ووافق عوده إلى الباب قتل الإسماعيلية أورخان مقطع خراسان بكنجة . فولى الصفى وزارة خراسان وأجريت فى جملة الخاص فأقام بها سنة أو أكثر . فثقلت على أهلها وطأته وساءت[1] فيهم سيرته[2] ، وخشنت فى السياسة أحكامه ، وفى القضايا نقضه وإبرامه . فاتفق إذ ذاك مضىّ السلطان إلى العراق لالتقاء التاتار ومقامه بالرى ، على ماشرحنا ، وترادفت متظلمة خراسان إلى بابه مستغيثين، واتفقت كلمة أكابرها ومشاهيرها وذوى الأقوال المقبولة من معارفها ومشايخها على تقبيح الصورة ، وتفضيح المساوى المستورة . فاستدعاه السلطان إلى الرى فقدم ، وقدّم من التقادم ما استكثر ، فلم تغن فتيلا[3] ، ولم[4] تفتح إلى الخلاص سبيلا ، وأمر بالقبض عليه ، فقبض وحملت أمواله وتحمّلاته إلى الخزانة ، ودوابه إلى الاسطبلات ، وكانت ثلاثمائة رأس ، وقبض على مماليكه وغلمانه ، ونجا غلامه علىّ الكرمانى إلى قلعة فيرابه ، وهى من أمهات قلاع خراسان ، فكان الصفى قد عمرها بالذخائر ، وبها دوره وحرمه فتحصن بها وحفظها .

واستوزر السلطان تاج الدين البلخى المستوفى بخراسان، وسلم إليه الصفى ليستصفى ماله ويتسلم القلعة . وكانت بين الصفى والمذكور ضغينة قديمة ، وإحنة فى الصدور مقيمة . فتتابعت كتبه إلى السلطان تتضمن أن الطغرائى لا يكاد يسلم القلعة ، وأنه يوصى غلامه سراً بعلامات كانت بينهما على المحافظة ، ويحذره تسليمها . ولم يزل يغريه به إلى أن تقدم اليه بإحضار الطغرائى تحت القلعة ، وإنذار أصحابه بقتله ، فإن أبوا إلا الاصرار يضرب عنقه . وقد كان الطغرائى أرضى[5] المتوكل يصدر من المال ودفعه إليه سراً

(١) فى الأصل : وسات .
(٢) فى الأصل : سريرته .
(٣) فى الأصل : قبيلا .
(٤) فى الأصل : فلم .
(٥) فى الأصل : أرضا .

ووعده المواساة والمساواة بما يسمح به الدهر من جاه ومال ، وانتظام أمر وسعة حال ، على أنه مهما أحس بالشر وعلم أنهم يريدون إهلاكه يخلصه ويصعد به إلى القلعة . فحين تحقق أنهم عزموا على إزهاق[1] نفسه وإيداعه فى رمسه ، فعل ذلك .

ولما أمن الطغرائى جانب البوار والخلاص عن مصرع الهلاك ، طفق يكاتب أرباب الدولة فى استعطاف السلطان وترقيق قلبه ، متنصلا مما عُزى[2] إليه من العسف. وكانت بينى وبينه صداقة مؤكدة، بالخلوص مؤبدة، فقمت فى أمره قيام من طب لمن أحب ، إلى أن أصلح الأمر واستتب[3]. وأخذت له خط السلطان بالأمان ، فورد الباب بادى الفقر ، ظاهر العسر فواسيته بما وصلت إليه القدرة من عين[4] وثياب ودوابّ وخيام ، مواساة الشركة ، إلى أن استقامت حاله ، وأمرعت[5] رحاله . وشددت وسطى ، وشمرت ذيلى فى طلب الثأر له ممن قصده فى نفسه ، ونازعه فى منصبه بأمسه حتى استوفيت ، واشتفيت ، فكاد يتولى أمر خراسان نائباً لولا الصاخة[6] العظمى من حادثة التاتار أتت ، فحالت بيننا وبين كل مراد .

ومما يستدل به على مخارقة أرباب تلك الدولة وجسارتهم فى أموال سلطانهم ، أن الطغرائى لما قبض عليه بالرى حضره حميد الدين الخازن[7] يوما وهو محبوس يقول له عن السلطان : إن كنت تريد أن أعفو عنك وأرضى عليك ، فابعث إلى ما جمعته من الجوهر ، واحمـــل إلى الخزانة

(١) فى الأصل : إرهاق . (٢) فى الأصل : متصلا مما عرى .

(٣) فى الأصل : استثب . (٤) عين : مال نقد ذهب أو فضة .

(٥) فى الأصل : أمرغت . وأمرعت ، بالعين المهملة ، أخصبت وسمنت .

(٦) الصاخة : الـكارثة .

(٧) الخازن أو الخازندار : هو الذى يشرف على ديوان المال : ويساعده موظفون مختصون يقومون بتسجيل الوارد والمنصرف من الأموال . انظر كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٨٣ — ٨٤ .

ما خبيته لشرف الملك من الذهب . فأحضره أربعة آلاف دينار كان أودعاه بعض التجار باسم شرف الملك ، وسبعين فصاً ما بين ياقوت وبلخشانى[1] وزمرد وفيروزج. وتسلّمها الخازن ولم يسلم شيئاً منها إلى الخزانة ، ظناً منه بأن الصفى لابد مقتول ، لعلمه بسخط السلطان عليه ، وأراد الله تأخير أجله فعاد إلى الأبواب السلطانية ، وفتش عن دفاتر كتاب الخزانة ، فلم يجد للفصوص والذهب فيها ذكراً ، ولا عندهم منها علماً . فراسل الحميد مهدداً واستقر الحال بينهما على أن يكتم الصفى جنايته ، ويأخذ منه كل شهر مائتى دينار معونة[2] له على إخراجاته ، إذ كان حينئذ خالى الوعاء، فارغ الأمعاء إلى أن وفى[3] له أربعة آلاف دينار . وأما الجوهر فقد تعذر بعد الابتلاع رده ، فنسى عهده .

---

(١) بلخشانى : نسبة إلى بلخشان ، وهو اسم أطلقه العامة على المكان الذى يوجد فيه معدن البلخش المقادم للياقوت ، ويوجد فى الجبال على هيئة عروق ، لكن الجيد منه قليل . وقد سبق ذكره فى مواضع أخرى بذخشيانى ، وهى تسمية صحيحة لهذا المعدن أيضا .

(٢) فى الأصل : ومعونة . (٣) فى الأصل : وفّا .

٦٦

ذكر تقليدى وزارة نساء

وما جرى بينى وبين ضياء الملك بسببها

كان ضياء الملك علاء الدين محمد بن مودود العارض النسوى من بيت الرياسة ، يقر له بالفضل[١] من لايوده ، ويعترف له بالسيادة من هو ضده . وقد رمته الداهية الدهيا ، والخطة الكبرى ، من حادثة التاتار ، واستيلائهم على الديار ، إلى غزنة . فأقام بها مسلوب الإرادة ، ينتظر صبح السعادة ، إلى أن عاد السلطان إليها ، على ماسبق ذكره ، فاستمر فى الخدمة وتولى ديوان الإنشاء والعرض ، واستناب فيهما من قبله نوّابا ، وتمكن حتى كان شرف الملك يتوهم من جهته مزاحمة له على صدر الوزارة . فلما وردت من نساء رسولا ، على ما ذكرته ، وتعذر العود ، جذبتنى[٢] جذبات العناية فارتقيت من حالة إلى أخرى ، إلى أن تقلدت كتابة الإنشاء[٣] ، وضاق الأمر على ضياء الملك فلم يختر المقام بالباب السلطانى ، فحرص على الاستطراف واستناب فى ديوان العرض المجد النيسابورى ، وتولى وزارة نساء على ضيق رقعتها ، وأقطع السلطان له بها إقطاعا بعشرة آلاف دينار مضافة إلى منافع الوزارة ومعايشها ، فسار إلى نساء وانبسطت أحكامه فيها لإلحاق السلطان أمره بأمره ، وفيما يتاخمها لكبر قدرة[٤] ، وحملته الشحناء[٥] على المبالغة فى أذية من له أدنى تعلق بى من قرابة أو صداقة أو خدمة . وانضاف إلى ذلك انقطاع الحمول الراتبة عن الخزانة

---

(١) فى الأصل : الفضل .

(٢) فى الأصل : حدثتنى .

(٣) راجع ما جاء عن ديوان الانشاء فى صفحة ٥٧ حاشية ٦ .

(٤) فى الأصل : بالكبر قدره .

(٥) فى الأصل : الشحا .

السلطانية ، فلم أزل أعالج الأمر ، مطمعا للسلطان فى تكثير أموالها ، وتثمير أعمالها ، إلى أن فوّض إلىّ وزارتها مشروطة بأن لا أفارق الباب ، بل أستنيب فيها من أثق به ، ففعلت ، وعاد ضياء الملك إلى الباب معزولا عن المنصب ، مغبونا فى الصفقتين . ولما وصل ، اتفق معه شرف الملك على الرفيعة[1] علىّ ، والوقيعة بى. فبذر ضياء الملك ما جمعه[2] بالخدم والبراطيل، وواطأته شرذمة من الخواص ، وحلف له شرف الملك على المساعدة ، فخلوت بالسلطان وعرفته أن الحاكم نوى أن يعدل ، لكن عن الحق . والآمر عزم على أن يثبت ، لكن ما حسدت عليه من الرزق . وأبيت أن أحاكمه إلا إلى السلطان ، فوعد بأن يسمع مقالتنا . ولما أراد شرف الملك أن يحاكم إليه استحضرنا السلطان ، وتحاكمنا إليه ، فكان العاقبة أن أخرج ضياء الملك مدحوراً[3] مطروداً ، فخرج وحمّ للوقت[4] ، وانتقل إلى جوار ربه ، ودار كرامته ، بعد أيام . اللهم أرض عنه وأرض عنا ، وتجاوز عنا فيما أخطأنا برحمتك .

---

(١) فى الأصل : الدقيعة .

(٢) فى الأصل : جامعه .

(٣) فى الأصل : مذحوراً .

(٤) فى الأصل : حم الوقت .

٦٧

ذكر بعث السلطان القاضى مجير الدين إلى بغداد في استخراج ما دفن بها من السحر

لما كان السلطان بالعراق ، وصل شخص خوارزمى هرب من التاتار ، وذكر له عن الصدر العلامة سراج الدين أبي يوسف يعقوب السكاكى — وهو من أفاضل خوارزم صاحب فنون بارعة ، وقدم لأعلام العلوم قارعة — وكانوا يعتقدون المذكور سحر بعض الكوكب فردّها عن مسراها ، ويسد المياه بنفثاته فى مجراها ، لما كان عندهم من كمال فضله ، وله فى سائر الفنون تصانيف يراها آيات البراعة ، ومعجزات الصناعة . وقد تمكن عند السلطان الكبير[1] لما قصد بغداد[2] كان قد عمل له تمثالا من السحر يدفنونه ببغداد فينال مراده منها . وكان السلطان الكبير قد سلمها إلى مجير الدين القاضى حين أرسله إلى بغداد فدفن التمثال فى الدار التى أنزل فيها ، وهو الآن يعتقد أن المقصود الذى قصد بذلك السحر وقع بالعكس ، فعادت مضرته إلى السلطان ومنفعته إلى الخليفة ، فإن كان المجير باقيا يسيروه[3] إلى بغداد ليحتال فى استخراج ذلك التمثال ، ثم فى إحراقه . وصدقه المجير فيما قال ، فوجه السلطان المجير إلى بغداد رسولا فى بعض

---

(١) علاء الدين محمد خوارزم شاه : ٥٩٦/٦١٧ هـ = ١١٩٩/١٢١٩ م .

(٢) كان علاء الدين محمد خوارزم شاه ، عندما اعتلى عرش الخوارزميين ، قد عول على أن يسير فى سياسته الخارجية وفق سياسة أبيه من قبل ، أى أن يحتل ما كان للسلاجقة من سلطان على الخلفاء العباسيين فى بغداد . فلما فشل فى الوصول إلى هدفه بالطرق السلمية ، عزم على غزو بغداد ، واتجه إليها بجيوشه سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) . انظر كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٣٥ — ٤٦ .

(٣) فى الأصل : يسيرونه .

الأشغال وأمره باستخراج التمثال . فلم يمكن من الوصول إلى تلك الدار التى نزل بها المرة الأولى ، واحتال بكل طريق فلم يقدر عليه . فلا أدرى من أيهم أتعجب ، من اعتقاد ذلك الفاضل ، أو فى اغترار هؤلاء بما ينفث عليهم ؟ فهل أمنت دولة من زوال ، أو دامت الدنيا على حال ؟ فكم من أمة تقطعت بهم الأسباب ، يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .

٦٨

ذكر الحوادث بأران وأذربيجان

لما رحل السلطان إلى العراق ، استصحب شرف الملك إلى أن وصل إلى تخوم همذان . ثم ترادفت الأخبار من صوب أذربيجان بأن المماليك الأتابكية — مثل ناصر الدين أقش المعروف بكوجك ، وسيف الدين بن سنقرجاه[1] الدويدار، وسيف الدين بكلك السديدى ، وأمة أخرى منهم — اجتمعوا على التظافر ، واتفقوا على التساعد والتوازر ، وخيموا بظاهر تبريز ، يريدون تحريف الكلمة وتبديل الأمور المنتظمة ، ناوين[2] إحياء دولة نبذتها نواحيها، ومحت آثارها روايحها [3]وغواديها. وكانوا قدعزموا على أن يخرجوا ولد الملك خاموش بن الأتابك أزبك بقلعةقوطور معوقاً فيجعلوه ملواحاً لهم يدعون إليه ويجتمعون للفتنة عليه ، انتهـازاً لحاضر الفرصة واغتناما لخلو العرصة . فأعاد السلطان شرف الملك إلى أذربيجان ذاباً ومحامياً ومناضلا دونها ومرامياً ، فاستعفى من ذلك إلى أن أذن له أن يتصرف فى أران وأذربيجان خاصها ومقطعها تصرف الملاك ، يعطى من يشاء ويحرم من يشاء إن كانت الحاجة تدعو إلى ذلك ، وإلا فتبقى الأموال مضبوطة بمجموعة برسم الخزانة .

فلما وصل إلى مراغة ، بلغه أن الأتابكية[4] بظاهر تبريز نازلون ، وقد

---

(١) قرأ هوداس Houdas هذا الاسم فى موضع آخر « سنقرجا » انظر صفحة ٢١٨ . ولعل هذا خطأ فى النسخة الخطية لم يتنبه إليه هوداس ، ولـكن الغريب أنه لم يتنبه إلى هذا الخطأ فى الترجمة الفرنسية أيضا ، إذ كتب هذا الاسم مرة Sonqord a ، ومرة أخرى Sonqordjâh . انظر الصفحتين ١٢٦ ، ١٥١ من الأصل العربى لطبعة هوداس ، وانظر أيضا الصفحتين ٢١٠ ، ٢٥١ من الترجمة الفرنسية . ويبدو أن صحة الاسم هو «سنقرجاه» إذ ورد على هذا النحو فى الصفحات التالية .

(٢) فى الأصل: ناوين.

(٣) فى الأصل : وروايحها .

(٤) فى الأصل : الأتاتكية.

انضوى[1] إليهم من طلاب الفتنة حشد كثير ، فانتشر جرادهم ، وكثر عيثهم وفسادهم ، وأن غوارتهم تضرب يميناً وشمالا . فجرد شرف الملك عسكره للقائهم ، وقدم على العسكر حاجبه الكبير مملوكه ناصر الدين قشتمر فالتقوا بين « دهخوارقان »[2] وتبريز على حرب تحطمت فيها الصفاح، وتقصدت[3] الرماح . ثم شاعت الهزيمة فى الآتابكية ، فولوا على أدبارهم نفوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً . وأسر أقش وبكلك وسنقرجاه ، وسائر رءوس الغوغاء[4] ، فسيقوا على الاقتاب إلى الباب . فلما أقيموا بين يدى شرف الملك وبخهم ، وذكر إحسانه إليهم .

ومن جملته أنه خلع على بكلك بكنجة من خزانته ، خلعة قوّمت حياصتها المرصعة بأربعة آلاف دينار . ثم رحل إلى تبريز وجلس ثانى يوم وصوله إليها فى الإيوان الذى بناه السلطان بميدان تبريز ، وبنى[5] خلفه دوراً وقصوراً ، إذ كان لايختار أن يسكن داخل المدينة ، واستحضر القاضى والمشايخ والأعيان ، ثم أمر بإحضار أقش وبكلك ، فأحضرا يحجلان[6] فى قيدهما ، فأقيما بين يديه . ثم قال مخاطباً القاضى : ماقولكم فيمن يخرج على مثل هذا السلطان فى مثل هذا الوقت ، وهو الجنة الواقية[7] ، والسد الحائل بين المسلمين وبين التاتار ؟ فقرأ القاضى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً » ، الآية[8]. فأمر بنصب جذعين فى الميدان فصلبا أحسن ما كانا من غُصنىْ بان ، ورضيعى لبان ، وقرين طلعا من الجنوب ، وخسفا بالذنوب .

---

(١) فى الأصل : انصوى .

(٢) ناحية من نواحى مدينة مراغة. (٣) تقصدت : صارت قِصَداً ، أى تكسرت .

(٤) فى الأصل : الغوغا . (٥) فى الأصل : وبنا .

(٦) فى الأصل : يخجلان . (٧) فى الأصل : الوافية .

(٨) إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . سورة المائدة ، آية ٣٣ .

وصفت أران وأذربيجان عن يمد إلى الفتنة تليلا[1] ، ويضل فى الطاعة سبيلا ، وقبض شرف الملك على القاضى المعزول قوام الدين الحدادى ابن أخت الطغرائى . فصادره على عشرة آلاف دينار . وكان المتولى للقضاء يومئذ اتهمه بالمماليك الأتابكية إفكاً بيّناً ، وكذباً صراحاً . وأما سنقرجاه الدويدار ، فعفا عنه وقرّبه وقدمه ، وحقنت شفاعة حسنه دمه .

---

(١) التليل : العنق .

٦٩

ذكر حال الملكة بنت طغرل وعاقبة أمرها

كان السلطان لما ملّكها مدينتى سلماس وأرمية بأعمالها[١] مضافين إلى خوى ، ندب[٢] شرف الملك الباخرزى[٣] لوزارته نيابة عنه ، وتقدّم باستخراج عشر بلادها محمولا إلى خزانته شهراً بشهر أسوة بكافة[٤] نوابه بسائر الإقطاعات ، وأراد المذكور التحكم عليها والتمكن منها بحيث لا تتصرف إلا بتصريفه ، وأن تطيعه فى جملة تكاليفه ، فكان إذا منعته بعض ذلك يكاتب شرف الملك بما يوغر صدره عليها ، إلى ان انطوى لها على داء دفين وغيظ فى القلب كين .

فلما رحل السلطان صوب العراق ، وجد ما كان يرتقبه من الفرصة فى استئصالها ، فأخذ يكاتب السلطان بأن بنت طغرل كانت محرضة[٥] للأتابكية ، مطمعة لهم فى الملك . ثم راسلها من تبريز رسالة من يريد التنفير لا النجاح ، ويقصد التحذير لا الإصلاح ، ليصدر منها عند نفرتها ما يفضى إلى استئصال شأفتها ، ويزيد فى توحشها ومخافتها . وعقيب هذه الرسالة ، رحل صوب خوى ، وقد فارقتها إلى قلعة « طلا » ، ومن صفتها أنها قلعة على شاطىء بحيرة أذربيجان ، بنيت على أعلى سقيف ، يحيط الماء بها إلا من صوب

(١) فى الأصل : بأعمالها . راجع صفحة ٢٠٧ الحاشيتين ٤ ، ٥ .
(٢) فى الأصل : وندب .
(٣) نسبة إلى باخرز . راجع ص ١٨٠ حاشية ٦ .
(٤) فى الأصل : كافة . (٥) فى الأصل : محرصة .

واحد . وحين وصل شرف الملك إلى خوى نزل بدارها ، واستخرج من دفائنها وخزائنها أموالا ينوء بها الظهور ، وقد نضدتها السنون والشهور . فحوت[1] من نفائس الجوهر ، وعتيق الثياب الفاخرة[2] ، ما لم ير مثله ، ونقل[3] أقمار جواريها وتصرّف فيهن تصرف مالكي الرقاب ، وأخذ يستعد أسباب الحصار زيادة فى تنفيرها . ثم ورد عليه السيد الشريف صدر الدين العلوى برسالة عنها تتضمن الاستعطاف والعود إلى ما هو أقرب إلى التقوى، وأحمد فى البدء[4] والعقبى ، فلم تزده رسالته إلا إصراراً وعتواً ، واستكباراً وعلواً . غير أنه أكرم صدر الدين إكراماً يقتضيه فضله ، ويستدعيه نسبه وأصله . وتكررت مراجعتها بعد يأسها من عاطفته وانقطاع رجائها من رأفته أن يخلى لها الطريق لتتوجه إلى السلطان ليرى فيها رأيه ، فأبى[5] شرف الملك جميع ذلك وقال : لا بد لها من النزول على حكمى . ثم أردف ذلك بأنه سيّر تاج الدين صاحب ابن الحسن — وكان المذكور من أشرار دركجين[6] ، وحالهم فى الشر ما سارت به الركبان — رسولا إليها منفّراً ، فحين فارقها ونزل من القلعة ساق جسار خيلها[7] إلى شرف الملك ، علاوة على جذب[8] ، وسبباً جمع إلى سبب . فعلمت إذ ذاك أن الضراعة غير ناجعة ، والشفاعة ليست بنافعة ، فكاتبت[9] الحاجب علياً نائب الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بخلاط تستدعيه ، لتنفس من خناقها ، ويسعدها على استطلاقها ، على أن تسلم إليه ما تملكه من القلاع والبقاع .

---

(١) فى الأصل : فحوى .

(٢) فى الأصل : وعتق الثياب الفخر .

(٣) فى الأصل : ونقلت .

(٤) فى الأصل : فى البدو .

(٥) فى الأصل : فأبا .

(٦) دركجين : إحدى القرى بجوار مدينة همذان . انظر ياقوت : معجم البلدان، ج ٤ ص ٥٠٤ .

(٧) خيل مجسرة : أى مرعية . والجاسر : الشجاع، وجمعه جسّار . وفى الأصل: جشّار

(٨) الجذب : الشحمة تكون فى رأس النخلة يكشط عنها الليف فتؤكل .

(٩) فى الأصل : كاتبت .

وكان شرف الملك مقيما بمرج سلماس يستعد لحصارها ، غير مفكر فى معاداة معاند ، ولا يبالى بمضادة[1] معاد، معتقداً خلو الجو من كل وازع، وصفاء الملك من كل منازع . فورد عليه الخبر بقرب الحاجب علىّ ووصوله إلى سكاناباذ فيمن اضطمّت عليه خلاط ونواحيها من العساكر الشامية ، والاحتفال لشرف الملك بما تدعو إليه الحاجة فى ملاقاة العدو . وقد كان أذن لجماعة من المقاطع فى التفرق إلى إقطاعاتهم ، فرحل للوقت صوب تبريز وولى ، وأهمل أذربيجان وأخلى ، ووصل الحاجب علىّ إلى قلعة «طلا» فاستصبحها[2] ، وتسلم طلا ورجع .

---

(١) فى الأصل : بمضاددة .
(٢) أى وصلها فى الصباح .

٧٠

ذكر عماد الدين الرسول الواصل من الروم

لما كان شرف الملك مقيما بظاهر خوى ، ورد عليه شخص يلقب بعماد الدين رسولا بكتاب من وزير علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو[١]. وكانت رسالته تقتصر على إظهار الموالاة ، وتمهيد قواعد المصافاة . وقد ذكر أن السلطان إن كان شرّق للغزاة ، فإن صاحبه أيضاً قد غرّب للغزاة . وقد فتح عدة قلاع كانت لكباش الكفر فى هذه السنة ، وأن طوائف[٢] حولك بمرصادٍ للفتنة ، تحدثهم أنفسهم فى هذا الوقت بكواذب الظنون ، وجوالب المنون . وأراد بذلك ماعزم عليه الحاجب علىّ من قصد أذربيجان بإغراء الملك إياه ، وهانحن بالقرب منك ، فإن ناديت ناديت مجيباً ، وإن دعوت دعوت قريبا، ولافرق بين الدولتين، فإن نبض [إلى] الزحام نابض، ونهض إلى الحسام ناهض ، أنجدناك بمن يُغمد[٣] سيفه ، بل يرغم أنفه ، ونعجل عليه حتفه . فأكرمه شرف الملك أتم الإكرام ، وقابل مقدمه بالإعظام . ثم شاور فيما يعتمد عليه من جوابه ، فأجمع من حوله ، والدركجينى يومئذ مالك عنانه ، على أن يلتمس صدراً من المال ، إذ عنده من الرجال من لو ارتجى عونهم[٤] ، حصل الغناء بهم عن غيرهم .

فحين زيّنوا له هذا الرأى ، وتحققت أن ليس له عما نواه محيد ، وأن رده عما زين له بعيد ، قلت له : إن كان لابد من هذا الاقتراح فأقرنه بتواضع وخضوع ، ولطّفه باستكانة وخشوع ، وإن لترقيق اللفظ وتلطيف العبارة لتأثيراً فى تنجّز الحاجة . ومثل الملوك مثل الجبال إن لاينتها

---

(١) أحد سلاطين السلاجقة الروم : ٦١٦ / ٦٣٤ هـ (١٢١٩ / ١٢٣٦ م) .
انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٣ ، Lane-Poole : Op. cit., p. 155.

(٢) فى الأصل : طوايفا . (٣) فى الأصل : يغمّد .

(٤) فى الأصل : من لو ارتجت عللهم .

بالخطاب لايتك[1] صداها بالجواب . فقبل ذلك وفعل ، وبالغ فى التواضع حرصاً على المال . وقال فى جملة ماقال : ليس يخفى عليكم أن مفرق الجموع، ومستجلب الدموع ، من خادثة التاتار كيف فرّقت ماجمعتها القرون من خزائن السلاطين ، وإن هذا السلطان قد خرج بعد موت والده لايملك غير سيفه ، فإن عاملتموه فى هذا الوقت بما يقتضيه علم المروّة لايخفى عنده أثره، ويخلد على وجه الدهر خبره ، وطوّل وتذلل حتى ندمتُ على ماقلتُه من التواضع . ثم خلع على الرسول خلعة على قدر همّته التى كانت تجارى[2] السماك سموا ، والسماء رفعة وعلواً بالطوق والسخت[3] والسرفسار[4] ، وأعطاه ألف دينار ، فوقعت هذه الرسالة عند السلطان علاء الدين موقعاً حسناً ، فوجه إليه تحفاً وألطافاً أصنافاً ، للسلطان أولا وله ثانياً ، فلم تصل للموانع التى يأتى شرحها فى موضعها إلا بعد حصار خلاط .

---

(١) فى الأصل : لا يتلك .

(٢) فى الأصل : تجارى .

(٣) فى الأصل : السحت .

(٤) راجع صفحة ٧٧ حاشية ٦ .

٧١

ذكر فتح شرف الملك أذربيجان وأران والسلطان بالعراق

كان شرف الملك لما تخلّف عن السلطان وأقام بأذربيجان، صرف همته إلى افتتاح القلاع العاصية، فاستمال قلوب من بدزمار[1] من المقدمين والأجناد، بالوعد بما استعجل إنفاذه إليهم من النقد، إلى أن أجابوه إلى تسليمها، فسـار إليها وأفاض عليهم يوم تسليمها من الخِلع والذهب والمواهب ما لم يف به ملك لملك، ولا أمير لأمير[2]. وقبض على ناصر الدين محمد — وكان موسوماً فى الدولة الأتابكية بالحجبة الكبيرة، وقد اعتزل إذ ذاك ببعض بلاد نصرة الدين محمد بن بيشتكين مظهراً نسكا، ومسراً ملكا — وصادره على مال جليل. وألزمه تسليم قلعة كهرام وكان[3] الوالى بها من قبله فتسلمها. ثم نعى إليه سيف الدين قشقرا الأتابكى، وكان والياً بكنجة من قبل السلطان، فنهض إليها وتسلم من نائبه شمس الدين كرشاسف قلعتى هزل وجاريزد[4] من أعمال أران، وكان المذكور يدل عليه بخدمته أيام صاحبه فيعدها الأيام شدته ذخراً، وبين أكفائه وقرنائه[5] فخراً، فوضع عليه المعاصير حتى هُرِت من ذى[6] يديه. واستخرج صليب العظام من بين جنبيه ثم لاطف مستحفظ قلعة درادز[7] حتى سلمها إليه. ورتب

---

(١) دزمار: قلعة بالقرب من تبريز. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج ٤ ص ٥٨.

(٢) فى الأصل: ولا ضمير أمير. (٣) فى الأصل: كان.

(٤) لم يرد اسم كل من هاتين القلعتين فى النسخة الخطية منقوطا، لذا تحتمل قراءتهما هرل، جازيرد.

(٥) فى الأصل: وقرمائه.

(٦) فى الأصل: هرب من دى يديه. وهرته بالرمح أى طعنه.

(٧) يحتمل قراءتها دزادز، إذ لم ترد منقوطة فى النسخة الخطية.

طائفة من الخيالة والرجالة على روين دز (١) فطال حصارها . ثم رغبت صاحبتها زوجة الملك خاموش فى مناكحته ، لتسلمها إليه بعد الزفاف ، وحصول الائتلاف ، فأجابها إلى ذلك . وكان الخاطبون يترددون بينهما ، إذ عاد السلطان من العراق قبل إتمام ماهمّا به ، وعزما عليه . فرغب السلطان فى خطبتها لنفسه ، فانتقض عليه ذلك التدبير وبطل الحصار .

وسيّر السلطان بعد زواجها خادمة الخاص سعد الدين الدويدار إلى القلعة والياً عليها ، بعد أن زفت عليه باستدعاء من قدمائها ، وكانت القلعة تشتمل على ألوف من الدور سكانها القدماء ورثوها عن آبائهم (٢) ، فهمّ الخادم بإخلائها وتنظيفها ، إذ لا يملك بها حلاً ولا عقداً . واستعجل فيما دعته همته إليه ، وأساء التدبير فيما عزم عليه ، وعادت إلى ما كانت من رتاجها (٣) ، وعسر علاجها .

وقد كان شرف الملك حاصر قلعة « شاهق » بطائفة من عسكره ، ومن صفتها أنها فى جزيرة وسط بحيرة أذربيجان بنيت على قبة كأنها قبة معمولة ، فوقها شقيف دائر ، والماء محيط بها من جميع جوانبها ، وحولها قرى قليلة يحصل منها مايحتاج إليه من الذخيرة . فلما عاد السلطان وخطب على خطبة شرف الملك ، استعاد أصحابها المحاصرين (٤) لها حرداً (٥) ، وبقيت على عصيانها .

---

(١) روين دز : مكان حصين بالقرب من تبريز .

(٢) يبدو من هذا النص أن الحروب المستمرة التى سادت عصر الخوارزميين كان لها أثرها فى تشييدهم للقلاع داخل المدن ليلجأ إليها السكان المدنيون والعسكريون إذا ما هدد المدينة خطر خارجى ، ولذلك لم يقتصر الأهالى على تشييد الثكنات العسكرية فيها ، بل امتلأت هذه القلاع بالمنازل التى أعدت خصيصا لإيواء الأهالى إذا ما دعا الداعى ، وكان غالبية السكان من أثرياء المدينة وقرائها يملكون المنازل فى هذه القلاع .

(٣) الرتاج : الباب العظيم المغلق ، والمراد أنها ممتنعة محصنة .

(٤) فى الأصل : لمحاصرين .

(٥) نقلها هوداس عن النسخة الخطية حرداً ، ثم عدلها فى الطبعة الفرنسية جرداً ، والقراءة الأولى هى الصحيحة . أما الحرد فهو الغضب .

٧٢

ذكر قتل شرف الملك تجار الإسماعيلية بأذربيجان والسلطان بالعراق

كان السلطان كاتب شرف الملك من أصفهان يعلمه أن رسولا من التاتار توجه إلى الشام صحبة تجار للإسماعيلية وقد عبروا على بغداد ، فعليك أن توصد عن كل قافلة قافلة [١] من صوب الشام ، أو عائدة من جهة الروم للإسماعيلية . فإذا ظفرت برسول التاتار ، احبسه عندك وأعلمنا به لنرى فيه رأينا . فكان غرض السلطان من ذلك تركيب الحجة على الملوك ومعاتبة الديوان العزيز فى مراسلتهم [٢] .

وقد ورد فى هذا المثال تاج الدين علىّ بن القاضى جاندار [٣] ، وكان من جملة الخواص [٤] ، فأخذ شرف الملك يفتش عن القوافل ، ووكل بالطرق من يحفظها إلى أن وصلت قافلة للإسماعيلية من صوب الشام فيها

---

(١) المقصود بكلمة « قافلة » الأولى جماعة المسافرين ، وأما الثانية فالمقصود بها عائدة .

(٢) نستطيع أن ندرك مما ذكره النسوى فى هذا المقام كيف أن سياسة جلال الدين منكبرتى فى الفترة التى عاد فيها إلى أقاليم الدولة الخوارزمية ، لم تؤد إلى أكثر من اكتساب عداء جيرانه أجمعين ، إذ خشيت الخلافة على هيبتها وكيانها فعادت إلى سياستها القديمة ، وبدأت تكاتب المغول وتحثهم على إعادة غزو الدولة الخوارزمية ، كما نستطيع أن ندرك أيضا كيف أن طائفة الاسماعيلية ، وقد حل بها الضعف من كل جانب ، أخذت تعاون المغول فى تحقيق مآربهم فى البلاد الاسلامية . ومن المحتمل أيضا أن يكون هدف رسول المغول فى البلاد الشامية هو الاتصال بالصليبيين هناك لتأليف حلف ضد المسلمين .

(٣) جاندار : نسبة إلى الجاندارية ، وهى فئة من مماليك السلطان أو الأمير . والكلمة مكونة من مقطعين فارسيين أحدهما جان ومعناه سلاح والثانى دار ومعناه ممسك . أما الجدار فوظف آخر مهمته إلباس السلطان أو الأمير ثيابه وأصله « جاما دار » ، ويتكون من مقطعين فارسيين « جاما » ومعناه الثوب ، ودار ومعنـاه ممسك . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٣٣ حاشية ١ .

(٤) الخاصكية : فئة من مماليك السلطان .

نيف وسبعون رجلا ، جهّز إليهم شرف الملك من قتلهم صبراً ، غير مبال بما وراء ذلك من توجّه اللوم ، وثوران القوم ، طالما[1] سامحهم بالمال والجاه ، حتى أمن عاديتهم ، وسلم من شرّهم . وسيقت الأحمال على الجمال بالذى وقرت إلى خزانته ، فسلّط عليها جوده العزيزى ، وسخاه الطبيعى ، فأتلفها تبذيراً ، ولم يذخر من الكثير إلا يسيراً .

فلما عاد السلطان إلى أذربيجان ، ورد أسدالدين مودود من علاء الدين ملك الإسماعيلية رسولا على ما صدر من شرف الملك معاتباً ، وبما احتجن من الأموال مطالباً . فأمر السلطان برد ما أخذ من القتلى ، وأنكر عليه فعله ، ونعى إليه عقله . ونص بالتماس الرسول على طوطق بن أيناج خان ، وهو الحاجب الخاص وإليه شحنكية الديوان[2] ، أن يكون ملازماً له متقاضياً ، إلى أن يردّ ما أخذ من الأموال . وأما ماسفك من الدماء فالعذر فيها عذر العجماء ، فصار المذكور كالموكل به يحسن العبارة إلى أن أدى منها ثلاثين ألف دينار ، وأعاد عشرة أفراس عربية ، وهدرت بقية الأموال كالدماء حين ورد الخبر بأن غياث الدين انفصل عن ألموت ، على ماشرحناه .

فانظر إلى بعد حالتى هذا الوزير ، تذلله للفدائية بعد حادثة أورخان ، وقعوده بين أيديهم مهيناً ، وتسليمه نفسه مستكيناً[3] ، وإسقاطه لهم عشرة آلاف دينار عن الاتاوة المقررة فى كل سنة فداء عن نفسه ، ثم إقدامه على قتل خمسة وسبعين نفساً منهم حرصاً على المال . فسبحان من جعل الفكر هادياً ومضلاً ، وقسم العقل مكثراً ومقلاً .

---

(١) فى الأصل : ظالما .

(٢) أى رئيس الشرطة .

(٣) فى الأصل : مستكتبا .

٧٣

ذكر كبسة الحاجب على الأشرفى ، شرف الملك بحورش[(١)] فى سنة أربع وعشرين وستمائة ، وامتداد شرف الملك إلى أران بعد انتقاضه من أثقاله وتشتت رجاله ، وما جرى له بأران إلى أن عاد فاستوفى عليه الثأر وزاد

ولما رجع الحاجب إلى خلاط واستصحب الملكة بنت طغرل ، على ماسبق شرحه ، انزعج لذلك شرف الملك ، فسار نحو أران ، إذ هى مثار الأموال ومحتشد التركمان . فأقام بموقان وفرق عمـــاله فى قبائلهم لجباية الحقوق ، فكان الذى سار إلى خيل قجب أرسلان شخص يعرف بالسراج الخوارزمى ، فاستصحب أوباشاً وأخذ يكلّفهم أن يذبحوا للضيافة مايقارب كل يوم ثلاثين رأساً . وانضافت إليها تكاليف أخرى لم يطيقوها ، فضجوا لها وضجروا ، وقالوا له : ارجع أنت إلى صاحبك ونحن نحمل ما يجب علينا من الحقوق إلى الخزانة ولا حاجة إلى جبـايتك . فرجع المذكور وبالغ فى الشكوى حتى هاجه عليهم ، فركب من موقان وعبر نهر أرس فى المراكب . وكانت أيام زيادته وكبس حلة التركمان ، وساق مواشيهم إلى بيلقان ، وكانت زهاء ثلاثين ألف رأس ، وأتبعهم نساء التركمان . وكنت أعتقد أنه إذا وصل إلى بيلقــان يردها عليهم على مال معلوم غرامة عن خيانتهم . فلما وصل إليهـا ، فرّقها على أصحابه واستبق لخاصته منها أربعة آلاف رأس ضانية يتبعها خرفانها . وكلما كان السلطان نزل بظاهر بيلقان فى عبوره مشرّقاً أو مغرباً يكتب على يدى رقعـــة إلى السلطان بغـّلات وأغنام برسم الضيافة ، فيذكر فيها من الغنم الحلال كذا رأساً ، وهو يدرى معرفتى بأصل ذلك الغنم .

---

(١) حورش : قرية من قرى أرمينية .

ثم إنه عاد إلى موقان وقد تواصلت حمول الجهات ، فأزاح علل العسكر وجمع التركمان ، وراسل شروانشاه يطالبه بحمل الأتاوة [1] المقررة عليه للسلطان ليحملها إليه ، وهى خمسون ألف دينار . فتوقف فى قضاء أربه ، ولم يسعف بطلبه ، ظناً منه بأنه إذا قبضها وسلّط عليها يد الإملاق ، على جارى عادته فى التبذير والإسراف ، لم يحسب له . وقد أخطأ فى ذلك ، إذ كان الذى أتلفته أيدى إنفاقه، وفرقته [2] خطرات بذله وإطلاقه ، أعظم من ذلك قدراً . فغضب شرف الملك لتوقفه فى ذلك ، ورحل إلى حافة نهر كير [3] ، وجرّد زهاء أربعة آلاف فارس ليغيروا على بلاده ، فلم يظفروا بطائل ، وعادوا من غير حاصل ، إذ كان شروانشاه قد جفل [4] بلده ، ورحل شرف الملك صوب أذربيجان .

وكانت الملكة بنت الأتابك بهلوان صاحبة نخجوان قد ربّت مملوكا له اسمه ايطغمش حتى نشأ وكبر واتخذته ولداً ، ففارقها إذ ذاك إلى شرف الملك وطفق يعاديها بعد انسلاله عن قماط يتمه ، كالفحل السوء ينزو على أمه . ولم يزل يطمع شرف الملك فى نخجوان وأعمالها ، ويزيّن له انتزاعها من يدها وتسليمها إليه على مال معجّل ، وآخر فى كل سنة مؤجّل ، إلى أن انجرّ فى جريرة [5] . فلما رحل صوب أذربيجان ، أصحبه جماعة من خواصه ليدخلوها على ركون منها إليه ، فيقبضوا عليها ، ويقيموا ايطغمش فى مقام من ربّته فى حجرها ، وأنشته فى كفّ رأفتها وبرها . ولم يعلموا أن لها على ايطغمش عيناً يَعُد طارى أنفاسه ، ويعلمها بما باض الشيطان فى راسه .

---

(۱) فى الأصل : الاتاوة . (۲) فى الأصل : فرقته .

(۳) هونهر الكور Kur الذى يصب فى بحر قزوين . وقد ورد ذكره فى صبح الأعشى باسم الكر . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٠٢ ، وانظر خريطة «وسط آسيا» فى كتاب Bretschneider: Op. cit., vol. i.

(٤) جفل : هجر .

(٥) فى الأصل : جريره .

فلما قاربوا نخجوان ، خرجوا إليهم ممانعين ، وناوشوا القتال ، وكبروا في وجوههم فعادوا بخيبتهم ، خجلين في أوبتهم .

ووصل شرف الملك عقيبهم فنزل بالمرج بظاهرها ، وبوجهه عثير [1] المكر ، وميسم الخديعة والغدر ، نادماً ولا ندامة الفرزدق على نوار [2] ، كليل اللسان عن كل اعتذار . واعتقد أنها تخل بالمعهود من ضيافتها ، فأتته حاجبتها بالإنزال والإقامات ، زيادة في التخجيل ، وعلاوة على التشوير . ثم أتته ثانية معاتبة على مادبّر عليها ، وقالت في جملة رسالتها : ألم يقنعك صرفي ماتغلّه نخجوان وأعمالها كل سنة إلى تقاديمك وإقامتك ، مضافاً إلى ذلك ضعفه [3] مما ورثته عن أسلافي ، حتى هممت بهتك [4] ستري، وخذلي من وراء حجابي بشعري . فإن كان الحامل على ذلك رغبتك في نخجوان ، فابعث إليها من يجبي أموالها سنة بعد سنة ، لتعلم ان الذى يصل إليك مني برسم الخزانة وعلى سبيل التقدمة ضعف حاصلها . فما زاد على عذر عن الصدق بعيد ، ولسان في إقامة العذر نكيد. ثم رحل صوب قلعة شميران [5] ، فنزل من عملها بقرية تسمى حورش .

وكانت القلعة للملك الأشرف ، تسلمها نوابه ممن كان مستحفظا من قبل الأتابك ، قبل أن تملك السلطان أذربيجان ، وتحصن أهلها بقليعة لهم بنيت على تل لدفع الغوارة ، وغلمان العسكر قد انتشرت في البيوت، فجز [6] أهل الضيعة رأس غلام من الحاشية ، وبلغ شرف الملك ذلك فاستشاط غضبا،

---

(١) عثير : غبار .

(٢) في الأصل : ندار . ومما هو جدير بالذكر أن نوار هي امرأة الفرزدق الشاعر العربي وقد طلقها ثم ندم ، وقال فيها :

ندمت ندامة الكسعي لما ... غدت مني مطلقة نوار
وكانت جنتي فخرجت منها ... كآدم حين أخرجها الضرار

(٣) في الأصل : ضعفة . (٤) في الأصل : تهتك .

(٥) شميران : إحدى قلاع أرمينية . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٩٧ .

(٦) في الأصل : فجرّ .

وقضى من تجاسرهم عليه عجباً ، وألا يرحل [1] حتى يخرجهم فيذيقهم حرّ الإنكار . ولما أصبح وأحاط العسكر بالتل ، وأخذت النقوب من كل جانب ، وضجّت الرعية يستغيثون فلا يغيث ، ويستعتبون فلا يعتب ، وهو يسمع صياحهم بالأمان الأمان ، . بأذن صمّاء عن ندائهم ، متغافلة عن دعائهم فإذا بأصوات الكوسات [2] والنقارات [3] ، وإذا باعلام صفر وراءها أعلام حمر ، وإذا بالخيل أثرن نقعاً [4] ، فوسطن جمعاً فعجلوه عن إنذار أصحابه ، وترتيب أطلابه ، بل عجلوا المرء [5] عن عوده إلى غلمانه ، ووصوله إلى دوابه ، فلجأ كل منهم إلى الوحى ورأى النجاة فى النجا ، وشرف الملك واقف فى شرذمة يسيرة من صغار مماليكه بوجه وقاح ، وناصية كأنها نحتت من صفاح [6] ، إلى أن أخذت عنانه وجذبته ، وقلت : قد جاوز الخرق عن الرفو ، والفتق عن الرتق ، فانج بنفسك . فولى منهزماً ، وترك معسكره بالأموال يفيض والدواب يموج .

وكان أول من وصل إلينا من عسكر الشام فخر الدين شام [7] حلب ، وحسام الدين خضر صاحب سرمارى . وكان قد نزع يده عن الطاعة حين امتدت رايات السلطان صوب العراق محتجا بعجزه عن القيام بتكاليف شرف الملك . وقد ظفر المذكور فى هذه الكبسة بآلات مجلس شرف الملك ومصاغه الذهبية والفضية .

---

(١) فى الأصل : وألا أن لا يرحل .

(٢) الكوسات : صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ويسمى الذى يضربها « كوسى » . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٩ ، ١٣ .

(٣) النقارات : جمع نقارة ، وهى من الآلات الملكية المختصة بالمواكب العظيمة . وكانت تحمل على عشرين بغلا ، على كل بغل ثلاث ، وتسير فى الموكب اثنتين اثنتين . وكانت النقارات تحمل فى ركاب السلاطين إلى الحرب ، فتستخدم فى إصدار الأوامر وفى الإيذان ببدء القتال . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٧٥ ، المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٨١٩ حاشية ٢ .

(٤) أثرن نقعاً : هيجن غباراً .　　(٥) فى الأصل : لمرء .

(٦) صفاح : حجارة وصخور .　　(٧) كذا فى الأصل ، ولعلها نائب حلب .

٧٤

ذكر ملك الحاجب على الأشرفى لبعض بلاد أذربيجان وما جرى بينه وبين شرف الملك بعد الكبسة

وامتد الوجيف بشرف الملك والطلب وراءه إلى مرند[١] فبات بها، ثم رحل عنها صوب تبريز، وساق الحاجب إلى خوى وشحنتها[٢] يومئذ ناصر الدين برقا مملوك شرف الملك، فأخلاها حين سمع بالوقعة، وفتحت أبوابها للحاجب، ونهب أصحاب الحاجب بعض محالها نهبا شنيعا أفضى إلى هتك الحريم، إلى أن نودى بالكف عنها. ثم سار الحاجب إلى نخجوان فسلمت إليه، ثم إلى مرند فدخلها، إذ سورها غير مانع، ورتب بها يزكه[٣] صوب تبريز وشرف الملك مقيم بها فى قل من العدد، فكان يزكه يصل إلى قرية صوفيان من أعمال تبريز.

وضجر شرف الملك من طول المقام بحيث لا يرجى بها ارتياش، ولا يمكن انتعاش، ومهما هم بالرحيل صوب أران لم الشعث وجبر الكسر وإصلاح ما فشا فى عسكره من كلوم الكبسة. رده أهل تبريز عما هم به ونواه، مستشفعين بالصدر ربيب الدين وزير الأتابك أزبك وكان مقيما بها متنسكا، وبالله وعبادته متمسكا، وما كان يحمل أهل تبريز على رده عن الرحيل عنهم إلا النظر فى العواقب، والاحتراز من استيلاء الحاجب. ثم تركب حجة السلطان عليهم وضيق مجال العدو يومئذ، فلم يأمنوا سخطه إذاً، ولم يخل عاقبته من أذى. فكان كلما احتج شرف الملك بالضائقة والعجز عن

(١) مرند: مدينة من مدن أذربيجان على مسيرة يومين من تبريز. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج ٨ ص ٢٩. وقيل إنها قرية فى الشمال الشرقى من تبريز. انظر القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤ ص ٣٦٠.

(٢) راجع ص ٢٣٩ حاشية. (٣) راجع ص ١٦٢ حاشية.

الإقامة ، حمل[1] أهل تبريز إليه ما يعينه على المقام عدة أيام ، إلى أن تكاثفت خيل الربيع على الثلوج ، فطردتها عن المروج ، وخضب[2] الجبال مشتعل مشيبها ، وفتحت أيدى الصبا جوز طيبها ، مضى صوب أران لجبى الأموال ، وجمع الرجال . وحط على قلعة مردانقيم[3] فى مسيرة يومين، وكانت لختن الوزير ربيب الدين المذكور ، وهدده بالحصار ثم دخلتها ورحلته عنها على أربعة آلاف دينار حملها إليه . ثم ساق فنزل بقرب قلعة خاجين ، وبها جلال الدين ابن أخت إيوان الكرجى ، وأخذ يوعده ويهدده ، إلى أن صالحه على عشرة آلاف دينار بربرة[4] ، وإطلاق سبعمائة أسير من المسلمين استؤسرا قديماً وحديثا ، فكان فيهم من أسر وهو طفل وأطلق وهو شيخ.

ولما استنزل الأسرى ، واستوفى بعض المال ، ورد عليه الخبر بأن بغدى مملوك الأتابك أزبك وصل إلى أذربيجان هارباً من الشام . وكان المذكور مستوحشاً من السلطان لإساءات[5] سبقت له ، وهى أن كل من طوحته الطوائح ، ونبذته الخطوب الكوالح من العساكر الخوارزمية مبدأ خروج الملاعين إلى أذربيجان قتلهم صبراً ، وأهلكهم[6] غيلة وغدراً ، بغضاً فى السلطان ، وانجراراً فى شطر الشيطان ، حتى قيل إنه قتل فى نهار واحد منهم بيده أربعمائة نفس .

فلما ملك السلطان أذربيجان ، استوبَل[7] جانب المقام ، وعلم أن فى ذلك خطراً ، وأن فى قربه منه غررا[8] . ففر[9] لا يلوى على أحد إلى أن

---

(١) فى الأصل : لحمل . (٢) فى الأصل : وخصبت .
(٣) مرداقيم : قلعة فى أذربيجان ، عبر نهر أراس .
(٤) بربرة : لفظ لعله مشتق من كلمة hyperperum ، وتطلق على العملة الذهبية البيزنطية .
(٥) فى الأصل : لاسآت . (٦) فى الأصل : هلكهم .
(٧) فى الأصل : استومل . (٨) الغرر : التعرض للهلاك . يقال : إنه منه على غرر .
(٩) فى الأصل : ققز .

اتصل بالملك الأشرف ، ثم انفصل عنه فى هذا الوقت من غير استيار ، وتوجه إلى أذربيجان لما بلغه من تعرّضها للمختطفة ، ومابها يومئذ من الآراء المختلفة . وظن أنه يتوسطها فيشد من الدولة الأتابكية ما انبثق به السكر ، ويلتئم من اندراسها ووهى أساسها ماتم به الجهر، ولن يصلح العطار ماأفسد الدهر . فلما قارب تخوم خوى ، وبلغ الحاجب خبره ركب إثره طالبا ، وفاته بغدى فقطع نهر أرس ناجيا وهاربا . ثم وقف له على حافة النهر فكلمه، وقال : أنا مملوك الملك الأشرف وعبد إحسانه . وغذّى[1] نعمته ، فحيث كنتُ فعلى ولائه وطاعته ، وماجئت إلا لنصرة دعوته .

ورجع الحاجب ، ودخل بغدى بلد قبان[2] — وهى ذات قلاع بأيدى أمراء[3] عصاة ماداسوا بعد بساط السلطان ، ولاشوهد من علامات طاعتهم إلى ذلك الوقت إلا التقاديم والخدم — وطفق بغدى يستحلفهم على إظهار الدولة الأتابكية ، ويدعوهم إلى ابن الملك خاموش ، على أن يخرجوه من قلعة قوطور[4] فيجلسوه على سرير الملك، نفخا فيما ظهر خموده وتعويلا على ماغابت سعوده . فأقلق شرف الملك ذلك، وحبس عليه نجم ما دبّر ، وانحل عليه نظر مافكر فيه وقدر. وردف ذلك وصول طائفة من المنهزمين بظاهر أصفهان ، مخبرة بانهزام السلطان واختفاء خبره ، ففت فى عضده ، وزاد فى كده ، وارتكب حزنا على حزن ، ووهنا بعد وهن . وهو مع ذلك كله يضرب البشائر ، بأن السلطان ظافر ، وأن الإسلام على الكفر ظاهر

ولما فرغ بغدى من استحلاف أمراء قبان ، سار إلى الملك نصرة الدين محمد بن بيشتكين يدعوه إلى مساعدته ، واتباع إرادته ، فلاطفه وأحسن ضيافته ، وكتب إلى شرف الملك بحاله ينهى إليه مااتفقت عليه الكلم ،

---

(١) فى الأصل : وعدى.

(٢) قبان : مدينة من مدن أذربيجان ، بالقرب من تبريز . ياقوت: معجم البلدان ج ٧ ص ٢٣ .

(٣) فى الأصل: امره .

(٤) قوطور : قلعة بالقرب من تبريز .

واجتمعت عليه الهمم . فسيّر إليه شرف الملك سراً يأمره أن يدعو بغدياً إلى طاعته ، ويضمن له عنه مايرضيه من الرغائب ، التى تملأ فارغة الحقائب ، والاقطاعات الخالصة من الشوائب .

وترددت الرسل فى ذلك بينهما أياماً ، حتى لانت عريكته ، وتمت بيعته . ووافى الملك نصرة الدين بيغدى حضرة شرف الملك وهو بحافة نهر أرس فتلقاه ، وأكرم مثواه ، ووعد له بما يهواه ، وخلع عليه وعلى أصحابه مائة وخمسين خلعة ، فى جملتها عشرة مكملة بالساخت والسرفسار والطوق[1] ، وأقطع له باقتراحه أرميه بأعمالها ، وحلف له ان لا يمكّن أحداً من الخوارزمية من مطالبته بدماء قتلاهم . ولما أمن غائلة بغدى واستظهر به ، ووردت[2] الأخبار من ناحية العراق بعود السلطان إلى أصفهان سالما ، ورجوع التاتار عنها خائبا ، وركوب السلطان أكتافهم طالبا ، رحل صوب أذربيجان واستصحب بغدى وابن بيشتكين شاحذا عزيمته ، ومصمماً سريرته[3] لطلب الثأر من الحاجب . فلما وصل إلى مرند ، اتصل به ثلاثة من أمراء الميسرة السلطانية ، وهم كوج يكنى بهلوان ، والحاجب الخاص خان بردى ، وأوداك أمير آخور ، نجدة سيرها السلطان إليه .

وكان من عادة السلطان أنه إذا ظهر من بعض أصحابه فى بعض الحروب هروب ، وفى بعض الوقائع تقصير ، يكلفه الأخطار ، ويجشمه المشاق ، إلى أن يبدو منه من الخدمة المرضية مايرخص دنس تقصيره فيرضى عليه . وكانت هذه سنة التاتار وحدها تسدّ للتقصير باباً ، فاتخذها دابا . ولما كانت هذه الثلاثة لم ينج من أمراء الميسرة فى الحرب بظاهر أصفهان سواهم ، كلفهم إنجاد شرف الملك ، فوصلوا وقوى بهم . وساق إلى خوى ، وبها نائب

---

(١) راجع ص ٧٧ حاشية ٦ .

(٢) فى الأصل : وردت .

(٣) فى الأصل : صريرته .

الحاجب بدر الدين ابن سرهنك [١] ، فلم يقربها ، وسلك طريقا لم يقرضها ذات اليمين ، لم يطلب غير الحاجب ، وهو إذ ذاك بنو شهر [٢] ، لحين سمع الحاجب بحفوفه نحوه فى ألوفه ، تأخر إلى بركرى [٣] ، وأقام بظاهرها إلى أن وصل شرف الملك فالتقيا ثانى يوم وصوله ، فلم يكن إلا حملة واحدة حتى انجلت المعركة عن هزيمة الحاجب ودخوله بركرى وتحصنه بها ، وكثر القتل فى أصحابه . وأصابت تاج الملوك بن الملك العادل نشابة فمات بها بعد حين .

وجمع شرف الملك كوساتهم ونقاراتهم وأعلامهم وبيارقهم وسيرها إلى أصفهان صحبة ميسرة السلطان [٤] . وتفرقت عساكره للغارات، وأقام هناك فى أقل من مائة فارس ثلاثة أيام ، والحاجب ببركرى لم يفارقه من عسكره إلا من قضى نحبه فى حومة الحرب ، أو ضمّته حبالة الأسر . ولم يجسروا أن يخرجوا فيأخذوه برقبته ، فما المكسور طائش القلب ، مسلوب اللب ، إن صادف أعزلَ [٥] لا يطمع فيه ، وإن لاقى [٦] بطلا لا يكافيه .

ثم كتب الحاجب إلى أوداك أمير آخور كتابا يلتمس فيه إصلاح ذات البين ، ورفع أسباب الخلف . وكان حاجب أوداك أمير آخور قد قارب السور فكلمه ، فدفع الحاجب الكتاب إليه فأوصله إلى صاحبه ، فحضر إذ ذاك بكتاب الحاجب ، فغضب شرف الملك لذلك ، وغالظه فى الكلام ، وحذر حاجبه أن يقرب السور ثانيا ، وقال : لم أرض من الاشتفاء بالحاجب إلا بقتله ، وهأنذا عن قريب [٧] عائد إليه بما يخرب دياره ، ويمحو آثاره .

وعادت العساكر بغاراتها متفرقة إلى أذربيجان ، ورحل شرف الملك

---

(١) سرهنك : إحدى الرتب العسكرية .

(٢) نوشهر : اسم معناه المدينة الجديدة ، ويطلق على مدينة نيسابور .

(٣) بركرى : مدينة قريبة من خلاط . (٤) فى الأصل : مبشره للسلطان .

(٥) فى الأصل : أعزلا . (٦) فى الأصل : لاقا .

(٧) فى الأصل : ها أنا عن قريب .

عقيبهم ، فلما قارب خوى أخلاها نائب الحاجب إلى قلعة قوطور ، إلى أن أنزل بعد عود السلطان، وخلت أذربيجان عن الحاجبية وأنصارهم والمتسمين بشعارهم . ولما دخل شرف الملك مدينة خوى ، بسط يده فى المصادرات ، فلم يترك بها ذا دار[1] إلا أدمى حلقه ، وألصق بظهره بطنه . وولاها عملوكه ناصر الدين بوقا ورحل صوب مرند ، ففعل بها مافعل بجارتها ، وهكذا بنخجوان وعامة بلاد أذربيجان ، حتى كبسها عن يسارها وظهرت آثار إعسارها . ثم ورد الخبر بخفوق الرايات السلطانية صوب أذربيجان ، فاستقبلها إلى أوجان[2]، فلتى بها شاه خاتون بنت السلطان تكش عمة السلطان وسنجقان خان وقد سبقا السلطان إليها ببعض العساكر ، وسائرها قد أحاطوا بتخوم ألموت مترصدين خروج غياث الدين عنها ، على ماسبق ذكره .

ومن عجيب مااتفق من الموت المفاجىء أن سنجقان خان ، وكان حاكم يولق السلطان ، وهو ديوان المظالم باصطلاح الترك ، جلس ذات يوم على العادة فى خيمة اليولق بأوجان مستندا إلى العمود ، فأطرق أثناء الحديث ، وظن الحاضرون أنه نعس ، فحمل ميّتا . ووصل السلطان بعدهما ، ثم وصلت محفّة ملكة فارس بنت الأتابك سعد ، وقد زفت الى السلطان أيام مقامه بأصفهان ، إذ كانت أختها المزوّجة بالسلطان قد ماتت بكنجة يوم قتل أورخان .

---

(١) فى الأصل : ذا در .

(٢) أوجان : إحدى مدن أذربيجان .

٧٥

ذكر عز الدين بلبان الخلخالى(١)

وماختم به أجله

كان المذكور من جملة المماليك الأتابكية ، وقد استولى على خلخال وقلاعها ، وجل همه إخافة الطرق وقطع السابلة بين العراق وأذربيجان . فتواترت الشكاية ، وكثرت النكاية ، والشواغل كانت تردّ السلطان عن إصفاء تلك الناحية ، وإطفاء تلك النائرة . وقد ازداد عيثه وفساده عند اشتغال السلطان بالتاتار ، واشتعال جذوة الحاجب بأذربيجان . فحط عليه السلطان منصرفه من العراق ، وحاصره بقلعة فيروزأباذ(٢) أياما ، إلى أن استأمن فخرج إلى السلطان بسيف وكفن ، فسكن بالعفو روعه(٣) ، وأزال بالتجاوز روعه(٤) . وتسلم منه قلعتى بلك(٥) وفيروزأباذ ، فملّك فيروزأباذ حسام الدين تكين تاش مملوك الأتابك سعد ، وسلم بلك إلى بعض مشايخ الترك . ثم خلف خزانته وحرمه وأثقاله بموقان ، وسار بعسكره المجرّد صوب خلاط ، لما

---

(١) نسبة إلى خَلْخَال ، إحدى مدن أذربيجان وتقع على مسيرة يومين من مدينة أردبيل . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤٥٤ .

(٢) فيروز أباذ : قلعة حصينة من أعمال أذربيجان ، على مسيرة فرسخ واحد من مدينة خلخال . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٦ ص ٤٠٩ — ٤١٠ . وهناك بلدة أخرى تسمى بهذا الاسم بالقرب من شيراز . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٤٥ .

(٣) روعه : قلبه . (٤) روعه : خوفه .

(٥) بلك : قلعة بالقرب من مدينتى خلخال وزنجان . ويذكر هوداس Houdas فى الترجمة الفرنسية أنه من المحتمل أن يكون اسمها يلك إذ لم ترد منقوطة فى النسخة الخطية . غير أننا لا نميل إلى الأخذ بهذا الرأى إذ قد وردت « بلك » فى مواضع أخرى . راجع الصفحات ٢٢١ ، من طبعة هوداس العربية ، ٢٧٩ ، ٣٦٧ من الترجمة الفرنسية ، وانظر أيضا الكشاف فى هذه الطبعة .

فى نفسه من الحاجب . فلما وصل إلى أرجيش [1] ، توالت الثلوج واشتد البرد فساق إلى طوغطاب وقد أخلاها أهلها من ربد الأحقاب ، فتقاسمتها أيدى النهاب . وأقام بها عشرة أيام ، والغوارة تضرب يمينا وشمالا ، وتطأ سهولا وجبالا . ووصلت طائفة منهم إلى أرزن الروم ، فساقت الغارات من بابها وورد على السلطان أيام مقامه بطوغطاب كتاب من علاء الدين صاحب الروم يغريه بمعاداة بنى أيوب ، ويعده المساعدة عليهم ويقول : إنه كان اشتغل فى سنته تلك بمن يتاخمه من الكفرة ، ففتح عدة حصون لهم ، كما أن السلطان اشتغل بالتاتار فردهم على أعقابهم ، ولم يبق الآن إلا صرف الهمم إلى هؤلاء الفئة الباغية ، والشرذمة الطاغية . وبالغ حتى إنه ذكر : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . وكان قد طوى كتابه على كتاب ورد عليه من سراج الدين المظفر بن الحسين نائب علاء الدين صاحب ألموت بناحية الشامية ، إذ كان السلطان بالعراق يذكر فيه أن جلال الدين المخذول قد قتل فى المصاف بظاهر أصفهان ، وتفرقت عساكره أيدى سبأ [2] ، وأن أخاه غياث الدين لجأ إلى الأبواب العلائية منخرطا فى سلك الطاعة ، وكذلك الأتابك قزل أرسلان ، يعنى الملك خاموشا ، صار من المنيخين بعتباتها ، والمنتظرين جذباتها ، وأن ملك العراق قد صفا لعلاء الدين عن كل مزاحم ، هذا ومثاله .

فناولنى السلطان الكتاب لأقرأه عليه ، فلما وقفت عليه وجدته حديث خرافة ، ينطوى على كل آفة وعاهة . وكان المجلس غاصاً [3] بالخانات والأمراء ، قلت : هذا مما ليس يصلح أن يقرأ بين يدى السلطان ، فألح فى قراءته [4] ، وقال : ماعليك منه ؟ قلت : إن كان لابد من قراءته [5] ففى الخلوة . فخرج

---

(١) أرجيش : إحدى مدن أرمينية الكبرى ، وهى قريبة من خلاط . ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ١٨١ .

(٢) أيدى سبأ : فى طرق مختلفة .

(٣) فى الأصل : غاصًّا .

(٤) و (٥) فى الأصل : قراته .

الناس وخلا المجلس. ثم قرأته عليه فأخذه مني وختمه ووضعه في كيسه.

نعم، وهرب بلبان الخلخالي من طوغطاب إلى خلاط ليلا. ولم يدر به إلا بعد الفوات. فجهّزه الحاجب إلى أذربيجان معتقداً أنه إذا توسط البلاد السلطانية يثير من الفتن ما يشغل السلطان عن قصده خلاط. فلا ينقص ذلك من عزمه، إذ كان بلبان أصبح بعد تسليم القلاع منه كالطير قص جناحه، والمقاتل قصم سلاحه. فمضى إلى جبال زنجان، فأخاف الطرق مستأنفا، وشق العصا مخالفا، إلى أن قتل بأصفهان، وسير رأسه إلى السلطان، على ما سنذكره في موضعه إن شاء الله تعالى. ثم رجع السلطان من طوغطاب إلى خرتبرت[1] وفعل بها ما فعل بطوغطاب من النهب والتخريب وسوق الأبقار، فكان خمس ما سيق منها سبعة آلاف رأس، ما خلا سائر الأجناس. وخربت أعمال خلاط بهذه الغارة، والفتنة نائمة[2] لعن الله من أيقظها.

---

(١) خرتبرت: إحدى قلاع أرمينية الكبرى، على مسيرة يومين من ملطية. ياقوت معجم البلدان، ج ٣ ص ٤١٥. وقد جاءت في القلقشندي، خرت برت، وذكر أنها تعرف بحصن زياد. انظر صبح الأعشى: ج ٤ ص ٣٥٥ — ٣٥٦.

(٢) في الأصل: باتّمه.

٧٦

ذكر ورود نجم الرازى [١] وركن الدين بن عطاف رسولين عن الإمام الظاهر بأمر الله

قد وردا والسلطان بتبريز ، مبشرين بانتصاب الإمام الظاهر بأمر الله منصب آبائه الخلفاء ، مشفوعة رسالتهما بمواعد جميلة ، ووعود لأصناف الأمانى كفيلة [٢] . وقد أمر ابن عطاف أن يقيم بحضرة السلطان، ويعود الرازى بمن يصحب من الرسل ليستصحب [٣] الخلع والتشريفات التى كانت الدواعى تمدّ إليها أعناق الانتظار ، وتعد [٤] لها ساعات الليل والنهار ، فتعوّقها سوابق [٥] المقادير ، وتتركها وراء حجاب التأخير ، فأصحبه السلطان بالقاضى مجير الدين . فعاد بالخلع ، ولحقهم نعى الظاهر بأمر الله، رضوان الله عليه وعلى آبائه الراشدين ، قبل الوصول ، فأعيدت الخلع إلى بغداد ، وحمل السلطان الأمر فى ردها إلى بغداد لتغيّر النية فى حقه إلى أن تحقق السبب .

---

(١) نجم الدين الرازى هو أحد رجال الصوفية فى عصره ، وقد رحل بعد الغزو المغولى إلى بلاد الروم ، وهناك ألف كتابه المعروف باسم « مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد » ، وهو كتاب بالفارسية ويبحث فى عقائد التصوف ، وقد توفى الرازى سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) . انظر كتاب الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ص ١٩٧ .

(٢) كان جلال الدين منكبرتى ، منذ عاد من بلاد الهند، قد ناصب الخلافة العباسية العداء، ولما أخفق فى محاولته غزو بغداد فى عهد الخليفة الناصر ، بل لما أخفق فى سياسته التى كانت ترمى إلى تأليب القوى الاسلامية ضد الخليفة العباسى ، اضطر إلى مهادنة الخلافة . ومن جهة أخرى نرى أن الخلافة العباسية أخذت تميل بدورها إلى مصالحة الخوارزميين وخاصة منذ تولى الخليفة العباسى الظاهر بأمر الله سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) .

(٣) فى الأصل : ليستصحبا . (٤) فى الأصل : ويعد .

(٥) فى الأصل : سوايق .

٧٧

ذكر إقامة السلطان بأذربيجان مشتياً

وعثوره على عثرات لشرف الملك غيرت رأيه عليه

ثم إن العساكر رجعت بما أثقلها من الغارات إلى موقان ، وأقام السلطان بخوى شهرا ، فأفاده مقامه بها عثوره على ماتم على أهلها من المصادرات القالعة ، والمعاملات القارعة ، وشعوره بأسباب نُفرة (١) الملكة بنت طغرل بن أرسلان السلجوقى ، وبراءتها (٢) من ذنوب نسبوها إليها ، وما قد اقتنى شرف الملك من أقمار دارها وشموس أستارها . ثم انتقل أثناء الشتاء إلى تبريز فوجدها كأختها بأشر حال . وانضاف إلى ذلك أنه نزل بقرية كوزكنان (٣) من أعمال تبريز ، وكانت تحصل للديوان منها مال طائل ، وكلما نزل السلطان بها يقوم الرئيس بضيافته من كل ماتحتاج (٤) إليه المطابخ والمخابز والاصطبلات ، وهكذا كان يحسن ضيافة الخواص وأرباب المناصب ، فلم يجد الرئيس حاضرا فى هذه المرة ، وأنهى إليه أنه مسك على دم ، وها هو بتبريز مطالبا بألف دينار ، وقد أطلقها شرف الملك لمملوكه ناصر الدين بوقا ، وسيف الدين طغرل الجاشنكير (٥) .

---

(١) فى الأصل: نفذة . (٢) فى الأصل : براتها .

(٣) قرأها هوداس فى النسخة الخطيــة « كوزة كنان » . وكُوزكُنان قرية كبيرة من نواحى تبريز ، بينهـا وبين تبريز مرحلتان ، ومعناها صناع الـكيزان . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ص ٢٩٤ .

(٤) فى الأصل : يحتاج .

(٥) الجاشنكير : هو الذى يقوم بذوق أصناف الطعام والشراب المختلفة قبل أن يأكل منها السلطان خوفا من أن يكون هذا الطعام أو الشراب مسموما . وتتركب هذه الكلمة من لفظين فارسيين ، « حاشنا » ومعناه الذوق، والثانى « كير » ومعنـاه المتعاطى . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٤٦٠ ، وراجع ص ١٦٠ حاشية ٤ .

ووصل السلطان إلى تبريز ، وأمر بالقبض على من تسلمها من غلمانهما ، فقبضا وتسلمّ منهما ما أخذاه[1] من الدية ، وأخذ دوابهما[2]، وطردهما[3] إلى موقان رجّالة ، وحين رأى السلطان ضعف حال تبريز وزراعتها ، عزم على إراحتها ، وإماطة الأذى عن ساحتها . فأسقط عنها خراج ثلاث سنين ، وكتب لهم توقيعا بذلك . وتواترت الظلامات ، وكثرت الشناعات ، سراً بما جرى عليهم من العسف مدة غيبته، إلى أن منّ الله عليهم بأوبته، وهو يسمع ذلك وينطوى لشرف الملك على غيظ مكتوم. وكانت كتب شرف الملك ترد عليه بالمهام فلم يكتب لها جوابا . وحين رأى ان تبريز تعجز عن عليق اصطبلاته ، وأن ليس للخاص بها غلة ، فتح هرى[4] شرف الملك ، وأمر بصرفها إلى المخابز والاصطبلات .

ورجم الناس إذا ذاك بالظنون[5]، وقدروا المقادير، وقالوا: قد انقضت ايام شرف الملك ومضت . فلما عاد السلطان إلى موقان ، واجتمعا بها ، لم يغيّر عليه شيئا كأن لم يودع غيظٌ درعة[6] ، ولا قرع موحش سمعه . وقد كان شرف الملك يأخذ عشر البلاد فى السنين الماضية من المقطع والخاص أسوة بمن[7] تقدمه من الوزراء ، لكن على سبيل الخفية ، بل كان يأخذها بجاهة من غير أمر سلطانى ، ومن منع ذلك لم يحاققه ، إذ كان السلطان لم يطلق له ذلك . فعند ذلك برز الأمر السلطانى بأن يتناول عشر الخاص والمقطع بجميع الممالك ، وكتبت له بذلك توقيعا . وكانت الرسالة وردت على لسان داعى خان وأطلس ملك أميرى[8] اليولق[9]، فأعطاهما شرف الملك خمسة آلاف

---

(١) فى الأصل : أخذوه .
(٢) فى الأصل : دوابهم .
(٣) فى الأصل : طردوهم .
(٤) هرى وجمعه أهراء: مخازن الغلال.
(٥) فى الأصل : الظنون .
(٦) غيظ : اسم رجل كان قد استودع آخر درعة .
(٧) فى الأصل : أسوة من .
(٨) فى الأصل : أمراء .
(٩) اليولق : ديوان المظالم باصطلاح الترك . راجع ص ٢٧٦ .

دينار حق الرسالة ، فكان بعد ذلك يحصل لشرف الملك من عشر العراق وحدها على ممانعة شرف الملك عليّ ، وقلة احتفاله به كل سنة ماينيف على سبعين ألف دينار . وأما الإقطاعات فكان[1] أصحابها يرون مداراته حتما ، فيقاسمهم حواصلها ، ولم يجسر أحد منهم أن يثب بالشكوى[2] ، فرتب مع كل ديوان ديوانا من قِبَله لجباية العشر بعامة الممالك .

---

(١) فى الأصل : فكانوا .   (٢) فى الأصل : بالسلوى .

٧٨
ذكر وصول كوركا إلى خدمة السلطان

كانت قبائل قفجاق تميل إلى ذلك البيت ولاء ومحبة[١]، إذ لم يولد لهم ولد فى قديم الزمان وحديثه إلا وأمه من بنات ملوك قفجاق، زفّت إليه بالخطبة والنكاح. فلهذا بالغ جنكزخان وأولاده فى استئصال قفجاق، إذ كانوا مادة قوّتهم، وأصل شوكتهم، والسبب لكثرتهم.

ولما عاد السلطان من العراق بعد المصاف بظاهر أصفهان، وقد هال عسكره ما رأوه من أمر التاتار وشدة بأسهم، رأى أن يستظهر بقفجاق وقبائلها، فسيّر سرجنكشى، وله فى قفجاق أصل وبيت، يرغبهم فى الامتداد إليه، ويريهم أن صلاح أنفسهم فى اتفاقهم على الأعادى، وأنهم لا يأمنون على التفرق استئصال الطائفتين، وانقلاع الفئتين[٢] فوجدهم المذكور مسرورين[٣] برسالته، راغبين فى مشايعته. وبادرت إلى دربند قبائل منهم فى زهاء خمسين ألف خركاه[٤]، فلم يمكن العبور، فأناخوا بقربها، وركب البحر كوركا، وهو ملك من ملوكهم، فى ثلاثمائة من قريبيه وقريباته[٥]، واتصل بشرف[٦] الملك وهو بموقان، إلى أن خلت الطرق عن قطاع الثلج، وقارب خيل الربيع بالفلج، رجع السلطان إلى موقان

(١) امتلأت الدولة الخوارزمية بعدد كبير من الأتراك الذين ينتمون إلى قبائل القفجاق فى شمال البحر الأسود، فقد نزح عدد كبير من أفراد هذه القبائل إلى أراضى الدولة الخوارزمية بل وصاهروا الخوارزميين. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت هذه العناصر مصدرا من مصادر الاضطراب السياسى والاجتماعى فى قلب الدولة. ومما هو جدير بالذكر أن اسم قفجاق يكتب فى المصادر التركية « قپچاق ». انظر كتاب عثمانلى تاريخى لأحمد راسم، ص ١٢٩ وغيرها. وانظر أيضا كتاب لغات تاريخية وجغرافية لأحمد رفعت ج ٦ ص ٦ وغيرها من الصفحات.

(٢) فى الأصل: الفيئتين. (٣) فى الأصل: سارين.

(٤) خركاه: كلمة فارسية معناها خيمة. انظر المقريزى: السلوك، ج ١ قسم ١ ص ٣٢، حاشية ٥.

(٥) فى الأصل: قرابية وقرابيته. (٦) فى الأصل: اتصل شرف.

فاستقبله شرف الملك ومعه كوركا، واستعفى المذكور عن منزل الخدمة، اكتفاء منه بوروده، وبذله فى الخدمة غاية مجهوده، فلم يعف عن ذلك حتى نزل وقبّل يد السلطان ثم خلع السلطان عليه وعلى من صحبه بعد أيام، ورده عن وعد[1] بفتح طريق دربند [2].

وكادت دربند تحصل، لولا سوء التدبير، وذلك أن كوركا لما انفصل عائدا على ميعاد الاجتماع عند افتتاح دربند المشهور بباب الأبواب، راسل السلطان صاحب دربند، ولما كان طفلا يدبر أمره أتابك له يلقب بالأسد، فرغب فى اغتنام مرضاة السلطان، واكتساب عناياته، وبادر بنفسه إلى بابه، فأكرمه السلطان، وخلع عليه، وعيّن باسمه واسم الطفل صاحبه إقطاعا تتضاءل [3] دربند فى جنبه ارتفاعاً على أن يستصحب من قبل السلطان من يتسلمها منه. فجهّز معه ستة آلاف فارس، منهم إينام خان، وسكر خان، وخاص خان. فلما انفصلوا عن الخدمة، قبضوا على الأسد وقيدوه بعد أيام، وشنعوا[4] عليه أنه همّ أن يفارقهم من غير إذن، ثم شنّوا على بلدة[5] دربند خارج السور غارات ظهرت فيها آثار الخراب والدرس، فصارت كأن لم تغن بالأمس.

واستعمل الأسد من الحيلة، ما أسلمه من الغيلة، فعاد إليها كالظبي مذعوراً، والأسد مجروحا ومضروراً، وصار أمر دربند — بما أساؤوا

---

(١) فى الأصل: عن موعوداً.

(٢) دربند أو باب الأبواب: مدينة على الشاطىء الغربى لبحر قزوين قبالة تفليس. وتسمى أحيانا بباب الحديد. انظر ياقوت: ج ٢ ص ٥٦٤، والقلقشندى: ج ٤ ص ٣٦٤. ولكلمة دربند معان أخرى سبق شرحها، راجع ص ٣٦ حاشية ٧.

(٣) فى الأصل: ينضأل.

(٤) قرأها هوداس Houdas فى النسخة الخطية شنّعوا، ثم عدلها فى الترجمة الفرنسية إلى شيعوا، والواقع أن القراءة الأولى هى الصحيحة.

(٥) فى الأصل: بلد.

من التدبير مرتجاً [1] ، فلم يبق فى افتتاحها مرتجى [2] . ولو أراد الله افتتاحها كان شرف الملك متعينا لذلك ، إذ مثل هذه [3] الصعاب لاتدال إلا يبذل الأموال . ثم بلين مصون عن خُـرْق [4] وبذل مقرون برفق . والمذكور ماجرّد لخطب إلا نفذ وحدّ وبرى وقدّ ، ولا أفرد فى أمر إلا أوفى على الذروة والغارب ، وحاز مـنية الطالب ، ورغبة الراغب .

---

(١) مرتجا : مغلقا .

(٢) مرتجى : أمل .

(٣) فى الأصل : هذا .

(٤) الخرق : الحماقة .

٧٩

ذكر ما صدر من شرف الملك بموقان حين بلغه تغيّر رأى السلطان عليه وعثوره على عثراته

كانت الأخبار تأتيه بتغيّر رأى السلطان عليه ، فتسوءه . ثم رأى إرضاءه بخدمة فى غيبته ، تقوم مقام الأرش[١] عن جنايته ، ويستجد ما كانت تخصه من عنايته . فركب فى عسكره وبعض عسكر السلطان فعبر نهر أرس فى المراكب ، واستولى على ناحية كُشتاسفى[٢] ، وطرد عنها عمال شروانشاه ، وضمّنها فى سنته تلك بمائتى ألف دينار بربرة[٣] ، ومن صفتها أنها ناحية بين نهرى أرس وكُر[٤] ، لا يعبر إليها إلا فى المراكب ، ذات غدران كثيرة ، وأموال تحصل من طير الماء والسمك غزيرة ، وربما تباع مائة إوزة[٥] بها بدينار .

وحين عاد السلطان إلى موقان أقطعها لجلال الدين سلطانشاه بن شروانشاه ، وكان أبوه قد سلمه إلى الكرج فنصروه على أن يزوّجوه بينت الملكة رسودان ابنة تامار[٦] . وحين فتح السلطان بلاد الكرج خلّص اليتيم من غمد الاعتقال ، وخلّص معه ابن صاحب أرزن الروم ، فارتد فى غاوة[٧] الكفر ، وهرب عائداً إلى الكرج ، على انحطاط قدره عندهم ، وعلى أن الملكة قد تزوجت عليه وطلقته .

---

(١) الأرش : الدية .

(٢) كشتاسفى : ناحية من نواحى شروان على الشاطىء الغربى لبحر قزوين .

(٣) راجع ص ٢٧٢ حاشية ٤ . (٤) راجع ص ١٩٧ حاشية ٨ .

(٥) فى الأصل : وزّة .

(٦) فى الأصل : بامار . راجع كتاب :
Brosset : Histoire de la Géorgie, tom. I, p. 431 et suiv.

(٧) كذا فى الأصل ، ولعلها هاوية .

وأما ابن شروانشاه فكان كدر يتيم خلق فى أحسن تقويم ، وربّاه السلطان فأحسن تربيته ، وطهّر بتطهير الملوك أولادهم ، ثم ملّكه كشتاسفى قسطاً مما خلفه أبوه . فقد وجده يتيما فآواه ، ضالا فهداه ، عائلا فأغناه ، سنّة الله قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . فكان شرف الملك قد أفرد لنفسه من نهر أرس سواقى[1] وسمّاها الشرفى ، والفخرى ، والنظامى . وعمّر عليها ثلاث نواح[2] تغل أحمالا كثيرة[3] . فلما أحس بتغيّر رأى السلطان عليه ، جاء إلى نهر أرس بعد العود من كشتاسفى ، والزمان شتاء ، والأرض جامدة ، فكان يأمر بالأخشاب ، والغياض قريبة ، فتقطع ثم ترمى على خط الساقية ، فتضرب النار فيها فتلين الأرض تحتها ، فتحفر . إلى أن أفرد من النهر ساقية لاتخاض وسمّاها سلطان خوى ، وضمّنها تلك السنة بثمانين ألف دينار ، ولم يزرع بعد شيء ، بل هذه الجملة حصلت من ضمان غدرانها .

---

(١) فى الأصل : سواقياً .

(٢) فى الأصل : نواحى .

(٣) فى الأصل : حملا كثيرة.

٨٠

ذكر قدوم شروانشاه افريدون بن فريبرز

كان السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان[١] ، لما ملك أران مضافة إلى سائر ممالكه الفسيحة[٢] ، حضر بابه شروانشاه زمانه ، بعد غارات تتابعت على بلاده ، ووقعات أفنت معظم أجناده . وتقرر أن يحمل كل سنة إلى الخزانة السلطانية مائة ألف دينار . فلما ملك السلطان أران سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، راسل شروانشاه افريدون بن فريبرز مطالباً بالأتاوة المقدرة لخزانة ملكشاه ، فاعتلّ بضعف بلاده ، وخروج أكثرها من يده ، مثل شكى[٣] وقبلة[٤] ، وتغلب الكرج على الأطراف ، وامتدت مراجعات الرسل فى ذلك حتى تقررت على خمسين ألف دينار يحملها كل سنة إلى الخزانة الجلالية .

فلما عاد السلطان فى هذه المرة إلى أران قدم عليه شروانشاه أفريدون ابن فريبرز من غير استدعاء ، بل رأى أن يجعل تقبيل باسطته ، ودوس

(١) فى الأصل : رسلان .

(٢) تعتبر الفترة الواقعة بين دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) وبين وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) من أزهى عصور الشرق الاسلامى ، إذ استطاع السلاجقة أن يوحدوا بلادا لم تكن بالأمس غير أجزاء متناثرة متعادية ، ثم أخذوا يوسعون أملاكهم شيئا فشيئا ، فاستطاع طغرلبك أن يمد نفوذه على بلاد الجزيرة وأرمينية، كما استطاع خلفه ألب أرسلان أن يوسع أملاكه على حساب الدولة البيزنطية حتى وسع نفوذه الأقاليم الممتدة حتى بحر مرمرة بعد هزيمة الامبراطور البيزنطى رومانوس Romanus فى موقعة ملازكرد . ثم تمكن ملكشاه من أن يتوج هذا كله بإخضاع سوريا وجورجيا فى الغرب وبخارى وسمرقند وخوارزم فى الشرق . انظر :

Defremery : Histoire des Seldjoukides. Extaits du Tarikhi Guzideh, ou Histoire Choisie d'Hamdullah Mustaufi, p. 437. (J. Asiat., Avril—Mai, 1848).

(٣) شكى : ناحية من نواحى أرمينية الكبرى. انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٨٦ .

(٤) قبلة : ناحية من نواحى أرمينية الكبرى ، أحدثها قباذ الملك أبو أنو شروان . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ص ٢٩ .

بساطه ، للوقت افتخاراً ، وعلى حوادث الزمان استظهاراً ، ولأيام النوائب ادخاراً .وقدّم للسلطان خمسمائة رأس خيل تركية[1] ولشرف الملك خمسين رأسا . فاستحقرها شرف الملك لنفسه واستقلها ، وأخذ يشير على السلطان بالقبض على شروانشاه واستضافة بلاده إلى ما يليه[2] من الملك ، فأبى السلطان ذلك ، ورده بالخلع والتشريفات ، وأمر فكتبت توقيعا له بتقرير ماتحت يده ، وإسقاط عشرين ألف دينار من الإتاوة المقررة ، وأعطاني شروانشاه عن حق الكتابة ألف دينار .

---

(١) فى الأصل : رأس خيلا تركية .

(٢) فى الأصل : يليها .

٨١
ذكر مسير السلطان صوب مدينة لورى
من بلاد الكرج

لما كان السلطان مقيما بموقان عند انصرافه من أذربيجان ، نهض كوج أبه ككخان فى عسكره وطوائف من الوثاقات المتفرقة وافقته فى نهضته بغير إذن من أربابها ولا مشورة ، فساق إلى بلد لورى فأغار عليها ونهب، وجمع الغارات وكسب . فلما وصل بها إلى بحيرة بتاخ ، بات بعضهم غربى البحيرة ، وامتدالبعض إلى شرقيها ، فكبس الكرج من بغربيّها ليلا فقتل وأسر . وكان فيهم إزبه طاين فلم يعرف له خبر ، ولم يوجدفى القتلى ، وسلم من بشرقيها فرجع بالغارات ، وغاظ السلطان ما تم على عسكره من الكرج، بعد أن رضوا بأن يسلموا فى دورهم ، بمنابت شعورهم .

وورد الخبر عقيب ذلك بأن الملك والإيوانى قد جمعا،ووافاهم نجد اللكز والألان[1] والسون[2] ، فصاروا فى أربعين ألف أو يزيدون ، وقد ملئوا بما حولهم من أحطاب السعير وأوشاب[3] النفير سروراً ، وما كان يعدهم الشيطان إلا غرورا . فركب السلطان للوقت ، وخرج من محط الأثقال والرحال ، وطارت إليه الخيول زرافات ووحدانا ، إلى أن كثر سواده أنصاراً وأعواناً . فساق إليهم ، فلما قارب البحيرة المذكورة تلاقى[4] اليزكان[5] ، وانهزم يزك الكرج ، وأتى نصر الله بالفتح[6] ، وحضر منهم جماعة فأمر بضرب رقابهم ، وركب طالبا للعسكر وطاروا بأجنحة الفرار كالبغاث

---

(١) تكتب أيضا « اللان » . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٠٧ .

(٢) اللكز والألان والسون قبائل كانت تسكن بالقرب من مدينة دربند .

(٣) أوشاب : أخلاط .

(٤) فى الأصل : تلاقا .

(٥) راجع صفحة ١٦٢ حاشية ٢ .

(٦) فى الأصل : بالفاج .

أحست بالبزاة تحوم، أو العقبان عن مراقبها تقوم . فتبددوا بدداً، وتشعبوا[1] طرائق قددا[2] . وركب الطلب أكتافهم يؤزّونهم[3] إلى أن يثقفوهم[4] ، ولحق بعضهم أثقال إيوانى فأخذها غنيمة .

ودلف السلطان صوب لورى، فنزل بظاهرها ، وراسل من بها من الكرج مهدداً ، وبحصارها موعداً . فطالبهم بإطلاق من أسر ليلة البحيرة من الأتراك، فأطلق ماخلا إزبه طاين ـ وكان السلطان يعتقد أنه أيضاً فى جملة المأسورين لما بلغه من إحاطة الكرج بهم حيث لاخلاص ـ فألح فى مطالبتهم به ، إذ كان المذكور لم يوجد فى القتلى، وتكررت المطالبات فى ذلك إلى أن حلفوا له إيماناً تغلظ عندهم أن ليس عندهم من الخوارزمية أسير. وذكروا أن الخوارزمية لما أحيط بهم قتل من قتل[5] ، وأسر من أسر، ولم يبق منهم إلا شخص واحد نثل كنانته[6] ، وأسند ظهره إلى حجر ، فمن قصده من الكرج رماه فأصماه حتى قتل منهم ثلاثة فرجعوا إذ ذاك عنه وتركوه ، فكان الأمر كما ذكر . والمذكور الموصوف إزبه طاين ، لما أحاطوا به ولم يقدروا عليه ، مشى مترجلا صوب أذربيجان فى غير جادة[7] ، حتى وصل إلى حدود بجنى، وهى قلعة من قلاع أواك بن إيوانى الكرجى ، وجد هناك غنما راعية ، فقتل الراعى وساق الغنم إلى واد ، فذبح منها رأسا وشوى وتزوّد ، ووصل إلى نخجوان سالما ، وأقام بها إلى أن توجه إليها عند قصده حصار خلاط ، والتقى مواكبه ، وشرح صورة الحال فى خلاصه حسب ماذكرة الكرج من غير تفاوت .

---

(١) فى الأصل : تشعبوا . وتشعبوا ، أى صاروا شعبا .
(٢) قددا ، جمع قدة : الفرقة من الناس . وطرائق قددا : فرقا مختلفة الأهواء .
(٣) يؤزونهم : يغرونهم . (٤) ثقفه : طعنه .
(٥) فى الأصل : أحيطوا بهم فقتل من قتل .
(٦) نثل كنانته : استخرج نبالها فنثرها .
(٧) الجادة : الطريق .

٨٢

ذكر حصار السلطان قلاع بهرام الكرجي

لما كان السلطان بالعراق، أصاب نواحي كنجة من تعدى بهرام الكرجي ضرر عظيم، وكثرت منه الشكاوى عند عود السلطان إليها، فركب إليه في الطم والرم[١]، والليل المدلهم. وتفرقت العساكر ببيوتها وأثقالها في نواحي ولاياته، تنهب وتحرق، وتقتل وتفرق، واستخرجت خباياهم ودفائنهم، واستنزلهم عن عصم الجبال، وقنن الرواسي والقلال[٢].

وزحف السلطان على قلعة «شكان» ففتحها عنوة واقتداراً، وأضرم بها على الكفر ناراً، ورحل عنها إلى قلعة «عليا باذ» وكانت للملكة تمشاها[٣] بلبيكور[٤]. فعجل افتتاحها، وأذل جماحها، فقتل أهلها واستباحها. ثم أتى قلعتي كاك وكوارين، فحاصرهما ثلاثة أشهر، وضاق الحال بالكرج وطلبوا الموادعة على مال يحملونه عاجلا، وترددت الرسل في ذلك فتسلم المال ورحل، حرصا على خلاط.

(١) الطم: البحر. ويقال جاء بالطم والرم أي بالمال الكثير.

(٢) القلة: أعلى الجبل. والقنة: أعلى الجبل، مثل القلة.

(٣) أوتمتا Thamtha، وهي ابنة إيواني. انظر Brosset ; Op. cit.,t.i, p. 250

(٤) لا شك أن هذا الاسم محرف عن بكتمر. انظر ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٣٢.

٨٣

ذكر قبض السلطان على اختيار الدين أستاذ الدار [1]

قد سبق ذكر الجمال الزرّاد ، وانفصاله من الزردخاناه [2] السلطانية ببلاد الهند ، ثم عوده إلى الخدمة بعد عبور السلطان نهر السند خاسراً ، وعما يستر به ظاهر حاله حاسراً ، بما ذكرناه من الملبوس والمأكول عند مساس الحاجة وشدة الافتقار ، وأن السلطان ولاّه أستاذية الدار، وتلقب باختيار الدين ، فحظى بالقبول ، وارتفع عن الخمول . ومن وظيفة أستاذ الدار عندهم أن يحولوا إليه من وجوه الأموال من الخزانة وبالثروات من البلاد قدراً معلوما ، ثم يصرف عنه ويطلق فى رواتب المخابز والمطابخ والاصطبلات وجرايات الحاشية وجامكياتهم [3] وغيرها، بوصولات مكملة العلائم ، فيأخذ علامة الوزير والمستوفى [4] . والمشرف [5] . والناظر [6] وعلامة العارض أيضا فيما يتعلق بالحاشية دون البيوت وعلائم نوابهم جميعا . فتصير اثنتى عشرة علامة من علامات أصحاب المناصب ونوابهم . فكانت الأموال تحوّل إلى المذكور من حيث ملك السلطان العراق منضما إليها [7] سائر الممالك على أخيه [8] فى سنة إحدى وعشرين وستمائة إلى سنة أربع وعشرين

---

(١) راجع صفحة ١٦١ حاشية ٤ (٢) راجع صفحة ١٦١ حاشية ١ .

(٣) الجامكيات : الرواتب بصفة عامة . انظر المقريزى: السلوك ج ١ قسم ١ ص ٥٢ ، حاشية ٢ .

(٤) راجع صفحة ١٨٣ حاشية ٥ .

(٤) المشرف هو الذى يتولى مراقبة الأمور المالية عامة فى جهة معينة من قبل السلطان أو الأمير . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٢٧ ، حاشية ١ .

(٦) كان النظار فى الدولة الاسلامية بصفة عامة ، يعاونون الوزراء فى أعمالهم ، وقد تنوعت ألقابهم بحسب الأعمال التى وكلت إليهم . فناظر الجيش هو الذى يتحدث فى أموال الجيوش وينظر فى حسابها ، وناظر الخاص هو الذى ينظر فى خاص أموال السلطان ، وناظر الدولة يشارك الوزير فى التصرف عامة والنظر فى المالية وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين خاصة . انظر المقريزى: السلوك ج ١ قسم ١ ص ٥٣ ، حاشية ٤ .

(٧) فى الأصل : متضمّنا إليها .

(٨) فى الأصل : اجبه . والمقصود هنا غياث الدين بن علاء الدين محمد خوارزم شاه .

وستمائة ، ولم يسترفع له حساب . ومهما [1] حضر إلى الديوان وذكر أن لم يبق عنده شيء حوّل إليه جملة أخرى، إلى أن حاصر السلطان قلاع بهرام الكرجي أمر باسترفاع حسابه ، فجاءت البواقي عليه مائة وخمسين [2] ألف دينار . وحين طولب بها وعلم أن الأمر أمر ، وأن لا يقبل له دون الأداء عذر ، زعم أنه برطل إلى الوزير وسائر أرباب المناصب منها ستين ألف دينار تنجزاً لقضاء شغله في تحويل المال إليه ، وعين باسم كل واحد منهم قدراً معلوماً . وما كان فيهم من لم يتلوث بذلك إلا صاحب الديوان شمس الدين محمد المعروف بموى دراز [3] ، إذ كان المذكور مهذباً بالتجارب ، ناظراً في العواقب، سليم اللسان والقلم، بعيد القدم عن مخاضات التهم. وقد خدم ديوان السلطان الكبير [4] محرراً ثم نائبا للمستوفى ، ثم مستوفيا ، وسائر الجماعة كانوا أحداثا مجددين فسادوا بخلو الديار غير مسودين . فلما سمعوا بالرفيحة عليهم خوّفوا أستاذ الدار وهددوا ، وأبرقوا وأرعدوا ، فلم يزد [5] على إصراره ، ليحرقهم بناره . فحين آيسهم رجوعه عن ذلك ، اتفقوا على إسقاط ستين ألف دينار من الجملة الباقية ، فأسقطوها ، وأنهوا إلى السلطان أن الذي يبقى عليه مبلغ تسعين ألفا [6] . وأمر بالقبض عليه والمطالبة بالمال . واعتصم المذكور بالإفلاس ، ولجأ إلى خلو الأكياس ، وأحضر من موجوده سبعة وعشرين مملوكا، واثنتين وعشرين جارية، وخيلا وجمالا . ولم يوجد له غير ذلك ، إذ كان مسرفا في الإنفاق ، مبذراً في البذل والإطلاق .

وكنت بسرماري ، وقد عبر عليها في مضيه إلى أبخاز ، فأنزل بدار في محلتها حمّام، واتفق أن شرف الدين أزدره صاحبها نزل الحمام بقربه، فسيّر

(١) قرأها هوداس في النسخة الخطية «مما» ثم عدلها خطأ في الطبعة الفرنسية إلى «مهمى».

(٢) في الأصل : خمسون .

(٣) في الأصل : موى دراى . أما «موى دراز» فعبارة تركية معناها ذو الشعر الطويل. (موى : شعر ، دراز : طويل) .

(٤) أي علاء الدين محمد خوارزم شاه والد جلال الدين منكبرتي .

(٥) في الأصل : فلم يرد . (٦) في الأصل : تسعون الفاً .

إليه أستاذ الدار قميصا وسراويل [1] ، وقباء [2] ، وكمة ، وفرجية زركش وحياصة ذهب ، وفرسا بالساخت والسرفسار والطوق [3] . فلبسها أزدره ونظائرها له كثيرة ، وفي باب الهرج معدود [4] ، إذ كان بماله يجود فلما طولب بالباقي وهدد بالعصر ، عمد إلى حلقه بسكينة كادت تهلكه ، لولا أن المتوكل به مسك يده فرده ، وأنهى إلى السلطان ذلك فأطلقه وأطلق له ذلك وقال : هذا مجنون لا يصلح للشغل . وهدرت الأموال ، وولى السلطان مكانه في أستاذية الدار شهاب الدين مسعود بن نظام الملك محمد بن صالح ، وكان أهلا له فعارض أولئك بزناد شحاح لا تفضي على اقتداح [5] ، ولا يورى بسماح ولا نجاح ، فتولاها في السنة المذكورة إلى منقرض الدولة .

---

(١) في الأصل : سراويلاً .   (٢) في الأصل : قبا .
(٣) راجع صفحة ٧٧ حاشية ٦ .   (٤) في الأصل : معدوداً .
(٥) في الأصل : بزند سجاح يفضى على اقتداح .

٨٤

ذكر مسير السلطان إلى نخجوان وتسيير الأثقال بمعظم العسكر صوب خلاط على طريق قاقزوان (١)

لما قضى السلطان وطره من تفريق الكرج وبث سوادهم ، وإلجائهم (٢) إلى أقاصي بلادهم ، واستخلاص من بلورى من الأسرى ، وجه الأثقال صوب خلاط على طريق قاقزوان ، وتقدم إلى الخانات والأمراء بالمسير معها ، على طمأنينة، ونشرها صوب خلاط على هينة ، وتوجه بنفسه صوب نخجوان وحث السير حتى سبق خبره إلى ناحيه بجنى ، وكمن بها ليلا فى بعض الشعاب (٣) ومعه زهاء ألف فارس من خواص مماليكه وحجابه، وشرف الملك فى الصحبة، حتى إذا أصبحت الرعية فأخرجت مواشيهم، ضرب عليها وساقها إلى نخجوان. فكان الثور الجيد يباع بدينار .

وكان سبب مسيره [جلال الدين] إلى نخجوان رغبة صاحبتها فى مناكحته، فتزوجها وأقام بها أياما إلى أن قضى أشغال خراسان والعراق ومازندران . فإن أصحاب دواوين هذه الأطراف المذكورة، وأرباب مناصبها المشهورة ، وذوى ظلاماتها كانوا مجتمعين بالباب . وعلم السلطان أنه إذا حاصر خلاط، تنقطع الطرق فلم يقدروا على العود ، فأمر بقضاء أشغالهم ، وردهم إلى ديارهم وأعمالهم ، وبرز المرسوم بالتواقيع فكتبتها . وقد حصل لى فى ذلك النهار من منافع الكتابة ألف دينار وكسر ، وأما مادون ذلك فى سائر الأيام فمادة لا تنقطع .

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها «القَاقُزان» ، وهى ثغر من نواحى قزوين. انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ص ١٦ .

(٢) فى الأصل : الجائم . (٣) الشعاب : الطرق فى الجبال .

نعم ، وكنا بنخجوان إذ ورد عليّ من أخبرني بوصول حسام الدين صاحب سرماري إلى مرج نخجوان، وكانت الصداقة بيننا قد تأكدت على تغايير الزمان ، واختلاف الحدثان ، فتحيرت حين سمعت بقدومه، وبخاطرته نفسه في هجومه ، لعلى بغيظ شرف الملك عليه ، لما سبق له من الاتفاق مع الحاجب على كبسه وإزالة الحشمة ، وإضاعة الحق والحرمة ، وظفره دون أصحاب الحاجب بآلات مجلسه وهي جملة طائلة . وما كنت أخشى عليه من جهة السلطان خشيتي عليه من شرف الملك ، إذ كان السلطان أطوع شكيمة ، وألين عريكة منه . فأشرت على المذكور بالتوقف ببعض تلك القرى ريثما أصلح حاله مع شرف الملك فأزيل شماسه، وأدبر بالتزام بعض ما أخذ منه راسه . فدخلت عليه ولم أخبره بوصوله ، بل أريته أنه كاتبني ملتمسا إصلاح الحال ، بصدر من المال ، إلى أن رضى أن يغرم خمسة آلاف دينار عن المجلس المنهوب ، ثم يرد الباب آمنا . واستحلفت شرف الملك على تجريد العناية في حقه إذا حضر ، والتناسي عما جرى له من الزلة ، وإزالة ما ثبت في قلب السلطان منه من الوحشة . فحلف بجميع ذلك ، ثم أعلمته بوصوله وقربه فضحك ، وقال : خدعتني . ثم أمر خواصه وحجابه باستقباله فاستقبلوه صحبتي ، وصلحت حال حسام الدين [1] وتجردت عنايته في حقه ، ووفى [2] له بجميع ما ضمن عني .

---

(١) في الأصل : وصلحت حسام الدين . (٢) في الأصل : ووفا .

٨٥

ذكر مسير السلطان إلى خلاط وحصارها واستيلائه عليها[١] .

كانت العساكر سبقت السلطان إلى تخومها ، وأقامت على مسيرة يوم منها ، إلى أن عاد السلطان من نخجوان واتصل بهم . ثم ورد عليه رسول من عز الدين أيبك — وكان نائب الملك الأشرف موسى بها ، وقبض على الحاجب علىّ — وكان الرسول شيخا تركيا عاقلا غاب عنى اسمه . وكانت زبدة الرسالة الخضوع والطاعة ، وبذل النفس بلسان الضراعة ، وأن الملك الأشرف ما أمره بالقبض على الحاجب إلا لإساءته الأدب مع السلطان والتخطى إلى بلاده ، من غير أمر صدر إليه . وهاهو الآن قد ولانى خلاط مأموراً بطاعة السلطان واتباع مراده ، معدودا فى جملة أعوانه وأنجاده ، أسوة بسائر[٢] أجناده بعامة بلاده . وبالغ فى ملاطفته واستعطافه ليرده عن إلحاحه وإلحافه ، فلم يزد على جواب[٣] مغالط مدافع ، وعما عزم عليه غير راجع . وقال فى جملة ماقال: إنك إن أردت رضاى فابعث إلىّ الحاجب عليا . فلما وصل الرسول بهذا الجواب قتل الحاجب على ، ورحل السلطان فنزل على خلاط وحاصرها ، ونصب عليها اثنى عشر منجنيقا ، كانت العالة منها ثمانية .

---

(١) كان جلال الدين منكبرتى قد عمد إلى الاستيلاء على مدينة خلاط من صاحبها الملك الأشرف بن الملك العادل أيوب ، متنهزا فرصة ذلك الشقاق الذى ساد البيت الأيوبى فى ذلك الوقت . فقد وقع خلاف بين ثلاثة من أمراء الدولة الأيوبية من أبناء الملك العادل أيوب ، وهم الكامل محمد صاحب مصر ، والأشرف موسى صاحب بلاد الجزيرة وخلاط وميافارقين ، والمعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس وطبرية وما جاورها . فقد سار الأشرف لزيارة أخيه الكامل فى مصر دون أن يصحب أخاه المعظم معه ، فظن المعظم أن أخاه يرى من وراء هذه الزيارة إلى تكوين حلف ضده . لذلك لم يأل جهدا فى الكيد لأخويه بمهاجمة أملاكهما تارة وبتأليب بعض الحكام عليهما تارة أخرى . فأرسل إلى جلال الدين يعرض عليه تكوين حلف منهما يكون هدفه الأول الاستيلاء على مدينة خلاط ، وهى من أملاك الأشرف موسى . وقد صادف ذلك قبولا حسنا لدى جلال الدين وأرسل الهدايا إلى المعظم فى دمشق ، كما اعتز المعظم بذلك الحلف إلى درجة أنه أصبح لايقسم إلا برأس جلال الدين. انظر ابن الأثير: الكامل ، ج ١٢ص٢١٣ — ٢١٤ . وانظر أيضاً D'ohsson : Op. cit., t. iii, p. 18.,

(٢) فى الأصل : اسوة ساير . (٣) فى الأصل : فلم يزد إلا على جواب .

٨٦
ذكر الحوادث مدة حصار خلاط

منها أن الاصفهبد[١] نصرة الدين صاحب الجبل كان قد زوّج أوترخان بأخت له لأب. فكان المذكور أعم الخانات منزلة عند السلطان فى هذا الوقت، فركن الاصفهبد إلى هذه المصاهرة، ووثق بأوترخان، وقصد الخدمة اقتداء بشروانشاه وحذواً على منواله، راجيا أن تشمله من العناية السلطانية ماشمل ذلك. فلما حضر وقدّم التقاديم، وأكثرها الجواهر الثمينة، مال عنه أوترخان إلى شقيق لحليلته[٢]، وحمل السلطان على قبضه وإقامة شقيقها مقامه ففعل. وقيد الاصفهبد وهتكت حرمته، وانتهبت نعمته، وبقى زمانا محبوسا إلى أن منّ الله عليه بالإطلاق عند عود السلطان من الروم منهزما، ووجدت[٣] مواد خدمة أخيه ناقصة عن المعهود، بل منقطعة. فاطلق، فعاد إلى بلاده وملكها على أخيه فى أسرع وقت.

وقد بعثنى السلطان إليه وهو محبوس بظاهر خلاط، إذ كان قد استدعى على لسان المتوكل به ثقة من أصحاب السلطان يبث إليه سرا، فلما حضرته أخذ يشكو ما يقاسيه من شدة الحبس وثقل القيد، وينتجز ما بينه وبين السلطان من جميل الوعد. ثم عدّ على ما أخذه أوترخان منه من الأموال والجواهر، على أنه يحملها إلى السلطان ساعيا فى خلاصه ولم يحمل. فأعدتُ حديثه على السلطان، ورقت عليه قلبه، ووجدته نادما على ما صدر منه من إخفار[٤] ذمته، وهتك حرمته، لائما لمن أشار عليه بذلك. وعلمت حينئذ أن خلاصه قريب، وعرّفته ذلك.

ومنها أن خان سلطان، أكبر بنات السلطان محمد، كانت أسرت حين

(١) أى مقدم الجبالة.
(٢) فى الأصل: لحليلته. وحليلته أى زوجته.
(٣) فى الأصل: وجدت.
(٤) فى الأصل: اختار. وأخفره: نقض عهده وغدر.

أمرت تركان خاتون ، واستخصها دوشي خان[1] لنفسه واستولدها ، ثم مات دوشي خان فكانت تنهى إلى أخيها السلطان أخبـــار التاتار ومتجدداتهم وأحوالهم . فسيرت والسلطان محاصر خلاط خاتما من خواتيم والدهما فيه فص فيروزج منقوش عليه اسم السلطان محمـد ، علامة مع القاصد الوارد من جهتها ، تعرف أخاها أن الخاقان قد أمر بتعليم أولادها القرآن، وقد بلغه أخبار شوكتك وسكتك ، واتساع باعك ، وبسطة رباعك[2] ، فعزم على مصاهرتك والمهادنة معك ، على أن يشاطر الملك على نهر جيحون ، فيكون لك مادونه وله ماوراءه . فإن كنت تجد من قوتك ما يقاومهم فتنقم، وقاتلهم فتظفر ، فشأنك وما أردت ، وإلا فاغتنم المسالمة حال رغبتهم فيها . فتشاغل عنها بخلاط وتغافل ، فلم يعوّد لها جوابا يتضمن صوابا ، ويفتح للصلح بابا ولا كلاما يقضى صلاحا ، ويثمر نجاحا .

كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحا[3]

ومنها قدوم ركن الدين جهان شاه بن طغرل صاحب أرزن الروم الحضرة السلطانية . ومن قبل كان يخطب للملك الأشرف معلناً بطاعته وولائه ، موافقا الحاجب علىّ على عداوته للدولة وبغضائه[4] ، كل ذلك عنادا لابن عمه علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب الروم . وكانت قد سبقت له فى الدولة الجلالية ذنوب كان يحذر عواقبها من إنجاده الحاجب علياً على شرف الملك ومنعه التجار أن يصلوا إلى المعسكر السلطانى وقتله السديد المزيد رسول السلطان عائدا من الروم . فلما رأى أن الدولة قد انتشر شعاعها ، واتسع باعها ، وأن خلاط قد أشرفت على الأخذ ، راسل السلطان فى طلب الأمان، فأعاد رسوله وحقق بالنجح مأموله .

---

(١) هو جوجى بن جنكيزخان . (٢) الرباع : الديار ، كناية عن سعة الملك .

(٣) البيت لابن هرمة .

(٤) فى الأصل : موافقا للحاجب علىّ عداوته للدولة وبغضا به .

وكان الوارد شمس الدين الحكيم البغدادى ذا ظرف وفكاهة ، وأدب وبداهة ، وقد أنشدنى أبياتا ذكر أنها من شعره وهى :

ولائمة لى فى الغلام عسوفة يزيد على مر الزمان ملامها
تفندنى فى عشق من كلما رنا[1] بغنج لحاظ لم يفتنى سهامها
إذا لسبت[2] قلبى عقارب صدغه ولج بنفسى فى هواه غرامها
فترياقها من ريقه البارد الذى يزول به تعذيبها وحمامها
تقول وقد أبدت قطوبا وغيرة وقام على ساق العناد خصامها
إليك فقد أغضبت كل خريدة منعّمة الأطراف حلو لثامها
فأنشدتها والقلب عنها مشرد ونفسى فى كف الحبيب زمامها
إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضبانا[3] علىّ لثامها

وقدم ركن الدين فأمر السلطان شرف الملك بالتقائه مسيرة يوم فى أصحاب الديوان ، فالتقاه وبات عنده بالمنزلة حافة بحيرة نازوك ، وهى بين خلاط ومنازجرد[4] ، وجمعهما مجلس الشراب تلك الليلة بخيمة ركن الدين ، فقدّم لشرف الملك حين طابا ، من التقاديم ما ينيف على عشرة آلاف دينار. والتقاه الخانات يوم وصوله إلى خلاط على مراتبهم ، ووقف السلطان له فى الميدان تحت الجتر[5] ، فلما دخل جهانشاه الميدان نزل وقبّل الأرض ، وتخطى عدة خطوات راجلا ، ثم التقاه الحاجب الخاص بدر الدين طوطق ابن أينانج خان يأمره عن السلطان بالركوب . فركب وأخذ يخدم إلى أن وصل ، فعانقه السلطان وقبّل جهانشاه يده ،وأشار السلطان إليه بالوقوف تحت الجتر فوقف عن يمينه ، وتداعت إذ ذاك دعائم الجتر وقضبانه التى تنشر

---

(١) فى الأصل: رنى. (٢) لسبت : لدغت .

(٣) فى الأصل : غضبان .

(٤) ويقال لها أيضا مناز كرد وملازجرد ومنزيكرت،وتقع بين خلاط وبلاد الروم وتعد فى أرمينية وأهلها أرمن وروم . انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ١٦٤ .

(٥) الجتر : المظلة ، راجع ص ٥٤ حاشية ٥ . ويتعدى استعمال هذا اللفظ أيضا إلى ما يعرف بالسرادق .

عليها وتساقطت، وتطيّر الناس لذلك فكان طائرهم عليهما، وصار اجتماعهما سبب هلاكهما، على ما يجيء شرحه .

ثم إن جهانشاه أقام فى الخدمة أياما ، واستأنس السلطان به ، وخلع على أصحابه الخواص مائتى خلعة، ثمانية عشرة[1] خلعة منها بالساخت والسرفسار والطوق[2] . وأذن له فى العود إلى بلاده ، وأمر أن يسيّر إلى خلاط ما يقدر عليه من آلات الحصار، فسيّر منجنيقا كبيرا سموه «قرابغرا»، وسير تروسا[3] وجنويات[4] ونشابا كثيراً .

ومنها موت ابن السلطان قيمقارشاه ، وكانت التى قد قامت عنه أخت شهاب الدين سليمان شاه ملك الأيوية . وسبب زواج السلطان بها أنه لما رجع من بغداد سنة إحدى وعشرين وستمائة ، بعد شن الغارات على نواحيها على ما سبق ذكره ، وصل إلى قلعة المذكور متجردا عن حرمه ، فنزل بظاهرها ، وسير إليه يطلب منه جارية تصلح لفراشه ، وكانت الرسالة على لسان خادم يعرف بسراج الدين محفوظ ، فعاد بالجواب أنه يقول : ليس عندى من تصلح لفراش السلطان إلا كريمتى . وكان رحمه الله نكوحا لا يقف عند ذلك فى قيد الكفاة ، فأجاب إلى المناكحة وسلمت إليه تلك الليلة . ورحل السلطان وخلفها هناك ، ووصل خادمها بعد مدة مخبرا بأنها

---

(١) فى الأصل : ثمانية عشر . (٢) راجع صفحة ٧٧ حاشية ٦ .

(٣) الترس : صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل فى اليد ، يتاقى بها ضربة السيف ونحوه . وقد افتن المسلمون فى صنع الأتراس ، ونقشوا عليها الآيات والحكم والأشعار ؛ وقد تميزت أتراس كل بلد بشكل خاص ، فمنها الترس الدمشقى والعراقى والغرناطى وغيرها . انظر كتاب السلاح فى الاسلام للقائمقام عبد الرحمن زكى ، ص ١٦ .

(٤) قرأها هوداس خطأ عن النسخة الخطية « حنويات » . أما الجنويات فجمع جنوية وتطلق على نوع من الحسك ، وهو عبارة عن قطعة من الحديد ذات شعب تطرح حول المعسكرات أو أمام الخيل لعرقلتها . انظر كتاب السلاح فى الاسلام للقائمقام عبد الرحمن زكى ، ص ٢١ ، ٢٢ . وقد ترجم كترمير Quatremère هذه الكلمة إلى civière أى النقالة التى تستخدم لنقل الجرحى والموتى ، كما ترجمها دوزى Dozy إلى palissade أى السياج الذى يعمل من خوارق الخشب . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٥٧ حاشية ٢ .

حبلت تلك الليلة ، فاستحضرها السلطان وولدت قيمقارشاه ، وعاش ثلاث سنين . وكان ذكيا ظريفا محبوبا ، ومات بظاهر خلاط ، واتهمت داية بنت السلطان التي قامت عنها بنت صاحب فارس أنها سقته فأوبقته [1] ، والله أعلم بذلك .

ومنها موت دوش خان بن أخش ملك . وكان أخش ملك ابن خال السلطان ثبت في المصاف بظاهر أصفهان حتى استشهد، وربى السلطان دوش خان تربية الوالد لولده ، والناس كانوا يعتقدون أنه ولد السلطان زعما منهم بأن السلطان وهب أمه لأخش المذكور ، فولدت دوش ، لدون تسعة أشهر . وبالجملة كان السلطان يفضله [2] على أولاده ، ويقدمه [3] عليهم في كل مايدل على العناية والشفق، فرض بظاهر خلاط ومات ، ورفض السلطان في مصيبته الناموس ، ورأيته قد خرج من سرادقه ودخل الخيمة التي فيها التابوت .

ومنها ورود سعد الدين الحاجب رسولا من الديوان العزيز [4] في عدة ملتمسات إذا قضيت وفق مراده يستصحب من أجلاء أصحاب السلطان وخواص حضرته من له خبرة بمراتب أرباب المناصب ليعاد بالخلع . فكان من جملة التماساتهم [5] أن السلطان لايحكم على بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، ومظفر الدين ككبرى [6] صاحب إربل ، وشهاب الدين سليمان شاه ملك الأبوية ، وعماد الدين بهلوان بن هزارسف ملك الجبال ، بل يعدهم في أولياء الديوان وأتباعه وأشياعه .

ومن جملتها أن السلطان الكبير [7] لما رجع من جبال همذان ولم يتم له مانواه من قصد بغداد ، أسقط خطبة الخليفة بعامة ممالكه واستمر الحال على ذلك ، فكان الخطباء بأران وأذربيجان والممالك

---

(١) أوبقته : أهلكته .
(٢) في الأصل : تفضله .
(٣) في الأصل : تقدمه .
(٤) أي ديوان الخلافة .
(٥) في الأصل : التمساتهم .
(٦) يكتب هذا الاسم أيضا كوكبرى . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٤ .
(٧) علاء الدين محمد خوارزم شاه ، والد جلال الدين منكبرتي .

لمستجدة فى هذا الوقت لايذكرون(1) الخليفة داعين لأيامه جرياً على العادة، إذ كانت مما تملكها السلطان بعد والده . وأهل سائر الممالك القديمة استمروا على تركها كما أمروا ، والسلطان قد شغلته الشواغل عن ذلك ، فلما خاطبه رسول الديوان فيه ، أصدر تواقيعه إلى عامة بلاد الممالك بالدعاء للإمام أبى جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين رضوان الله عليه وعلى آبائه الراشدين .

فلما انقضت الأشغال وفق مراده ، وأجابه السلطان إلى إعادة الخطبة إلى معهود العادة فى الأزمنة المتقادمة ، وعدّ أولئك المذكورين فى جملة الأولياء ، أصحبه الحاجب بدر الدين طوطق بن أينانج خان ، وكان عديم المثل فى الترك ذا دهاء وظرف ، وكياسة ولطف ، وجودة خط ، ومعرفة بالشعر العجمى ، والتمييز بين الجيد والردىء ، وخبرة بقوانين الحجوبية وآدابها ، على صغره وحداثة سنه وريعان(2) عمره . وأمرنى السلطان بتذكرة أكتبها بين يديه إلى المواقف الشريفة مشتملة على عدة فصول . فكان آخر فصل منها التماسه إحضار الحاجب الخاص لدى المواقف الشريفة تمييزاً له عن سائر الملوك بمزيد الإكرام ، ومزية الاحترام ، فأجيب إلى ذلك .

وحدثنى الحاجب الخاص [قال] : وكان السلطان وصانى إذا حضرت الديوان لاأقبل(3) يد الوزير مؤيد الدين القُمى(4) ولا أوفه(5) حق التعظيم ، لأمور كان ينقمها عليه(6) ، ففعلت ذلك امتثالا لما أمر . فلما مضت أيام ،

(1) فى الأصل : فى هذا الوقت يذكرون .

(2) فى الأصل : ريعان . (3) فى الأصل : لم أقبل .

(4) ولد مؤيد الدين القمى فى مدينة قم إحدى مدن العراق العجمى ، ونشأ فى بغداد وتوفى بها . وقد تولى الوزارة فى عهد الخلفاء العباسيين الناصر والظاهر والمستنصر ، وتوفى سنة ٦٢٩هـ (١٢٣١م) فى عهد الأخير . انظر ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٨٥ — ٢٨٧ .

(5) فى الأصل : ولم أوفه . (6) فى الأصل : تنقمها .

إذا[1] بحراقة[2] فى بعض العشيات وصلت إلى منزلى بحافة دجلة ، وإذا بسعد الدين بن الحاجب قد دخل وقال : استعد بخدمة أمير المؤمنين ، فركبت الحراقة وركبها سعد الدين معى . ثم إنه كلم[3] الملاح بكلمات غريبة لم أفهمها ، وقفز من الحراقة إلى حراقة أخرى غيرها وتركنى منفرداً فيها ، فسألته عن ذلك ، فقال : ما كنت أعرف أن تلك من المراكب الخاصة وقد سيروها لك تشريفا . فقمت ، وخدمت ، وشكرت ، ودعوت . وسقنا إلى أن وصلنا إلى باب كبير فدخلت ، وتأخر سعد الدين ولم يتعد من هناك ، فقلت له : هلا تدخل معى ؟ فقال : وما منا إلا له مقام معلوم ، ليس لى أن أتعدى هذا المقام . وكان خلف الباب خادم فأوصلنى إلى باب آخر ، ودق الباب ففتح ودخلت ، وإذا أنا بخادم شيخ جالس على دكة فصافحنى ، وكان بين يديه مصحف وشمعة ، فأجلسنى ورحب بى[4] إلى أن جاء خادم آخر أبيض لطيف حسن الصورة ، فصافحنى ولاطفنى بالعجمى ، ثم أخذ بيدى يمشى ويقول : ليس يخفى عليك أن الذى يريد تحضر بين يديه، من هو ، وجلالة المقام وعظمته ، مستغنية عن الوصف . فانظر ماذا تعمل من حسن أدبك فى خدمة المواقف الشريفة ، وتقبل الأرض حيث أشرت إليك . وما كان يحمله على هذه المبالغة فى الوصية إلا ما بلغهم من إخلالى بشرايط الخدمة فى الديوان . فقلت : لا تستجهلنى ، فإنى وإن كنت رجلا تركياً أعرف مواضع الخدمة ومحالها ، وأميّز مكان التواضع عن محل الترفع ، فلو عفرت وجهى فى التراب على العتبات الشريفة ألف مرة لم أعد روحى

---

(١) فى الأصل : فاذا .

(٢) الحراقة : مركب حربى قديم كان يستعمل فى حمل الأسلحة النارية كالنار الاغريقية ، وبها مدافع خاصة تقذف النيران ، وقد حلت محله اليوم المدمرة ، وجمعها حراريق . وكانت تستخدم فى مصر لحمل الأمراء ورجال الدولة فى التنقلات النهرية ، كما عرفت فى نهر دجلة . انظر كتاب السلاح فى الاسلام للقائمقام عبد الرحمن زكى ص ٢١ ، وانظر أيضا المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٣٠٦ حاشية ٣ .

(٣) فى الأصل : تكلم .

(٤) فى الأصل : ترحب بى .

إلا من المقصرين فى الخدمة ، إذ عاجل فوائدها الدرجات الفاخرة ، وآجلها الفوز فى الآخرة . قال فاستحسن كلامى وأثنى على .

فلما طلعنا الدرجة وصاحت عينى الستر الأسود[1] ، قبلت الأرض قبل أن ينبهنى عليه ، فأثنى الخادم علىّ ، ورأيت بستاناً من كثرة الشموع ، كأنه فى الليلة الظلماء عكس الفلك فى الماء ، ورأيت الوزير واقفا حذاء الستر ، والستر مرخى ، وجاء خادم فرفع الستر فكنت أمشى وأقبل الأرض إلى أن قاربت الوزير ووقفت[2] ، فإذا أمير المؤمنين جالس على سرير ، فكلم الوزير بكلمة عربية ، فتقدم خطوات وأشار إلىّ بالوقوف حيث كان هو واقفا[3] أولا ، فتقدمت وقبلت الأرض ووقفت موقفه . ثم قال أمير المؤمنين : كيف الجناب العالى الشاهنشاهى ؟ يعنى السلطان . وهكذا كان خطابه للسلطان فى الكتب إذ ذاك . فقبلت الأرض ، وأردف ذلك بكلمات تنبى عن المواعد الجميلة ، وشمول العنايات أحوال السلطان ، وأنه يريد تقديمه على سائر ملوك زمانه ، وسلاطين أوانه . فلم أزد فى جواب ذلك على تقبيل الأرض . ثم علم على كتاب العهد الذى كتب للسلطان وناولنى الوزير ، فوضعته على رأسى وقبلت الأرض ورجعت .

نعم وخلع على المذكور خلعة سنية ، ووصل على ما قيل بعشرة آلاف دينار ، ولكنى لم أسمعها منه . وأصحب بالأمير ملك الدين بن سنقر الطويل ، وسعد الدين بن الحاجب ، ومعهما خلعة السلطنة . فوصلوا إلى خلاط فى الشتاء ، والسلطان محاصرها ، وكان يضرب لفلك الدين الدهليز ، وتضرب له البوقات عند ركوبه ونزوله . وكان سعد الدين بن الحاجب ، مع رفيع منزلته ومعمور محله فى الديوان العزيز ، يتحجب بين يديه إقامة للناموس . وها أنذا[4] أذكر ما استصحبوه من الإنعام والخلع مفصلة ، وهى : ١ ــ خلعتان للسلطان

---

(١) شعار العباسيين . (٢) فى الأصل : وقفت .
(٣) فى الأصل : كان هو واقف . (٤) فى الأصل : وها أنا .

الواحدة منهما جبة وعمامة وسيف هندى وقد رصع نجاده ، والأخرى قباء وكمة وفرجية وسيف قراجولي محلى بالذهب مغرق الحياصة بالدنانير، وقلادة مرصعة ثمينة. ٢ ــ وفرسان بالساخت والسرفسار والطوق، أثقل ما يكون وأنهى ، وثمان تطبيقات طبقت على حوافرهما عند التسليم وزن كل تطبيقة منهما مائة دينار . ٣ ــ وترس ذهب مرصع بنفائس الجوهر فيه واحد[1] وأربعون فصا من ياقوت وبذخشانى[2] فى وسطه فيروزج كبير . ٤ ــ وثلاثون فرسا من الخيل العربية مجللة بالأطلس الرومى مبطنة الجلال بالأطلس البغدادى ، وعلى رأس كل جنيب مقود حرير وقد ضربت عليه ستون دينارا[3] خليفية[4] وثلاثون أو عشرون مملوكا بالعدة والمركوب. ٥ ــ وعشرة فهود بجلال الأطلس وقلائد الذهب . ٦ ــ وعشرة صقور مكللة الكمام بصغار الحب . ٧ ــ ومائة وخمسون بقجة[5] فى كل واحدة منها عشرة ثياب . ٨ ــ وخمسة أكر من العنبر الأشهب مضلعة بالذهب . ٩ ــ وشجرة عــــود طولها خمسة أذرع أو ستة تحمل بين رجلين . ١٠ ــ وأربع عشرة[6] خلعة برسم الخانات كلها بالخيل والساخت والسرفسار والطوق ، وحوايص الذهب والكبابيش التفليسية . وأراد تميز بعضهم فنُجيت[7] الكبابيش إلا من أربعة رءوس، وهى لداعى خان، وألغ خان ، وأوترخان ، وطغانخان . ١١ ــ وثلاثمائة خلعة برسم الأمراء كل خلعة قباء وكمة فحسب . وكانت خلعة شرف الملك عمامة سوداء وقباء وفرجية وسيفا

---

(١) فى الأصل : أحد .

(٢) فى الأصل : بدخشانى . راجع ص ٢٥٠ ، حاشية ١ .

(٣) فى الأصل : دينار.   (٤) فى الأصل : خليفتية .

(٥) البقجة : العدة من القماش ، يوضع بها الثياب أو النقود أو الأوراق الخاصة ، وهى فارسية الأصل وتجمع على بقج . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٢٧١ ، حاشية ١ .

(٦) فى الأصل : أربعة عشر .

(٧) نجيت : فصل بعضها عن بعض . وفى الأصل : فنجت .

هنديا[١] وأكرتى[٢] عنبر وخمسين[٣] ثوبا وبغلة . ١٢ – وعشرون خلعة برسم أصحاب الديوان كل خلعة منها جبة وعمامة ، وقد خصصت من سائر أرباب الديوان ببغلة شهباء جيدة وعشرين ثوبا أكثرها من الأطلس الرومى والبغدادى .

ولما قرئت النسخة الواردة بها من الديوان على السلطان ، وكان قد ذكر فى أولها « الجناب العالى الشاهنشاهى » ، وبعده « الأجل شرف الملك » ، ثم ذكرت بعدهما ولم يذكر أحد من سائر أصحاب الديوان تلقيبا ولا تسمية ، بل أطلقوا لفظ المستوفى ، والمشرف ، والعارض ، والناظر ، وأمثال ذلك وما سيّر لهم إلا الجبة والعمامة . وقد كان شرف الملك حينئذ قليل العناية فى متغير الرأى فى حق ، لسرعة استحالته وإعارته السمع ، لما يبلغه من تضريب وسعاية ، فوجد بذلك التخصيص مطعنا ، ولما قرئت النسخة على السلطان ، قال[٤] : ما سبب تقديم فلان على صاحب الديوان[٥] ؟ وهلا سووا بينهما فى الخلعة والإنعام ؟ فقال السلطان : السبب فى ذلك بيّن ، وذلك أنه يحسن التأدب[٦] معهم فى المخاطبة ، ويحفظ ما يتعلق بناموسهم فى المكاتبة . ثم إن رسلهم شاهدوه عندنا بالحضور للمشورة ، وليس صاحب الديوان بهذه المثابة ولا مدخل له فيما يتعلق بالتدبير إنما وظيفته استيفاء الأموال الديوانية وإثبات الحاصل والمصروف ولا مساس بينهم وبين ذلك ، فلم يصب للغرض ما رماه شرف الملك من قصده .

وقد كان رسولا دار الخلافة ينتظران السلطان يحضر خيمتهم التى ضربت للخزانة فيلبس الخلعتين فلم يفعل ذلك ، بل ضرب خيمة بقرب الخزانة

---

(١) فى الأصل : سيف هندى . (٢) فى الأصل : وأكرتا .
(٣) فى الأصل : وخمسون . (٤) أى شرف الملك .
(٥) كان يسمى صاحب هذا المنصب أيضا بمتولى الديوان .
(٦) فى الأصل : التأديب .

السلطانية ، ونقلت إليها الخلع، وركب السلطان مرتين فدخلها ولبس الخلعتين في نهار واحد ، ولبس الناس بعده . ثم خاطبا السلطان متشفعين في أمر خلاط وإزالة الحصار عنها ، وبتقلص[1] الخناق . فلم يرد عليهما[2] جوابا شفاها ، بل سيرنى إليهما[3] بعدعودهما إلى منزلها معاتباً ، وقال : قدذكرتما فيما بلغتمانى عن أمير المؤمنين أنّا نريدإعلاء أمرك ، وإجلال قدرك وتعظيم شأنك ، وتحكيمك على ملوك زمانك . ثم تشيران علىّ بإزالة الحصار عن خلاط ، بعد أن الفتح قد ورد بشيره ، والنجح قد أسفر تباشيره ، وهذا مما ينافي ما ذكرتماه من عنايات أمير المؤمنين . فقالا : صدق السلطان والأمر كما ذكر ، غير أننا نحذر أن يتعذر افتتاحها ، ويستمر جماحها فيرحل السلطان عنها من غير إشارة تصدر إليه من الديوان ووساطته فإن كان ولا بد من الرحيل فبوساطة الديوان أسلم من مطاعن المستعجزين وأشبه بحال الفائزين فقبل عذرهما واستمر الحصار . وكان أهل خلاط كفوا عن الشتيمة أيام حضور الرسل ، حتى إذا تحققوا أنهم ما شفعوا ، وحان للرسل أن يرجعوا استأنفوا فيها بكل معنى غريب ، ولفظ عجيب .

ومنها ورود رسول الملك المسعود صاحب آمد ، وكان شخصا تركيا يعرف بعلم الدين قصب السكر ، ورسول الملك المنصور صاحب ماردين صحبته ، وكان خادماأسود ، والرسالتان تشتملان على عرض الخدمة والطاعة. وأصحبهما السلطان رسولا من جهته يأمرهما بالخطبة له في بلادهما اختباراً على محك الأصداق ، ما كانا يزعمانه من الوفاق والاتفاق وأصحب الرسولين بالفقيه نجم الدين الخوارزمى ، فأبطأ المذكور عندهما إلى أن عاد السلطان من الروم على الوجه الذى لا يروم .

ومنها أن خلاط لما عظم بها البلاء واشتد الغلاء ، وكسدت الدنانير ،

---

(١) تقلص الشيء : انضم وانزوى . وفى الأصل : وبتنفّس .

(٢) فى الأصل : عليهم . (٣) فى الأصل : اليهم .

وأكلت الكلاب والسنانير ، خرج منهم فى يوم واحد قرابة عشرين ألف إنسان ، وقد تغيرت صورهم بالجوع حتى أن الأخ لا كان يعرف أخاه ولا الوالد ولده ، فكان شرف الملك يطعمهم فيذبح كل يوم عدة أبقار لهم فما سرت النفوس الناحفة ، والأرماق التالفة ، ومات أكثرهم وتفرق الباقون أيدى سبأ .

ومنها أن السلطان الكبير[1] كان مدفونا بالجزيرة على ما سبق من ذكر وفاته وورده وديعة حياته ، فسنح للسلطان وهو محاصر خلاط أن يبنى له مدرسة بأصفهان فينقل إليها تابوته من الجزيرة فسيّر مقرب الدين مهتر مهتران — وكان مقدم الفراشية[2] — إلى أصفهان ، وهو الذى تولى غسل السلطان الكبير ليبنى بها مدرسة فيها قبة للتابوت يحتوى على سائر بيوت المرافق مثل بيت الثياب ، وبيت الفرش[3] ، وبيت الطشت[4] ، وبيت الركاب[5] وغيرها وأصحبه ثلاثين ألف دينار للشروع فى عمارتها . وتقدم إلى الوزير بالعراق بإطلاق ما يحتاج إليه تمام العمارة من وجوه الديوان ، وأن يستعمل لها آلات

---

(١) علاء الدين محمد خوارزم شاه والد جلال الدين منكبرتى .

(٢) راجع ص ١٠٨ حاشية ٣ .

(٣) بيت الفرش : ويسمى أيضا الفراش خاناه ، وخاناه لفظ فارسى معناه البيت . ويؤخر المضاف على المضاف إليه على عادة العجم فى ذلك . ويشتمل هذا المكان على أنواع الفرش المختلفة من بسط وخيام وغير ذلك . ويعمل فيه عدد من الغلمان يسمون بالفراشين ، وهم من أمهر الغلمان وأنهضهم ، ولهم دراية فائقة فى نصب الخيام . انظر القلقشندى : صبح الأعشى : ج ٤ ص ١٠ — ١١ .

(٤) بيت الطشت : ويسمى أيضا بالطشت خاناه ، وقد سمى بهذا الاسم لاحتوائه على الطشت الذى تغسل فيه الأيدى والطشت الذى يغسل فيه القماش . وهو يحتوى على ما يلبسه السلطان من الكلوتة والأقبية وسائر الثيـاب والسيف والخف وغير ذلك ، كما أنه يحوى ما يجلس عليه السلطان من المقاعد والمخاد والسجاد الذى يصلى عليه وما شاكل ذلك . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٠ — ١١ .

(٥) بيت الركاب : ويعرف أيضا بالركاب خاناه ، ويشتمل على عدد الخيل من السروج واللجم الخ . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٢ .

الذهب من الشمعدان والطشت والإبريق ، وأن تقام بالباب فرس النوبة بالطوق والساخت والسرفسار . فسار المقرّب إلى أصفهان وشرع في العمارة ، ووصلتُ إليها بعد أربعة أشهر ، فوجدتها قد طلع بنيانها قدر قامة .

وكاتب السلطان عمته شاه خاتون صاحبة سارية من أعمال مازندران(١) ـ وكان أبوها تكش قد زوجها بملك مازندران أردشير بن الحسن وتوفى عنها ـ بأن تركب بنفسها ومن بمازندران من الملوك والأمراء والصدور ، فتنقل التابوت من الجزيرة إلى قلعة أردهن ، وهى أعصى قلاع الأرض ، إلى أن تتم عمارة المدرسة بأصفهان فينقل إليها . ولعمرى كنت أكتب هذا التوقيع كارها ، ولآرائهم مسفها . ونفثت إلى المقرب بنبذ من أفكارى ، وأظهرت له بعض إضمارى ، إذ كنت أعرف أن جثته ، بردها الله بالنسيم ماسلمت من إحراق التاتار إلا لتعذر الوصول إليها . ولقد أحرقوا عظام كل سلطان مدفون بأى أرض كان ، معتقدين أنهم بنو أب يجمعهم أصل واحد ، حتى أن عظام يمين الدولة محمود بن سبكتكين (٢) ، رحمة الله عليه ، قد أخرجت من قبره بغزنة وأحرقت . فلم يعجب مقرّب الدين ما كلمته من هذا القبيل، فاستقلته من هذا القيل . وكان الأمر كما خمنته ، فإن التاتار لما فرغوا (٣) من السلطان بحدود آمد ، على ما يجىء شرحه ، حاصروا (٤)

---

(١) جاء فى ياقوت ، ج ٥ ص ٨ ، أنها من أعمال طبرستان .

(٢) النطق الصحيح لهذا الاسم هو ما يتفق مع الكتابة الفارسية : سبكتكين . ومحمود ابن سبكتكين هو سابع حكام الدولة الغزنوية وأهمهم جميعا . وقد حكم من سنة ٣٨٨ / ٤٢١هـ = ٩٩٨ / ١٠٣٠م . وترجع أهميته فى تاريخ الشرق الاسلامى بوجه عام وفى تاريخ الدولة الغزنوية بوجه خاص إلى أنه استطاع أن يوسع أملاكه فى بلاد الهند حتى شملت إقليم البنجاب بما فى ذلك لاهور وملتان وغيرها كما وسع أملاكه فى فارس حتى شملت العراق العجمى بما فى ذلك الرى وأصفهان . وقد بلغ من عظم شأنه أن الخليفة العباسى القادر سماه يمين الدولة وأمر بنقش اسمه على السكة . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٦٠ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٥٤ وغيرها . وانظر أيضا كتابنا : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ص ٣٠ — ٣١ وراجع كتابى St. Lane-Poole : Op. cit., pp. 285 — 290' Zambaur : Op. cit., p. 282.

(٣) فى الأصل : فرغ. (٤) فى الأصل : حاصر .

القلعة المذكورة ، فأخرجت الجثة ، وسيروها [1] إلى الخاقان فأحرقها .

ومنها أن مجير الدين يعقوب بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب قرع سور خلاط يوما ، والتمس حضور السلطان ليكلمه ، فأجابه إلى ذلك ، ظناً منه أنه ربما يتكلم فيما يعود إلى حصول الغرض . فلما حضر ، قال مجير الدين : إن البلاء قد نزح ، والضرر قد اتضح ، الطائفتان قد هلكتا . فهل لك أن تبارزني [2] فيعود الأمر إلى فيصل ؟ فقال له السلطان : ومتى يكون ذلك ؟ فقال : الميعاد بكرة غد . فلبس السلطان لأمة حربه صباح غد . وبلغ شرف الملك ذلك ، فسارع إليه وقال: ليس مجير الدين من أقران السلطان وأكفائه [3] وليس يليق بالسلطان أن يبارزه ، ولو علمت أن السلطان إذا أهلكه حصل مقصوده لرضيت به ، لكنني أتحقق أن ليس يحصل بهلاكه مطلوب ، وأنه مع انتسابه في بيت الملك في جملة الأتباع محسوب . فقال السلطان : هو كما ذكرته ، لكن كيف لا نقاتل [4] من يقاتل؟ وما عذري إذا دعوا نزال فلم أكن أول نازل ؟ ثم ركب وحده وساق إلى باب بدليس [5] على الميعاد ووقف وأعلم بحضوره ، فشتموه وأمطرت عليــــه السهام ، ولم يخرج مجير الدين فرجع .

ومنها أن السلطان استحضرني ليلة من الليالي ، فوجدت عنده عجوزاً داهية خُدعة [6] قد خرجت من خلاط برسالة مزورة عن الزكي العجمي ، وكان من ذوي الحظ عند الملك الأشرف ، والسلطان يعبّر عن لسانها

---

(1) في الأصل : سيرها .

(2) في الأصل : تنازرني .

(3) الأكفاء : النظراء .

(4) في الأصل : لم .

(5) بدليس : بلدة من نواحي أرمينية قرب مدينة خلاط ، وقد سمي باسمها أحد أبواب مدينة خلاط ، وكانت كما يقــول ياقوت ، ج ٢ ص ٩٠ ، تشتهر ببساتينها الكثيرة . وهي مدينة مسورة تحيط بها الجبال ، كما أنها شديدة البرد كثيرة الثلوج . انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٥٥ .

(٥) خدعه : كثيرة الخداع .

بثلاث لغات : بالتركية والفارسية والأرمنية. وفحوى[1] الرسالة أن زكي الدين استدعى من السلطان خمسة آلاف دينار يفرّقها في المندفاكية[2] والأجناد، فيجلب أهواءهم إلى السلطان فيرضيهم على تسليم خلاط، ثم يفتح باب الوادي صباح غد فيدخل السلطان. فلما شاورني في ذلك وجدني لم أهش له، فتعجب وقال : مالي أراك متوقفاً في هذا الأمر ؟ وكان حريصا على خلاط وأخذها، وقد عزم على تسليم المبلغ المطلوب إلى العجوز. قلت : إن المملوك قد اجتمع بزكي الدين وكلمه عن قضايا حين ورد عن صاحبه رسولا على السلطان، فوجده من دهاة عصره، وكفاة دهره[3]، ومن لا يخفى عليه الخطأ والصواب، وبعيد من مثل ذلك الرجل العاقل الدخول في مثل هذا المحظور المحذور. ثم إن كانت سعادة السلطان اقتضت تميله إلى الدولة، وترغيبه عن صاحبه في هذه الوهلة، فكيف يخاطر بنفسه في أمر يكون إتمامه موقوفاً على إرضاء طائفة مختلفي الأهواء، متباعدي الآراء، يستمال بمال، أو يغرّ بمنال ؟ وماذا يؤمنه أن يبوح بالسر واحد منهم فيهلك هذا إن كان المال قد طلبه لغيره، وإن قالت إنه طلبه لنفسه، فليس يخفى عليه أن خلاط إذا سلمها للسلطان يحصل له من الإنعام والإقطاع مايكون هذا المقدار في جنبه نزراً. ففترت عزيمته في ذلك حين[4] سمع كلامي. ثم إن حرصه على أخذها حمله على تسليم ألف دينار إليها إضاعة محضة، وقال لها : إن بان لنا صدقك بعلامة أخرى سلمنا إليك تتمة خمسة آلاف دينار. ورجعت ليلا ودخلت خلاط، وما كان للحديث أصل. وشاع الخبر في العسكر، ودخل بعض الخلاطية فأخبر عز الدين أيبك بأن الزكي يكاتب السلطان فقتله من غير ذنب صدر منه. ولما ملك السلطان خلاط، ظفر بالعجوز بعض السرهنكية، فأخرجوها[5]

---

(1) في الأصل : نجوى .

(2) المندفاكية : اسم لبعض فرق الجند، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى القبيلة التي تنتمي إليها

(3) كفاة : جمع كاف، وهو ذو الكفاية .

(4) في الأصل : حتى .

(5) في الأصل : فأخرجها .

من مدبغة ومعها زوجها شيخ هرم ، وأحضرت الذهب ، وقد نقصت منها ثلاثمائة دينار . وقيل إنها خنقت ، وكانت فائدة التزوير هلاكها وهلاك زكى الدين .

ومنها أن مترجمة عز الدين أيبك كتبها إلى الملك الأشرف ، وأخرى كتبها إليه مجير الدين يعقوب مُمسكتَينا فى الطريق ، وناولنى السلطان كلتيهما ، وساعدتنى همته على حلهما . وكان مضمونهما الشكوى ، مما ابتلوا به من الضائقة والبلوى . وقد ذكرا فيهما أن العدو قد سحر فلم يقع ثلج بحدود خلاط فى هذه السنة . وأخذت مترجمة أخرى كتبها الملك الأشرف إلى عز الدين متولى خلاط ، وكانت تتضمن أن الذى ذكرتم من سحر العدو ، وإقشاع السماء ، دلّ على ما ملككم من الرعب ، وإلا فمن المعلوم أن هذا الأمر لا يقدر عليه إلا الله . غير أن الشتوات تختلف[2] ، فتارة يتأخر الثلج فيها ، وتارة يتقدم . وها نحن عن قريب واصلون فى العساكر لكشف البؤس ، وإزالة الضرر ، وسنطردهم إلى ما وراء جيحون .

ومنها وفاة صاحب الديوان شمس الدين محمد المستوفى الجوينى ، وكان من كبار الصدور ، إذا توصل فى مرامى الكفاية وصل ، وإذا فوضل فى سوامى الكتابة بين أماثلها فضل ، عجم عود الدهر ، ولبس برود العمر ، وقد تقلد صحابة الديوان للسلطان الكبير[3] فى آخر عمره . ولما حضر الباب قلده السلطان صحابة الديوان فتقلدها سليم اللسان والقلم ، جيد القدم عن مخاضات التهم . وانتقل إلى جوار الله ودار كرامته والسلطان محاصر خلاط ، وكان قد جعلنى وصيه ، وكفّلنى مصالح أيتامه ، وأوصانى بأن ينقل تابوته إلى جوين من نواحى خراسان بمسقط رأسه ، ومحط أساسه ففعلت ، ولم يتعرض السلطان إلى شىء مما خلفه ، وسيرتها صحبة ثقاتى وثقاته إلى ورثته ، وتولى بعده صحابة الديوان الجمال علىّ العراقى ، وكان قبل ينوب عن شرف الدين

---

(١) فى الأصل : فأخرجها . (٢) فى الأصل : تختلف .

(٣) علاء الدين محمد خوارزم شاه والد جلال الدين منكبرتى .

وزير العراق فى بعض أشغال الديوان بها ، واتفق حضوره لمهمات صاحبه موت صاحب الديوان ، وكان السلطان إذ ذاك ينسب إلى الوزير ذنوبا من القصور والتقصير ، وتحقق أن المشرف[1] يسرق ، والخازن[2] خائن وأراد أن يليهم بوقح لا يعرف المجاملة والمداراة ، فأقام الجمال مقام صاحب الديوان استبدالا عن سيد حصور[3] ، بأسد هصور[4] ، وعن نجم لائح برجم رائح ، فنى منه بخبط وشماس ، وتلون واعتراض ، حتى صار الواحد من أرباب الديوان يبذل جملة من المال خدمة ليعفى عن المنصب . وطالما بذلوا الأموال فى تحصيله ، وكان معظم آثار كفايته منع الحقوق ، واحتباس الإدرارات ، وقطع التسويغات التى أجريت من قديم الزمان . وما كل نجيرة[5] لها كفاءة فى مناكحة الآداب ، ومتاجرة الكتاب . وما كل مسك يصلح للمسك وعاء ، ولا كل ذرور للعين كحلا[6] ، وأضيع الشيء عقد فى جيد خنزير ، وحد[7] بكف ضرير ، ونقش على بنان فاجر شرير .

لله در أنو شروان من رجل ما كان أعرفه بالدون والسفل
نهاهم أن يمسوا بعـــده قلما وأن يذلوا بنى الأحرار بالعمل[8]

فأول ما شوهد من وقاحته ، وظهر من علامات وتاحته[9] ، أن الحجاب لما أحضروه إلى الديوان ليجلسوه مقام صاحبه ، اتفق أن شمس الدين الطغرائى كان قد حضر الديوان ليسلم على شرف الملك ، وقعد بجنبه ، فلما دخل الجمال أخذ بيد شمس الدين ، فبعده عن الوزير وجلس بينهما ، فقال الطغرائى : أما تستحى ؟ فقال : هذا منصبى أقاتل من زاحمنى عليه .

---

(١) راجع صفحة ٢٩٤ حاشية ٤ .
(٢) راجع صفحة ٥٨ حاشية ١ .
(٣) حصور: عف عجب .
(٤) هصور : شديد البأس .
(٥) نجيرة: أصيلة الحسب .
(٦) فى الأصل : حلا .
(٧) حد : سيف .
(٨) فى الأصل : بنوا الأحرار .
(٩) الوتاحة : الخسة .

ومنها إحضار وزير علاء الدين صاحب آلموت[1] أسيراً ، وسبب ذلك أنه قد جاء إلى الجبل المشرف على قزوين ، كعادته فى كل سنة ، بالرعية المسخرة لحصد الحشيش وإدخاره للشتاء ، وكان أمراء العراق قد تحققوا تغيير رأى السلطان عليهم من حين أخلفوا الوعد فى إعادة غياث الدين أخيه إلى الخدمة[2] ، فساق إليها بهاء الدين سكر مقطع ساوة ، وكبسه بالجبل ، وأسر الوزير وسيره إلى خلاط ، فحمل إلى قلعة دزمار[3] وحبس إلى أن نفذ فيه محتوم القضاء ، وأذنت مدته بالانقضاء ، فقتل بعد أربعة أشهر.

ومنها ورود رسل الروم وكان السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو[4] وجه إلى السلطان ، شمس الدين التون أبه الجاشنكير[5] ، وكمال الدين كامياذ ابن إسحق قاضى أرزنجان[6] ، بهدايا وألطاف يرتهن بها رضاه ، وفيها ثلاثون بغلا موقرة أحمالا من الأطلس والخطابى والقندس والسمور وغيرها ، وثلاثون أو عشرون مملوكا بالخيل والعدة ، ومائة فرس ، وخمسون بغلة بالجلال . فلما وصلوا بها إلى أرزنجان تعذر وصولها إلى السلطان ، إذ كان ركن الدين جهانشاه بن طغرل صاحب أرزن الروم بمعاداة الدولتين مجاهراً ،

---

(١) هو علاء الدين محمد الثالث بن جلال الدين حسن الثالث ، ٦١٨ / ٦٥٣ هـ = ١٢٢١ / ١٢٢٥م . انظر كتابنا : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١٦٠ .

(٢) راجع ما جاء عن الخلاف بين جلال الدين منكبرتى وبين أخيه غياث الدين فى ص ٢٣٩ — ٢٤٥ . وانظر ص ٢٤٣ حاشية ٣ بوجه خاص .

(٣) دزمار : قلعة قريبة من تبريز . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ص ٥٨ .

(٤) هو علاء الدين قيقباذ الأول بن كيخسرو الأول سلطان السلاجقة الروم . وقد حكم من سنة ٦١٦ / ٦٣٤ هـ = ١٢١٩/١٢٣٦ م . انظر Lane-Poole : Op. cit., p. 155.

(٥) راجع ما جاء عن وظيفة الجاشنكير فى ص ٢٨١ ، حاشية ٥ .

(٦) أرزنجان : إحدى مدن أرمينية بين سيواس وأرزن الروم وبينها وبين كل من المدينتين أربعون فرسخا ، وكان غالب أهلها من الأرمن وفيها مسلمون ، وهم أعيان أهلها ، وتسمى أيضا أرزنكان . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ١٩٠ ، والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٥٤ .

وبموالاة الأشرف مظاهراً ، فأقام بأرزنجان إلى أن حوصرت خلاط ، وانتظم صاحب أرزن الروم فى سلك الخدمة، حضروا بما أصحبوا من التحف والألطاف ، فألزموا بأن يقدموها كما تقدم تقاديم الرعية من الأمراء وغيرهم، فيقف شمس الدين ألتون أبه مع الحاجب الخاص فى موقف العرض ويبرك على ركبتيه ، ثم يعد الحاجب ما أحضروه على ملأ[1] من الناس مفصلا ، غير راضين بأن ينزلوا صاحبه منزلة الأكفاء ، ولا ناظرين إلى ما رغب فيه من خالص الود والولاء . فجاوزه بما يليق ، وكلفوا الرسول ما لا يطيق . وانضاف إلى ذلك أنهم كانوا خطبوا ابنة السلطان لابن صاحبهم ، تأكيداً للألفـــة ، وإزالة للفرقة ، فما أجابوهم إلى ذلك . ثم إنهم ذكروا ما جرى لصاحب أرزن الروم معهم من سوابق الوحشة ، والتمسوا أن يأذن السلطان لهم فى أخذ أرزن الروم منه ، وأن يسلم صاحبها إليهم ليشفوا منه ما أوغر صــدورهم من المضاغنة والمخاشنة ، فغاظ السلطان اقتراحهم ذلك ، وقال : هذا المذكور المطلوب ، وإن هتك معى ستر الأدب ، ورفع حجاب الحشمة فقد دخل علىّ دخول العرب ، وقبيح بمثلى إحقار حق مقدمه ، وتسليمه إلى من يعطش إلى دمه .

ودخلت على شرف الملك يوماً فوجدت رسل الروم عنده جلوساً ، وهو يخاشنهم فى الكلام ويقول : لو أذن لى السلطان لدخلت بلادكم وحدى، وفتحتها بجندى ، وكلمات أخرى تناسب هذا المعنى . فلما خرجوا قلت له : ما سبب هذه المخاشنة ، وقد بدا صاحبهم بالإحسان محبة وولاء، ووردت[2] رسله تباعاً وولاء . قال : جميع ما جاءنى معهم من التقاديم لم يبلغ ألفى دينار.

وعادت رسل السلطان علاء الدين بأجوبة غير مرضية ، وأشغال غير

---

(١) فى الأصل : ملاء .   (٢) الأصل : وردت .

مقضية. وأصحبهم السلطان بجمال الدين فرج الطشت دار الرومى[1]، وسيف الدين طرت أبه أمير شكار [2] وفقيه خوارزمى يلقب بركن الدين. فلما توسطوا بلاد الروم، سبقتهم الرسل العلائية إلى صاحبهم، فأعلموه بأن الذى سعى فيه من إصفاء الموارد، وتجديد المعاهد، ومال إليه من التعاضد والتساعد، ضرب فى حديد بارد. فمال إلى الملك الأشرف[3]، وأرسل إليه كمال الدين كامياز يعلمه بأن الذى رغب فى مخالصته، وهمّ بمعاضدته، ليس يبقى على الرطب واليابس، وأنه رجع عما كان ينتظره منه كالآيس، وأن رده بغير السيف بعيد، والسعى فى إرضائه غير مفيد. وليس الآن إلا اتفاق الكلمتين والذب عن الدولتين. فمال من الملك الأشرف نفساً مرتاحة لإجابته، تواقة إلى موافقته، فاتفقا [4]. ولم توصل رسل السلطان إلى علاء الدين صاحب الروم إلا بعد عود كمال الدين كامياز من جهة السلطان الأشرف، والاستيثاق منه لصاحبه.

---

(١) راجع ما كتب عن وظيفة الطشت دار فى ص ٦٨ حاشية ١ .

(٢) يتحدث صاحب هذه الوظيفة على الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها، وعلى سائر أمور الصيد. وشكار لفظ فارسى معناه الصيد، وعلى ذلك فالمعنى المراد هو أمير الصيد. وهناك وظيفة أخرى متعلقة بالصيد وهى حراسة الطير، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثا على حراسة الطيور فى الأماكن والمزارع التى ينزل بها السلطان. انظر القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤ ص ٢٢ . والمقريزى: السلوك، ج ١ قسم ٢ ص ٦٤٤ حاشية ٢ .

(٣) وهو صاحب خلاط التى يحاصرها جلال الدين منكبرتى .

(٤) كانت المعاملة السيئة التى عومل بها رسل سلطان السلاجقة الروم وبالا على جلال الدين منكبرتى، إذ حدث بعد ذلك أن استولى جلال الدين على مدينة خلاط من صاحبها الأشرف موسى الذى عمل على استعادتها بشتى الوسائل، فكون سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠ م) حلفا ضد الخوارزميين كان فى طليعته علاء الدين قيقباذ سلطان السلاجقة الروم، وهو صاحب تلك الهدية التى رفضها الخوارزميون. وقد تمكنت الجيوش المتحالفة من إنزال الهزيمة بجلال الدين قرب مدينة خلاط، كما تمكن الأشرف موسى على أثرها من دخول المدينة بعد أن فر جلال الدين وجيوشه إلى أذربيجان. انظر ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ٢٢٧ . وانظر أيضا كتابنا: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٨٤ .

٨٧

ذكر ملك السلطان خلاط

فى أواخر سنة ست وعشرين وستمائة[١]

ولما طالت مدة الحصار ، وتلفت الأنفس بالغلاء ، واقتسمت بأيدى البوار ، وأكلت بها الكلاب والسنانير ، وذلت الدراهم والدنانير ، فصارت خلاط كلا[٢] لمن يأخذها ، ووبالا على من يملكها ، أدلى اسماعيل الإيوانى بعض أصحابه ليلا من السور ، فحضر السلطان وأعلمه بأن اسماعيل الإيوانى يلتمس من السلطان تعيين إقطاع له بأذربيجان ، ليسلم إليه المدينة ، فأقطعه السلطان سلماس[٣] وعـــدة ضياع بأذربيجان متفرقة ، وحلف له على تقريرها بيده .

وعاد الرسول وحقق السول ، ولبس الناس لأمـة حربهم[٤] ، فأدلى اسماعيل الحبال ليلا ، فطلعت أعلام ورجال ، واستعد النـاس للزحف . فلما أصبح الناس ، زحفوا على الثلمة حذاء المنجنيق ، فقاتل من بخلاط من بقايا الأجنـاد القيمرية[٥] قتالا شديداً ، فكادوا يخرجونهم . على أنهم ينظرون إلى الأبراج فيرون أكثرها مملوءة[٦] بالرجال والأعلام السلطانية . لولا أن الذين كانوا فى الأبراج زحفوا من ورائهم فولوا منهزمين ، وأسر

---

(١) ذكر ابن الأثير أن استيلاء جلال الدين منكبرتى على مدينة خلاط كان فى يوم الأحد الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٢٧ هـ ، أى فى الثانى من شهر أبريل سنة ١٢٣٠م كما يقول ديفرمرى . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ٢ ص ٢٢٦ . وانظر أيضا

Défremery : Fragments de Geographes et d'Historiens Arabs et persans Inédits, pp. 499 — 500. (J. Asist. Nov. — Déc. 1849).

(٢) الكلّ : الثقيل لا خير فيه . (٣) راجع ص ٢٠٧ حاشية ٤ .

(٤) لأمة : درع .

(٥) نسبة إلى قيمر ، وهى قلعـــة بين الموصل وخلاط . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ص ١٩٩ . (٦) فى الأصل : مملوة .

الأمراء جميعاً كالقيمرية ، والأسد بن عبد الله وغيرهم ، إذ كانوا لم يفارقوا مواقفهم من الأبراج . وتحصن عز الدين أيبك[1] الأشرفى ، ومجير الدين وتقى الدين ابنا الملك العادل أبى بكر بن أيوب بالقلعة .

ثم إن السلطان أراد أن تحمى[2] خلاط من النهب فغلبوه على رأيه فيها ، وحضرت الخانات والأمراء ، وقالوا : إن تطاول مدة الحصار قد أضعف عسكرك وأفنى خيلهم ودوابهم ، فإن منعتهم النهب ، قعد بهم الضعف عن لقاء عدو يتحرك ، ولعل الضعف يفضى بهم إلى تشتت الشمل ، وانتشار الحبل . فنفثوا عليه من هذا القبيل لسحت شرهوا إلى احتجانه ، حتى أرخى عنانهم فى النهب ، فنهبوا ثلاثة أيام تباعا[3] فكان قرحا[4] على قرح ، وملحا فوق الجرح . واستخرجوا دفائن أهلها وخباياهم بالمعاصير ، فمن وقع بيده واحد من الخلاطية عذبه أنواع العذاب . والذى شاع عند الناس أنه أمر بقتل من بها حتى استولى عليها فغير صحيح[5] . لكن جماعة كثيرة هلكوا بالعقوبات ، وكان الغلاء قد أفناهم ، فنزل مجير الدين وتقى الدين ، وطلبا الأمان لعز الدين أيبك فأمنه ، ونزل ثانى يوم نزولها ، فأبى السلطان أن يمكن عز الدين أيبك من تقبيل يده استخفافا به ، وغيظا عليه . وأجاب بعد مراجعات إلى أن يمكنه من تقبيل رجله ، وقال للسلطان بعض من كان يتعصب لعز الدين أيبك من الترك ، إن مجير الدين وتقى الدين كانا تحت حكمه وفى خدمته وقد قبلا يد السلطان . فقال السلطان: إن هوى صاحبه

(١) فى الأصل : الأيبك . ومع أنه سبق ذكر هذا الاسم صحيحا فى مواضع متعددة ، فلم يتنبه هوداس إلى كتابته صحيحا فى هذا الموضع . بل إن هذا الخطأ فى الطبعة العربية قد انتقل أيضا إلى الترجمة الفرنسية . انظر ص ١٩٩ من طبعة هوداس العربية ، ص ٣٣١ من الترجمة الفرنسية .

(٢) فى الأصل : أراد تحمى . (٣) فى الأصل : تباع .

(٤) القرح : أثر السلاح فى البدن .

(٥) لعل النسوى يشير إلى ماذكره ابن الأثير فى هذا المقام إذ قال : فلما ملك البلد صعد من فيه من الأمراء إلى القلعة التى لها وامتنعوا بها ، وهو منازلهم ، ووضع السيف فى أهل البلد ، وقتل من وجد به منهم ... . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٢٦ .

فيه حكمه على إخوته، وليس فيه هوى فنرد الأمور إلى أصولها ، وتترك الناس بأهويتهم . وكانوا يحضرون كل يوم السماط ، فيجلس مجير الدين وتقي الدين،ويقف عز الدين[1] .

ثم إن علم الدين سنجر أمير جاندار[2] الملك الأشرف موسى ، وكان محبوسا ، راسل السلطان على لسان المتوكل به يقول : قد بلغني أن السلطان أخذ يفرق عساكره إلى كور خلاط ليحاصروها مثل بركرى ،ومنازجرد، وبدليس ، وولاشجرد[3] ، ووان[4] ، وقسطانة[5] وغيرها ، ولا حاجة إلى ذلك ، وما يحوجه إلى تجشم الكلف والمونات وبين عز الدين أيبك وبين كل واحد من الولاة المستحفظين بالمواضع المذكورة علامة ؟ فإذا أعطاها للسلطان ملكها من غير تعب ولا نصب ، وهو إلى الآن يكاتبهم مشجعا ، ويصغر عندهم أمر السلطان مثبتا ، ويمنيهم حركة العساكر الشامية فأصغى السلطان إلى كلامه ، وطالب عز الدين أيبك بالعلامات فأنكرها ، فلم يقبل منه،وألزمه مكاتبته بالتسليم.فكاتب مأمورا، وأبى[6] أولئك التسليم . فحين أيس السلطان من حصول الغرض بمكاتبته ، قبض عليه وقيده ،ونقل

(١) يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن زوجة الأشرف موسى صاحب خلاط كانت من بين النساء اللائي وقعن في الأسر ، فتزوج بها جلال الدين منكبرتي في نفس الليلة التي دخل فيها المدينة .انظر D'ohsson : Op. cit., t. iii, p. 42.

(٢) إن موضوع وظيفة أمير جاندار السلطان « أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء الخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان » ..... وهو الذي « يقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر ..... وإذا أراد السلطان تعزير أحد أو قتله ، كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة ..... وصاحب هذه الوظيفة هو الذي يطوف بالزفة حول السلطان في سفره . انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٠ .

(٣) كذا في الأصل ، ولعلها ولاستجرد ، وهي مدينة من أعمال همذان . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ص ٤٣٢ .

(٤) وان : إحدى المدن القريبة من خلاط . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ص ٣٩٠ .

(٥) قرأها هوداس Houdas في النسخة الخطية خطأ « وسطان » . وقسطانة أو قسطانة ، قرية قريبة من الري في طريق ساوة . انظر ياقوت : معجم البلدان، ج ٧ ص ٨٦ .

(٦) في الأصل : وأبوا .

إلى قلعة دزمار(١) وبقى محبوسا إلى أن عاد السلطان من الروم بشمل مبدد النظام ، منحل العراق والأوذام(٢) ، وأخذت رسل الملك الأشرف تتردد فى الصلح ، أمر بقتل أيبك فى محبسه كيلا يتكلموا فى إطلاقه ، وحل وثاقه، وتنفيسه من ضيق خناقه ، فقتل تشفيا لما أوغر صدره بتصريحه الشتائم ، وضربه نوبة ذى القرنين محاكاة للسلطان وتشبها به ، إذ كان يضربها اقتداء بوالده .

وأما حسام الدين القيمرى ، فقد حبس بداره بالمدينة من غير قيد ، فاستأذن المتوكلين به يوما فى دخوله دار النساء ، فأذن له ، فدخل ، وقعدوا بالباب . وكان(٣) أصحابه نقبوا الجدار من وراء الدار وأحضروا له خيلا ، فركب ونجا إلى الملك الأشرف . ولما هرب المذكور ، قتل الأسد بن عبد الله المهرانى .

وأما حسام الدين طغرل صاحب أرزن ديار بكر ، فقد كان سأل السلطان على لسان المتوكل به أن يبعث ثقة من ثقاته إليه ليكلمه ، فأمرنى السلطان بالحضور إليه ، فمضيت واجتمعت به، فقال لى : قبِّل الأرض عنى بين يدى السلطان وقل له : أنا رجل غريب من أهل الشرق ، وقد طوّح الزمان بأسلافى إلى هذه البلاد ، وداريت القوم ، يعنى ملوك بنى أيوب ، بكل طريق حتى سلمت منهم ، وكنت معهم فى ليل مظلم أنتظر طلوع صبح النجح من جهة الشرق ، فحين طلعت الشمس وأضاءت الأرض ، تركت موضع رحلى(٤) مظلما ، ولى ابن أخ بأرزن قليل العقل ، طائش اللب ،

---

(١) انظر ص٢٦٣ حاشية ١ .

(٢) الوذم : رباط الدلو .

(٣) فى الأصل : وكانوا .

(٤) فى الأصل : رجلى . والرحل هو مسكن الرجل وما يستصحبه من الأثاث . ويشير النسوى هنا إلى قول الشاعر :

كبدر أضاء الأرض شرقا ومغرباً
وموضع رحلى منه أسود مظلم

ومن المهم أن نشير فى هذا المقام إلى أن هوداس ـ إذا كان قد قرأ هذه العبارة قراءة ـ

سفيه الرأى ، وأخشى أنه إذا سمع بقلة اعتناء السلطان بى يبيع بيتى بأبخس الأثمان . فإن كان السلطان نوى انتزاع ما كانت تحويه يدى عنها ، فهو أولى بها من غيره، فيسيّر إليها من يتسلمها ، قبل تمكن العدو فيه، ووقوع ما يعسر تلافيه ، وإلا فيصدر إليه توقيعا بتطييب قلبه . وإن أرزن وأعمالها مقررة على صاحبها ، موعودا بما يتاخمها بغيرها ، إذا أطلت عليها الرايات السلطانية فأجابه السلطان إلى ذلك حين أعدت رسالته ، وشرحت مقالته . وأمر بإزالة التوكيل عنه ، وأن يحضر كل يوم مجلس السلطان عند الإذن العام ، فيقف من صوب مجير الدين ، وتقى الدين من صوب . ثم إنه خلع عليه خلعة تامة ورده إلى أرزن ، وكتب له بها منشورا ، وسيجىء ذكر مجير الدين وتقى الدين وما آل أمرهما فيما بعد .

ولما ملك السلطان خلاط ، وبرزت الأوامر بإصدار تواقيع البشارة إلى كافة مدن الممالك، استخرجت إذنه فى أن أجعل طغراء التواقيع مثل طغراء تواقيع السلطان الكبير والده ، وصيغتها : « السلطان ظل الله فى الأرض أبو الفتح محمد بن السلطان الأعظم تكش برهان أمير المؤمنين » . فأنكر ذلك ولم يرض به ، وقال : متى صرت مثل واحد من كبار مماليك السلطان الكبير بالعسكر والخزانة، أذنت لك أن تجعل طغراء تواقيعى مثل طغرائه[1]، فخجلت وسكت . ولقد أنصف فيما قال فإنه لم يخط من عظم شأنه بعشار ، ولم يسبق غباره عند الفخار بمضمار .

= خاطئة فى الأصل الخطى نتيجة لعدم فهمه للمعنى الذى يقصده النسوى بهذا التشبيه، فإن هذا الخطأ قد انعكس أيضا على الترجمة الفرنسية ، فجاءت مطابقة للقراءة العربية الخاطئة ومخالفة لما يقصده النسوى ، إذ قال :

La place qu'occupaient mes pieds est restée méanmoins dans l'obscurité.

انظر ص ٢٠١ من طبعة هوداس العربية ، ص ٣٣٥ من الطبعة الفرنسية .

(١) راجع ما كتبناه عن الطغراء فى ص ٥٧ حاشية ٥ .

٨٨

ذكر سيرة السلطان بخلاط

بعد أخذها ونهبها وإقطاعه نواحيها

فلما استولى السلطان عليها وجرى من النهب ما ذكرناه، شغف بعمارتها وحرص على رأب صدعها، ولم شعثها، وندم على ما أطلق عليها من النهب والتخريب. وأين من النـــدامة نفوس مدروسة، وأجساد تحت أطباق الثرى مطموسة؟ فأطلق من الخزانة أربعة آلاف دينار ليجدد ما خربتها المجانيق [١] من السور، فعمر في أسرع وقت. وأقطع الكور من أعمالها الخانات والأمراء، واسترعى [٢] أورخان إقطاع سرمارى فأجابه إليها لسخط منه على شرف الدين أزدره، صاحبها، وسبب ذلك فتوره في وظائف الخدمة، وقصوره عما كان يلزمه من الملازمة مدة الحصار على خلاط. وقد حضر في مبدأ حصارها فلم تمض إلا أيام قلائل حتى طلب الإذن بالعود فأذن له، على إنكار مظهر، وسخط مضمر.

وأقام حسام الدين خضر ابن عمه مدة الحصار، وسار إلى مدينة أرجيش [٣]، فحاصرها ودعا أهلها إلى الطاعة، فأجابوه إلى الانقياد قبل استيلاء السلطان على خلاط، وأمتار [٤] العسكر منها أيام الضائقة، ووقعت خدمته تلك موقعاً مرضياً. فحين برز الأمر إلىّ بإقطاع سرمارى لأورخان، ضاق صدرى لحسام الدين خضر، لما كان بيني وبينه من أكيد أسباب الاتحاد، ووثيق أساس الوداد. فدفعت [٥] ذلك النهار بتوقيع [٦] أورخان ولم أكتبه، وعبرت [٧] على حسام الدين في عودى من الديوان [٨]، فشرحت له

---

(١) في الأصل: المناجنيق. (٢) في الأصل: استدعى.

(٣) أرجيش: مدينة قديمة من نواحى أرمينية الكبرى قرب خلاط، أكثرها أرمن نصارى. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج ١ ص ١٨١.

(٤) أمتار: جلب الميرة، وهى المؤنة. (٥) في الأصل: فدافعت.

(٦) في الاصل: بتوفيع. (٧) عبرت: مررت به. (٨) في الأصل: عن الديوان.

الحال، فقامت عليه القيامة، وحصل عنده من الاكتئاب ما كاد يبكيه ، وقال : هى مقابر آبائى (١) ، وموات أحياها أسلافى ، فما الرأى ؟ قلت : إنك قد خدمت السلطان بقدر قدرتك وغاية جهدك ، ولم أشك فى مرضاته عليك ، واعتنائه بك . فإن شئت أن يسلم بيتك فاطلبه لنفسك لا يردك . فأطرق طويلا ثم قال : ليس يمنعنى عما ذكرته إلا حقوق سلفت لشرف الدين أزدره علىّ ، وقد ربانى تربية الوالد الرؤوف ، والأب العطوف ، ومع ذلك أبيت (٢) الليلة التدبير، وأخمر الرأى والتفكير، وغداً أخبرك بما تنتج الفكرة. وفارقنا ، ثم أتانى بنفسه صباح غد راغباً وخاطباً ، وقد خدعته الدنيا فأنسته الحقوق، وعلمته العقوق . وحين علمت أن المقصود لا يحصل إلا بإرضاء شرف الملك ، أشرت عليه بذلك ، فدخل الأمر من بابه ،واتفق الحال على أن كتب خطه بعشرة آلاف دينار بربرة (٣) يوصلها إلى خزانته عند تملكها.

وانجر شرف الملك فى جرير المساعدة ودخل على السلطان ، ودخلت معه ، وقضينا الشغل ، وبرز الأمر بإقطاعه سرمارى ، وتمليكه إياها (٤) بنواحيها وقلاعها ، على أن يحتال فى قبض شرف الدين أزدره وابنه حسام الدين عيسى . وفارق باب السلطان إلى غيق (٥) إقطاعه القديم . واتفق أن السلطان وجهنى بعد انفصاله عن الخدمة بأيام قلائل إلى العراق فى عدة مهام يجىء شرحها فيما بعد، فوجدته بغيق، فضيفنى وأحسن ضيافتى، وقدم لى خيلا وبغالا وقماشا ومملوكا وبازياً (٦)،وذكر أنه استحضرهما بعلة تطهير أولادى، فلا يحضرا، وقال لى : ما بقى إلا عونك وإسعادك فى إتمام الأمر . ورأيت

---

(١) فى الأصل: اباءى. (٢) بيت الأمر : دبره .
(٣) راجع ص ٢٧٢ حاشية ٤ . (٤) فى الأصل : تمليكها اياه .
(٥) جاء هذا الاسم فى قول البعيث الجهنى :
ونحن وقعنا فى مُزينة وقعة غداة التقينا بين غَيق وعيهما
انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٦ ص ٣١٨ .
(٦) فى الأصل : بازى .

أصحاب شرف الملك يأتونه بالوصولات يطلق لهم ما عليه مما ضمن له أن يوصلها إليه بعد تملك سرماري، قلة إنصاف، وتجاهلا مشربا باستخفاف. فأرسلت إليهما بعض أصحابي وقلت لهما: إن رأى السلطان قد تغير عليكما، لتهاونكما فى خدمته، وقعود كما عن نصرته، وقد شافهت الأمير حسام الدين خضر بما يتلافى الخلل، ويمحو الزلل. فأحضرا لديه، وأسمعاما أمليت عليه، واتفقا معه على حكم ما تقتضيه[1] المصلحة فى إرضاء السلطان. ورحلت صوب العراق، فحضرا حين بلغتهما رسالتى، وقبض عليهما، وملك سرماري، وورد الخبر بذلك وأنا بتبريز.

---

(١) فى الأصل: يقتضيه.

٨٩

ذكر ورود رسل الديوان العزيز بعد ملك خلاط

وكان السلطان لما لبس الخلعة الواصلة صحبة فلك الدين وسعد الدين رسولى الديوان العزيز [١] أصحبهما [٢] رسولين من عنده ، وهما نجم الدين أوداك أمير آخور ، وجمال الدين على العراق ، فى شكر ما أنعم به عليه ، وأصحبهما خيلا تاتارية برسم التقدمة . وكانت تلك الخيل أشرف أمواله وألطف هداياه فى زعمه ، فأصحبا فى عودهما بمحى الدين بن الجوزى وسعد الدين بن الحاجب ، وأمروا بأن يتفرقوا فى طريقهم فرقتين ، فيعود رسل السلطان إلى بابه سالكين طريق أذربيجان ، ويتوجه رسل الديوان إلى الملك الأشرف صوب حران ، ففعلوا .

ووصل رسل الديوان بعد تملك السلطان خلاط ، وكانت حينئذ مكنوسة عن كل مأكول ، حتى عجزوا عن ضيافة الرسل . فشاورنا السلطان فى ذلك متفقين ، وذكرنا له العجز عن واجب ضيافتهم ، فقال : نحن نقضى شغلهم ونودعهم فى سبعة أيام ، فاحملوا إليهم عن ضيافتهم فى هذه المدة ذهبا من الخزانة ، وابسطوا فسعروها بين يديه ، فجاءت ألفى [٣] دينار تقريباً ، فأمر السلطان بأن يحملوا إليهم ألفين وخمسمائة دينار ، فحملت على يدى ويد مختص الدين ابن شرف الدين [٤] نائب السلطان بالعراق .

وقضى السلطان شغلهما قبل سبعة أيام . وكانا قد تكلما فى مجير الدين وتقى الدين ابنى الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وتشفعا [٥] فى إصحابهما إياهما إلى الديوان ، فما رأى السلطان ردهما فى المطلوب كله [٦] وأصحبهما [٧] تقى الدين وحده وودعهما . وركب إلى منازجرد ، فرتب على حصارها شرف الملك وعسكرى العراق ومازندران .

---

(١) راجع ما ماجاء فى الفصل السادس والثمانين ص ٣٠٧ — ٣٠٩ عن هدايا الخليفة العباسى لجلال الدين منكبرتى . (٢) فى الأصل : وأصحبهما . (٣) فى الأصل : ألفا .

(٤) فى الأصل : مختص الدين ابن أشرف الدين .

(٥) فى الأصل : تشفعا . (٦) فى الأصل : كلة . (٧) فى الأصل : فأصحبهما .

٩٠

ذكر مسير السلطان إلى الروم ومصافه بها، وانهزامه من عسكري الشام والروم

لما ملك السلطان خلاط، وسار إلى منازجرد لترتيب المحاصرة، وصل ركن الدين جهانشاه بن طغرل صاحب أرزن الروم ثانياً (١)، فأعلم السلطان باتفاق ملوك الشام والروم عليه، وقال: إن الرأى فى مبادرتهم قبل أن يجتمعوا فيصير الأمر خدعة، وإن قصد كل واحد منهم قبل الاستعداد، على حال التفرق والبعاد، أولى من تخليتهم وإتمام ما عزموا عليه من الاجتماع. فصوّب السلطان رأيه، وعرف نصحه، واتفقا على أن يرحل ركن الدين للوقت صوب أرزن الروم فيتجهز بها، ويرحل السلطان بعده بخمسة أيام فى عساكره، فيسوقا إلى نواحي خرتبرت (٢) فيقيمان بها منتظرين حركة العسكرين (٣)، فأيهما تحرك أولا ساقا إليه قبل اتصاله بصاحبه.

واستحضرنى السلطان عند تخمين هذا الرأى، وقال لى: اكتب لأخى (٤) ركن الدين توقيعا بناحيتى كنعين وخريشين من أعمال خرتبرت،

---

(١) كان صاحب أرزن الروم ابن عم لعلاء الدين قيقباذ سلطان السلاجقة الروم، وكان بينه وبين ابن عمه عداوة مستحكمة. كما أنه كان أحد الذين أعانوا جلال الدين منكبرتى على حصار مدينة خلاط بعد أن دخل فى طاعته. انظر ابن الأثير: الكامل، ج١٢ ص ٢٢٧.

(٢) راجع ص ٢٧٩ حاشية ١.

(٣) أى عسكر كل من علاء الدين كيقباذ سلطان السلاجقة الروم وكان يتألف من عشرين ألف فارس، والأشرف موسى وكان يتألف من خمسة آلاف ممن أحسن تدريبهم على أعمال الحرب. ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ٢٢٧.

(٤) كلمة «أخى» هنا بمعنى الصديق.

فكتبت وناولت السلطان فعلّم عليه، فقام ركن الدين وقبّل يده وودعه للوقت وركب.

ورمى السلطان أمراء العسكر على أيدى الجاويشية [1] والبهلوانية بسهام حمر هي عندهم علامة الاستنفار، يأمرهم بالاجتماع. ورحل صوب خرتبرت وأقام بها ينتظر اجتماع العساكر، فمرض بها مرضاً شديداً سقط فيه على الفراش، وأيس من الانتعاش. وكان الأمراء والخانات يحضرون الباب أيام مرضه على الرسم، متحملين للتفرق فى أطراف الممالك، فلو نعى السلطان لهم تسوّق كل واحد منهم إلى جهة منها فيملكها. وتواترت كتب ركن الدين صاحب أرزن الروم محرضة على الحركة، معلمة بتحرك العسكرين على نية الاجتماع، والسلطان فى شغل عن مطالعتها والوقوف عليها. وحين خف عنه المرض، ركب بعد اجتماعهما استمراراً على سوء التدبير، ولقد أحسن من قال:

إذا كان جد المرء فى الأمر مقبلا ... تأتت [2] له الأشياء من كل جانب
وإن أدبرت دنياه عنه تعذرت ... عليـــه وأعيته وجـوه المطالب

فترك شرف الملك بعسكره وعسكر العراق على منازجرد، وتمكين مقطع خوى على بركرى. وقد كان بعض العساكر الآرانية والأذربيجانية والعراقية والمازندرانية أذن لهم فى العود إلى أوطانهم فلم يستحضرهم، قلة احتفال وعدم مبالاة، وسار يطوى المنازل طيّاً، ولم يلو على شىء ليّا. وجرد أمامه أوترخان فى زهاء ألفى فارس برسم اليزك، فصادم بياسجمان عسكر أرزنجان وخرتبرت، فالتقاهم بكل أسمر كأن عاليته سقيت بالسموم، بحال طعنته الحيزوم [3] زاعف الخيشوم [4]. فشاعت الهزيمة فى الروم فقتلوا.

---

(١) فى الأصل: الجاوشيّة. (٢) فى الأصل: باتت.

(٣) الحيزوم: وسط الصدر ومايقوم عليه الحزام. وحيزوم أيضا اسم فرس من خيل الملائكة.

(٤) الخيشوم: أقصى الأنف.

وسمعت الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل، قال: كان السلطان علاء الدين كيقباذ يقول عند اجتماعنا به: ليس هذا العسكر الذى[1] ترونه من العساكر الذين[2] أتكل عليهم فى لقاء العدو، إنما رجالى وأبطالى وعسكرى الذين عليهم اتكالى عسكر الشرق، وأنهم واصلون. فلما وافاه الخبر المزعج بما جرى عليهم، زال عنه التمالك، وخانه التماسك، فرأينا عنده ما أقلقه وأكمده، وأضعف عن كل شىء قلبه ويده، وعزم على العود، واقتصرت همته على حفظ الدربندات[3] التى وراءه. فقوينا جأشه مثبتين إلى أن جاشت نفسه إليه، وتفرقنا على نية الاستعداد للمصاف، ولم يعتقد أنه يصل عن قريب. فلم يرعنا ثانى يومنا ذلك إلا أطلابه متواصلة، ونحن على غرة من ذلك، فكانوا يصلون ويقفون، فلو ساقوا على فورهم لأعضل الداء، وعسر الثبات، وعظم البلاد، فركبنا ورتبت العسكر.

نعم، ولما تلاقى العسكران، قويت ميمنة السلطان على ميسرتهم، وملكت عليها تلا كانت قد صعدته، فأردفت بطائفة من العسكر، فأنزلت ميمنة السلطان عن التل وطرحت الوادى، وتوالت الحملات عليهم فلم يثبتوا، بل انهزموا كاليعافير[4] الراعية راعتها الفوارس، ووقعت فيها الذئاب النواهس، وما كانوا يصدقون بانهزامهم، بل حسبوها حيلة معمولة إلى أن تحقق الكسر، وتوالى الأسر، وانكشفت الهزيمة، وترادفت الغنيمة، وركبوا أكتافهم. فلم يزل الرماح تقضى منهم أوطارها، والسيوف تبرد أوارها فى مجاهل لم يضرب عليها علم، ولم يسلكها حافر ولا قدم. وهكذا الى أن جنحت الشمس للأصيل، وأذن الطفل بالتطفيل[5]، ووقع خلق منهم فى شقيف[6] متهافتين من حر الطلب، وركض الأتراك والعرب. وأسر ألغخان،

---

(١) فى الأصل: الذين. (٢) فى الأصل: التى.

(٣) جمع دربند. راجع ص٣٦ حاشية ٧، ص ١٠٢ حاشية ٦، ص ٢٨٥ حاشية ٢.

(٤) اليعافير جمع يعفور، وهو ظبى بلون التراب.

(٥) الطفل: الشمس قرب الغروب. والتطفيل: دنوها للمغيب.

(٦) كذا فى الأصل، ولعلها سقيف أى مكان مسقوف لجأوا إليه ليحميهم الغارة.

وأطلس ملك ، وعدة من المفاردة ، فأمر علاء الدين صاحب الروم بضرب رقابهم . وأسر صاحب أرزن الروم بعد أن أحاطوا به ، فقاتل عن نفسه أشد قتال، وأمر بتقييده وحمل على بغل ، إلى أن جرّعه الزمان مر كاسه ، وقضى الأجل بانقطاع أنفاسه ، فقتل مظلوما ، ودفن مرحوما (١) .

هو الدهر لاتعجب من طوارقه ، ولا تنكر هجوم بوائقه (٢) ، عطاؤه فى ضمان الارتجاع ، وحباؤه فى قران الانتزاع. بينا يمنح المرء حتى يسلب (٣) ويبنى حتى يخرب . فاللبيب يستشعر الفجيعة ، حتى يؤدى (٤) الوديعة ، ويتمثل الفقدان ساعة تصافح الوجدان .

---

(١) ذكر ابن الأثير أن جلال الدين « مضى منهزما هو وعسكره ، لايلوى الأخ على أخيه وتفرقت أصحابه، وتمزقوا كل ممزق، وعادوا إلى خلاط فاستصحبوا معهم من فيها من أصحابهم ، وعادوا إلى أذربيجان فنزلوا عند مدينة خوى » . أما المقريزى فقد ذكر أن جلال الدين تقهقر فى عدة من أصحابه إلى تبريز .

انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٢٧ . والمقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٤٠ .

(٢) البائقة : الداهية . وفى الحديث الشريف: لايدخل الجنة من لايأمن جارُه بوائقه ، أى ظلمه وغَشْمَه ، أوكما يقول الكسائى غوائله وشره .

(٣) فى الأصل : يمنح المرحى يسلب . (٤) فى الأصل : يودى .

٩١

ذكر مسير الملك الأشرف إلى خلاط

ومراسلته للسلطان فى أمر الصلح

وملاطفته فى ذلك كرماً غذى بلبانه ، وعجن على مسكه وبانه

ثم ودع الملك الأشرف السلطان علاء الدين وفارقه ، واستصحب بعض عسكره إلى خلاط . وقد كان السلطان لما قذفته الجفلة إلى منازجرد، وجد شرف الملك قد ضايقها بالتخنيق، ونصب عليها عدة مجانيق، فأتى أهلها الفرج من حيث لم يحتسبوا . واستصحب السلطان شرف الملك بعسكره إلى خلاط، فلما وافاها تحمل ما أمكنه استصحابه[١] من الخزائن وأحرق الباقى، لقلة الظهر، وضيق الوقت ، وفارقها مخذاً السير[٢] إلى أذربيجان . فلما وصل إلى سكمانا باذ ، خلّف شرف الملك ومن كان معه من العراقيين هناك برسم اليزك ، ليكون حجابا دونه ومن يقصده ، وأقام بخوى . وأما وجوه الترك وذوو[٣] الوفاء والحفيظة من الخانات فلم[٤] يعرج واحد منهم على الآخر ولا على السلطان ، وكانوا يخففون كل مرحلة ما أثقلهم من الأحمال ، حتى امتد بهم الوجيف[٥] إلى موقان ، وتركوا سلطانهم خلسة لكل طامع ، وأكلة لكل جائع .

ولما علم الملك الأشرف أن شرف الملك هو المقيم بسكمانا باذ ، فاتحه بالمراسلة والملاطفة وقال : إن سلطانك سلطان الإسلام والمسلمين وسندهم[٦]،

(١) فى الأصل : استصحابها .

(٢) أى مسرعا . وقد نقلها هوداس خطأ عن النسخة الخطية « معدأ للسير » .

(٣) فى الأصل : ذو. (٤) فى الأصل : لم .

(٥) فى الأصل : الوخيف . وأما الوجيف فهو ضرب من سير الإبل والخيل وقد قال تعالى : « فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » أى ما أعملتم . سورة الحشر ، آية ٦ .

(٦) لا يخفى ما تحتمله هذه العبارة من معان تدل على مبلغ ما وصلت إليه الخلافة العباسية فى ذلك الوقت من ضعف .

والحجاب دونهم ودون التاتار وسدهم[1]. وغير خاف علينا ماتم على حوزة[2] الإسلام وبيضة الدين بموت والده[3]، ونحن نعلم أن ضعفه ضعف الاسلام، وضرره عائد[4] إلى كافة الأنام. وأنت قد حلبت الدهر أشطره، وعرفت نفعه من ضرره، وذقت حلوه ومره، فهلا ترغبه فى[5] جمع الكلمة ما هو أهدى سبيلا، وأقوم قيلا[6]؟ ولم لا تدعوه إلى الألفة التى هى أحمد فى البدو والعقبى، وأقرب إلى ما يقربه إلى الله زلفى؟ وها أنا ضامن السلطان من جهة علاء الدين كيقباذ وأخى الملك الكامل ما يرضيه من الإنجاد والإسعاد، وإصفاء النيات على حالتى القرب والبعاد، والقيام بما يزيل عارض الوحشة ويمحو سمة الفرقة.

ذلك وأمثاله، لطفا منه غذاه الله بلبانه ودره، وأطربه بنشوة خمره، وأريحية جبلت عليها خمرته[7]، وآيات فى الكرم لا تتلها إلا اسريرته، فوقعت الرسالة كل موقع حسن، وركن السلطان إليها، وأخذت الرسل تترد إلى أن تم الصلح. وكان آخر رسول ورد من جهته فى إتمام الصلح الشمس التكريتى[8]. وكنت قد رجعت من خلاط بعد قضاء أشغال بعثتُ فيها، وسأذكرها فى موضعها، فوجدت التكريتى بتبريز وقد فرغ من استحلاف

(١) كانت الدولة الخوارزمية فى الواقع بمثابة حاجز منيع بين المغول فى الشرق وبين أملاك الخلافة العباسية بوجه خاص وأقاليم غرب آسيا بوجه عام. ولم تكن هذه الحقيقة بخافية على أمراء المسلمين فى ذلك الوقت، وليس أدل على ذلك من أنه لما قتل جلال الدين منكبرتى فيما بعد، ذهب بعض خواص الأشرف موسى يهنئونه بقتل عدوه، فقال لهم: تهنونى به وتفرحون! سوف ترون غِبّه، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الاسلام. ما كان الخوارزمى إلا مثل السد الذى بيننا وبين يأجوج ومأجوج. انظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ٢٧٧.

(٢) فى الاصل: جوزة.

(٣) علاء الدين محمد خوارزم شاه.

(٤) فى الاصل: عايدا.

(٥) فى الاصل: من.

(٦) قرأها هوداس فى النسخة الخطية «قيلا» ثم عدلها فى الترجمة الفرنسية إلى «قبلا». والواقع أن القراءة الاولى هى الصحيحة.

(٧) جبل فلان على كذا: طبعه. والخمرة: الرائحة الطيبة. وفى الاصل: خبلت.

(٨) نسبة إلى مدينة تكريت، إحدى المدن الواقعة على نهر دجلة.

السلطان للملك الأشرف بما أراد من إزالة التعرض عن خلاط ونواحيها.

ووقف السلطان فى حلفه لعلاء الدين كيقباذ ، وطال مقام التكريتى لذلك ، وعبر شهر من الزمان والسلطان مصر على إبائه والتوائه ، يقول : قد حلفت لكم بجميع ما أردتم ، فخلوا السبيل بينى وبين صاحب الروم . والتكريتى يراجعه بالمطالبة باليمين ، فلم يحلف ، إلى أن تواترت الأخبار بوصول التاتار إلى العراق[1]، فحلف لصاحب الروم أيضا بالكف عن بلاده .

ولما كان السلطان حلف للملك الأشرف بإزالة التعرض عن خلاط ونواحيها ، استثنى سرمارى ، لكونها معدودة من أعمال أذربيجان قديما ، وألح التكريتى فى السؤال بالنزول عنها ، إذ كان صاحبها انضوى إلى الملك الأشرف تفاديا من تكاليف شرف الملك ، تصونا من تحكماته . فأجابه السلطان بالنزول عنها ، على أن يكتب بها توقيعا باسم الملك الأشرف . ورضى التكريتى بذلك ، وحين سُلم التوقيع إليه ، حضر وقبل الأرض بين يدى السلطان .

---

(١) كان ذلك فى عهد أجتاى «اكتاى» Ogotaï بن جنكيزخان ٦٢٤/٦٣٩ هـ = ١٢٢٧ /١٢٤١م . فقد جهز أجتاى جيشا من ثلاثين ألف مقاتل وأسندقيادته إلى اثنين من أشهر قواده هما شيرماجون Churmagun وبيدشو Baidshu وسار هذا الجيش إلى إقليم خراسان وعبره فى سرعة فائقة إلى الأقاليم الغربية من ادولة الخوارزمية، واستطاع أن يستولى على الرى وهمذان و غيرهما من مدن العراق العجمى . وما انبثق فجر سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م) إلا وكان هذا الجيش المغولى قد وصل إلى حدود أذربيجان . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ . وأنظر أيضا Howorth : Op. cit., part I, p. 130.

٩٢

ذكر مهمات بعثتُ فيها إلى العراق

منها أن رسولا من علاء الدين صاحب ألموت يلقب بفلك الدين ، ورد الأبواب السلطانية بعد ملكه خلاط ومعه عشرون ألف دينار مما يجب حمله من الأتاوة المقررة عليهم ، وكان فى كل سنة ثلاثون ألف دينار. وكان الواجب عليهم حق سنتين ، فحمل هذا المقدار ودفع بالباقى بحجج . فأرسلت إليها بالمال مطالبا ، وفى عدة قضايا معاتبا (١) .

ومنها أن السلطان لما حلف للديوان العزيز بأن يعد ملك الجبال عماد الدين بهلوان بن هزارسف ، وملك الأبوية (٢) شهاب الدين سليمانشاه من جملة أولياء الديوان ، وأن لا يحكم عليهم ولا يستنجد بهم ، ندم على ما فعل لإنكار شرف الدين نائب العراق على ذلك ، وتخطيئه (٣) رأى من أشار به إلى السلطان فى إجابة الديوان العزيز . وكان ذلك من جملة تدابير شرف الملك ، وأوهم السلطان أن مُلك العراق لا يستقيم لصاحبها إلا بطاعتهما ، وأراد السلطان إعادتهما إلى ما كانا (٤) من الخدمة والطاعة ، ولم يكاتبهما إلى أن يختبر بواطنهما فيعلم رغبتهما فى الدولة السلطانية أو ميلهما عنها . وحيث لم ير مكاتبتهما قبل اختبار ضمائرهما ، رأى أن يسيّر إلى أصفهان من إذا كاتبهما عن نفسه يصدقانه ، فوقعت قرعة الاختيار فى ذلك على اسمى ،

---

(١) كانت طائفة الاسماعيلية قد انتهزت فرصة تلك الفوضى التى حلت بأقاليم الشرق الاسلامى عامة ، والدولة الخوارزمية خاصة ، على أثر الغزو المغولى وأخذت تعيث فى البلاد فسادا . ولكنها بدأت تنكمش فى قلاعها بعد عودة جلال الدين منكبرتى من الهند ، ثم أخذت تتقرب إليه بعد أن أحل بها الهزيمة سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) ، وبعد أن أعمل التخريب فى حصون الاسماعيلية ونهب أموالهم وقتل وسبى واسترق عدداً كبيراً منهم . انظر ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٧ . وانظر أيضا كتابنا : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١٨٨ — ١٩١ .

(٢) فى الأصل: الايوه.

(٣) فى الأصل : تخطيته . (٤) فى الأصل: كانوا .

ووجهنى إلى العراق ، وتقدم إلىّ بالمضى أولا إلى أصفهان والاجتماع بهما بنائب العراق ومكاتبة الملكين من هناك ، فإن رغبا فى الخدمة ورجعا إلى الطاعة ، استحضر نجدهما ، ونجدة[1] صاحب يزد ، فأسير بهم وبنائب العراق إلى قزوين ، ثم أدخل بنفسى آلموت وأطالب علاء الدين بالخطبة ، وما قد يبقى عليه من الأتاوة ، فإن توقف فى أداء ما عليه منها ، يدخل العسكر بلاده فيوسعها[2] نهباً وإحراقا ، وسفكا وإرهاقا . فتوجهت نحوها ، على كره منى لتلك السفرة ، فلما حططت رحلى[3] بقزوين ، التقانى حاجب من حجاب شرف الدين نائب العراق بكتاب منه إلى كافة النواب ببلاده على الجادة[4] يأمرهم بتضييفى وإكرامى ، ففعلوا ما أمر ، وبالغوا على ما اقتضاه مذهب المروة ، وقد فاق صاحبهم فيها صدور زمانه ، وأكابر عصره وأوانه .

فلما نزلت بقرية سين[5] ، وهى على مرحلة من أصفهان ، أتانى بعض حجابه يشيرون[6] علىّ بالتوقف ريثما يتجهز هو ومن بها من الأكابر والعامة لتجشم الاستقبال ، فلم أفعل . وركبت أسوق حاثاً فى السير إلى أن أتانى من أصحابه من مسك عنانى وأنزلنى إلى أن وافانى شرف الدين والقاضى والرئيس والأمراء والصدور فى السواد الأعظم . فدخلتها فى الثامن والعشرين من رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة ، وأقمت بها إلى أن تراجعت الرسل

---

(١) أى فصائل من الجند .

(٢) أى يملؤها . وقد جاءت فى الأصل : فيوسّعها .

(٣) فى الأصل : رجلى . راجع ص ٣٢٣ حاشية ٤ .

(٤) أى على طريق سفره . وفى الأصل : ببلاده الجادة .

(٥) ذكر هوداس فى هذا الموضع من الترجمة الفرنسية أنها تحتمل أن تقرأ « شين » « Chin » ولعل ذلك يرجع إلى أنها وردت غير منقوطة فى هذا الموضع من النسخة الخطية . وهذا قول مردود إذ قد سبق ذكرها « سين » فى مواضع أخرى سابقة ، كما يؤيد ياقوت كتابتها على هذا النحو . راجع ص ١٣٥ ، ٢١١ من طبعة هوداس العربية ، ص ٢٢٤ ، ٣٥٢ من الطبعة الفرنسية ، وانظر ص ٢٣٣ حاشية ١ من هذه الطبعة .

(٦) فى الأصل : يشير .

من ملكى الأبوية [1] والجبال ، وقد وجدوهما راغبين فى الطاعة ، معاتبين على محو اسمها من دفاتر الجماعة ، ووصلت بعد أيام نجدهما ، وحضر محمود شاه صاحب يزد بنفسه . ثم ورد كتاب من زوجته بنت براق المستولى على كرمان [2] يذكر أن أباها على قصد يزد اغتناما لنهزة الخلو [3] ، ووصلا [4] فى شطن [5] العتو والعلو ، وأبا إلا على النفس الأمارة بالسوء [6] واتفقت مع شرف الدين على الإذن له فى العود إليها، احترازاً من حدوث مايعقب ملامة ، ويورث ندامة . ووصلنى على يد وزيره صفى الملك ألف دينار وخيل وقماش . وسرت صحبة نائب العراق بهذه النجدة إلى قزوين ، وهى أقرب البلاد من آلموت ، وأقاموا بها ودخلت آلموت .

---

(١) فى الأصل : الايوه.

(٢) هو براق حاجب ، أحد القواد فى دولة الخطا وقد دخل فى خدمة علاء الدين محمد خوارزم شاه ، واتخذ من الفوضى التى أعقبت غزو جنكيزخان للشرق الاسلامى فرصة لتأسيس أتابكية له فى كرمان سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢م) . وقد ظلت هذه الأتابكية خاضعة للخوارزميين خضوعا اسميا فى عهد جلال الدين منكبرتى الذى كان براق حاجب نائبا له .

انظر ما كتبناه عن أتا بكية كرمان فى كتابنا : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١١١ . وانظر أيضا الجدول رقم ١٧ ص ١٦٩ من نفس الكتاب .

(٣) فى الأصل : الخلوة . (٤) فى الأصل : وجلا .

(٥) الشطن : الحبل الطويل ، وجمعه أشطان .

(٦) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل . والمعنى لا يستقيم بهذا الوضع ، وبصح القول إما «وإقبالا على النفس» أو « وأبى إلا نزولا على حكم النفس الأمارة بالسوء » .

ذكر مسيرى إلى آلموت وكيفية الرسالة

كان السلطان مستشيطا غيظا من علاء الدين صاحب آلموت ، لأسباب معظمها إخلاف الوعد فى رد غياث الدين أخيه[١] ، وتجهيزه من آلموت فزاد البلة[٢] بقدر الكفاية من الخيل والعدة، فكانت الرسالة رسالة متعنت. وقد شرط السلطان علىّ أن لا أدخلها إن لم يلزم علاء الدين التقائى بنفسه ، وإنى لا[٣] أقبّل يده عند الاجتماع به ، بل أخالف جميع ما يقتضيه شرع الأدب من التعظيم والاحترام فى الجلوس وغيره .

فلما ذكرت لشرف الدين نائب العراق هذه الشروط قال : لك الخيار فى جميع ما أمر السلطان به . ولن[٤] يقدروا أن ينكروا فى شىء منها ما خلا أمر الالتقاء ، فإنهم ان[٥] يجيبوا إليه ، وذلك أن لهم أمداً معلوما ، لا[٦] تركب ملوكهم إلا بعد بلوغهم من العمر ذلك الأمد ، وصاحبهم هذا لم يبلغه بعد ، فلو شرطت عليهم هذه الشريطة وأبيت أن لا تدخل إلا بها لتعذرت الإجابة وتوقفت المصالح المتعلقة برسالتك غير أنى أبعث إليهم من ينبههم إلى[٧] ما أمر السلطان به من الالتقاء ، وأنت تتبع مبعوثى فتدخل من غير استنظار للجواب ، فإن أجابوا — وذلك بعيد — فهو المراد ، وإلا فلا تتوقف للأشغال المتعلقة بالرسالة .

ففعلت ودخلت ، والتقائى أكابر دولته وكان الأمر كما ذكر شرف الدين علىّ ، وأتانى الوزير عماد الدين المحتشم أولا ، وأراد أن أذكر له الرسالة ليثبت جوابها ملقيا لصاحبه ، فلم أفعل ، واجتمعت بعلاء الدين بعد ثلاثة

(١) راجع ص ٢٤٣ حاشية ٣ .
(٢) يقول العرب : زاد الطين بلة، أى أكثر مما يضر ويغضب . وفى الأصل: مزاج البلة.
(٣) فى الأصل : لم .
(٤) فى الأصل: لم .
(٥، ٦) فى الأصل: لم .
(٧) فى الأصل : ينبههم على .

أيام ليلا فى شاهق جبل ، وأوردت له الرسالة بما فيها من المخاشنة ، وهى عدة فصول : منها التماس الخطبة على ما كان فى زمان السلطان الكبير[1] ، وكنت أعرف أنهم ينكرون خطبتهم ، وكان القاضى مجير الدين باقيا، وهو الذى أرسله السلطان الكبير إلى جلال الدين الحسن والد علاء الدين محمد يأمره بالخطبة له فخطبت[2] . فكنت أخذت خط المجير بذلك ، فلما عرضته عليهم كذبوه وفجّروه[3] . وكان الوزير عماد الدين المحتشم جالسا على يمين علاء الدين،فأجلسونى عن يساره ، والوزير يجيب عن كل فصل،وعلاء الدين يتلقف ويعيد ما نذكره من غير زيادة ولا نقصان . وطال الكلام فى أمر الخطبة فما زادوا إلا على الإنكار. وكان الأمر أظهر من أن يكتم،ومابالعهد من قدم ، وقد عرف المقيم والمسافر ، والمنجد والغاير ، بمائة ألف دينار بتر ، كانوا يحملونها إلى الخزانة السلطانية العلائية كل سنة أتاوة مقررة .

ومنها أن بدر الدين أحمد ، بعض[4] أصحاب علاء الدين كان قصد التاتار بما وراء النهر رسولا منه ، فقال السلطان فى جملة الرسالة : إن علاء الدين يبعث المذكور لأستخبره عن كيفية الرسالة ، ثم أرى فيه رأيي فكان جوابهم عن هذا الفصل أن السلطان يعلم أن لنا بلاداً متاخمة للتاتار ولا بد لنا من مداراتهم دفعا للأذى عنها ، فإن ثبت عند السلطان أن رسالته كانت فى فساد

---

(١) علاء الدين محمد خوارزم شاه ، والد جلال الدين منكبرتى .

(٢) تولى جلال الدين حسن زعامة الاسماعيلية فى فارس من سنة ٦٠٧ / ٦١٨ هـ = ١٢١٠ / ١٢٢١ م . ومما يذكر عنه أنه لما شعر بما أصاب طائفته من ضعف بحيث أصبحت لا تستطيع مقاومة دول الأتابكة عامة والدولة الخوارزمية خاصة ، عول على إرضاء المسلمين عامة بأن ترك تعاليم أسلافه وأمر بإقامة الشعائر الاسلامية فى جميع القلاع التابعة له فى كل من قوهستان وسوريا ، بل أرسل سفراءه إلى الخليفة العباسى الناصر وإلى علاء الدين محمد خوارزم شاه ، وإلى الحكام من الأتابكة يعلن رجوعه إلى الدين الحق . وأتبع ذلك باحراق ما خلفه له آباؤه من كتب تحوى تعاليم الدعوة السرية .

انظر . Von Hammer : Histoire de l'Ordre des Assassins , p. 219

(٣) فجروه : رموه بالفجور .

(٤) كذا فى الأصل ، ويحسن كتابتها « أحد أصحاب » أو « من أصحاب » .

يعود إلى الدولة ، فنحن المذنبون فى ذلك لا هو ، فيبين السلطان لنا ذلك ويخجلنا ، ثم يقابل ذلك بما يرى .

ومنها مطالبتهم بما قد بقى من الأتاوة المقررة ، وحملها[1] إلى الخزانة من غير بخس ، فقد زعموا فى ذلك أن أمين الدين رفيق الخادم — وكان والياً بقلعة فيروزكوه[2] — قد أخذ حملا لهم قد حمل من قهستان إلى آلموت مبلغ خمسة عشر ألف دينـار ، فقلت إن الذى أخذ أمين الدين كان قبل انعقاد الصلح وتأكد العهد . قالوا : فى أى زمان كنا مخالفين،ولهذه الدولة غير موالين ولا مصافين ، وقد جربنا السلطان على حالتى السراء والضراء ، وتارتى الشدة والرخاء . ألم يخدم السلطانَ أصحابُنا بالهند وهو على أضعف أحواله بعد عبوره ماء السند ، ولما سمع السلطان ذلك ، اعترف بخدمتهم له فى ذلك الوقت ؟ أولسنا[3] قتلنا شهاب الدين الغورى على ولاء السلطان الكبير ومحبته[4] ؟ قلت : إن شهاب الدين الغورى قد خرب لكم بلاداً ، وسفك منكم دما ، ومع ذلك كله لا تسقط الأتاوة بهذه الأسباب . ثم زعموا أن شرف الملك قد أسقط لهم من الأتاوة المقررة عليهم عشرة آلاف دينار مستمرة . وأحضروا الحجة مكتوبة بخطى معلمة بعلامة شرف الملك . قلت : إن المال مال السلطان ، وليس يسقطه إلا خط السلطان . قالوا : إن جميع أموال السلطان مطلوقة بخط شرف الملك ، وإطلاقاته فى أى جهة

---

(١) فى الأصل : حملها.

(٢) فيروزكوه : قلعة فى إقليم طبرستان ومعناها الجبل الأزرق . وهناك قلعة أخرى تسمى بهذا الاسم بين هراة وغزنة . انظر ياقوت :معجم البلدان ، ج ٦ ص ٤١١ .

(٣) فى الأصل :والسنا .

(٤) قتل شهاب الدين ملك الدولة الغورية سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) . وقد ذكر ابن الأثير روايتين عن مقتله ، الأولى أنه قتل على يد الخطا بينما كان يتأهب لقتالهم . أما الرواية الثانية فهى القائلة بمقتله على أيدى الاسماعيلية الذين خافوا خروجه إلى خراسان وحصار قلاعهم فيها . وإنا لنميل إلى الأخذ بالرواية الثانية وخاصة بعد أن أيدها النسوى فى النص الذى نحن بصدده . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٩٨ — ٩٩ .

شاء من غير تضيق عليه فيها ولا اعتراض. وإن حكمه نافذ حتى فيما يصرفه إلى شهوات نفسه، ولذات يديه، فهلا ينفذ فيما يتعلق بنا ؟

وتقرر الأمر على أنهم يزنون منها عشرين ألف دينار ، ويمهلهم فى العشرة الباقية ريثما يشاورون[1] فيها السلطان. فوزنوها ذهبا غياثية غورية[2] أجود ما يكون من صنوف الركنى، وقد جرى فى هذا المجلس فصول أخرى فيها زيادة محاققة ومخاشنة، ولا حاجة إلى إعادتها.

وكان شرف الدين نائب العراق قد أصحبنى شخصا من جهته يعرف بكمال الدين المستوفى، وقد تولى وزارة سليمانشاه فى مهمات تتعلق بالعراق فلما استؤذن عليه وأذن له أن يتكلم حصر وعي[3]، وكان مشهوراً بذلاقة اللسان، وفصاحة البيان، فلما خرجنا قلت له : ما أصابك حتى حصرت[4] وأنت أنت ؟ قال : مخاشنتك علاء الدين فى الكلام - وهو الذى شق بطون الأكاسرة، وقطع أوداج الجبابرة - تركنى[5] باهتا مدهوشاً. وأيم الله ما اعتقدت أننا نخرج من مجلسه سالمين.

وكان الأمر بخلاف ما توهم المذكور، فإن علاء الدين قد خصنى من سائر الرسل السلطانية بمزيد الاحترام والبر، فأجزل العطاء، وضاعف على المعهود فى الصلات والخلع، وقال : هذا رجل صحيح، والإحسان إلى مثله لا يضيع. وكان مبلغ ما أنعم علىّ به من الجنس والنقد قرابة ثلاثة آلاف دينار، منها خلعتان كل واحدة منهما قباء أطلس، وكمة، وفروة، وفرجية، غشاء الواحد منها أطلس والأخرى خطائى. وحياصتان[6] وزنهما مائتا دينار، وسبعون قطعة ثيابا مختلفة، وفرسان بالسرج والساخت والسرفسار

(١) فى الأصل : يشاوروا .

(٢) نسبة إلى غياث الدين ملك الدولة الغورية .

(٣) أى توقف عن الكلام من خوف أو ضيق أو خجل . وفى الأصل : حضر وعى .

(٤) فى الأصل : حضرت.

(٥) فى الأصل : وتركنى .

(٦) الحياصة : سير يشد به حزام السرج . قاموس المحيط للفيروزابادى، ج ٢ ص ٢٩٩ .

والطوق ، وألف دينار ذهبا وأربعة[1] رءوس خيل[2] بالجلال ، وقطار جمال بختيات[3] ، وثلاثون خلعة برسم أصحابي .

وكنت قد بنيت بقلعتي بخراسان خانقاة[4] ، وهممت أن أشترى من آلموت أغناما أسبّلها وقفاً على الخانقاة ، إذ كانت الأغنام بخراسان أفنتها غارات التاتار . فلما علم علاء الدين بذلك بعث إلىّ يقول : قد بلغنى أنك تشترى الأغنام برسم الخانقاة ، ونحن نريد أن نشاركك فى الثواب فنسيّر إليك منها ما يكفيك . فكففت عن شرائها غير واثق بإنجاز الوعد ، ظانا بأنه أراد بذلك أن يمنعنى عن شرائها بآلموت . فوصل بعض الجوانية[5] بعد انفصالى عنه ومقامى بقزوين أياما بأربعمائة ضانية عشراً ، فسيرتها إلى القلعة ، ولم أدر ما حالها بعد الهرج والمرج ، ووقوع الاضطراب والهيج .

وأصحبت من جهتهم بأسد الدين مودود رسولا ، وكان السلطان قال لى : إن أرادوا أن يبعثوا معك الأسد مودود فامنعهم ولا تستصحبه . ولم أدر ما كان السبب فى ذلك ، فعرّفتهم ما قال السلطان عنه ، فلم ينزجروا لحرص الأسد على ذلك .

إذا أراد الله أمراً بامرىء[6] وكان ذا رأى وعقل وبصر
وحيـلة يعملها فى كل ما يأتى به مكروه أسباب القدر
أغراه بالجهـل وأعمى عينه وسلّه من عقله سل الشعر

---

(١) فى الأصل: أربع. (٢) فى الأصل : خيلا .

(٣) البخت : الإبل الخراسانية . انظر قاموس المحيط للفيروزابادى ، ج ١ ص١٤٣ .

(٤) خانقاه : كلمة فارسية معناها البيت، وجمعها خوانق. وهى معاهد دينية إسلامية للرجال والنساء ، كالأديرة فى المسيحية ، غير أن تلك المعاهد لم تكن يوما للرهبنة ، وإنما أنشئت لإيواء المنقطعين للعلم والزهاد والعباد ، كما كانت أماكن يختلى فيها رجال الصوفية للعبادة والتصوف. انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٨٢ حاشية ٤ .

(٥) الجوانية : فئة من مماليك السلطان ، ويسمون أيضا الخاصكية . انظر المقريزى : السلوك، ج١ قسم٣ ص٦٨٦ حاشية ٣ .

(٦) فى الأصل : بامرء .

وذلك أنه لما رأى رسالة معرضة بشكوى شرف الملك ، وأنه يكدّر علينا من يستصفيه من موارد العناية السلطانية ، ومغير علينا ما يستمحضه من خالص النية ، نقم عليه ذلك . واتفق رحيل السلطان من تبريز بغتة لفاجيء خبر التاتار ووصولهم إلى زنجان ، فبقي المذكور بتبريز . فلما وصل السلطان إلى موقان ، ورد عليه كتاب من شرف الملك يذكر فيه أن رسول آلموت قد كتب كتابا إلى التاتار مشتملا على فصول، منها حثّهم على سرعة الوصول . فسكت الكتاب وفتلته(١) ، وقتلت من صحبه ، فكان كما قيل :

محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا(٢)

---

(١) فتل الكتاب ، طواه . وفي الأصل : وقتلته .

(٢) هو سالم بن دارة أحد بنى عبد الله بن غطفان ، ودارة أمه ، وكان قد هجا بعض بنى فزارة فقال :

أبلغ فزارة أنى لن أصالحها ... حتى (...) زميل أم دينار

فاغتاله زميل وقال :

أنا زميل قاتل ابن دارة ... وراحض المخزاة عن فزارة

وفيه يقول الكميت :

أبت أم دينار فأصبح فرجها ... حَصانا وقلّدتم قلائد قوزعا
خذوا العقل إن أعطاكم العقل قومكم ... وكونوا كمن سِيمَ الهوان فأرتعا
ولاتكثروا فيه الضجاح فإنه ... محا السيف ماقال ابن دارة أجمعا

والمقصود بقوله، قلائد قوزع : الداهية والعار. انظر كتاب مجمع الأمثال للميدانى، ج ٢ س ٢٠٨ .

٩٤

ذكر عز الدين بلبان الخلخالى ومقتله

قد سبق ذكر بلبان الخلخالى، وأن السلطان حاصره بقلعة فيروزأباذ فاستنزله على أمان بذله، وقابل ذنوبه بالعفو والغفران، ضنا منه بكل باسل، وشجاع مقاتل. واستمر فى الخدمة إلى أن نزل السلطان بطوغطاب، فهرب ليلا إلى الحاجب على الأشرفى بخلاط، فأمّنه وآواه، وأكرم مقدمه وأعز مثواه. ثم سيره إلى أذربيجان، فمضى إلى جبال زنجان[١] يخيف السابلة، وينهب القافلة إلى أن وجهنى السلطان إلى العراق، فكتب له توقيعاً مطوياً على استمالة قلبه، وإزالة رعبه، يقول فيه: إنك لو اخترت المقام بالعراق، فقد تقدمنا إلى نائبنا بها أن يعين لك ولأصحابك إقطاعا يرضيك ويقنعك. وقال: إذا قربت جبال زنجان، فابعث إليه أحد أصحابك بهذا التوقيع.

وكانت المواعظ قبل تصدر إليه فلا تعمل فى صدره، والأمثال تقلب فى عينه، فلا تؤثر فى قلبه، حتى إذا بلغ الكتاب أجله، انخدع بكتاب حجمه صغير، وظاهره عند العقل تغرير. وكان المذكور قد ضجر مما كان فيه من مفارقة القرار، ومقارفة الأوزار[٢]، ومكابدة الأخطار، ووصل سهر الليل بذات النهار، فمال إلى الاستجام[٣] بعد اظهار الفساد، والجهار بالعناد.

هيهات لاتخدعهم إيماضة[٤] والغيظ تحت تبسم الآساد

فركن إلى قول من راسلته إليه، فقصد أصفهان، وكان السلطان قد كتب إلى شرف الدين يأمره بحمل رأسه إليه إن قصد أصفهان، ففعل.

---

(١) زنجان: إحدى المدن الواقعة فى أقصى بلاد الجبل من ناحية الشمال، وعلى الحدود الجنوبية لأذربيجان، وتنسب إليها جبال زنجان، وهى تسمى أيضا زنكان. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٠٧. وانظر أيضا القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤ ص ٣٦٩. وراجع خريطة بلاد فارس.

(٢) قارف الوزر: ارتكبه متعمداً.

(٣) فى الأصل: الاستجام.

(٤) إيماضة: بريق. يريد التبسم وظهور الثنايا.

٩٥

ذكر جهان بهلوان أزبك باين ووصوله من الهند إلى العراق

قد سبق ذكر جهان بهلوان أزبك باين مقدّم عسكر السلطان بالهند، وأن السلطان لما عزم على الطلوع من ديار الهند خلفه بها نائباً عنه فيما كان يملكه من هذه[1]، فأقام بها هذه السنين وأحسن سياستها، وانتشرت هيبته فيما يليها إلى أن قصده عسكر شمس الدين إيلتمش صاحب لاهور[2] ودلهى[3] إلى ما يلي درب قشمير، فطردوه عنها، وتوقته الخدمة السلطانية إلى قصد بابه، فتوجه نحوه، وتخلف أصحاب السلطان مثل الحسن قزلق الملقب بوفاء ملك وغيره، وانضموا إلى إيلتمش.

ووصل جهان بهلوان إلى العراق، وكنا بقزوين عند اشتغالى بأمر آلموت، فكاتبنى وكاتب شرف الدين نائب العراق معلما بوصوله ومعه زهاء[4] سبعمائة فارس لقاطات المنون، ونفاثات الحرب الزبون، فشاورنى شرف الدين فى خمسة آلاف درهم يحملها إليه من مال العراق معونة له على نفقاته وعوارض حاجاته، فاستحقرتها له وعرفته منزلته عند السلطان وحسن نيته فى حقه، وأنه إذا اتصل به لم يقدم عليه أحداً، فحمل إليه عشرين ألف[5] دينار.

وقد وصل توقيع سلطانى بعد أيام أن يُحمل إليه من مال العراق

(١) فى الأصل: منها هذه.

(٢) فى الأصل : نهاوور.

(٣) فى الأصل : دلى.

(٤) فى الأصل : زها.

(٥) فى الأصل : عشرون ألف.

عشرون ألف دينار ، وأن يشتى بالعراق ليزول ما به من وعثاء[1] السفر ، وما بدواب عسكره من الضعف ، ثم يقصد الخدمة أوان الربيع . وكان وصوله إلى العراق صادف عود السلطان من الروم على الوجه الذى سبق ذكره . فقد ورد ضمان إلى الارتياح[2] بمشاهدته ، فلم يسدد القدر نحو المراد سهامه ، وحال التاتار بينه وبين ما رامه ، وقيل بعد انتشار التاتار بسكاناباذ فى سنة ثمان وعشرين وستمائة .

---

(١) فى الأصل : وعثا .

(٢) فى الأصل : الارتياج .

٩٦

ذكر مفارقتى شرف الدين نائب العراق بقزوين وتوجهى إلى أذربيجان حين لم أملك عنان الاختيار

ولما عدت إلى قزوين ومعى المال الذى قد تسلمته من آلموت والأسد مودود رسول صاحبها ، بصدر من التقاديم طائل ، ورد الخبر بوصول التاتار إلى اسفراين ، وهى كورة من كور خراسان ، وكان الملاعين لما بلغهم عود السلطان من الروم بجمع مفرّق ، وشمل مبدد ممزق ، اغتنموا ضعفه وطلبوه[1] .

وودعنى شرف الدين لما سمع بخبرهم ، ورحل صوب الرى ليرتب أحوالها ، ويدبر فى أمرها ما يقتضيه[2] الوقت . ووعدنى بأن يوجه إلىّ من هناك من يخفرنى فى العراق ، إذ الطرق كانت قد تشوشت ، فصارت للصوص مصايد ، وللقطاع مراصد ، فعجله التاتار عن ذلك ، وهجموا عليه بالرى ليلا . فركب أكتاف الليل إليهم مجفلا إجفال الظليم ، وسار إلى

(١) أورد ابن الأثير حوادث هذه الحرب ضمن ماتكلم عنه من حوادث سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م) . كما ذكر أن مقدم الاسماعيلية هو الذى أوعز إلى المغول بمهاجمة الدولة الخوارزمية . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن هذه الحرب لم تكن الأولى التى وقعت بين المغول وبين الخوارزميين بعد غزو جنكيزخان ، فقد سبق للمغول أن خرجوا إلى البلاد الاسلامية فى حروب أشبه ماتكون بحروب العصابات ، فشنوا غارتين على البلاد الاسلامية فى سنتى ٦٢٤ ، ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ ، ١٢٢٨ م) ، وحلت بهم الهزيمة فى المرة الأولى ، وكان النصر حليفهم فى الثانية . ومع ذلك فقد عادوا إلى حيث جاءوا ، مما يدل على أن غزوهم هذا لم يكن نتيجة تدبير أو تنظيم . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ــ ٢٣١ . وانظر أيضا D'ohsson : Op. cit., t. iii, p. 27 نقلا عما كتبه الجوينى فى كتابه جهان گشا .

(٢) فى الأصل : تقتضيه .

أصفهان وورد الخبر عليّ بذلك وأنا بقزوين ، فاستظلمت ضوء النهار ، واستخشنت جانب القرار ، وقمت من الحياة على شفا جرف هار . وكان الخبر قد شاع فى العراق بما كان معى من حمل آلموت ، ومعى لخاصتى مثله أو دونه بقليل . فخاطرت بنفسى فى قطع مكامن مفسدى حلبر وجولدز وغيرهما من العراق إلى أذربيجان .

ملاعب جِنَّةٍ[1] لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

وانضم إلى نصرة الدين أخو نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح ، وكان حينئذ وزيراً بمازندران ومعه حملها ، وصفى الدين محمد الطغرائى وكان قد سيّر من الباب السلطانى لكشف مازندران ، فاتفقنا على المسير ، ولم نعرف حمّاماً ، ولا برد المياه إلا لماماً ، إلى أن وصلنا إلى تبريز والسلطان بها ، والشمس التكريتى رسول الملك الأشرف حاضر ، فأمرنى السلطان بأن أحضر رسول آلموت بالمال عند حضور التكريتى ففعلت ، وقدمت الحمل على رءوس الأشهاد وهو حاضر يسمع ويرى ماجرى .

(١) فى الأصل : خنة ، والبيت للمتنبى .

٩٧

ذكر وصول مقدمة التاتار إلى تخوم أذربيجان ورحيل السلطان من تبريز إلى موقان [١]

كان السلطان قد جرد يرغو أحد بهلوانيته ليكشف بالعراق خبر التاتار . فلما وصل مرج شروان[٢] ، وهو بين زنجان [٣] وأبهر [٤] ، صادم يزك التاتار ، ومعه من أصحابه أربعة عشر نفسا ، فلم ينج غيره ، فرجع المذكور إلى تبريز بالخبر المزعج ، وكان السلطان معتقداً أن التاتار يشتى بالعراق ولن يتعدى[٥] إلى أذربيجان إلا فى الربيع ، يمنى نفسه بأمل كاذب ، وظن خائب ، ففاجأه هذا الخبر بعد عوده من الروم ، وقبل رمّ الشعث ، ورأب الصدع ، وأسو ما فشا فى عسكره من كلوم الكسرة ، فرحل من تبريز إلى موقان ، إذ كانت عساكره بها متفرقة فى مشاتيها .

فودع التكريتى وأصحبه بمختص الدين بن شرف الدين علىّ نائب العراق رسولا من جهته ، وعجلته الحادثة من أن ينظر فى أمر حرمه وأعزته ، فيسيرها إلى بعض قلاعه الحصينة ، فخلفها بتبريز مقدراً أن يومه

---

(١) أورد ابن الأثير حوادث وصول المغول إلى أذربيجان وهو فى معرض الحديث عن حوادث سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م) .

انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٢) المرج : الأراضى الواسعة فيها نبت كثير تموج فيها الدواب أى تذهب وتجىء . وأصل المرج القلق ، ويقال مرج الخاتم فى يده مرجا إذا قلق . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ص ١٥ .

(٣) راجع ص ١٤٩ حاشية ٢ .

(٤) أبهر : إحدى مدن بلاد الجبل ، وتقع بين قزوين وزنجان وهمذان . وتسمى أيضا أوهر وقيل إن هذه الكلمة تتكون من مقطعين « آب » وهو الماء و « هر » وهو الرحا ، وعلى ذلك فمعناها ماء الرحا . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ٩٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٦٩ .

(٥) فى الأصل : لم يتعد .

ذلك آخر عهده بأعزته ، وخلف شرف الملك بتبريز ، وسار فيمن معه من خواصه متوجها إلى موقان حاثاً فى السير ليجمع بها متفرق عساكره ، ومشتت أجناده . ولم يستصحب يومه ذلك من أبناء جنسى غيرى .

وكان مجير الدين يعقوب بن الملك العادل يلازمه فى الطريق ويكلمه ، فرأيته إذا غاب مجير الدين عنه تنحدر الدموع من عينيه على خديه لما يتوهمه من زوال ملكه ، ويتوقعه[1] من هلكه ، ولمفارقته الأهل والأعزة على يأس من الاجتماع ، وتركه إياهم بالعراء[2] معرضة للأعداء فلما وصلنا إلى قرية أرميان ، نزل وعلقوا على الخيل ، فاستدعانى إلى بين يديه لحضرته ، فناولنى كتابا ورد عليه من والى قلعة بلك[3] ، وهى من حدود زنجان ، يذكر فيه أن التاتار الذى صادم برغو بين أبهر وزنجان قد أقام بمرج زنجان ، وقد بعثت إليهم من عدهم فكانوا سبعمائة فارس، فسر بذلك وخف مابه من ثقل الهم ، وقال :

قد ظهر أن هذه الطائفة ماجهزت إلى زنجان إلا لتملكها وتقيم[4] بها. فقلت : قد يمكن أن يكون هذه الشرذمة يزكا للتاتار ومعظم العسكر وراءهم فلم يعجبه ذلك ، وقال : لا يجرد التاتار إلينا يزكا فى سبعمائة فارس ، بل فى سبعة آلاف فارس ، وما كان يختار حينئذ أن يحاقق ، بل يقال ما يخفف عن قلبه الهم .

ورحل من هناك صوب موقان فوصلها ، ووجد عساكره متفرقة ، منهم من أقام بها ، ومنهم من اختار لمشتاه شروان ، ومنهم من امتد إلى المتكور. فوجه إليهم البهلوانية بقداح كانت علامات الاستنفار والاستحضار ، وقد هجم التاتار قبل اجتماعهم فانتفض نظم ذلك التقدير وانحل فتل ذلك التدبير ، وإذا أراد الله بقوم سوءا[5] فلا مرد له وما لهم من دونه من وال .

---

(١) فى الأصل : ويتوهمه .

(٢) فى الاصل : بالعرا.

(٣) راجع ص٢٧٧ حاشية ٥ .

(٤) فى الأصل : واقامتهم.

(٥) فى الأصل : سوء .

وكان قد ركب يوما للصيد بموقان فقال لى : اسبقنى إلى ذلك التل ، وأشار إلى تل كان قدامه ، واكتب توقيعا إلى نائب شرف الملك بأردويل ، وتوقيعا إلى حسام الدين تكين تاش بقلعة فيروزأباذ ، بأنا قد وجهنا للأمير يغان سنقر شحنة خراسان ، وللأمير أرسمان بهلوان شحنة مازندران ، يزكا يكشفان خبر التاتار ، وقد أمرناهما أن يرتبا خيلا بأردويل ، وخيلا بفيروزأباذ ، فيقوما بكل ما يحتاج إليه الخيل المرتبة فى هذه المدة ويريحا علتها . فسقت إلى التل ، وكتبت التوقيع قبل وصوله إلىّ وناولته ، فعلّم عليه ، وانفصل(١) المذكوران على أن يرحلا للوقت . وبلغنى أنهما أقاما فى بيوتهما إلى أن كبس التاتار السلطان بموقان على غرة منه ، واتكالا على يزكه ، واعتماداً على أن الأخبار تأتيه من صوبهما(٢) .

---

(١) فى الأصل : وانفصلا .

(٢) صور ابن الأثير ما كان عليه جلال الدين من ضعف فى الفترة التى عاود المغول فيها غزو أراضى الدولة الخوارزمية ، وعلل ذلك بسوء سياسته التى سار عليها منذ عاد من بلاد الهند . إذ بدلا من أن يعمل على اكتساب رضاء جيرانه فى الخارج ويكوّن حلفا إسلاميا يقف فى وجه المغول ، وبدلا من أن يعمل على كسب محبة رعيته حتى يضمن ولاء الأهالى إذا ماظهر الخطر المغولى ، بدلا من ذلك نرى سوء سياسته تؤلب عليه جيرانه ، إذ اعتدى على أملاك الخليفة وأملاك الأمراء المسلمين فى بلاد مابين النهرين ، كما أنه غزا أذربيجان وجورجيا ، وناصب طائفة الاسماعيلية العداء ، تلك الطائفة التى ألبت عليه أعداءه وشجعت المغول على إعادة غزو الدولة الخوارزمية ، وحينئذ لم يجد جلال الدين من بين الحكام المسلمين من يؤازره ضد المغول . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص٢٣٠ . وإذا كان جلال الدين قد ظهر فى ثوب الحاكم المستبد فى دولته ، فإن هذه السياسة قد أدت إلى أن ينفض كبار رجال دولته من حوله ، بل إلى إحاطته بشبكة من الدسائس والمؤامرات . انظر Howorth : Op. cit., t. i, p. 130.

٩٨

ذكر كبسة السلطان بحد شيركبوت ، كبسه التاتار

لما انفصل اليزك ، وحث السلطان البهلوانية فى جمع العساكر ، اشتغل[١] بالصيد ، وهو إذ ذاك فى قلّ من العدد زهاء ألف فارس من خواصه ، فنزل ليلة بقرب شيركبوت ، وهى قلعة بنيت على تل بموقان يحيط بها خندق بعيد القعر ، متسع العرض ، ينبع الماء منه فيفيض فيسقى البلد ، لا يعبر[٢] إليها إلا بجسر[٣] يرفع عند الاستغناء عنه ، وكانت قد خربت فى مبدأ خروج التاتار فعمرها شرف الملك حين أفرد السواقى لنفسه من نهر أرس ، على ماذكرناه .

وكان دكجك نوين السلاح دار قد سيره السلطان من خلاط عند حصارها إلى خوارزم يزكا يكشف أخبار التاتار ، فكبس المذكور طائفة منهم ببعض تخومها ، فقتل أكثرهم وأحضر البعض معه إلى خلاط . وكان فيمن أحضر شخص تاتارى أبقى عليه السلطان وحده فلم يقتله . فلما نزل حذاء قلعة شيركبوت ، أمر بالقبض عليه احترازاً من أن يقفز إليهم فى ذلك الوقت فيعلمهم بحال السلطان وتفرق عسكره . وكان أهله وولده عندهم بخوارزم ، وسلمه إلىّ وقال لى : اصعد به إلى قلعة شيركبوت فقيده بها وسلمه إلى من هو الوالى عن شرف الملك بها . ففعلت ، وهجم الليل ، فبتّ بالقلعة وليس معى من أصحابى إلا ثلاثة وشاقية[٤] ، وسائر أصحابى وما كنت أستصحبه فى تلك السفرة من دوابى وأسبابى بالمخيم . فلما أصبحت ، قصدت الخدمة فوجدت الخيام عنهم خالية ، والأمتعة مطروحة ، والفهود مربوطة ، والبزاة على القفافيز مشدودة .

كأن[٥] لم يكن بين الحجون إلى الصفا[٦]
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

---

(١) فى الأصل : اشتغل .
(٢) فى الأصل : لا تعبر .
(٣) فى الأصل : الا جسر .
(٤) فى الأصل : ثلاث .
(٥) فى الأصل : كأنّ .
(٦) فى الأصل : الصفاء .

فعلمت أن المحذور قد وقع ، وأن السلطان قد كبس ليلا ، ولست أعلم بسلامته ، ولم أشك أن قلعة شيركبوت لا تثبت على حصار التاتار [1] . فطفقت أتبع السلطان والتاتار وراءه [2] ، وقد ضاقت علىّ الأرض بما رحبت ، وانتفضت عن جميع ما كسبت يدى ، فأسير متحققاً أن طائفة منهم التى كبست السلطان قدامى ومعظم عسكرهم ورائى . فوصلت إلى «سلطان خوى» ، وهو النهر الذى أفرده شرف الملك للسلطان من نهر أرس ، فوجدت هناك من أغنام التركمان على جسره ما لا يحصى كثرة ، فلم أجد للعبور مسلكا ، فخاطرت بنفسى ، ورميت الفرس فى النهر ، وأراد الله بسلامتى فعبرته وجئت إلى ظاهر بيلقان ، فأخبرت أن شرف الملك بها ومعه حرم السلطان وخزائنه ، فلم أر الاجتماع به احترازاً من نشبة تورث ندماً ، وتعقب ألما .

وكانت لى ببيلقان جملة من الخيل والقماش فحسبتها كأن لم تكن [3] . وواصلت السير بالسرى حتى وصلت إلى كنجة ، ووصل التاتار إليها ثانى يوم وصولى ، وقد خالف الرأى غيرى من أصحاب الديوان ممن [4] صاحب شرف الملك فى ذلك الوقت ، فإنه لما جاهر بالعصيان عند احتداد جمرة التاتار واشتداد أمرهم ، سلكهم فى الأصفاد وطالبهم الأموال ، فعصروا وعذبوا ، لولا أن الله منّ عليهم بظهور السلطان ونزول شرف الملك من قلعة حيزان [5] ، لكانوا معدودين فى زمر الهلكى ، وجملة القتلى .

---

(١) كانت هذه الحرب التى شنها المغول على أقاليم الدولة الاسلامية فى عهد أجتاى Ogotai ابن جنكيزخان . كما كان يتولى قيادتها اثنان من أمهر القواد المغول وهما شيرماجون Churmagun وبيدشو Baidshu . انظر Howorth : Op. cit., part i, p. 130 .

(٢) كان المغول لا يهتمون فى هذه الفترة بشىء سوى مطاردة جلال الدين منكبرتى بغية القبض عليه ، حتى إذا ما تم لهم القضاء على رأس الدولة الخوارزمية ، اطمأنوا إلى إخضاعها فى سهولة ويسر . لذلك نرى أن حركات المغول وتنقلاتهم فى أراضى الدولة الخوارزمية فى هذه الفترة كانت مقيدة تماما بحركات جلال الدين وتنقلاته فيها .

(٣) فى الأصل : كأن لم يكن .

(٤) فى الأصل : من .

(٥) حيزان : إحدى مدن أرمينية ، وهى قريبة من شروان . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٨١ . وتقع هذه المدينة وسط أرض جبلية وتمتاز بكثرة أشجارها ، وبخاصة شجر البندق . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

٩٩

ذكر تسيير السلطان مجير الدين يعقوب إلى أخيه الملك الأشرف موسى

قد ذكرنا أن السلطان قد استصحب مجير الدين عند مسيره من تبريز إلى موقان ، وقد استأنس به . وكان يركب معه أيام مقامه بموقان للصيد فيشتغلان به من أول النهار الناهر ، إلى أن ألقت ذكاء[1] يمينها فى كافر ، ويحضره السلطان مجلس الشراب فى الليل إلى أن كبسه التاتار ونجيا ، فأوحى إليه أن الذى دهمه من حادث التاتار ليس مما يختص به، وبما يحويه من الملك بل لو مد لهم من طول المهلة لكانت بقية الإسلام فى معرض الهلك،فليمض إلى الملك الأشرف وليعلمه بأن الشر قد طارت شراره ، والبلاء قدتضرمت ناره ، وليس يردهم إلا اجتماع الأمة واتفاق الكلمة، وهيهات هل من راق، وقد بلغت التراق[2] ، وظن أنه الفراق ، والتفّت الساق بالساق .

ومن العجائب انتصاره بقلب جرحَهُ بصوارمه ، واستظهاره بجناح بتّ بيده مصفوف قوادمه . فانفصل مجير الدين عن الخدمة ، وأصحبه من يوصله إلى شرف الملك . وتقدم إلى شرف الملك أن يصحبه رسولا يملى عليه مايقتضيه حكم الحال ، فأصحبه وزيره معين الدين القمى[3] برسالة تنافى أربه ، وتخالف ماطلبه ، إذ كان قد عزم على كفران النعمة ونوى خرق جلباب الحشمة ، انجذاباً مع الشيطان فى أشطان وسواسه ، وانفعالا لسوداء طبخها فى رأسه . فرمى على نار الضغينة حطباً ، حتى زادها ضراماً ولهباً ، نقضاً للصلح ، وإعراضاً عن النصح . لاجرم صلى بما تولى زنده ، فلم يفلح بعده.

---

(١) فى الأصل : ذكا .

(٢) التراق : جمع ترقوة .

(٣) نسبة إلى مدينة قم .

١٠٠

ذكر حال السلطان بعد أن كبسه التاتار بموقان

كان السلطان لما كبسه التاتار بموقان ، على ماذكرناه ، ساق إلى نهر أرس ، وأوهم التاتار أنه قطع النهر صوب كنجة ، وعطف عطفة إلى أذربيجان ، فأقام بماهان[١] ، وهى فضاء كثيرة الوحش من أنواع الصيد ، فشتا بها. وكان عز الدين صاحب قلعة شاهق مجاهراً بالتمرد فى سنين مضت بمضى شرف الملك إلى قلعته ، وكبسه ليلا من بالدربند من أصحابه، وإغارته على بلده . غير أنه خدم السلطان وقت مقامه بماهان أخلص خدمة ، فكان يبعث له مايحتاج إليه من المأكول وغيره فى المراكب ، ويكشف له أخبار التاتار ، فرضى عليه كل الرضا حتى كان يقول : لو استقام لنا الأمر واستراح الخاطر من جهة التاتار لجازيته عن خدمته ونصحه خير الجزاء ، وجعلته محسود الأقران والأكفاء .

فلما انقضى الشتاء ، أخبره عز الدين بأن التاتار قد ركبوا من أوجان[٢] لقصده ، وأنهم تحققوا الآن أن السلطان بماهان ، وأشار عليه بالعود إلى أرّان، إذ كانت العساكر متحصنة بجبالها وآجامها ، وبها من التركمان من إذا حشروا فكأن[٣] النمل محشور[٤] والجراد منشور . فرحل صوب أران ، فلما قارب حيزان ، وكان شرف الملك قد عمرها وصرف إلى عمارة قلعتها فى هذه المدة اليسيرة مالا يضن بمثله[٥] همم الملوك، وقد كانت فى القديم من أحصن قلاع الأرض فخربتها الدهور ، ومضى على خرابها السنين والشهور . فحين فرّق شرف الملك بيوت السلطان وخزائنه فى قلاع حسام الدين قلج

(١) ذكر ياقوت، ج ٧ ص ٣٧٤ ،أن هناك مدينة بهذا الاسم فى إقليم كرمان .
(٢) أوجان : إحدى مدن أذربيجان. (٣) فى الأصل: مكان .
(٤) فى الأصل: محسور . (٥) فى الأصل: بمثلها .

أرسلان ، وهو أكبر أمراء التركمان بأرّان ، اختار لحرمه منها قلعة سند سوارخ ، وهى مغارة على شقيف عال وفيها عين ماء تدير الرحى[1] تحتها ، والرحى[2] محفوظة لإشراف القلعة عليها ، وهى على ماقيل المغارة التى ظفر بها كيخسرو ملك الفرس بجده لأمه أفراسياب ملك الترك ، وفرغ خاطره من جهة أولئك .

وتسحب [شرف الملك] صوب حيزان وهى متروكة فعمرها ، وجاهر بالعصيان لأسباب : أحدها جذب السلطان عنانه فى السنتين الأخيرتين[3] فى الإطلاقات المتجاوزات حد الإنصاف ، المتناهية التبذير والإسراف ، والفطام عن المألوف شديد . والثانى أنه اعتقد عند هجوم التاتار وكبسهم السلطان بموقان أن تلك الجفلة تنتهى[4] به إلى الهند ، وأن الوقعة تحول بينه وبين الجند ، فرأى مكاتبة الملوك وإصلاح حاله معهم على أن يملك أران وأذربيجان لنفسه ، ثم يقيم الخطبة بها لهم . فلما باض الشيطان فى رأسه وفرخ[5] ، وشوى السوداء فى رأسه وطبخ ، كاتب علاء الدين كيقباذ والملك الأشرف باذلا لهما حسن الطاعة ، وناعتا سلطانه بالظالم المخذول فى كتبه . فوقعت منها ، ومما كاتب بها النواب بالأطراف ، كتب بيد السلطان . وانضاف إلى ذلك قبضه على كل من عبر بحدود قلعته من أصحاب السلطان فى تلك الجفلات ووضعه عليهم المعاصير ، حتى فرغت أكياسهم ، وظهر إفلاسهم . وكان قد كاتب حسام الدين قلج أرسلان يأمره بالاحتراز على ماعنده من حرم السلطان وخزائنه ، وأنه إن حضر السلطان بنفسه لم يسلمها إليه ، ونعت السلطان أيضا فى كتابه بالظالم المخذول .

فاجتمعت هذه الكتب اللطيفة عند السلطان ، وكانت كتب السلطان

(١،٢) فى الأصل : الرحا .

(٣) فى الأصل : الأخرتين .

(٤) فى الأصل : ينتهى .

(٥) فى الأصل : واسه فرخ .

تصل فى تلك المدة إلى الوزراء والأمراء والولاة بالأطراف يحذرهم الاغترار به والامتثال لأمره ، ويسميه فى كتبه تلك «بلدوجن» ، وكان شرف الملك قد لقب به زمن خموله تلقيب تسخيف ، وتأكدت الوحشة . فلما قارب السلطان قلعته[1] ، راسله فى النزول وقال : ماسبب بطئك[2] فى الوصول ، وتأنيك فى المثول ، متغافلا عما سبق له من الهنات ، يريه أن الذى ظهر له من الإساءات[3] ، وانكشف له من السيئات[4] ، مجهول ، وأن السلطان بغيرها من الخطوب مشغول . فنزل للوقت والكفن على رقبته ، جهلا وغباوة . والعجب كل العجب سرعة استحالته إلى العصيان تغابيا عن العواقب ، ثم سرعة رجوعه إلى الطاعة تحككا بمحذور النوائب ، ولو ثبت تلك الليلة كان السلطان يرحل بكرة غد ، لعلمه أن التاتار طالبون[5] له . فلما نزل، سقاه الخمر مخالفا للعادة، فإن وزراءهم[6] وإن كانوا يشربون لم يحضروا مجلس السلطان . ففرح المذكور بذلك ، وظن أنه أزيد بذلك قدراً ، وتضاعف بالقرب له شرفا وفخراً ، ومن كان عنده حظ من التجربة علم أنه لا يستوزره فيما بعد . ورحل السلطان بعد نزوله صوب أران ، وإذا سنح مُهِم لم يحضره المشورة ولم يستأمنه فى أمر .

---

(١) أى قلعة حيزان .
(٢) فى الأصل : بطوك .
(٣) فى الأصل : الاسآءت .
(٤) فى الأصل : السيآءت.
(٥) فى الأصل : طالبة .
(٦) فى الأصل: وزارءهم .

ذكر سيرة شمس الدين الطغرائى بتبريز فى هذه المدة

قد سبق ذكر شمس الدين الطغرائى وتحكمه فى رقاب أهل تبريز فضلا عن أموالهم، ولاء منهم لبيت المذكور محضا وهوى، جعلت مشايعتهم له فرضا. فحين زالت الهيبة والناموس، وأظهرت بواطنها النفوس، اجتمعت العامة ببابه طائعين، ولأوامره ونواهيه سامعين. ثم همّت عامة تبريز بقتل من بها من أتباع الخوارزمية تقربا إلى التاتار، وتشفياً من الأحقاد والأوتار. وواطأهم على ما هموا به بهاء الدين محمد بن بشير ياربك الذى كان السلطان استوزره بها بعد نكبة الطغرائى، وعدة وزراء آخرين. فكان المذكور من جملة عوامها، فلم يمكنهم الطغرائى ومنعهم عما اجتمعوا عليه من الفساد أشد منع، ودفع الأوباش عن الدماء والأموال أحسن دفع، حتى إن العامة ثارت فى بعض الأيام فقتلت شخصا من الخوارزمية سبقت له إساءات[1] معهم، فخرج بنفسه وأمر بقطع رأسين من رءوس الأوباش، ورمى بهما فى الشارع، ونادى عليهما بأن هذا جزاء[2] من يهتك ستر الحشمة، ويخرج على السلطان راعى الأمة وولى النعمة. فحقن من الدماء ما كانت فى سائر البلاد هدراً، ومن الأموال ما قصدت أكياسا وبدرا. واحتفل فى تحصين تبريز وحراستها كل الاحتفال وشحنها بحفظة الرجال. وكانت كتبه لا تنقطع[3] عن السلطان، على اختلاف حالاته، فى عطفاته وأوباته، علاوة على أسباب المجد تكميلا، ونشوزاً لمن أزال نعمته بالافتراء عليه وتخجيلا. وكان هذا دأبه إلى أن أتاه الداعى، وقام به الناعى، فقضى نحبه مشكوراً، ولقى ربه مغفوراً، فسلمها نائب الدولة وعوامها إلى التاتار كسائر البلاد[4].

(١) فى الأصل : اساآت. (٢) فى الأصل : جزائى. (٣) فى الأصل : لم تنقطع.

(٤) استولى المغول على تبريز سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م). ، وهى السنة التى توفى فيها جلال الدين منكبرتى. وقد افتدى سكان هذه المدينة أنفسهم بكثير من الأموال والهدايا الثمينة. وقد ساعد المغول على الاجهاز على مدينة تبريز وغيرها من مدن أذربيجان، هزيمة جلال الدين منكبرتى فى هذه السنة، وتفرق جيوشه، واختفاء أخباره فى ذلك الوقت، كما ساعدهم أيضا قيام الثورات ضد الخوارزميين فى كل من أذربيجان وأران والتى أشعل لهيبها حكام هذه البلاد تقربا إلى المغول. انظر ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ٢٣٤، D'ohsson : Op. cit., t. iii, p. 52.

١٠٢
ذكر عودى إلى خدمة السلطـان وخروجى من كنجة

قد سبق ذكر انقطاعى عن خدمة السلطان بموقان ضرورة ، ووقوعى إلى كنجة ، فأقمت بها ثلاثة أشهر نائى[١] الجفن عن الغرار ، نابى[٢] الجنب عن القرار ، شوقا إلى خدمة السلطان ، ولم يمكنى[٣] الوصول إليه إذ كانت أران تموج بالتاتار . فلما انقضى الشتـاء ، وأقبل الربيع فى حلته الخضراء ، وحليته الزهراء ، ورد توقيع سلطانى باستحضارى إلى الخدمة . وقد ذكر أن العبور على أرّان كان يتعذر لمكان التاتار بها ، فتسير نحو إيوانى الكرجى فإنا كاتبناه بإيصالك إلى خدمتنا .

ففكرت فى الأمر ، فلم أر المسير إلى الكرج ، ولم آمن غدرهم .وكان أهل كنجة إذ ذاك قد ظهرت منهم إمارات الشر ، وعلمت أن المـدة إن طالت يتعدى الأمر بها إلى هلاك خلق كثير من متعلق الدولة ، فلم أزل مدة مقامى بالقلعة فى بعض دور السلطنة خوفا من غوغا العوام وحدوث فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة[٤] . فلما خرجت منها ، حدث ما كنت أحذره وأخشاه ، وأخافه وأتوقاه ، فقتل من بها من الغرباء ، وحملت رءوسهم إلى التاتار ، وأظهروا العصيان ، وكذا العوام متى لم تر جانبا منيعا انهمكت فى شهواتها وتداركت على شر عاداتها ، وقد قال الله تعالى: لأنتُم أشدُّ رهبة فى صدُورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهـــون[٥] . وإلى هذا المعنى يلتفت قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: يزع[٦] الله بالسلطان أكثر مما يزع[٧] بالقرآن .

(١و٢) فى الأصل : ناى.   (٣) فى الأصل : ولم يكنى .

(٤) اقتباسا عن قوله تعالى : واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب . سورة الأنفال ، آية ٢٥ .

(٥) سورة الحشر ، آية ١٣ .   (٦) فى الأصل : تزع .

(٧) فى الأصل : تزع .

فنهضت متوكلا على الله ، أسير ليلا ، وأستخفى نهاراً ، إلى أن وصلت إلى قلعة زبطرة[1] ، وكان بها منكطوى شاه بن السلطان ، ودابة خاتون ، وسراج الدين محفوظ الخادم ، وتاج الملك مشرف المماليك[2] ، فصعدت إلى القلعة لآخذ أخبارهم للسلطان ، فناولونى الكتب الواردة على صاحب القلعة حسام الدين قلج أرسلان من شرف الملك عند استعصائه ، وسألونى أن أستصحبها فأعرضها على السلطان ، فاستعفيت ذلك ، وقلت : إن أيام شرف الملك قد انقضت ، وأن الذى ارتكبه من العصيان ، وكتبه من الهذيان[3] سيورثه وبالا وخطباً لا يطيق به استقلالا ، ولست أختار أن أكون علة هلاكه أو جزءها . فسيّروه إلى السلطان بماهان ، فصادفته بتخوم[4] قلعة زاريس ، وأعلمته أن أران مائجة بالتاتار ، هائجة بأفواج الكفار ، وقد كنت أسير البارحة ونيرانهم تتقد عن يسارى ، وكادت لقربها تنم بالسارى ، وتتوج بالطارق الطارى .

فحين سمع بناقضة العزيمة وقاصمة الهمة[5] ، نزل ولم يسق إلى خيمة السبق ، فنصب خركاة[6] صغيرة ، ونزل فطفق يسألنى عن أحوال أران وما ظهر فى أيام الشدائد من خفايا البواطن ومستودعات الضمائر . ثم أمر بتواقيع أكتبها إلى الأطراف يتضمن بعضها ذكر شرف الملك ، فلم أذكره

(١) زبطرة : بكسر الزاى . وقد ذكر ياقوت ، ج ٤ ص ٣٧٤ ، أن هناك مدينة بهذا الاسم بين ملطية وسميساط فى طرف بلاد الروم .

(٢) نقلها هوداس عن النسخة الخطية « مشرف الممالك » ، وقد وردت صحيحة فى مواضع أخرى . أما وظيفة مشرف المماليك فهى إحدى الوظائف المعروفة فى البلاط الخوارزمى . والذى يستحق النظر فى هذا المقام أن الخطأ فى القراءة عن النسخة الخطية قد انتقل أيضا إلى الترجمة الفرنسية ، فقد ترجمها هوداس مرة intendant des mamlouks ، ومرة أخرى Inspecteur des provinces . راجع ص ١٤٣ ، ٢٢٨ من طبعة هوداس العربية ، ص ٢٣٨ ، ٣٨١ من الطبعة الفرنسية ، وراجع أيضا ص ٢٥٠ من هذه الطبعة .

(٣) فى الأصل : الهديان . (٤) فى الأصل : بخوم .

(٥) قصم الشىء : كسره . وفى الأصل : بناقضته للعزمة وقاسعته الهمة .

(٦) راجع ص ٢٨٤ حاشية ٤ .

إلا بفخر الدين الجندى . وحملت التواقيع إليه ليعلّم عليها ، فخرج بعض الخواص إلىّ يقول : هلا ذكرت شرف الملك بنعته المذكورة بلدوجن ، وأنت تعلم أن السلطان لم يذكره هذه المدة إلا به ؟ فقلت : لأمرين ، أحدهما أنه نزل من القلعة وانتظم فى سلك الخدمة ، وهو يعتقد أن السلطان منحه الرضا ، ومضى الذى مضى ، فإن أخبر أنه ينعت ببلدوجن أخشى أن يفارق إلى بعض الأعداء فيثير فتنة أخرى . والثانى أن للقادح أن يقول : كيف أهّله للوزارة بعد أن كان منعوتاً بهذا النعت الخسيس . فلما أعيد على سمعه ما ذكرته ، سكت وعلّم على التواقيع .

واستدعانى عصر ذلك النهار ، وعنده طائفة من خواصه وقد تفاوضوا على أن السلطان يوجهنى إلى أران لجمع العساكر المتفرقة ، وسوقهم إلى مراكز الرايات السلطانية ، وحشد التركمان إليها . فلما حضرته قال : ما الرأى؟ قلت : الرأى رأى السلطان . قال : قد رأينا أن نبعث إلى أران من يجمع إلينا العساكر ، ويحشد التركمان ، وعند اجتماعهم نسوق إلى كنجة ، فنضرب مع الملاعين بظاهرها رأساً ، فإما لنا وإما علينا . غير أننا نريد من يمشى إلى التركمان فيستميل قلوبهم فى هذا الوقت ولا يطمع فى مال أو منال ، ولست أثق بمن حولى من الأتراك أن يفعلوا ذلك . وأخذ يعيد هذا الحديث علىّ إلى أن عرفت أنه يريد أن أتولى هذا الأمر بنفسى ، وأخاطر فيه برأيى[1] وكان يعتقد أننى لا أرغب[2] فى ذلك ، فقلت : ما مثل الخدم والمماليك إلا مثل العدة ، فتارة تتكسر وتارة تسلم .

فكتبت التواقيع باسمى ، ورحلت بالليل ، وعبرت إلى طائفة من الخانات والأمراء وخيل التركمان ، فإذا وجهت إليه طائفة سلكت الجبال إلى أخرى ، وعدت إلى الخدمة بعد أيام فوجدت العسكر قد عاد إلى رونقه المألوف ، وماج بالألوف . ولما سمع التاتار المقيمون[3] بأران باجتماعهم ،

---

(١) فى الأصل : برائى . (٢) فى الأصل : لم أرغب . (٣) فى الأصل : المقيم .

عادوا[1] إلى معظم جموعهم ومزدحم أفواجهم بأوجان ، وكان التاتار قد أرسلوا إلى فخر الدين حمزة النيسابورى وإلى السلطان ببيلقان يدعونه إلى الطاعة . فلما نزل السلطان بوادى قرقاز ، بعث المذكور رسول التاتار إليه ، وهو الطهير المريد وزير ياتماس اللعين ، ليسأله أخبار التاتار ثم يرى فيه رأيه . فلما وقفت تحت الأعلام ، أمرنى السلطان بالاجتماع به وسؤاله عن كمية من جرّد فى هذه النوبة مع جرماغون[2] اللعين من رجال اللقاء، وذوى الشقاء[3] ، وقال له : إن صدقتنى فيما أسألك وهبت دمك . فسألته ذلك فقال : لما أراد جرماغون أن يتجرد[4] للقاء السلطان عرض المقاتلة ببخارا ، فكتب عشرين ألفاً غير أن السواد كثير . فلما أعدتُ على مسامع السلطان ماسمعته منه قال : استعجلوا فى قتله قبل أن يسمع أصحابنا بكمية التاتار فيجبنوا ويفشلوا .

(١) فى الأصل : عاد .
(٢) المقصود به شيرماجون Churmagun وهوأحد قائدين أرسلهما أجتاى Ogotai بن جنكيزخان فى إثر جلال الدين منكبرتى . انظر Howorth : Op. cit., part i, p.130
(٣) فى الأصل : الشقا . (٤) فى الأصل : أراد جرماغون يتجرد .

١٠٣

ذكر حبس السلطان شرف الملك بقلعة جاربرد وقتله بعد شهر أو أكثر

كان السلطان لما قارب قلعة جاربرد ، وهى من مضافات أران ، وقد عزم على أن يحبس شرف الملك بها ، ركب إليها لينظر فى حالها ، وعلم أن شرف الملك لم يتخلف عنه ، فلما صعد القلعة ، صعد معه شرف الملك واجتمع السلطان بواليها مملان سلك بك وهو شيخ تركى ظالم شرير، وتقدم إليه سراً بأنه إذا نزل منع شرف الملك من النزول ويحبسه بها ويقيده ، وكان يخشى أنه إن لم يحبسه يفارقه إلى بعض الجهات لما عنده من التوهم ، فيثير فتنة ، وكان يقول: يحبسه إلى أن يفرغ الخاطر مما دهم من أمر التاتار[١] ثم يخرجه فيفوّض إليه أمر الوزارة من غير تقرير عشر البلاد ، بل يقرر باسمه كل شهر ألف دينار أسوة بوزير[٢] الخليفة ، ولا يطلق يده فى الإطلاقات. فحبس بها ونزل الوالى بعد حبسه بأيام إلى مفصل الظلامات[٣] صارخين كما تقيق فى الجو بنات الأعداد ، وجهور فى الشعب حجيج البلاد[٤]، فكثرت[٥] شكاياتهم والسلطان ساكت لم يسأل حالهم ، إبقاءاً[٦] على الشيخ الظالم فى ذلك الوقت . غير أن الشيخ توهم أن السلطان نوى عزله وعزم على الاستبدال به ، فعاد إلى القلعة من غير استئذان .

---

(١) فى الأصل : مما دهم أمر التاتار .

(٢) فى الأصل : أسوة وزير .

(٣) قرأها هوداس خطأ عن النسخة الخطية فى موضع آخر « مفصل الطلاعات » ، انظر ص ١٨٤ حاشية ٧ . كذلك يبدو أنه تنقص بعض العبارات فى هذا الموضع .

(٤) راجع ص ١٨٤ حاشية ٨ .

(٥) فى الأصل : فكثر .

(٦) فى الأصل : اتقاء .

وقد أمر السلطان لما قبض على شرف الملك بضم مماليكه[1] الذين أمرهم، إلى أوترخان وكان كبيرهم ناصر الدين قشتمر، فدخل يوماً على أوترخان بخاتم شرف الملك، كان الشيخ الوالى سيره إليه يقول: إننى قد واطأت صاحبك على أن أطلقه، وتصالح الكرج متوازرين على الخلاف، بارزين مكتوم الشر من الغلاف، فمن رغب منكم فى خدمته فليأت القلعة.

فلما سمع السلطان بذلك، سقط فى يده وفت فى عضده، وذهب عليه أمره، وأبهم عليه رأيه. وكان ابن الشيخ فى جملة بهلوانية السلطان وجماقداريته[2]، فأحضره وسيره مقبحا على أبيه فعله، وناعياً إليه عقله، يعد عليه إحسانه الذى شمل حاله، وحصل له آماله. وأن الذى هم به من كفران النعمة والخيانة فى الوديعة، لم يعرف له سبباً موجباً. فرجع الغلام وأخبر أن أباه قد عاد عما نواه، وبدا له فيما أبداه، وعلم أنه يفضى إلى رداه، وأن السلطان إن لم يعر سمعه[3] لظلامة المتظلم، ولم يعزله عما ولاه لم يجده إلا عبداً طائعا، ولأوامره ممتثلا سامعاً، وأنه عما سبق من الهنات معتذر[4] وبخده فى التراب معتفر. فقال السلطان: مصداق هذا الحديث أن يبعث إلىّ برأس شرف الملك. ووجه صحبة ابن الوالى إلى القلعة خمسة من السلاحدارية، فأهلكوه، وأهلكوا لهلاكه الكرم.

وحدثنى فراش له يعرف بمحمد أخى، وكان يخدمه أيام حبسه، قال: لما دخلوا عليه وعلم أنهم قاتلوه، استمهلهم ريثما يتوضأ[5] فيصلى ركعتين، قال: فسخنت له ماء ولم يهن عليه أن يغتسل بماء بارد على علمه أنه بعد ساعة هالك، فاغتسل وصلى ركعتين ثم قرأ جزءاً[6] من القرآن، ثم أذن لهم بالدخول وقال: هذا جزاء من يعتمد على قول الكفرة. فقالوا له: ماذا تختار،

---

(١) فى الأصل: ضم مماليكه.

(٢) الجمقدار، حد موظفى ديوان الخاص السلطانى، وكان موكولا به توزيع الجوامك على المماليك السلطانية. انظر المقريزى: السلوك، ج ١ قسم ٣ ص ٦٩٩ حاشية ١.

(٣) فى الأصل: يعد سمعه.

(٤) فى الأصل: متعذر.

(٥) فى الأصل: يتوضىء.

(٦) فى الأصل: جزأ.

الخنق[1] أو السيف ؟ فقال : السيف أولى . فقالوا : إن الملوك لاتقتل بالسيف ، والخنق أهون عليك . فقال : شأنكم وماتريدون . فخنقوه ، وخرجوا حتى يبرد ثم يدخلوا فيقطعوا رأسه ويحملوه إلى السلطان . فلما دخلوا عليه وجدوه جالساً وقد أفاق،فضربوا عنقه ، وانتقل إلى جوار ربه . ومحا السيف ذنوبا ، وكشط من الزلات ماكان مكتوباً . فقد زال طود الملك بزواله ، وذل عن مراسيه بزلزاله ، فكأنما عناه مؤيد الدين إسماعيل الطغرائي بقوله :

تداعت عروش المجد فيه وثلمت ... وأضحت ركاب الجود حسرى وظلّعا[2]
فيا آل فضل الله هلا وقتكم ... أياديكم صرف الزمان المفجعا
أما لكم في آل برمك أسوة ... أناخ بهم ريب الزمان فجعجعا
أرى بعدكم طرف المكارم خاضعا ... وخد الليالي أربد[3] اللون أضدعا[4]
ولو أنصفت حامت عليكم ودافعت ... فراع الأعادي عنكم ما تدفعا
لانزعتم الدنيا ندى فأفضتم ... صنائع عز لم يصادفن مصنعا
وخلفتم في الناس آثار عرفكم ... فصارت كمجرى السيل أصبح مرتعا
ولكنه دهر يضيع ماوعى[5] ... وينقص ما أوعى ويهمل مارعى[6]
وما هو إلا مثل قاطع كفه ... بكف له أخرى فأصبح أقطعا[7]
وقد زاد طيبا ذكركم مذ محنتم ... كذا العود إن مسته نار تضوعا[8]

(١) في الأصل : تختار من الخنق . (٢) في الأصل : خسرى .
(٣) أي متغيرا مظلما . وفي الأصل : أزيد . (٤) في الأصل : اصرعا .
(٥) في الأصل : مارعى . (٦) في الأصل : ما رعا .
(٧) في الأصل : قطعا . (٨) في الأصل : تصوعا .

١٠٤

ذكر نبذة من سيرة شرف الملك

كان جواداً كريماً ، ليس للمال عنده محل ، وربما كان يأخذ من غير موضعه ، ويضيع فى غير أهله . وكان يحترم العلماء والزهاد ، ويحسن جائزتهم ، ويكثر الإدرارات والصلات لهم . وكان رقيق القلب ، يبكى بكاء شديداً إذا وعظ وقرأ القرآن. وقد كثرت[١] فى زمانه الإدرارات حتى كادت تستغرق أموال الديوان لولا أن السلطان جذب عنانه فى ذلك آخر عهده . ومن عاداتهم إمضاء الإدرارات القديمة والتوسيعات العتيقة حتى إدرارات أعدائهم ، ولا يرون قطعها إلا بدعة منكرة ، فكانت إدرارات محمود بن سبكتكين[٢] ، ومن بعده من بنى سلجوق[٣] جارية إلى زمان السلطان يتوارثها الناس بناء على ما أسسوه ، وسقياً لما غرسوه ، ومضياً على ما مثلوه ، واهتداداً بما أثلوه[٤] . فكاد ما جدد شرف الملك من الإدرارات فى زمانه يزداد على إدرارات المتقدمين على طول المدد .

وقد أتاه الشيخ الفقيـــه زين الدين أبو حامد القزوينى وهو ببيلقان مستعطيا ، فأحضرتُـه بعض مجالس خلواته ، فوعظه بكلمات أبكته ، ثم قال.

---

(١) فى الأصل : كثر .

(٢) فى الأصل : محمد بن سبكتـــكين . وقد سبق أن ورد هذا الاسم صحيحا فى موضع آخر . انظر ص ١٩٣ من طبعة هوداس العربية . كما سبق لنا أن أوردنا نبذة عن أهمية محمود بن سبكتـــكين فى تاريخ الدولة الغزنوية ، راجع ص٣١٢ حاشية ٢ . وإذا كان الأصل الخطى ليس فى متناول يدنا ، لذا فإننا نرجع سبب ورود هذا الاسم خطأ فى هذا الموضع إلى أحد أمرين إما إلى خطأ فى النقل عن النسخة الخطية ، وإما إلى خطأ فى النسخة الخطية وفات هوداس أن يحققه . والثابت فى تاريخ الدولة الغزنوية أنه لا يوجد من بين حكامها من يسمى محمد بن سبكتـكين، اللهم إلا إذا كان النسوى قد قصد الاشارة إلى جلال الدولة محمد بن محمود بن سبكتكين الذى حكم لبضع شهور من عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) ، وهذا بعيد الاحتمال . انظر ابن الأثير الـكامل ، ج ٩ ص ١٦٦ — ١٦٧ . وانظر أيضا .
S. Lane— Poole ; Op., cit., pp. 289 — 290.

(٣) إن ورود هذه العبارة على النحو يفهم منها أن بنى سلجوق إنما هم من سلالة محمود بن سبكتـــكين ، ولذا يحسن كتابتها على النحو الآتى : ومن بعده إدرارات بنى سلجوق .

(٤) أثلوه : أصلوه .

الشيخ : قد وَلَدَتْ لى بنتُ إمام الدين المعروف برافعان - وكان أفقه العراق وله شرح الوجيز تصنيف مستحسن - ثلاث بنات وابنين ، وقد بلغوا[1] النكاح ، وليس عندى من المال ما أجهزهم به ، فأطلق لكل بنت على مال الديوان بقزوين مائتى دينار ، وكتب لابنيه توقيعا بمائة دينار يتناولانها إدراراً كل سنة . فلما رأى الشيخ سعة الصدر ، وسهولة الأمر قال : فما ذنب الشيخين الوالد والوالدة[2] ؟ فكتب لهما بمائة دينار أخرى إدراراً .

هذا وإن كان يستقبح من جهة التدبير فى مال الديوان وقطع النظر عما عليه مدار أمراء الدولة ، لكن الجود مستحسن فى نفس الأمر ، وأمثال ذلك ونظائرها كثيرة . غير أنه كان قليل الحظ من أدوات الكتابة ، وآداب الكفاية ، خاليا عن معرفة الحساب ، ومايجب على الوزراء والكتاب ، إذا كتب سطراً بالفارسية يوجد عليه عدة سقطات . وكان سريع الاستحالة ، لايثبت لصديق ولا عدو ، على حال من المصادقة والمعاداة ، شديد الميل إلى الأتراك ، فصيحاً فى اللغة التركية . وكان لايعلم الكبر ماهو ، ولا الملامة ماهى ، وكانت علامته على التواقيع السلطانية « الحمد لله العظيم » ، وعلى التواقيع الديوانية التى طرتها الديوان الأعلى « يعتمد ذلك » ، وعلامته على تواقيعه إلى بلاده الخاصة « اعتماد كنيد »[3] بالعجمية وطرتها « أبو المكارم على بن أبى القاسم خالصه أمير المؤمنين » ، وعلامته على الوصولات « صحيح ذلك » .

وكان السلطان فى مبادىء أمره يركن إلى كلامه ، ويصغى إلى قوله ، ولا[4] يفعل إلا بما يشير عليه ، لايشاركه أحد فى التدبير . وقد بقى زمانا بين أصبعيه يلقيه كيف يشاء ، فلو ترك الهوى فى آرابه[5] ووجوه مقاصده والحابه ، وصرف همته إلى ماتقتضيه السيادة ، ويهدى إليه السعادة ، وعنده من رأس مال النمو مثل ذلك الليث الحادر والعُقاب الكاسر ، لكان الأمر بخلاف ماوقع ، لكن قضاء الله أغلب ، وأمره أنفذ . وإن الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء ، وهو الفعال لما يريد .

---

(١) فى الأصل : بلغوا.
(٢) فى الأصل : الولدة .
(٣) أى يعتمد .
(٤) فى الأصل : ولم .
(٥) فى الأصل : ارايه .

١٠٥
ذكر رحيل السلطان صوب كنجة وتملكها بإينا

كانت أوباش كنجة ، لما قتلوا من بها من الخوارزمية وظاهروا بالفساد، وجاهروا بالعناد ، ملك زمامهم شخصٌ يعرف ببندار ، وأطاعته الأوباش والأوشاب ، فبسط يده فى المصادرات ، واقتصرت أذيته على من لم يدخل معهم فى العتو والعلو ، ولم يطع النفس الأمارة بالسوء . فوجهنى السلطان والحاجب الخاص ، خان بردى ، إليهم وأمر أن ننزل بكورة شتر[1] ، وهى قريبة منهم ، وندعوهم إلى الطاعة، ونحذرهم عواقب المخالفة . فأقمنا بتخومها أياماً نكاتبهم محذرين ، ونراسلهم منذرين ، ونعرّفهم أن فى قرع باب البغى تعرضاً للبلاء ، واستئذاناً على سوء القضاء . وإنما يصبر على الكفاح من لم يجد وجهاً للصلاح ، وأما من كان فى فسحة من الرأى ، ونُدحة من الاختيار، فإنه ينفِّس بنفسه عن التغرير[2] بها فى مباشرة القتال ، ومغامسة الأهوال. فليتصوروا ما يتبع الخلاف من ركوب المصاعب التى تسلب العيون منامها ، والنفوس حمامها ، والأموال[3] المذخورة نظامها ، ولما فيه من التحكك[4] بمحذور النوائب ، والتعرض لمكروه العواقب. فكانت الموعظة إذا ألقيت عليهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصرّوا واستكبروا استكباراً . وخرج الرئيس جمال الدين القُمى بأولاده إلينا، وأيسنا من العوام.

ووصل السلطان ، ونزل ببعض بساتينها ، وأخذت الرسل تتردد فى بذل الأمان ، والوعد بالعفو والإحسان . فكادت الصخرة تلين لما أوردت عليهم، ولا تأثير لها فى نفوسهم لما فى رءوسهم . ولم يزد بندارهم إلا استمراراً على جهـــله ، استكباراً فى الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . ثم لم يقتصروا على ذلك حتى خرجوا فى بعض الأيام مقاتلين ،

(١) شتر : قلعة من أعمال أران بين برذعة وكنجة . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٣٦ .

(٢) فى الأصل : ينفس ينفسه عن التنزر .

(٣) فى الأصل: وللاموال .

(٤) فى الأصل : إن ما فيه من التحلك .

وبالجفاء[١] مقابلين ، ووصلوا إلى حائط البستان ، ورموا إلى خيمة السلطان عدة سهام ، فركب للوقت فيمن حضر من خواصه ، وعلم أن لا يثنيهم[٢] عن عتوهم وعظ ولا عدل ، وأن المواعظ لها أهل ، وأن حلم الفتى فى غير موضعه جهل . فحمل عليهم فى كتيبة[٣] من خواصه ، كأنها أجمة الساحل تأويها شياطين الإنس فرسانا ، وعفاريت الترك مرداً وشبانا ، قد جعلوا الدروع وقاية الأجسام ، وظاهروا عليها بالقلوب حرصا على الانتقام ، قايسون[٤] بمباشرة القتال ، واستثارة المنايا عن مرابض الآجال ، وحملوا عليهم ، فانجلت الهزيمة عن مساقط أجسام وأبدان فوق هام ، وهاموا على وجوههم كأنهم قطعان الغنم راعتها الذئاب ، أو بغاث الطيور[٥] انقض عليها العُقاب[٦] . واختلط الفارس بالراجل ، والتارس[٧] بالنابل[٨] .

ودخل السلطان معهم إلى المدينة ، إذ كان ازدحام العوام ، وغص أبوابها بالزحام ، ومنعهم أن يغلقوها . وهمّ العسكر بنهبها فمنعوا ، واستحضر السلطان أكابر المدينة ومعارفها ، وبرز الأمر إليهم بأن يكتبوا أسامى رءوس الغوغاء[٩] ومثيرى الفتنة ، فعينوا منهم ثلاثين نفسا . على أن الفتنة أشركت الصالح والطالح ، وجمعت الخاسر فى الدولة والرابح ، ومثل العوام مثل السوام[١٠] تتبع ألّافها ، ويجر[١١] الواحد منها آلافها . فأمر السلطان بضرب رقاب أولئك الثلاثين على باب القصر ، وجروهم بأرجلهم إلى أبواب المدينة ورءوس المحال . وأما بندار ، فكان قد بالغ فى الفساد وكسر سرير السلطنة ، وكان قد وضعه بها محمد بن ملكشاه ، فقتل تنكيلا ، وفصّل تفصيلا .

وأقام السلطان بكنجة سبعة عشر يوما ينتظر ما يسفر عنه التدبير حتى اتفق المسير . وأجمعوا على الاستنجاد بالملك الأشرف موسى على التاتار .

---

(١) فى الأصل : وبالجفا.
(٢) فى الأصل : يثبتهم .
(٣) فى الأصل : كثيبة .
(٤) فى الأصل : نايشون .
(٥) بغاث الطير : شرارها ومالا يصيد منها .
(٦) العقاب : طائر من الطيور الجارحة.
(٧) التارس : حامل الترس .
(٨) النابل : الضارب بالنبال .
(٩) فى الأصل : النوغا .
(١٠) السوام : الماشية الراعية .
(١١) فى الأصل : وتجر .

وكان أوترخان وجماعة من الجبناء[١] يشيرون على السلطان بذلك وهو يخالفهم باطناً ، ويوافقهم ظاهراً ، فسار إلى خلاط من طريق كيلكون ، والغارات تقلب بلاد الكرج وأرماقهم بطنا لظهر ، والسلطان يتابع رسله للملك الأشرف مستنجداً ، والعقل ينكر ذلك مستبعداً ، وهيهات إن الضغينة[٢] إذا تمكنت من القلوب تلبث ، وربما تورث . وإن المستعين على العدو بذى ثارة كالمستجير من الرمضاء بالنار .

ولما علم الملك الأشرف بتوجه الرسل إليه مستمدين ، وعلى الأعداء مستعدين ، توجه إلى مصر وأقام بها ماكثا[٣] ، ولم يمكنوا رسل السلطان بالمضى فيجتمعون بدمشق ، والكتب ترد عليهم من الملك الأشرف بأننا واصلون من مصر بعساكرها خدمة للسلطان .

مواعيـــد كما لاح سراب المهمـه القفر
فمن يوم إلى يوم ومن شهر إلى شهر[٤]

نعم ولما وصل السلطان فى وجهته تلك إلى قلعة بجنى ، وبها أواك بن إيوانى الكرجى ، وقف حذاء القلعة ساعة فخرج أواك من القلعة فقبّل من بعيد الأرض ودخل وسير للسلطان تقاديم[٥]. ولما وصلوا إلى ولاشجرد،[٦] وشكا الناس شدة الحر ، وانقطاع المطر والأذى الذى يحصل من الذباب للناس والدواب، وأزمعوا على الاستمطار، بما كان معهم من هاتيك الأحجار. وحقا لقد كنا منكرين لها غاية الإنكار ، ثم شاهدنا مساعدة التقدير فعلهم عدة مرار ، ولعل ذلك فتنة وإضلال ، كما افتتن الذين من قبلهم . فباشر السلطان العمل بنفسه أيام مقامه بفضاء ولاشجرد ، وتوالت الأمطار ، فداومت بالليل والنهار ، فمل الناس منها وضجروا حتى ندموا على ماسحروا .

---

(١) فى الأصل : الجنبا . (٢) فى الأصل: الطعينة .

(٣) وصل الأشرف موسى من دمشق إلى القاهرة فى العاشر من جمادى الأولى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١ م) . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٤١ .

(٤) أورد هوداس هذين البيتين فى صورة بيت واحد على النحو الآتى :

مواعيد كما لاح سراب المهمة القفر فمن يوم إلى يوم ومن شهر إلى شهر

(٥) فى الأصل : تقاديما . (٦) راجع ص ٣٢٢ حاشية ٣ .

وتعذر الوصول إلى خيمة السلطان للأوحال [1] الحائلة ، وسمعت داية خاتون تقول : قلت للسلطان كأنك باخداوند عالم – أى صاحب العالم ، وما كان خطاب الناس مواجهه إلا هكذا – لست بماهر [2] فى صنعة الاستمطار فإنك قد آذيت الناس بكثرة أمطارك ، وغيرك ما كان يستنزلها إلا بمقدار الحاجة . فقال : ليس الأمر كما تظنين [3] ، بل إنها أثر همة ، ولا تقاس همتى بهمة واحد من غلمانى .

ثم ورد عليه كتاب من مختص الدين أكبر رسله الموجهين إلى الملك الأشرف ، يوئسه من إنجاده ، ويقطع رجاه من إسعاده ، وأنه لا يرجع من مصر إلا بعد انفصال أمر السلطان مع التاتار على إحدى الحالين : إما دولة ترجى وتهاب ، أو صولة تقطع فيها الأسباب . فلينظر السلطان فى شغله ، غير منتظر جواب رسله . فأرسلنى إلى الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب [4] استحضره بنفسه وعسكره ، ومن حوله من الملوك مثل صاحبى آمد وماردين ، وقال : عند حضورهم لا حاجة إلى نجدة الملك الأشرف . وقال لى : قل للملك المظفر هلم إلىّ مساعداً ، وفى حادثة التاتار معاضداً ، فإن الله جل ذكره إن كان ينصرنى عليهم ملكتك من البلاد ما ترى ، خلاط ونواحيها التى حسدك أخوك عليها فى قبالتها نذراً ، ولم تجد لها عنده قدراً [5] .

هذه كانت رسالته والخانات والأمراء حضور ، ولما خلا المجلس قال لى : نحن لا نشك فى هؤلاء أبداً ، لم ينجدونا ولا يختارون ظهورنا على مزاحم ، ولا تنفع [6] الشكوى إلى غير راحم . إن هؤلاء ، يعنى الترك من أمرائه ورتوت عسكره وكبرائه ، يطمعون أنفسهم فيما لا يكون تسويلا بكواذب

---

(١) فى الأصل : للأوحال . (٢) فى الأصل : بما هو . (٣) فى الأصل : تظنون.

(٤) تولى المظفر غازى بن الملك العادل أيوب حكم بعض بلاد ما بين النهرين منذ سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) حين أقطعه أخوه الملك الأشرف موسى مدينة خلاط وميافارقين وغيرها . وقد استمر فى حكم هذه البلاد حتى سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٨٣ و Lane-Poole : Op. cit., p. 76—78

(٥) القبالة : الاسم من تقبّل العمل . والكتاب الذى يكتب على من يقبل عملا . وفى الأصل : فى قبالها نزرا ، ولم تجد لها عندها قدرا . (٦) فى الأصل : ينفع .

الظنون ، وتفادياً عن الحرب الزبون ، وقد شوشوا علينا بهذا الطمع وجه تدبيرنا فاخترتك لهذه الرسالة لترجع من المبعوث إليه باليأس الذى لارجاء[1] بعده ، ولاتأميل عنده، فنتفق على المسير إلى أصفهان إذ لا انتعاش إلا بها ولا ارتياش[2] .

وكان [السلطان] قد جرد ستة آلاف فارس قبل انفصالى عن خدمته، فأغاروا على بلد خرتبرت وأرزنجان وملطية ، وساقوا إلى العسكر من الغارات ماأعجزهم سوقها، فبيعت عشرون غنما بدينار، لما كان ينقم على علاء الدين كيقباذ وتحريشه إياه بكتبه ورسائله المتتابعة بخلاط ، ثم ميله عنه إلى الملك الأشرف، ولم يعلم بما خاطب الوزير رسله حتى تغلغلت الضمائر، وفسدت السرائر .

ولما أديت الرسالة إلى الملك المظفر قال : إن اليمين التى حلفت بها للسلطان حلفت بمثلها لعلاء الدين كيقباذ ، وقد بلغنى ماساقوا من غارات بلادهم إلى المخيم السلطانى ، فما الذى يؤمننا عن مثله واليمينان واحدة ؟ وعلى الحالات كلها ، فما أنا مستقل ترابى ، بل معدود فى جملة نواب إخوتى، فكيف يمكننى إنجاد السلطان إلا بأمرهم ؟ على أنى أقول : مامقدار أصحابى بين عساكر السلطان إلا بمقدار الخليج من البحر ، والفارس الواحد فى العدد الدثر ! وأما صاحبا آمد وماردين فلا يسمعان منى ولا يمتثلان أمرى[3] . وليس يخفى علينا أنهما كانا يكاتبان السلطان فيختبر السلطان عقائدهما فى الاستحضار ويسبر ضمائرهما فى الإنجاد على التاتار ، ليعلم أن زعمهم نفاق ليس له مصداق، وباطل ليس له حاصل . والملك الأشرف مهتم بخدمة السلطان ، مقيم على عهده ، ولم يقصد مصر إلا لاستصحاب عساكرها خدمة للسلطان .

---

(١) فى الأصل : رجا .

(٢) بالإضافة إلى ما ذكره النسوى فى هذا المقام من محاولات قصد بها جلال الدين منكبرتى الاستنجاد بالأشرف موسى وأخيه المظفر غازى فضلا عن صاحبي آمد وماردين ، ذكر ابن الأثير أن جلال الدين حاول فى هذه الفترة الاستنجاد بالخليفة العباسى نفسه ، على أن المغول لم يتركوا له فرصة لتحقيق هدفه ، بل عجلوا بهزيمته بالقرب من مدينة آمد ، وأعملوا القتل والأسر فى جيوشه وتفرق الباقون أيدى سبأ . انظر ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣١ .

(٣) فى الاصل : فلم يسمعا منى ولا يمتثلا أمرى .

١٠٦

ذكر وقوع البطاقة من خلاط إلى ميافارقين مخبرة بأن التاتار قد عبروا على بركرى طالبين[1] للسلطان وانفصالى عن الملك المظفر عائدا

ولما ودعت الملك المظفر ، وقعت بطاقة من بركرى تذكر أن التاتار عبروا عليها كاشفين أخبار السلطان ، سالكين آثاره ، فسيَّر الملك المظفر إلىَّ البطاقة وقال : إن القوم قد عبروا على نواحي خلاط يطلبون السلطان، ولابد من الالتقاء فى هذه الأيام ، فالرأى أن تقيم عندى فننتظر مايكون . فقرأت : لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله . ولست بأعز من السلطان ، ولا ممن اختار الحياة بعده .

ولما حضرته للوداع قلت له : لابد من إحدى الحالتين ، إما للسلطان ، وإما عليه . وأياً منهما كانت تعقبكم ندامة ، وتورثكم ملامة . قال : كيف ذلك ؟ قلت : إن كان للسلطان وقد قعدتم عن نصرته ، فلو بذلتم خزائن الأرض فى طلب مرضاته لم ينفع ، وإن كان عليه فستذكرونه حين تبلون بمجاورة التاتار والأسف لم ينجع . قال : كلام لاأشك فى صحته ، ولكنى محكوم علىَّ[2] . ثم فارقته وركبت صوب حانى[3] ، فإن الأخبار كانت قد تواترت بإطلال رايات السلطان على حدود جبل جور . فنزلت قبيل المغرب

(١) فى الأصل : طالباً .

(٢) أى لا يستطيع أن يتخذ أمراً دون الرجوع إلى إخوته من أبناء البيت الايوبى وخاصة الكامل محمد صاحب مصر . والثابت أنه على الرغم من انقسام أقاليم الدولة الايوبية بين أبناء البيت الايوبى ، فان مصر كانت فى الحقيقة رأس الامبراطورية الايوبية وقلبها النابض ، كما كان ولاتها هم المحركين لسياستها ، وبخاصة فى أيام العادل سيف الدين والكامل محمد ، وذلك رغم ظهور بعض أبناء البيت الايوبى فى ثوب الحكام المستقلين .

(٣) حانى أو آنى أو حنا : مدينة بناحية ديار بكر . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٠٢ . والقلقشندى : صبح الاعشى، ج ٤ ص ٣٢٦ .

بضيعة تسمى مغارة لنعلق على الخيل، ثم نسرى طول الليل. فغفوت[1] فأرى في منامى كأن رأسى في حجرى ، وكأن شعر الرأس واللحية قد زالا كأنهما قد احترقا . ثم فسرت المنام في النوم فقلت الرأس السلطان ، فكأنه يعدم ولا يسلم ، واللحية مما يتعلق بالحرم فكأن جوارى تؤسر ، وشعر الرأس دليل المال فكأنه يتلف . فهالنى ما رأيته ، فانتبهت مذعوراً ، فرحلت وعندى من الكمد ما سد نفسى ، فلم أتكلم طول ليلتى إلى أن وصلت إلى حانى ، فوجدت أثقال العسكر ونساءهم نازلة بأوديتها ، وأخبرت أن السلطان فى الكمين بجبل جور ، وأنه أخبر بوصول التاتار . وكان « كوكه يحكم » وهو أمير من أمراء التاتار مقدم ألف فارس[2] قد فارقهم إلى السلطان ، لذنب صدر منه خاف به على نفسه، وأخبره بتنعيلهم دوابهم على قصده حيث كان، وأشار عليه بأن يترك الغارات على طريقهم ويكمن، حتى إذا اشتغلوا بالطعمة يدير عليهم كاسات الحمام ، بأيدى الانتقام . وقد نصحه فيما أشار به عليه ، فجرد السلطان أوترخان — وكان يقربه خؤولة ، وقد اعتقد فيه النصح والشجاعة ظناً لا يؤكده امتحان ، ولا يقوم بصحته برهان — فى أربعة آلاف فارس يزكا ، وأمره بأن التاتار إذا قربوا منه ينجر لينجذبوا إلى مرابض الآجال ، ويمتدوا إلى مكامن الأوجال . فرجع المذكور وأخبر أن التاتار قد رجعوا من حدود منازجرد ، كذبا أملاه عليه خوره وجبنه ووجله ، ليأتى عليه قدره وأجله .

نعم ، ولما امتد خبر السلطان وكمينه بجبل جور توجهت إلى خدمته ، فصادفته فى وجهتى عائدا إلى الأثقال ، ففاتحنى فى الكلام وجواب الرسالة ،

---

(١) فى الأصل : فغفيت.

(٢) كان الجيش المغولى قد نظم منذ أيام جنكيزخان بحيث قسم إلى فرق من عشرة آلاف رجل ، وهذه بدورها تنقسم إلى فرق من ألف ، ويتدرج هذا التقسيم إلى فرق من مائة وفرق من عشرة . وتبعا لذلك نرى قائداً لكل فرقة من هذه الفرق الكبيرة أو الصغيرة . انظر Encey. Brit., Art. Mongol Campaigns وانظر أيضا Abulgasi : Op. cit., p. 348

فاعدت عليه ماسمعته من الملك المظفر ، ثم ذكرت له حديث البطاقةوعبور التاتار على بركرى ، فأخبرنى بوصول «كوكه يحكم» وإعلامه إياه بركوبهم طالبين، وقصّ عليّ قصة الكمين وعود اليزك معلماً بأن التاتار قدرجعوا[1] من منازجرد . فقلت : ماعودهم بعد ركوبهم على نية الالتقاء إلا من العجب !! قال : ليس ذلك بعجب ، كأن القوم قد ركبوا ليلتقونا ببلد خلاط ، فحين علموا بتوسطنا بلاد الشامية واعتقدوا اتفاقهم معنا وانضواءهم إلينا رجعوا . فقطعت الحديث على إنكار باق،واستبعادلعودهم قبل اللقاء .

---

(١) فى الأصل : رجع .

١٠٧

ذكر نزول السلطان ببلد آمد وعزمه على المسير إلى أصفهان ورجوعه عن ذلك الرأى بعد ورود رسول الملك المسعود صاحب آمد وكبس التاتار إياه صباح ثانى يوم نزوله بها

كان السلطان لما نزل ببلد حانى ، استحضر الخانات والأمراء ، واستعاد جواب الرسالة ، فقرأت عليهم آيات الإياس ، وأعلمتهم بأنهم يضربون فى حديد بارد ، فما من منجد ولا مساعد . فاتفقوا على أنهم يتركون أثقالهم بدياربكر ويتجردون(١) إخفافاً بالأعزة من نسائهم وأولادهم إلى أصفهان، إذ طال ماوردوها محسورين مكسورين،فراشت الحسير، وجبرت الكسير. فورد ثانى يومهم ذلك علم الدين سنجر المعروف بقصب السكر ، رسول صاحب آمد برسالة تشتمل على عرض الخدمة والطاعة ، وزين له قصد الروم ، وطمّعه فى الاستيلاء عليها ، وقال إنها عرضة للسلطان ، مهما قصدها ملكها من غير منازع ، وضبطها من غير مدافع . والسلطان إذا استظهر بملك الروم ، واستند إلى قفجاق ، على موالاتهم له ورغبتهم إياه ، هابه التاتار،وحصل الاستظهار . وذكر فى جملة الرسالة أن السلطان إذا عزم على ذلك ، خرج(٢) بنفسه وأربعة آلاف فارس إليه ، ولم يفارق الخدمة إلا بعد استصفاء تلك المملكة وانضوائها إلى سائر الممالك السلطانية. وقد كان صاحب الروم قد أوغر صدر الملك المسعود صاحب آمد تلك السنة بعدة قلاع ملكها عليه .

فمال السلطان إلى كلامه ، وعدل عما كان نواه فى المسير إلى أصفهان ، وعطف صوب بلد آمد ، ونزل بجسر بقربها ، فكان مثله مثل الغريق يتعلق

(١) فى الأصل: يتجردوا .

(٢) فى الأصل: فخرج .

بما تصل إليه يده ،وقدقصر عن السباحة وكده [1] .وشرب تلك الليلة فسكر، فناله من سكرة خماره دوار الرأس،وقطع الأنفاس،فلا صحو إلا إذا نفخ[2] فى الصور ، وبعثر ما فى القبور . وأتاه وهناً من الليل شخص تركانى وقال : إنى رأيت فى منزلك الذى [3] كنت أمس نازلا به عسكراً زيهم غير زى عسكرك، بخيل أكثرها شهب ، فكذبه وقال :هذه حيلة من لايختار توسطنا هذه البلاد ، وقضى بنشوته ناشية الليل إلى قريب الفجر ، وأحاط التاتار به وبعسكره مصبحين .

فمساهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب[4]
ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب
فأسقطت الأجنة فى الولايا وأجهضت الحوائل والسقاب[5]

فتفرقوا أيدى سبأ فى الأقطار كشوارد الأمثال، وكنت قد سهرت تلك الليلة للكتابة فغلبنى النوم فى أخرياتها،فلم أشعر إلا بالغلام ينبهنى ويقول: قم فقد قامت القيامة ، فلبست سريعاً ، وخرجت هريعاً ، وتركت فى المنزل [6] ما ملكته جميعاً ، وقلت :

---

(١) يروى ابن الأثير أن جلال الدين قد سار فى هذه الفترة إلى مدينة خلاط ، وأرسل إلى نائب الأشرف موسى بها يذكر له أنه ماجاء إلا بغية الاحتماء فى المدينه . كما يذكر ابن الاثير أيضا أن جلال الدين عزم على الاستنجاد بأمراء دياربكر والجزيرة فضلا عن الخلافة العباسية ، ويحذرهم عاقبة توانيهم فى مساعدته . فلما دخل إلى خلاط بلغه أن المغول يجدون فى أثره ، فسار منها إلى آمد وهناك داهموه بظاهرها وشردوا جيوشه . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣١ .

(٢) فى الأصل :انفخ . (٣) فى الأصل:التى .

(٤) الشعر للمتنبى .

(٥) الولايا : جمع ولية ، كساء يجعل تحت البرذعة . والحوائل : الانثى من أولاد الإبل . والسقاب : جمع سقب وهو الذكر من أولاد الإبل . يقول الشاعر ، لشدة فزعهم أجهضت النساء على ظهور الإبل ، وأسقطت نوقهم أولادها ذكوراً وإناثا .

وقد جاء البيت الثالث فى الأصل :

فأسقطت الأجنة فى الولايا وأخصت الولايد والسقاب

(٦) فى الأصل : المنزلة .

إذا نحن أبنا سالمين بأنفس كرام رجت خيراً نخاب رجاؤها[1]

فأنفسنا خير الغنيمة ، إنها تؤوب وفيها ماؤها وحياؤها

ولما استويت على الفرس ، رأيت أطلاب التاتار قد أحاطت بخركاة [2] السلطان وهو نائم سكران ، وإذا بأرخان قد وصل فى أعلامه وأصحابه ، فحمل عليهم وكشفهم عن الخركاة، ودخل بعض الخواص فأخذ بيد السلطان وأخرجه وعليه طاقية بيضاء وأركبه الفرس، فساق ولم يذكر فى ذلك الوقت إلا ملكة فارس بنت الأتابك سعد فإنه أمر « دنز كيقو » و « طرت أبه » أمير شكار [3] بالمسير فى خدمتها إلى حيث ترميها الجفلة .

فلما رأى [السلطان] أطلاب التاتار مجدة بتتبعه [4]، أمر أرخان أن يفارقه [5] بمن معه من العسكر ليتبع التاتار سواده ، ويخلص هو بمفرده . ولقد أخطأ فى ذلك ، فإن أرخان لما فارقه انضوى إليه من شداد العسكر خلق ، ووصل إلى إربل ومعه أربعة آلاف فارس ، وساق إلى أصفهان وملكها زماناً إلى أن قصدها التاتار ، وأرخان إلى سنتنا هذه ، وهى سنة تسع وثلاثين وستمائة ، باق محبوس بفارس .

وحدثنى غير واحد ممن كانوا مع السلطان بعد انفصاله عن أرخان مثل أوترخان وطلسب أمير آخور[6] . ومحمود بن سعد الدين الجلاب[7]، أن السلطان لما فارق أرخان ساق إلى باشورة [8] آمد والطلب خلفه ، وكانت آمد قد تشوشت وظن أهلها أن الخوارزمية أرادوا الغدر بهم ، فضربوه،

---

(١) فى الأصل : رجاءها.

(٢) راجع ص ٢٨٤ حاشية ٤ .

(٣) راجع ص ٣١٩ حاشية ٢

(٤) فى الأصل: بتتبعه .

(٥) فى الأصل : امر ارخان يفارقه .

(٦) راجع ص ٩٠ حاشية ٣ .

(٧) صاحب هذه الوظيفة هو الذى يتولى أمر شراء المماليك الذين يشتريهم السلطان لنفسه ويسمون الجلبان ، أو الأجلاب . انظر المقريزى: السلوك ، ج ١ قسم٣ ص٧٣٦ حاشية ٦ .

(٨) الباشورة: الحائط الظاهرى أو مايرى منه ، وتجمع على بواشير ، ويقابلها فى الفرنسية كلمة Bastion أو Guerite . انظر المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم١ ص١٥٠ ، حاشية ٤ .

وحجروه ، وردوه . فلما أيس من الدخول إليها تياسر عنها ، وانضوت عليه زهاء مائة فارس من الوشاقات (١) . ثم رمته الجفلة بهم إلى حدود جزيرة ، وبها الدربندات المنيعة ، وكانوا يمانعونه فى العبور ، وقد وقفت الطاعة فى المضايق، وقتل بعضها، سرير ملك، شحنة همذان فأشار عليه أوترخان بالعود، وقال : إن أسلم الطريق اليوم طريق سلكه التاتار إلينا . فرجع برأيه ليكون هلاكه من جميع الوجوه بتدبيره ، ووصل إلى قرية من قرى ميافارقين ، فنزل ببيدرها (٢) ، وسيبت الخيل (٣) لتستوفى شبعها (٤) ، ثم ركب وفارقه أوترخان فى ذلك الوقت، جبنا منه وخورا ، ووثوقاً بما كان بينه وبين الملك المظفر شهاب الدين غازى من مكاتبات تنبىء (٥) عن تأكيد العهد وخالص الود ، وتشهد بمرير العقد وصفاء الورد . فحبس إلى أن طلبه الملك الكامل سنة تملكه آمد ، فأحضر بين يديه، ووقع بعصر من سطح فمات. والسلطان أقام بالبيدر يستره الليل عن كل عدو حتى طلع عليه التاتار، والفجر برداه ، فركب للوقت ، وعوجل أكثر الجماعة عن الركوب فقتلوا .

---

(١) فى الأصل : الوثاقات .

(٢) البيدر : الموضع الذى تدرس فيه الغلال . المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤٤٢ حاشية ٢ .

(٣) فى الأصل : الحيل .

(٤) فى الأصل : شعبها .

(٥) فى الأصل : تبنى .

١٠٨

ذكر ما آل إليه عاقبة أمر السلطان

لما فرقت الوقعة بيني وبين السلطان ، رمتني الجفلة إلى آمد بعد اختفائي ببعض المغاير ثلاثة أيام ، ثم إلى إربل بعد تعويق بآمد شهرين ممنوعا من الخروج ، ثم إلى أذربيجان بعد مصائب شتى [1] ونوائب تترى ، ثم إلى ميافارقين بعد مشقة وبؤس ، وفراغ كيس ، وعرى [2] لقطع أصابني عن الملبوس . فلم أنزل بمنزل من البلاد السلطانية إلا والناس يرجفون بأن السلطان باق ، وأنه جمع واحتشد ، واستمد واستعد ، أخابير زور وأماني غرور ، يفتريها الأهواء ويخلقها الود والولاء ، إلى أن عدت إلى ميافارقين وتيقنت هلاكه ، فكرهت حياتي ، ولمت القدر على نجاتي ، فظللت أتنفس الصعداء ، وأقول: ليت رب محمد لم يخلق محمداً . ولو أن في الآجال حيلة قاسمته عمري ، وجعلت أنقص السهمين شطري . وحيث أرى أن زمام الاختيار عن أيدي ذوي الأقدار ، مختلس أقول وفي الصدر شجي ، وفي القلب قبس :

أنبئت أن النار بعدك أوقدت   واستبّ بعدك يا كليب المجلس

وتحدثوا في أمر كل ملمـــة   لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا [3]

وكان التاتار لما كبسوه بالقرية ، على ما سبق ذكره ، أخبرهم من أسر من رفقائه بأن هـذا هو السلطان ، فجدوا إذ ذاك في طلبه ، وساق وراءه خمسة عشر فارساً منهم ، ولحقه فارسان فقتلهما ، وأيس الباقون من الظفر به ، فرجعوا . ثم صعد الجبـل ، وكان الأكراد يحفظون الطرق لسحت يجمعونه ، فأخـذوه وسلبوه كعادتهم بسائر من ظفروا به . فحين هموا بقتله ، قال لكبيرهم سراً : إنني أنا السلطان فلاتستعجل في أمري ،

(١) في الأصل: شتا .

(٢) في الأصل: وعراء .

(٣) الشعر للمهلهل .

ولك الخيار فى إحضارى عند الملك المظفر شهاب الدين ، فيغنيك ، أو إيصالى إلى بعض بلادى فتصير[1] ملكا .

فرغب الرجل فى إيصاله إلى بلاده ، ومشى به إلى عشيرته وحلته ، فتركه عند امرأته ومضى بنفسه إلى الجبل لإحضار خيله ، فبينا الرجل غائب إذ وافى شخص كردى من السفلة والأرذال ، وبيده حربه ، فقال للمرأة : ماهذا الخوارزمى ، وهلا تقتلونه ؟ فقالت : لا سبيل إلى ذلك ، وقد أمنه زوجى ، وعرف أنه هو السلطان . فقال الكردى : كيف تصدقونه بأنه السلطان ؟ وقد قتل لى بخلاط أخ خير منه . فضربه بالحربة ضربة أغنت[2] عن الثانية ، وألحقته بالنفوس الفانية[3] . فأحقر الشق حق مقدمه، وأحل الأرض من حرام دمه ، فأضحى به جيب الزمان مشقوقاً ، وسكر الحدثان مبثوقاً ، ولواء الدين مخفوضاً ، وبناء[4] الإسلام منقوضاً . وأقشعت سماء شام أبناء الدين بوارقها ، وخاف أحزاب الكفر والجحود صواعقها . فكم فى أقاليم الأرض له من وقائع فات فيها أنياب المنايا، وتخلص من أشداق البلايا ، حتى إذا حم القضاء[5] كان هلاك الأسد الغالب ، على أيدى الثعالب فإلى الله تعالى المشتكى[6] من صرف الزمان ، وريب الحدثان .

نعم ، وبعث الملك المظفر إلى ذلك الجبل بعد مدة، وجمع سلب السلطان والفرس الذى كان تحته ، والسرج والسيف المشهور ، والعودة التى كان يشدها فى وسط شعره . فلما أحضرت شهد كل من حضر من خواصه الذين كانوا معه فى تلك الأيام مثل أوترخان ، وطلسب أمير آخور ، وجماعة أخرى

---

(١) فى الأصل : فتصير .

(٢) فى الاصل: اغتنت.

(٣) كانت وفاة جلال الدين منكبرتى فى منتصف شوال سنة ٦٢٨ هـ (١٥ أغسطس سنة ١٢٣١ م) . D'ohsson: Op. cit.,t.iii.p 62

(٤) فى الأصل : بنا . (٥) فى الأصل : القضا .

(٦) فى الأصل : المشتكا .

بأن هذا سلبه ، وبعث فأحضرت عظامه ودفنت ، فقد ارتكب الشقى حتى مقدمه خطأ عظيما ، وترك الدنيا لفقده يتيما [1] .

يامن أسال رقاب الكاشحين دماً — من بعد فقدك أبكيت العيون دماً
لئن أباح[2] صروف الدهر ساحته — فانظر إلى الملك والإسلام لاجرما
فالدين منثلم ، والملك منهدم — وظل حبل العلى والمجد منجذما[3]

---

(١) اهتم النسوى بتتبع أخبار جلال الدين منكبرتى فى هذه الفترة دون أن يوجه عنايته إلى تتبع تاريخ المغول . وعلى كل فقد ظل المغول يلاحقون جلال الدين من جهة إلى أخرى حتى لقى حتفه ، ثم ساروا إلى أذربيجان واستولوا عليها ، ثم تتابعت انتصاراتهم وتمكنوا من أن يضعوا أيديهم على بلاد أران وغالبية مدن جورجيا وأرمينية الكبرى ، كما زحفوا إلى الأقاليم الشمالية من العراق العربى ووصلوا حتى مدينة سامرا . وقد التحمت جيوشهم بجيوش الخليفة أكثر من مرة ، ولعلهم كانوا فى ذلك يختبرون قوة الجيوش العباسية تمهيداً للاجهاز على مركز الخلافة . انظر ابن الأثير: الكامل ، ج ١٢ص٢٣٤ . وانظر .Howorth: Op, cit., part i, p. 132

(٢) فى الأصل : أتاح . (٣) فى الأصل : منجدما .

١٠٩

ذكر نبذ من سيرة السلطان وصفته وتواقيعه وما خاطب به وخوطب من ذكر الخلافة وسائر الملوك

كان أسمر قصيراً [١] ، تركى الشارة والعبارة ، وكان يتكلم بالفارسية أيضاً . وأما شجاعته فحسبك منها ماأوردته من وقائعه، فكان أسداً ضرغاماً أشجع فرسانه إقداما ، وكان حليما لاغضوبا ولاشتاما ، وقوراً لايضحك إلا تبسما ، ولا يكثر كلاما [٢] . وكان يحب العدل ، غير أنه صادف أيام الفتنة فغلب ، ويحب الترفيه على الرعية لولا أنه ملك فى زمان الفترة فغصب.

وكان [جلال الدين] يكتب إلى الخليفة مبدأ طلوعه من الهند والوحشة قائمة حذوا على منوال أبيه « خادمه المطواع منكبرتى بن السلطان سنجر [٣] » ولما خلعت عليه خلعة السلطنة — على ماذكرناه — بخلاط ، كتب إليه « عبدة » ، والخطاب « سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، وإمام المسلمين وخليفة رسول رب العالمين ، إمام المشارق والمغارب، والمنيف على الذروة العليا من لؤى بن غالب » .

وكان [جلال الدين] يكتب إلى علاء الدين بن كيقباذ وملوك مصر والشام أجمع اسمه واسم أبيه منعوتا بالسلطان ، ولم يكتب شيئا مما جرت

---

(١) فى الأصل: قصير .

(٢) اختلفت نظرة المؤرخين فى تحليل شخصية جلال الدين منكبرتى ، فاذا تركنا جانبا ما ذكره النسوى ، نرى ابن الأثير يصفه بقوله : كان جلال الدين سيء السيرة ، قبيح التدبير لملكه ، لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له إلا عاداه ، ونازعه الملك وأساء مجاورته . ونرى دوسون يغلب عليه صفات الجندى أكثر من صفات الحاكم السياسى كما ذكر أنه كان يميل الى الأبهة ، شديد الولع بالخمر والموسيقى حتى فى أشد ساعاته حرجا . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ و . D'ohsson : Op. cit., t. iii, p. 63

(٣) كان علاء الدين محمد خوارزم شاه قد اتخذ لنفسه اسم « سنجر » تيمنا باسم السلطان سنجر السلجوقى الذى طالت مدة حكمه ، فقد حكم من سنة ٥١١ / ٥٥٢ هـ (١١١٧ / ١١٥٧ م) انظر . Lane-Poole : Op. cit., p. 153

به العادة من خادمه أو محُبه أو أخيه . وكانت علامته على تواقيعه « النصر من الله وحده ». فإذا كاتب بدر الدين صاحب الموصل وأشباهه، يعلّم بهذه العلامة عليه بأحسن خط ، وكان يشق قلم العلامة شقين لتجيء غليظة .

وقد خاطبوه من الخليفة مبدأ طلوعه من الهند بالجناب الرفيع الخاقانى، ولم يزل يقترح عليهم خطابه بالسلطان فلم يجب إلى ذلك ، إذ لم تجر العادة به مع من تقدمه من كبار الملوك . فلما كثر إلحاحه خاطبوه [1] حين حملت إليه خلع السلطنة بالجناب العالى الشاهنشاهى .

وكانت واقعته فى منتصف شوال سنة ثمان وعشرين وستمائة ، فأعظم بها من مصيبة ، لو شق الفجر لها جيبه لحقيق ، وأفجع بها من نازلة ، لو خدش لها القمر وجهه لجدير ، فحق للأفلاك أن تلبس ثوب الحداد ، والنجوم أن تجلس فيها على الرماد ، وأظنها لو صادفن ليلا لدعون ويلا ، وتناوين على المصاب جيلا لجيلا [2] ، فكان المراد بقول أبى تمام :

ألا فى سبيل الله من عطلت له ... فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتى مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى [3] ثياب الموت حمرا فما أتى ... لها الليل إلا وهى من سندس خضر [4]
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة [5] ... غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
عليك سلام الله وقفا فإننى ... رأيت الكريم الحر ليس له عمر

---

(١) فى الأصل : خطبوه .
(٢) فى الأصل : تناوين على المصاب حيلا لحيلا .
(٣) فى الأصل : تردا .
(٤) فى الأصل : لها فى الليل وهى من سندس خصر .
(٥) فى الأصل : لم تبق بقعة .

ورحمه الله رحمة تبرد روحه ، وتنور ضريحه ، وعرف له مساعيه فى الذب عن دين الله ، والسعى فى سبيل الله ، وأسهل عليه ذوق نعمه بدعاء عليه خالص الود والولاء ، وبكاء ينبىء [1] عن حسن العهد والوفاء

خليلى على خالد خالد [2] وصنف همومى طويل العناء
أصبنا بكنز الغنى والإمام أمسى مصابا بكنز الفناء [3]
الحمد حوى جثة الملحدين لدن ثرى حال در الثراء
وقد كان قبل يزين السرير والبهو يملأه بالدهاء
فكم غيّب الترب من سؤدد وعال المنى من جميع البلاء [4]

الحمد لله الذى بنعمه تتم الصالحات ، وبأمره قامت الأرض والسماوات ، صلى الله على سيدنا محمد وآله بأفضل الصلوات وأكرم التحيات ، وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين .. نجزت فى ... سنة سبع وستين وستمائة .

---

(١) فى الأصل : ينبى .
(٢) كذا فى الأصل ، وأولى أن يكون بكائى على خالد خالد . . . حتى يستقيم المعنى .
(٣) فى الأصل : أصبنا بكثر الغنى والامام أمسى مصابا بكنز الفناء .
(٤) نلاحظ أن بحر المتقارب مكسور الوزن فى الأبيات الثانى والثالث والرابع .

المصادر ، والكشاف ، والفهرس

المصادر العربية

ابن الأثير : (+ ٦٣٠هـ = ١٢٣٢م) .

(١) الكامل فى التاريخ (الطبعة الأزهرية ، ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م) .

(٢) تاريخ الدولة الأتابكية، ملوك الموصل (طبعة Rec. Hist. Or. Cr. t. ii)

البندارى :

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق . (القاهرة ، ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م) .

حافظ أحمد حمدى :

(٤) الدولة الخوارزمية والمغول . (القاهرة ، ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م) .

(٥) الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى . (القاهرة ١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م) .

(٦) المغول والعالم الإسلامى ؛ بحث فى كتاب « مجموعة الاذاعات الثقافية » نشرته وزارة المعارف سنة ١٩٤٧ .

حسن ابراهيم حسن ، دكتور :

(٧) النظم الإسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن . (القاهرة ، ١٣٥٨هـ — ١٩٣٩م) .

(٨) تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ . (القاهرة ، ١٣٦٥هـ = ١٩٤٥ م) .

(٩) « « « ، ج ٣ . (القاهرة ، ١٣٦٦هـ = ١٩٤٦ م) .

ابن خلدون : (+ ٨٠٨هـ = ١٤٠٥م) .

(١٠) العبر وديوان المبتدا والخبر . (القاهرة ، ١٢٨٤هـ = ١٨٦٧م) .

ابن خلكان : (+ ٦٨١هـ = ١٢٨٢م) .

(١١) وفيات الأعيان : (بولاق ، ١٢٨٣هـ = ١٨٦٦م) .

الديار بكرى : (+ ٩٦٦هـ = ١٥٥٨م) .

(١٢) تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس . (القاهرة، ١٢٨٣هـ = ١٨٦٦م) .

رضا زاده شفق ، دكتور :
(١٣) تاريخ الآدب الفارسى . نقله من الفارسية إلى العربية الدكتور محمد موسى هنداوى . (القاهرة ، ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م).

زكى محمد حسن ، دكتور :
(١٤) فنون الإسلام . (القاهرة ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م).
(١٥) الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى . (القاهرة، ١٣٥٥هـ = ١٩٤٠م) .
(١٦) الصين وفنون الإسلام . (القاهرة ، ١٣٦٠هـ = ١٩٤١م) .
(١٧) التصوير فى الإسلام عند الفرس . (القاهرة ، ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م) .
(١٨) التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام ؛ بحث فى كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » ، هدية المقتطف فى أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

السيوطى : (+ ٩١١هـ = ١٥٠٥م) .
(١٩) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله .
(القاهرة ، ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م) .

ابن شاكر الكتبى : (٧٦٤هـ = ١٣٦٢م) .
(٢٠) فوات الوفيات . (القاهرة ، ١٢٨٣هـ = ١٨٦٦م) .
أبو شامة : (+ ٦٦٥هـ = ١٢٦٦م) .
(٢١) تراجم رجال القرنين السادس والسابع .(القاهرة، ١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م) .
الروضتين فى أخبار الدولتين . (طبعة R. H. O. C.) .

ابن طباطبا :
(٢٢) الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية .
(القاهرة ، ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م) .

عبد الرحمن زكى ، القائمقام :
(٢٣) السلاح فى الاسلام . (القاهرة، ١٣٧٠هـ = ١٩٥١م) .

عبد الوهاب عزام ، دكتور :

(٢٤) الصلات بين العرب والفرس وآدابهما فى الجاهلية والإسلام ؛ بحث فى كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » ، هدية المقتطف فى أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

ابن العبرى : (+ ٦٨٥هـ = ١٢٨٦م) .

(٢٥) تاريخ مختصر الدول . (بيروت ، ١٣٠٨هـ = ١٨٩٠م) .

على ابراهيم حسن . دكتور :

(٢٦) مصر فى العصور الوسطى . (القاهرة ، ١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م) .

(٢٧) دراسات فى تاريخ المماليك البحرية . (القاهرة، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م) .

ابن العميد : (+ ٦٧٢هـ = ١٢٧٣م) .

(٢٨) تاريخ المسلمين . (ليدن ، ١٠٣٥هـ = ١٦٢٥م) .

أبو الفدا : (+ ٧٣٢هـ = ١٣٣١م) .

(٢٩) المختصر فى أخبار البشر . (القاهرة ، ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م) .

قدرى حافظ طوقان :

(٣٠) الأثر العلمى للحضارة الإسلامية وأعظم علمائها ؛ بحث فى كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية» هدية المقتطف فى أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

القلقشندى : (+ ٨٢١هـ = ١٤١٨م) .

(٣١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . (القاهرة ، ١٣٣٣هـ = ١٩١٤م) .

ابن القلانسى : (+ ٥٥٥هـ = ١١٦٠م) .

(٣٢) ذيل تاريخ دمشق . (بيروت ، ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م) .

أبو المحاسن : (+ ٨٧٤هـ = ١٤٩٦م) .

(٣٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
(القاهرة ، ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م) .

محمد جمال الدين سرور ، دكتور :
(٣٤) الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره .
(القاهرة ، ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م) .
(٣٥) دولة بنى قلاوون فى مصر . (القاهرة ، ١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م) .
المقريزى : (+ ٨٤٥هـ = ١٤٤١م) .
(٣٦) السلوك لمعرفة دول الملوك . نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة .
(القاهرة ، ١٣٥٣هـ – ١٣٥٨ = ١٩٣٤ – ١٩٣٩م) .
(٣٧) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار .
(القاهرة ، ١٢٧٠هـ = ١٨٥٣م) .
ابن ميسر (+ ٦٦٧هـ = ١٢٧٨م) .
(٣٨) تاريخ مصر . (القاهرة ، ١٣٣٨هـ = ١٩١٩م) .
النسوى :
(٣٩) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى . (باريس، ١٣٠٩هـ = ١٨٩١
النظامى العروضى السمرقندى :
(٤٠) چهار مقاله ؛ نقله من الفارسية إلى العربية الأستاذان عبدالوهاب
ويحيى الخشاب . (القاهرة ، ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م) .
ابن الوردى : (+ ٧٥٠هـ = ١٣٤٩م) .
(٤١) تتمة المختصر فى أخبار البشر . (القاهرة ، ١٢٨٥هـ = ١٨٦٨م
ياقوت : (+ ٦٢٦هـ = ١٢٢٩م) .
(٤٢) معجم البلدان . (القاهرة ، ١٣٢٣هـ = ١٩٠٦م) .

المصادر الأجنبية

Abulgasi:

1. Histoire Généalogique des Tatars. (Leyde, 1726)

Ameer Ali, Sayed:

2. A Short History of the Saracens. (London, 1916)

Arnold, T. W.:

3. The Preaching of Islam. (London, 1935)

Atiya, A. S.:

4. The Crusade in the Later Middle Ages. (London, 1938)

Barker, E.:

5. The Crusades. (London, 1925)

Barthold:

6. Turkestan down to the Mongol Invasion. (London, 1928)

Blochet, E.:

7. Introduction à l'Histoire des Mongols de Fadlallah Rashid Ed Din. (Leyden, 1910)

Boulger, D. C.:

8. The Mongols and the Court of Kublai Khan. (Universal History of the World, vol. 5, pp. 2847-2860)

Bretschneider, E.:

9. Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources. (St. Petersburg, 1887)
10. Recherches Archéologiques et Historiques sur Pékin et ses Environs. (Paris, 1879)

Browne, E. G.:

11. A Literay History of Persia. (London, 1906)
12. Account of a Rare Manuscript History of Seljuqs. (London, 1906)

Cahun, L.:

13. Introduction à L'Histoire de L'Asie, Turcs et Mongols, des origines à 1405. (Paris, 1896)
14. Gengis-Khan et L'Empire Mongol.

(Lavisse et Rambaud: Histoire Générale, tom. ii, pp. 917-953)
(Paris, 1893)

Curtin, J.:

15. The Mongols' History. (Boston, 1908)

Czaplicka:

16. The Turks of Central Asia, in History and at the Present Day. (Oxford, 1918)

Defremery, M.:

17. Histoire des Seldjoukides; Extraits du Tarikhi Guzideh, ou Histoire Choisie d'Hamdullah Mustaufi.
(Journal Asiatique: Avril-Mai, 1848, pp. 417-468)
18. Histoire des Seldjoukides. (Suite)
(Journal Asiatique: Septembre-Octobre, 1848, pp. 259-376)
19. Fragments de Géographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits. (Journal Asiatique: Novembre-Décembre, 1849. pp. 447-513)

De Guignes, J.:

20. Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des autres Tartares Occidentaux. (Paris, 1757)

D'ohsson, M. Le Baron:

21. Histoire des Mongols depuis Tchinguiz-Khan jusqu'a Timour Bey ou Tamerlan. (Paris, 1824)

Douglas, R. K.:

22. The life of Jenghiz-Khan, Translated from Chinese. (London, 1877)
23. China, The Story of Nations. (London, 1912)
24. Jenghiz-Khan. (Encyclopædia Britannica, vol. 12, pp. 1000-1001)
(New York, 1929)

Dubeux. M. L.:

25. La Perse. (Paris 1841)

Eileen Power:

26. Medieval People. (London 1939)
27. The Guilds and Medieval Commerce.
(Universal History of the World, vol. 5, pp. 2897-2926)

Fitzgerald :

28. China, A Short Cultural History. (London, 1935)

Fraser, J. B. :

29. Historical and Descriptive Account of Persia. (London, 1833)

Gibbon, E. :

30. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. (New York, 1927)

Giles, A. H. :

31. The Civilization of China. (Cambridge, 1911)

Grenard, F. :

32. Gengis-Khan. (Paris, 1935)

Hart, B. H. L. :

33. Mongol Compaigns. (Encyclopædia Britannica, vol. 15, pp. 705—7.) New York, 1929.

Heyd, W. :

34. Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. (Leipzig, 1886)

Hirth, J. :

35. China and the Roman Orient. (Leipsic, 1885)

Hirth & Rockhill, W. W. :

36. Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries. Translated from Chinese. (St. Petersburg, 1911)

Hitti, Philip :

37. The History of the Arabs. (London, 1937)

Howorth, H. H. :

38. History of the Mongols. (London, 1876)

Huntington, E. :

39. The Pulse of Asia. (Washington, 1919)

Huzayyin, S. A. :

40. Arabia and the Far East. Their Commercial and Cultural Relations in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times. (Cairo, 1942)

Jaeobs, Joseph :

41. The Story of the Geographical Discovery.
How the World Became Known. (London)

Lamb, Harold :

42. Genghis-Khan; The Emperor of All Men. (London, 1934)
43. The Crusades; The Flame of Islam. (London, 1931)

Lane-Poole, Stanley :

44. History of Egypt in the Middle Ages. (London, 1925)
45. Mediæval India Under Mohammedan Rule. (London, 1917)
46. The Mohammadan Dynasties. (Paris, 1925)
47. Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo. (London, 1897)

Le Strange :

48. Baghdad During the Abbasid Caliphate.(Oxford, 1900)

Little, A. :

49. The Far East. (Oxford, 1905)

Loewe, H. M. J. :

50. The Seljuqs.
(Cambridge Medieval History, vol. iv, pp. 299-317)Cambridge, 1927.
51. The Mongols.
(Cambridge Medieval History, vol. iv, pp. 627–652). Cambridge, 1927.

Malcolm, J. :

52. The History of persia, from the Most Early Period to the Present Time. (London, 1829)

Marcel, M. J. :

53. L'Egypte Depuis la Conquête Des Arabes Jusqu'a la Domination Française. (Paris, 1848)

Muir, Sir William :

54. The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall. (Edinburgh, 1924)

Nicholson, Reynold :

55. A Literary History of the Arabs. (London, 1923)

Nidhami-i-Arudi-i-Samarquandi :

56. The Chahàr Maquala. Translated by E. G. Browne. (London, 1899)

Nizam Al-Mulk:

57. Siyàsat Namah. (Paris, 1891)

Nöldéke, Theodor:

58. The Abbasids.
(The Historians' History of the World, vol. viii, pp. 209—232)
(New York, 1926)

Rashid-Eldin:

59. Histoire des Mongols de la Perse. Edit. par M. Quatremere.
(Paris, 1833.)

Reinaud et Favé, M. M.:

60. Du Feu Grégeois, Des Feux De Guerre, et Des Origines De la Poudre a Canon chez les Arabes, les Persans, et les Chinois.
(Journal Asiatique: Octobre 1849, pp. 257—327)

Sanaullah, Mawlawi Fadil:

61. The Decline of the Saljùqid Empire. (Calcutta, 1938)

Ross, E. D.:

62. The Empire of the Seljuk Turks.
(Universal History of the World, vol. 5, pp. 2779—96)

Skrine, F. H. & Ross, E. D.:

63. The Heart of Asia. (London, 1899)

Stevenson, W. B.:

64. The Age of Eastern Imperialism: 1216—1303.
(Universal History of the World, vol. 5)

Sykes, Sir Percy:

65. The Quest For Cathay. (London, 1936)
66. A History of Persia. (Oxford, 1922)

Vambery, A:

67. History of Bokhara from the Earliest Period down to the Present.
(London, 1873)

Vladimirtsov:

68. The Life of Chingis-Khan. (London, 1930)

Von Hammer:

69. Histoire de L'Ordre des Assassins. (Paris, 1833)

Wells, H. G.:

70. The Outline of History.

Wiet, Gaston:

71. Précis de l'Histoire d'Egypte. (Le Caire, 1932)

Zambaur:

72. Manuel de Généalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam. (Hanovre, 1927)

نقله إلى اللغة العربية باسم «معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى» الأساتذة الدكتور زكى محمد حسن ، وحسن أحمد محمود ، والدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، وحافظ أحمد حمدى ، وأحمد ممدوح حمدى (مطبوعات جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ، ١٣٧٠ هـ = ١٩٥١م) .

كشاف

(ا) أسماء الرجال والنساء ، والقبائل والشعوب ، والفرق الدينية .

(١) فى ص ١٢٢ : « توخى بهلوان » .
(٢) فى ص ٧٢: « كريم الشرف » .

(ج)

(١) في ص ٢٣٨ : « تكشارق حلبي » .

(ح)

(ش)

(ظ)

(ع)

---

(١) فى ص ١٨٩ : طولق.
(٢) فى ص ١٧٠ : طولن حربى .

(غ)

(١) فى ص ١٠٤ : عماد الدين محمد بن السديد الساوى.

---

(١) فى ص ١١٢ : توخى بهلوان .
(٢) فى ص ٢٠٨ : الحدارى ، الحذارى .
وفى ص ٢٥٧ : الجدادى .

(ل)

(م)

(ن)

---

(١) فى ص ١٢٥ : ناحن نوين .
وفى ص ٢٣٢ : تاجن نوين .

(ﻫ)

(و)

---

(١) في ص ٢٧١ : برقا .

(ى)

٢ ـ أسماء المدن، والاقاليم، والأنهار، والبحار.

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(غ)

(ف)

(ق)

كنك : انظر نهر الكنج .

(ن)

٣ ـ الوظائف والدواوين وألفاظ لها أهمية خاصة .

فهرس

صفحة

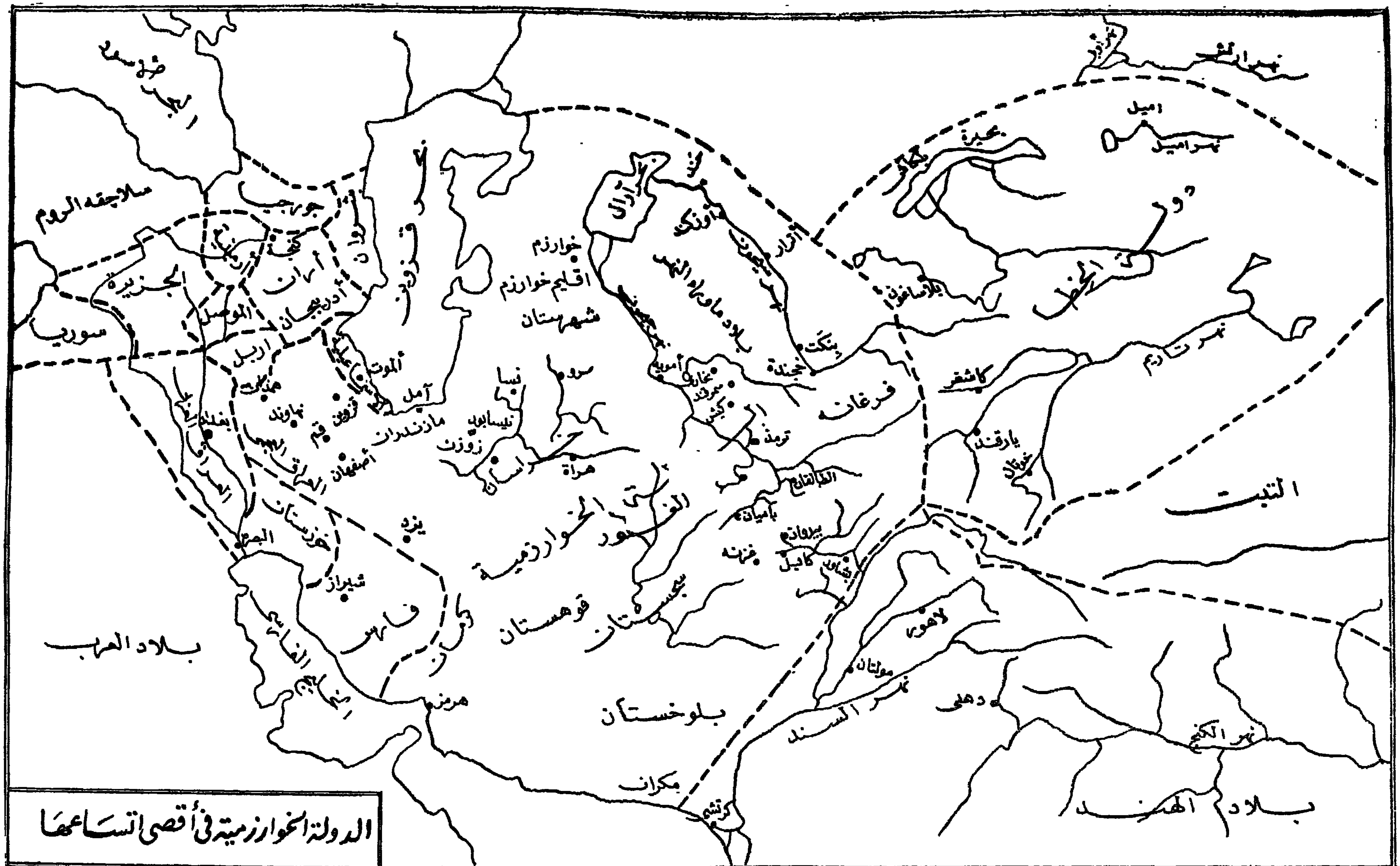
صفحة

صفحة

صفحة

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٣	٢	وامتدت	وامتد
٤٦	١٧	أبيهم	أباهم
٥١	٥	وملخ	وملحاً
٧٧	٢٢	الفضاة	القضاة
٩٢	١٩	وسؤلك	وسؤالك
١٠٢	١١	Tchéb	Tchébe
١٨١	٨	خرسان	خراسان
٢٢٢	١٨	شرسوا	شرسو
٢٣٧	٢٣	عبدا	عيدا
٢٧٥	٨	قثاراتهم	نقاراتهم
٢٨٠	١	نجم الرازى	نجم الدين الرازى
٢٩٤	١٨	(٤)	(٥)
٣٣٠	٢٠	J. Asist	J. Asiat.
٣٨٥	١٥	حتى مضرب	حتى مات ضرب
٤١٤	١٢	الفردق	الفرزدق



الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها

عن كتاب D'ohsson : Histoire Des Mongols

HISTORY OF

DJALAL EL-DIN MANKOBIRTI

SHĀH OF KHWĀRAZM

By

MOHAMMED EL-NESAWI

Edit. By

HAFEZ A. HAMDI

B.A., M.A. "Hons.", Dip. in Ed.

Published By

Dar El-Fikr El-Arabi

Cairo, 1953.

Al-Eâtomad Pr. Press. Cairo



